ألدوس هكسلي

الفلسفة الخالدة

ترجمة
أحمد سمير سعد



الفلسفة الخالدة

ألدوس هكسلي



- المؤلف: ألدوس هكسلي
- العنوان : الفلسفة الخالدة
- ترجمة : أحمد سمير سعد
- الطبعة الأولى: 2021
- تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي
- مستشار النشر: سوسن بشير
- المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠٢١ / ١١٩٣٧

الترقيم الدولي : ISBN

978 - 977-765 - 305 - 3

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail:afaqbooks@yahoo.com – www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة– من شارع محمود بسيوني – ميدان طلعت حرب– القاهرة – جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ – ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ – موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

ألدوس هكسلي

الفلسفة الخالدة

ترجمة
أحمد سمير سعد

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

هكسلي، ألدوس

الفلسفة الخالدة - ترجمة: أحمد سمير سعد

ط1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2021

528 ص، 21 سم.

رقم الإيداع 11937 / 2021

الترقيم الدولي 3 - 305 - 765 - 977 - 978

1 - فلسفة

2 - العنوان



المحتويات

* * *

مقدمة المترجم

كم نحن بحاجة إلى كتاب مثل هذا في زماننا الحالي!

كتبه الروائي الإنجليزي العظيم والفيلسوف ألدوس هكسلي، بدأ هكسلي كاتبًا للشعر والقصص القصيرة، وقد كتب بالفعل ما يزيد على خمسين كتابًا، تتراوح بين الأعمال الإبداعية والفكرية. ولعل أشهر رواياته هي رواية (عالم شجاع جديد)، وهي ديستوبيا مستقبلية تعرض في براعة مستقبل البشرية المحتوم، عندما ينمحي الإنسان لصالح معادلته وينحِّي روحه لصالح مادية تزحف على كل شيء. كتب هكسلي هذه الرواية في ثلاثينيات القرن الماضي، وكان موضوعها غير مسبوق، رواية خيال علمي تحاول مطالعة مستقبل البشرية عبر النظر في كرة بلورية، لنجد عالمًا يسيطر فيه العلم وتهيمن المادة على كل شيء، لم يعد الإنسان إنسانًا بعد أن فقد إبداعه وتناوبت عليه الخطوب.. كل شيء مخطط بشكل مسبق ومحسوب. اختفت المشاعر وسيطر النظام على البشر الذين باتوا يعيشون في سعادة مصطنعة وتتحكم فيهم العقاقير.. هذه الفكرة غير المسبوقة في ذلك الوقت نجد أنها لا تزالُ تُجتَر إلى

اليوم في أعمال أدبية ودرامية، سواء بنفس الشكل تمامًا أو في أشكال أكثر تطورًا بعض الشيء.

من الواضح أن هذا قد كان الشغل الشاغل لهكسلي، موضع الإنسان من الكون والحقيقة، البعد الروحاني له وطاقاته واشتراطاته، شكل العالم إذا ما ضل عن نفسه وأضاع السبيل، لذا ليس غريبًا أن يكتب كتابًا مثل ذلك الذي بين أيدينا، يحاول فيه تقصي كل ذلك مستعينًا بالتقاليد الدينية والروحانية التي عرفها الإنسان، والتي اعتقد أنها مجبولة في جميع البشر مهما اختلفت صفاتهم وأماكنهم وأزمنتهم.

وُلِد هكسلي في يوليو ١٨٩٤ بإنجلترا، وتوفي في نوفمبر ١٩٦٣ بكاليفورنيا. كان جده البيولوجي النابه، توماس هنري هكسلي، أحد أكثر مؤيدي نظرية التطور في زمانه، حتى لُقِّبَ بكلب البولدوغ الخاص بداروين. أُصيب ألدوس في صغره بالتهاب القرنية، سبب له ضعفًا شديدًا في الإبصار، لكن هذا لم يمنعه من القراءة على صعوبة ذلك، وهي القراءة التي قادته إلى الكتابة فنشر أول أعماله في عام ١٩١٦، ثم توالت كتاباته وكتبه بعد أن احترف الكتابة، استقر ألدوس في إيطاليا لفترة قبل أن يغادرها إلى كاليفورنيا في أواخر الثلاثينيات.

سبق وأشرنا إلى أن ألدوس هكسلي قد كان مغرمًا بموضوعات الباراسيكولوجيا والفلسفة الروحية، كما كان كذلك معاديًا للحروب ومهتمًّا بالإنسان وقضاياه، ويبدو أن كتاب (الفلسفة الخالدة) الذي عكف على كتابته في ظرف إنساني صعب، بينما كانت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها، قد احتوى على خلاصة القواعد النظرية التي تنبني عليها توجهاته ومعتقداته، أو ربما احتوى على القواعد النظرية والتطبيقية

لروحانية الإنسان بأكملها وفق ما يظن.

اختار هكسلي لكتابه عنوان (الفلسفة الخالدة)، وهو اتجاه فلسفي يرى أن كل التقاليد الدينية لها أصل واحد، أراد هكسلي من كتابه هذا أن يكوِّن أنطولوجيا (مبحث وجود) الفلسفة الخالدة، وفي سبيل هذا اهتم بالاقتباس من أقوال روحانيين كثر على مر التاريخ ومن مختلف البلاد والعصور، مستعرضًا أهم أفكار تلك المبادئ الروحانية من خلال تلك الاقتباسات، معلقًا عليها بالطبع وشارحًا ومصنفًا في مباحث، محاولًا تغطية كل الأمور والكشف عن كل أبعاد تلك الفلسفة الراسخة على مر الزمن.

أحد أكبر الانتقادات التي توجه إلى المؤمنين أن الأديان عديدة، وأن قلوبهم شتى، وأن الأديان لم تورثهم إلا الصراع والقتال وأوقعتهم في دوجمائية شديدة، وأن هذا التعدد يستحيل أن يشير إلى ما هو حقيقي أو صادق.

لكن هذه الفلسفة الخالدة لا ترى ذلك؛ فهي تذهب إلى أن كل المعطيات تشير إلى أن الأصل واحد، وأن الأديان جميعًا تنبثق من معين واحد، وأن ما اعتقد فيه الإنسان البدائي هو ما يعتقد فيه الإنسان الحديث من حيث الأساس لكن التجليات والمظاهر قد تختلف فقط.. الحقيقة كونية خالدة، تتجاوز المادة والزمن والأفكار والمظاهر والتجليات، لا يدركها إلا مَن يحاول أن يصل إلى لب الأمور ولا تخدعه القشور الخارجية.

نعرف أن الإنسان يهوى الاختزال، وربما ساعده هذا الاختزال في

فهم الكثير عن العالم إلا أن للاختزال كذلك مساوئ عديدة؛ إذ إنه كما يساعد على الفهم بإخضاع العالم لأنماط واحدة واضحة، إلا أنه يحجب جوهر الأمور كثيرًا، خصوصًا إذا ما انخدع الإنسان وظن أن اختزالاته هي روح العالم، لا مجرد وسيلة للفهم، فهي وسيلة للتيسير فقط وتشوش أحيانًا.

مع ظهور الداروينية حاول البعض أن يختزل كل شيء يتعلق بالإنسان من خلال تلك النظرية، ليست المادة الحية فقط هي الخاضعة لتلك النظرية، بل كل نشاطات الإنسان كذلك.

هذا الاختزال ليس بالأمر غير المعتاد بالنسبة إلى البشر.. سوف تجد مَن يذهب إلى أن البيولوجيا يمكن تفسيرها كاملة من خلال الكيمياء، والكيمياء يمكن تفسيرها من خلال الفيزياء، فما الذي يمنع إذَنْ من تفسير علم الاجتماع والاقتصاد بل والدين من خلال البيولوجيا ونظريتها المركزية الداروينية أو التطور؟!

لكن هل حقًّا يمكن اختزال الكيمياء في الفيزياء، والبيولوجيا في الكيمياء؟ في الواقع تنبني الكيمياء على حقائق فيزيائية، وبالمثل تنبني البيولوجيا على حقائق كيميائية. لكن بمجرد أن يصير لدينا البناء الجديد، ينشئ علاقاته الخاصة به كذلك وهي علاقات جديدة، لا يمكن إخضاعها بالكامل بصورة مباشرة وواضحة لحقائق نظريات مستقاة من علم أكثر أساسية إلا مع كثير من التهافت واللغو..

هكذا ربما يكون في إخضاع الأنشطة البشرية بالكامل مثل الاقتصاد أو الاجتماع إلى نظرية التطور خطأً كبيرًا، لا لأن الاختزال في حد

ذاته فيه الكثير من التهافت فقط؛ لكن لأن الأنشطة البشرية تلعب فيها السيكولوجيا (النفسانية) دورًا كبيرًا كذلك، ولا يسلم الجميع بمادية تلك النفسانية.

ولعل أبرز الرافضين لتلك الفكرة المؤمنون في بالفلسفة الخالدة، ويشاركهم في ذلك الكثير من الفلاسفة الآخرين الذين لا يخضعون العقل للمادة، فهي بالنسبة لهم لم تأتِ به، وبالتالي هو غير تابع لها.

فما بال الدين إذن؟ كيف يمكن إخضاعه إلى مادية العالم مع رؤى كتلك أو اختزاله من خلال نظرية التطور؟

هكسلي مثله كمثل فلاسفة الفلسفة الخالدة، اهتم كثيرًا بإثبات أن الأفكار الدينية واحدة، عرفها الإنسان البدائي كما يعرفها الإنسان المتحضر، وأنها بالتأكيد لم تنبثق عن نظرية التطور ولا يمكن إخضاعها لتلك النظرية كما لا يمكن إخضاع نفسانية الإنسان لها.

لقد أشرت في بداية هذه المقدمة إلى أن جد هكسلي كان أحد كبار المؤمنين بأفكار داروين، وربما جاء الوقت كي أشير إلى أن هذه ليست صلة القرابة الهامة الوحيدة التي تجمع ألدوس هكسلي ببيولوجيين؛ إذ إن أخاه هو جوليان هكسلي أحد أهم علماء التطور والسلوك وعلم الأجنة. لقد ذهب جوليان إلى أن الإنسان بدراسته للتطور قد يفهم الكثير عن نفسه وعن سلوكياته، لكنه ذهب كذلك إلى أن السلوك ربما يوجه التطور أيضًا، وهو الأمر الذي اقتنصه البعض وعلى رأسهم إرفين شرودنجر في كتابه العقل والمادة، موضحًا أن العقل والسلوك قد يتحكمان في التطور ويجزمان بالمسارات التي عليه أن يتخذها، وأننا بهذا قد يكون لنا بعض

التحكم في مصائرنا، ولسنا أمام حتمية مادية صرفة.

لكن حتى لو افترضنا أن الدين هو منجز بيولوجي صرف لا أكثر، حفزه التطور وأن العقل والمشاعر والرغبات هي خدع، زرعتها فينا تلك العمليات العمياء شديدة التعقيد، وأننا في واقع الأمر لسنا سوى عرائس ماريونيت في يد جينات أنانية، لا تسعى إلا إلى الإكثار من نفسها، ولا يقف الأمر عند ذلك الحد، فحتى تلك الجينات الأنانية هي عرضة لتغيرات دائمة وطفرات وربما لم تفدها أنانيتها ورغبتها في التكاثر من خلالنا كثيرًا، لو سلمنا بكل هذا، فماذا على الإنسان أن يأخذ وماذا عليه أن يترك؟

هل عليه أن يرفض الفنون لأنها خدع فجة وأن ما نراه أنساقًا ساحرة، هي مجرد بُنى ألهمنا عبث الجينات عبر آلاف السنين تقديرها والإعلاء منها؛ لأن ذلك يحفظ وجودنا بصورة ما، وبالتالي يحفظ وجودها، أم علينا أن نتخلى عن علاقات الأبوة والبنوة والإخاء والإحسان. وعندما نقرر مواجهة الحقيقة بهجر مثل هذه الخدع التي حفزتها عمليات التطور فينا، فما الذي سوف يبقى من الإنسان؟!

إن المشاعر الدينية مثلها كمثل مشاعر الحب ومثلها كمثل الانجذاب إلى الفنون، هي مشاعر راسخة في الإنسان، ولا يمكن لأحد تقريبًا أن ينكر ذلك، مهما اختلفت توجهاته الفكرية، قد يرى البعض أنها تعود إلى روح الله التي بثها فينا، وقد يرى البعض الآخر أنها مجرد خدعة تطورية، وصفة تساعدنا على قبول العالم والكفاح ضد ابتلاءاته، لكن الأكيد أن التخلي عنها يجرد الإنسان من جزء ضخم من إنسانيته، ويتركه عرضةً للخوف والجزع، تفترسه المعاناة من دون أي دعم لنفسانيته.

لكن هل يتخلى الإنسان عن الإيمان فعلًا أم يستبدل إيمانًا بإيمان؟

يقول وايتهيد (الفيلسوف وعالم المنطق): «كل رجل علم من أجل أن يُحافظ على سمعته، كان من اللازم أن يقول: إنه لا يُحب الميتافيزيقا. لكن ما الذي يعنيه ؟ إنه في الحقيقة لا يُحب نقد ميتافيزيقاه».

هكذا يرى وايتهيد أن الإنسان يهرب من الميتافيزيقا إلى الميتافيزيقا، وأن هذا هو قدره في الغالب، فحتى عدم الإيمان بالميتافيزيقا هو اعتقاد ميتافيزيقي.

تساءل إرفين شرودنجر في كتابه (العقل والمادة) عن الوعي، ثم كتب: «من اللازم إخبار ذلك الذي يقبل بتنحية التساؤل جانبًا: أي فجوة مهولة يسمح لها بالبقاء في صورته عن العالم بقيامه بذلك؟».

يشير شرودنجر إلى الأمر نفسه، لا يملك الإنسان إلا طرح هذه الأسئلة وإجاباته حتى اللحظة فيها من الميتافيزيقا أكثر بكثير جدًّا مما فيها من الفيزيقا، لكنه لا يملك دفعًا لذلك.

أما هكسلي فقد أشار إلى الأمر نفسه على طريقته الخاصة؛ فقد ذهب إلى أن ديدن الإنسان هو ربط نفسه بالعالم من حوله والبحث عن أفكار كبرى كونية. لكنه رأى أن كل فكرة كونية كبرى بخلاف الله الواحد هي وثنية، هكذا رأى في الماركسية وثنية وفي القومية وثنية وفي أغلب هذه الاتجاهات الحديثة، وذلك بخلاف الوثنيات التاريخية المعروفة بالطبع.

هذا كتاب يدعو الإنسان إلى البحث عن أصله، البحث في أعماقه بعيدًا عن الصورة المادية الظاهرية، سبر غور نفسه والعالم واكتشاف تجليات الله ونعمه. هذا كتاب يدعو إلى الوحدة ونبذ الاختلاف، يدعو

إلى الحق والخير والجمال والسعادة، يدعو إلى يوتوبيا حقيقية يملك الإنسان ناصيتها بل هي مجبولة فيه، بعيدًا عن صور مشوشة وكاذبة وزائفة ليوتوبيات لم تحمل في الحقيقة للإنسان وللعالم إلا المزيد من الألم والمعاناة والبؤس والدمار.

كتب هكسلي هذا الكتاب منذ ما يزيد عن نصف القرن، ربما رأى دوره وقتها أن عليه إرشاد العالم الذي ضل سبيله وسكنته الحروب والفوضى والمادية، وبعد مرور تلك السنوات جميعها، نكتشف أن العالم لم يصبح أفضل حالًا، بل ساءت أحواله أكثر، مع صعود نجم وثنية الرأسمالية وبشارات الإنتاج الضخم التي انتزعت من الإنسان وقته وانسجامه وربطته كالثور إلى الساقية وقد غُمَّت عيناه. نسي الإنسان أن سعادته في البحث والتفكير والتأمل، وأنه لم يعد يملك حتى رفاهية الاعتناء بأبنائه كما يجب. بات الشغل الشاغل لإنسان هذا العصر مراكمة الثروة، لا مراكمة الخبرات التي ربما تمكنه يومًا من الاستنارة. صار الإنسان في ضلال مبين وقد فقد روحه وروح العالم وأضاع الطريق بعد أن أهمل روحانيته لصالح مادية العالم الفجة، تلك المادية التي لا يشعر معها الإنسان بالشبع أبدًا ما دامت ماثلة بين عينيه، بل تزيده جوعًا كلما اغترف منها.

أخيرًا، قد يبدو هذا الكتاب غريبًا عن الكتب التي سبق وترجمتها لسير آرثر ستانلي إدنجتون وإرفين شرودنجر؛ إذ كان الطابع العلمي غالبًا عليها، وحتى عندما طرحت فلسفات كانت تطرحها من أرضية علمية ومنظور علمي.

في الواقع يعد هذا الكتاب مكملًا لتلك الكتب، تشير تلك الكتب إلى

أن فيزياء القرن العشرين قد حملت لنا الكثير من المفاجآت، لقد تغيرت مفاهيم الزمن والواقع والحتمية.. لذا لم يكن غريبًا أن نجد أينشتاين وهو يقول إنه يؤمن بإله سبينوزا (وإله سبينوزا هو علة هذا العالم الأولى)، أو أن نجد إدنجتون أحد أبرز علماء الفيزياء والفلك وأول مَن أثبت صحة النظرية النسبية العامة وقد ظل متمسكًا بمعتقدات الكويكرز الدينية وقد تملكت منه نزعة صوفية طوال حياته، أو أن نجد شرودنجر أحد أهم علماء فيزياء الكم والمؤسسين لها وهو يكتب عن العقل الذي يملك وجودًا يجاوز الزمن والذي لا يستطيع الزمن قهره بأي حال لأنه هو من أوجد الزمن.

إذا كانت الكتب السابقة كتبًا علمية تحمل إرهاصًا بفلسفة خالدة نلمحها بين السطور وتدشن لها، فهذا الكتاب هو عن الفلسفة الخالدة نفسها.. يأخذنا فيه هكسلي في رحلة واسعة، إلا أنه بالطبع يركز أكثر كثيرًا بحكم تجربته على المسيحية وفلسفات الشرق الأقصى، نجده في أغلب الأحيان يدعو إلى الوحدة ويبحث عما يدعم ذلك، لكن ذلك لا يمنع أننا قد نجد أحيانًا بعض الانحياز من ناحيته، خصوصًا عندما ينتقل من الفكرة العامة والنظرية إلى ضرب أمثلة تطبيقية، وهو أمر متوقع؛ ففي النهاية هو بشري له طباعه وانحيازاته ومعارفه وأحكامه واعتقاداته ورؤاه.. لكن الجوهر هو ما يهم.

* * *

المقدمة

PHILOSOPHIA PERENNIS الفلسفة الخالدة -عبارة صكها ليبنتز[1]؛ موضوعها الجوهري- الميتافيزيقا التي تميز الحقيقة الإلهية الجوهرية في عالم الأشياء والحيوات والعقول؛ السيكولوجيا التي تجد في النفس شيئًا مشابهًا للحقيقة الإلهية، بل مماثلًا لها؛ علم الأخلاق الذي يجعل الغاية النهائية للإنسان في معرفة أصل كل الموجودات المتجلي والمتسامي- العتيق والكوني. يمكننا العثور على آثار الفلسفة الخالدة في المعتقدات التقليدية للشعوب البدائية في كل أنحاء العالم، كما يمكننا العثور على الفلسفة الخالدة في أكمل أشكالها المتطورة في كل ديانة من الديانات ذات الشأن. ترجع أول نسخة للكتابة عن هذا العامل المشترك الأعلى في كل لاهوت سابق أو لاحق إلى خمسة وعشرين قرنًا مضت، ومنذ ذلك الوقت عُولج هذا الموضوع الذي لا ينضب معينه مرارًا وتكرارًا من منظور كل تقليد ديني وفي كل اللغات الرئيسة لآسيا وأوروبا. وفيما يلي من صفحات جمعت عددًا من المختارات من هذه

(١) جوتفريد ليبنتز (١٦٤٦ - ١٧١٦): فيلسوف وعالم رياضيات وعالم طبيعة ألماني.

الكتابات، وقد اخترتها في الأساس من أجل دلالتها -لأنها توضح بصورة فاعلة نقطة معينة دقيقة في النظام العام للفلسفة الخالدة- كما اخترتها كذلك من أجل جمالها الداخلي، ولأنه من غير الممكن أن تضيعها الذاكرة. نظمت هذه المختارات تحت رؤوس عناوين متنوعة، وقد ضمَّنت فيما بينها -ما يمكن أن نقول عنه- تعليقات من جانبي، من أجل الشرح والربط والتفصيل والتفسير.

المعرفة وظيفة للوجود. عندما يكون هناك تغير في وجود العارف، يكون هناك تغير مقابل في طبيعة العارف وكمية المعرفة. على سبيل المثال، يتحول الطفل إلى رجل عن طريق النمو والتعليم؛ من بين نتائج هذا التحول تغير ثوري في طريقة المعرفة وطبيعة وصفة الأشياء التي تجري معرفتها. تصبح معرفة الفرد مع نموه أكثر مفاهيمية وأكثر نظامية من حيث الشكل كما يزيد محتوى الحقيقة فيها ومحتواها النفعي بصورة ضخمة. إلا أن هذه المكاسب يقابلها تدهور في كفاءة الإدراك المباشر، وبلادة في القدرات الفطرية وفقدان لها. أو فلنتفكر في التغيير الذي يقدر العالم على إحرازه ميكانيكيًّا باستخدام أدواته. يصبح الفلكي مخلوقًا بشريًّا فائقًا فيما يتعلق بقدرته على الإبصار ومدى بصره، وذلك متى تسلح بمنظار طيفي وتليسكوب عاكس قطر عدسته ستون بوصة؛ وبالتأكيد نتوقع أن المعرفة التي يمتلكها هذا المخلوق البشري الفائق مختلفة تمامًا من حيث الكم والكيف عما يمكن أن يتحصل عليه مراقب للنجوم يستخدم عينيه غير المعدلتين فقط.

ولا تتأثر معارف الواحد بالتغيرات الفسيولوجية والفكرية التي تحدث له فقط. يعتمد ما نعرفه على ما نختار أن نجعل أنفسنا عليه كذلك؛ كوننا

مخلوقات أخلاقية. يقول ويليام جيمس[١]: «قد تغير الممارسة من أفقنا النظري، وذلك عبر سبيل له شقان: قد تقودنا إلى عوالم جديدة، وقد تؤمِّن قوى جديدة. المعارف التي لا نستطيع بلوغها إذا بقينا على ما نحن عليه، قد نستطيع بلوغها نتيجة الحصول على قوى أكبر وحياة أرقى، ويمكننا تحقيقهما أخلاقيًّا». وبإيجاز «طوبى للأنقياء القلب؛ لأنهم يعاينون الله»[٢]. وقد عبَّر الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي عن نفس الفكرة بمصطلحات المجاز العلمي: «الحب أسطرلاب أسرار السماء».

أكرر أن هذا الكتاب هو أنطولوجيا (مبحث وجود) الفلسفة الخالدة؛ لكن على الرغم من أنه أنطولوجيًّا إلا أنه لا يحتوي إلا على القليل من الاقتباسات التي تعود لأدباء راسخين، وعلى الرغم من أنه يُعرِّف بالفلسفة إلا أن القليل للغاية من الاقتباسات يرجع إلى فلاسفة راسخين. وسبب هذا بسيط للغاية. تُعنى الفلسفة الخالدة في المقام الأول بالواحد، الحقيقة الإلهية الجوهرية في عالم الأشياء والحيوات والعقول المتعدد. لكن لهذه الحقيقة طبيعة تجعل من غير الممكن إدراكها مباشرة وعلى الفور إلا من قِبَل أولئك الذين اختاروا الوفاء بشروط معينة، ما جعل منهم محبين، أنقياء في القلب وفقراء إلى الروح. لماذا يجب أن يكون الأمر على هذه الصورة؟ لا نعرف. إنها مجرد حقيقة من بين تلك الحقائق التي علينا القبول بها، سواء أحببناها أم لم نحبها، ومهما بدت غير معقولة وغير محتملة. لا يقدم لنا أي شيء في خبرتنا اليومية سببًا ما لافتراض أن الماء يتكون من الهيدروجين والأكسجين؛ ومع ذلك عندما نعرض الماء

---

(١) ويليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠): فيلسوف وعالم نفس أمريكي.

(٢) إنجيل متى ٥ : ٨.

لمعالجات معينة قاسية إلى حد ما، تتجلى طبيعة العناصر المكونة له. بالمثل، لا شيء في خبرتنا اليومية يقدم لنا دليلًا قويًا لافتراض أن العقل الخاص بالإنسان الحسي العادي، لديه -كأحد مكوناته- شيء يشبه أو يماثل الحقيقة الجوهرية في العالم المتعدد؛ ومع ذلك عندما يتعرض هذا العقل إلى معالجات معينة قاسية إلى حد ما، يتجلى العنصر الإلهي الذي يتكون منه جزئيًّا على الأقل، وهذا التجلي لا يكون أمام العقل نفسه فقط، بل في انعكاسه في السلوك الخارجي أمام العقول الأخرى كذلك. يمكننا عن طريق التجارب الفيزيائية فقط اكتشاف الطبيعة الجوهرية للمادة وإمكاناتها. ويمكننا عن طريق التجارب الفسيولوجية والأخلاقية فقط اكتشاف الطبيعة الجوهرية للعقل وإمكاناته. تبقى هذه الإمكانات في ظروف الحياة الحسية العادية كامنة وغير ظاهرة. وإذا كان لنا أن ندركها، علينا الوفاء بشروط معينة وطاعة قواعد معينة، أثبتت الخبرة صلاحها.

هل هناك أي دليل يتعلق بالقلة من الفلاسفة والأدباء الراسخين يشير إلى إحرازهم الكثير في سبيل الوفاء بالشروط اللازمة للمعرفة الروحية المباشرة؟ عندما يتحدث الشعراء والميتافيزيقيون عن موضوع الفلسفة الخالدة، يكون حديثهم في العموم بناء على خبرة آخرين، استقوها منهم. لكن هناك بعض الرجال والنساء في كل عصر اختاروا الوفاء بالشروط والتي من خلالها فقط يمكن الحصول على مثل هذه المعرفة المباشرة، وهي الحقيقة العمياء المُجرَبَّة (التي لا تفسير لها)؛ ومن بين هؤلاء القلة هناك مَن تركوا شروحًا عن الحقيقة التي مُكِّنوا عن طريق ما فعلوا من إدراكها وحاولوا ربط معطيات هذه الخبرة بمعطيات خبراتهم

الأخرى، في نظام فكري واحد شامل. مُنح شراح الفلسفة الخالدة هؤلاء من أصحاب الخبرة المباشرة ألقابًا على غرار «قديس» أو «نبي» أو «حكيم» أو «مستنير». وقد أخذت مختاراتي عن هؤلاء في الأساس؛ لأن هناك سببًا جيدًا وراء افتراض معرفتهم بما يتحدثون عنه، ولم آخذها عن الفلاسفة أو الأدباء.

تعرفنا في الهند على نوعين من النصوص المقدسة: الشروتي، أو الكتابات المُلهَمَة وتستمد سلطانها من لدنها هي نفسها؛ إذ إنها نتاج تبصر مباشر في الحقيقة النهائية؛ والسمريتي، التي تقوم على الشروتي، ومنها تستمد سلطانها. بحسب الشانكارا فإن «الشروتي تعتمد على الإدراك المباشر. تلعب السمريتي دورًا أشبه بالاستقراء؛ إذ إن مثلها مثل الاستقراء، تستمد سلطانها من سلطان لا يتمثل فيها هي، في حد ذاتها». إذَنْ فهذا الكتاب هو أنطولوجيا مع تعليقات شارحة لمقاطع مأخوذة من شروتي وسمريتي أزمنة وأماكن عديدة. للأسف يُورِثُ اعتياد الكتابات المقدسة التقليدية شيئًا، ليس ازدراءً حقيقيًا، لكنه في الواقع لا يقل عن الازدراء سوءًا- إنَّهُ نوع من البلادة تجاه المقدسات وفتور في الروح وصمم داخلي عن معنى الكلمات المُطهَّرَة. لهذا السبب، عندما كنت بصدد اختيار المادة من أجل توضيح معتقدات الفلسفة الخالدة كما صيغت في الغرب، قصدت في أغلب الأحيان إلى مصادر أخرى غير الإنجيل. هذه السمريتي المسيحية التي اقتبست منها تقوم على شروتي الكتب الأساسية، لكنها تحظى بميزة عظيمة؛ إذ إنها أقل شهرة، وبالتالي هي أكثر حيوية، أو أكثر قدرة على الإسماع، إن صح القول. علاوة على ذلك، فكثير من السمريتي نتاج عمل رجال ونساء قديسين وقديسات

حقًّا، لقد أَهلُّوا أنفسهم كي يعرفوا عن طريق الخبرة المباشرة ما هم بصدد الحديث عنه. وبناء على ذلك، قد تعتبر هذه النصوص المقتبسة نفسها شكلًا من أشكال الشروتي المُلهَّمَة المُصَدِّقة لنفسها - وهي درجة أعلى كثيرًا من الكثير من الكتابات المضمنة الآن في الشريعة الإنجيلية.

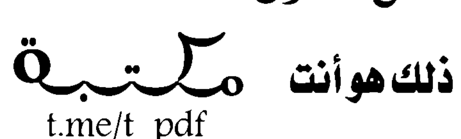
جرت محاولات عديدة في السنوات الأخيرة من أجل تطوير نظامٍ للاهوت تجريبي. لكن هذه الجهود لم تكلل إلا بنجاح جزئي، وذلك على الرغم من حذق كتاب على شاكلة سورلي وأومان وتينانت ومن لهم نفس قدراتهم الفكرية. بل إن الفلسفة الخالدة ليست مقنعة كذلك على نحو مميز عندما يتصدر المشهد أقدر شراح اللاهوت التجريبي. السبب -فيما يبدو لي- أن اللاهوتيين التجريبيين قصروا انتباههم حصرًا بصورة ما على خبرة أولئك الذين أطلق عليهم اللاهوتيون من مدرسة أقدم اسم «الضالين» - أي خبرة أناس لم يمضوا بعيدًا بالصورة الكافية من أجل الوفاء بالشروط اللازمة للمعرفة الروحية. لكن الأمر الذي تأكد وأُعيدَ تأكيده مرارًا وتكرارًا خلال ألفي أو ثلاثة آلاف عام من التاريخ الديني، أن الحقيقة النهائية لا يعاينها بوضوح ومباشرة إلا أولئك الذين جعلوا أنفسهم محبين وأنقياء في القلب وفقراء إلى الروح. ولأن الحال كذلك، فليس من المفاجئ أبدًا أن يحقق لاهوتٌ قائمٌ على أناس ضالين عاديين لطفاء إلا أقل قدر من الإقناع. هذا النوع من اللاهوت التجريبي هو على قدم المساواة مع علم الفلك التجريبي القائم على خبرة الراصدين بالعين المجردة. لا يمكن لعين لا تستخدم أي وسائل مساعدة إلا رصد بقعة باهتة صغير في مكان كوكبة الجبار، ومما لا شك فيه أنه من الممكن

صياغة نظرية جازمة قائمة على رصد هذه البقعة. لكن لا يمكن لأي قدر من مثل هذا التنظير -مهما كان مبتكرًا- أن يخبرنا أبدًا بالكثير عن السدم المجرية وتلك الموجودة خارج المجرة، كما يمكن أن يفعل الرصد باستخدام تليسكوب جيد وكاميرا ومنظار طيفي. وقياسًا على ذلك، لا يمكن لأي قدر من التنظير يستخدم لمحات في خبرة الضالين العاديين بالعالم المتعدد، أبصروها في الظلام، أن يخبرنا بالكثير عن الحقيقة الإلهية كما يمكن أن يفهمها عقل في حالٍ من الإحسان والتواضع وعدم التعلق. العلم الطبيعي تجريبي؛ لكنه لا يقصر نفسه على خبرة المخلوقات البشرية في حالتهم البشرية، غير المُعدَّلة. أما لماذا يشعر اللاهوتيون التجريبيون بأنهم مجبرون على الاستسلام لهذه الإعاقة، فالعلم عند الله وحده. وبالتأكيد طالما ظلوا يقصرون الخبرة التجريبية على تلك الحدود البشرية تمامًا، فقد كُتِب عليهم التسفيه الدائم من أفضل جهودهم. لا يمكن لأي عقل مهما وُهِب من ألمعية أن يستدل من المادة التي اختاروا الاهتمام بها على ما يزيد عن مجموعة من الاحتمالات أو في أفضل الأحوال على احتمالات حسنة المظهر فارغة الجوهر. لا يمكن تحقيق يقين الوعي المباشر المُصدِّق لنفسه -وفق ما تجري عليه الأمور- إلا عن طريق أولئك المتسلحين «بأسطرلاب أسرار السماء» الأخلاقي. لو لم يكن الواحد حكيمًا أو قديسًا فإن أفضل ما يمكنه فعله في مجال الميتافيزيقا دراسة أعمال أولئك الذين كانوا قادرين على ما هو أكبر من المعرفة البشرية نوعًا وكمًّا؛ نظرا لأنهم عدَّلوا من صورة وجودهم البشري.

* * *

الفصل الأول

ذلك هو أنت



عند دراسة الفلسفة الخالدة يمكننا أن نبدأ إما من الأسفل حيث الممارسة والفضيلة؛ وإما من القمة حيث التدبر في الحقائق الميتافيزيقية؛ وإمَّا أخيرًا من المنتصف حيث النقطة البؤرية، موضع التقاء العقل والمادة، الفعل والفكر في نفسانية الإنسان.

يفضل المعلمون العمليون البوابة السفلى في صرامة، هم رجال أشبه بجوتاما بوذا لا حاجة بهم للحدس، همهم الأول إخماد نيران البخل والسخط والهوس الشنيعة في قلوب الرجال. يمضي أولئك المنشغلون بالتفكير والتأمل -المنحدرون من جذور الفلسفة واللاهوت- عبر البوابة العليا. أما البوابة الوسطى فهي لدخول المؤمنين بما أُطلِق عليه «الديانة الروحية» -متأملو الهند الورعون وصوفية الإسلام والروحانيون الكاثوليك في العصور الوسطى وفي الموروث البروتوستانتي ورجال

مثل دنك[١] وفرانك[٢] وكاستيليو[٣]، ومثل إفرارد[٤] وجون سميث[٥] والكويكرز[٦] الأوائل وويليام لو[٧].

عبر هذا الباب المركزي -ولأنه مركزي تمامًا- سوف نلج إلى داخل موضوع هذا الكتاب. يكمن مصدر سيكولوجيا هذه الفلسفة في الميتافيزيقا (الماوراء) وأمور تقع منطقيًّا في نمط مميز للحياة وللنظام الأخلاقي. عندما نبدأ من نقطة المنتصف للعقيدة، يصبح من السهل على

---

(١) هانز دنك (١٤٩٥ - ١٥٢٧): عالم لاهوت ألماني، وأحد قادة الأنابابتست (تجديدية العماد) وهي حركة إصلاحية بروتستانتية ظهرت في أوروبا في القرن السادس عشر وطالبت بالمساواة ونبذ الهرمية وسلطان الكنيسة ورفضت تعميد الأطفال؛ لأنهم غير مدركين بعد، كما طالبت بإعادة تعميد البالغين إذا كانوا قد عُمِّدوا وهم صغار.

(٢) سيباستيان فرانك (١٤٩٩ - ١٥٤٣): عالم لاهوت ألماني ومفكر حر وإصلاحي راديكالي، آمن بأن الرب يتواصل مع البشر من خلال جزء رباني تركه في كل واحد منهم، رفض السلطة المطلقة للكنيسة.

(٣) سيباستيان كاستيليو (١٥١٥ - ١٥٦٣): واعظ وعالم لاهوت فرنسي، مفكر إصلاحي، مع تسامح الأديان وحرية التفكير.

(٤) جون إفرارد (١٥٨٤ - ١٦٤١): واعظ إنجليزي، آمن بالروحانيات وبالطقوس الهرمسية، وهو تقليد فلسفي وديني يؤمن بوجود لاهوت قديم مُنح للبشرية وعنه تمخضت كل الأديان.

(٥) جون سميث (١٦١٨ - ١٦٥٢): عالم لاهوت إنجليزي وفيلسوف ومعلم، كتب حول الميتافيزيقا (الماوراء) والإبستمولوجيا (نظرية المعرفة)، وحول وجود الرب والحياة الأزلية.

(٦) الكويكرز: أو مجموعة الصحابيين أو جمعية الأصدقاء الدينية وهي مجموعة من المسيحيين البروتوستانت تكونت في القرن السابع عشر، في إنجلترا على يد جورج فوكس، وقد عنوا بالتأكيد على التجارب الروحانية الداخلية أكثر من عنايتهم بالنص على تعاليم معينة.

(٧) ويليام لو (١٦٨٦ - ١٧٦١): شغل منصب كاهن كنيسة إنجلترا لبعض الوقت، له مؤلفات مؤثرة في الأخلاقيات المسيحية والروحانيات.

العقل التحرك في كلا الاتجاهين.

في القسم الحالي سوف نقصر انتباهنا على ملمح منفرد واحد لا غير لهذه السيكولوجيا التقليدية - هو أهمها، هو أكثر ما يلح عليه كل أنصار الفلسفة الخالدة في تأكيد، وقد نضيف أنه أقلها نفسانية. يندرج المذهب الذي سوف نتقصاه في هذا القسم تحت لواء دراسة الذات **autology** عوضًا عن السيكولوجيا - تحت لواء العلم الذي يتقصى النفس السرمدية في عمق النفوس الفردية المتمايزة لا الأنا الشخصية، يتقصى تلك النفس السرمدية المماثلة -أو على الأقل المشابهة- للأصل الإلهي. تُعبِّر العبارة المكتوبة بالسنسكريتية[١] **tat tvam asi** (ذلك هو أنت) في إيجاز شديد عن هذه التعاليم المبنية على الخبرة المباشرة لأولئك الذين استوفوا الشروط الضرورية لمثل هذه المعارف؛ هو الأتمان[٢] أو النفس الحلولية الأزلية، تلك التي للبراهمان[٣]، هو المبدأ المطلق لكل وجود؛ تتمثل الغاية الخاتمة لكل كائن بشري في الكشف عن حقيقة نفسه، في اكتشاف ماهيته الفعلية.

(كلما كان الرب في كل الأشياء، كان خارجها. كلما كان بالداخل، كان مفارقًا).

إكهرت[٤].

---

(١) لغة قديمة في الهند، ولها حضور هناك مشابه لحضور اللاتينية واليونانية في أوروبا، وهي لغة طقوس الهندوسية والبوذية.

(٢) كلمة سنسكريتية تعني النفس أو الذات الداخلية.

(٣) البراهمان في الهندوسية: هي الروح الفائقة الكونية.

(٤) ميستر إكهرت (١٢٦٠ - ١٣٢٨): فيلسوف وعالم لاهوت، وُلِد فيما يُعرف الآن بألمانيا. أشار إلى مسار اتحاد روح الفرد بالرب.

من الجائز للمجاوز المتسامي فقط، الآخر المفارق تمامًا أن يكون حالًا ماثلًا دون أن يتغير بصيرورة ذلك الذي يسكن فيه. تلح الفلسفة الخالدة على أن معرفة الأصل الروحي للأشياء مرغوب فيها وضرورية حقًّا، لا ضمن نطاق النفس فقط بل في العالم بالخارج كذلك، بل فيما وراء العالم والنفس، في الغيرية المجاوزة - 'في الفردوس الأعلى'.

(بالرغم من وجود الرب في كل مكان، إلا أنه موجود بالنسبة لك في أعمق أجزاء النفس وأكثرها مركزية فقط، لا يمكن للحواس الطبيعية أن تمتلك الرب أو أن تقرنك به؛ ولا يمكن كذلك لملكات الفهم الباطنية أن تفعل، يمكن للإرادة والحافظة فقط أن تبذلا الجهد سعيًا للوصول إليه، لكن من غير الممكن أن تكونا موضع سكناه فيك. لكن هناك جذر أو عمق لك تنطلق منه كل هذه الملكات، كخطوط تخرج من المركز أو كفروع من جذع شجرة. يطلق على هذا العمق المركز أو المورد أو باطن النفس. هذا العمق هو واحدية النفس، هو أبديتها - كنت قد قلت بصورة ما إنه اللا نهاية؛ إذ إنه لا نهائي للغاية، لا يمكن لشيء أن يرضيه أو أن يمنحه السكينة سوى لا نهائية الرب).

ويليام لو.

يبدو هذا التدقيق على النقيض مما قيل في السابق، غير أن التناقض ليس تناقضًا فعليًّا. الإله بالداخل والإله المفارق - هما مفهومان مجردان، يمكن استحضارهما عن طريق الفهم والتعبير عنهما بالكلمات. لكن من غير الممكن إدراك واختبار الحقائق التي يحيل إليها هذان المفهومان إلا في 'أعمق أجزاء النفس وأكثرها مركزية.' وهو أمر صحيح بالنسبة إلى الرب بالخارج بدرجة لا تقل عن صحته بالنسبة إلى الرب في الداخل.

لكن على الرغم من أنه من اللازم إدراك المفهومين في نفس المكان (مع استخدام المكان كمجاز)، إلا أن الطبيعة الباطنية لإدراك الرب بالداخل مختلفة نوعيًّا عن تلك التي لإدراك الرب المفارق، ومن ثم فكلاهما مختلف عن تلك التي لإدراك الأصل باعتباره بالداخل ومفارقًا في ذات الآن - أي باعتباره نفس المتأمل، وفي ذات الآن باعتباره «ذلك الذي يتخلل هذا العالم كله» (بحسب كلمات البهاجافاد جيتا[1]).

(عندما كان شفيتاكيتو[2] في الثانية عشرة من عمره، أُرسِل إلى معلم، درس معه حتى أصبح في الرابعة والعشرين من عمره. بعد أن تعلم كل أسفار الفيدا[3] عاد إلى موطنه مملوءًا بزهو الاعتقاد في أنه قد تلقى تعليمًا ممتازًا، فكان شديد الانتقاد لكل شيء.

قال له أبوه: 'شفيتاكيتو، يا صغيري، يا من امتلأت للغاية بما تعلمته وصرت شديد الانتقاد لكل شيء، هل بحثت يومًا عن تلك المعرفة التي نسمع بها ما هو غير قابل للسمع، وندرك بها ما لا يمكن إدراكه ونعرف ما لا تمكن معرفته؟'.

سأل شفيتاكيتو: 'ما هذه المعرفة يا سيدي؟'.

رد أبوه: 'كما أنه عن طريق المعرفة بأمر كتلة واحدة من الصلصال يصبح معروفًا أمر كل ما هو مصنوع من الصلصال، فالاختلاف في الأسماء فقط، لكن في الحقيقة جميعها صلصال - كذلك يا صغيري

---

(١) كتاب الديانة الهندوسية المقدس.

(٢) شخصية من الأوباناشيد، والأوباناشيد: هي نصوص قديمة تحتوي على مفاهيم فلسفية تخص الديانة الهندوسية. يمثل شفيتاكيتو الرحلة من الجهل إلى المعرفة بالذات والحقيقة.

(٣) الكتاب المقدس للديانة الهندوسية.

هي تلك المعرفة، معرفة بما نعرفه كله'.

'لكنَّ معلميّ الأجلاء هم بالتأكيد جهلة بهذه المعرفة؛ إذ إنهم لو كانوا يمتلكونها، لعلموني إياها، لذلك هل لك يا سيدي أن تزودني بتلك المعرفة'.

قال الأب، 'وهو كذلك'... وقال، 'أحضرْ لي ثمرة شجرة نياجرودا[1]'.

'ها هي واحدة يا سيدي'.

'افتحها'.

'هي مفتوحة، يا سيدي'.

'ما الذي تراه هناك؟'.

'بعض البذور في غاية الصغر، يا سيدي'.

'افتح واحدة منها'.

'هي مفتوحة، يا سيدي'.

'ما الذي تراه هناك؟'.

'لا شيء على الإطلاق'.

قال الأب: 'يا ولدي، هذا الجوهر الدقيق الذي لم تدركه هناك - يمثل فيه وجود شجرة النياجرودا الضخمة. يحظى كل ما هو موجود

---

(١) شجرة مذكورة في أعمال بوذا وعادة ما تعتبر رمزًا للضخامة فهي قادرة على تظليل ٥٠٠ عربة، هي كذلك رمز للنتائج الضخمة التي قد تنتج عن أسباب بسيطة؛ إذ أن بذورها الضئيلة قادرة على النمو لأشجار ضخمة. وهي على الأرجح شجرة التين البنغالي التي تنمو في المناطق الأسيوية الاستوائية وشبه الاستوائية.

بنفسه في ذلك الجوهر الدقيق. ذلك هو الحق، تلك هي النفس، وذلك يا شفيتاكيتو هو أنت'.

قال الابن: 'أتوسل إليك يا سيدي، فلتخبرني بالمزيد'.

رد الأب: 'وهو كذلك يا صغيري' وأضاف، 'ضع هذا الملح في ماء، وتعالَ في صباح الغد'.

فعل الابن ما أُمر به.

قال الأب في الصباح التالي: 'فلتحضر لي الملح الذي وضعته في الماء'.

بحث الابن عنه، لكنه لم يستطع العثور عليه؛ لأن الملح كان قد ذاب بالطبع.

قال الأب: 'تذوقْ بعض الماء من سطح الوعاء. كيف تجده؟'.

'مالح'.

'تذوق بعض الماء من منتصف الوعاء، كيف تجده؟'.

'مالح'.

'تذوق بعض الماء من قاع الوعاء، كيف تجده؟'.

'مالح'.

قال الأب: 'ارمِ الماء بعيدًا، ثم عُد إليَّ من جديد'.

قام الابن بذلك، لكن الملح لم يضِع، فالملحُ يبقى إلى الأبد.

من ثم قال الأب، 'الحال هنا كما هو في جسدك -يا بني- لا تدرك الحق، لكنه موجود هناك بالفعل. يحظى كل ما هو موجود بنفسه في ذلك

الجوهر الدقيق. ذلك هو الحق، تلك هي النفس، وذلك يا شڤيتاكيتو هو أنت.

(من شاندوجيا أوباناشيد).

من الممكن للرجل الذي يأمل في معرفة «ذلك» الذي هو «أنت» أن ينطلق للعمل عبر أي سبيل من سبل ثلاثٍ. قد يبدأ بالنظر في الداخل، في دخيلة (أنت) الجزئية الخاصة به وعن طريق عملية «إفناء الذات» -الذات في الاستدلال المنطقي، الذات في الإرادة، الذات في الشعور- يصل في النهاية إلى معرفة بالنفس، مملكة الرب القائمة بالداخل. أو قد يبدأ «بأنتم» أولئك الموجودين خارج نفسه وقد يحاول إدراك واحديتهم الجوهرية مع الرب ومن خلال الرب ومع أحدهم الآخر ومع وجوده هو نفسه. أو ختامًا، قد يسعى للاقتراب من ذلك المطلق من الداخل ومن الخارج المفارق (وهذا بلا شك السبيل الأمثل)، وعلى ذلك يصل إلى إدراك الرب تجريبيًّا في الحال باعتباره مبدأ (أنت) الخاصة به وكل (أنتم) الأخرى الحية وغير الحية. يعرف الإنسان المستنير تمامًا -كقاعدة- أن الرب «موجود في أعمق أجزاء نفسه وأكثرها مركزية»؛ لكنه كذلك وفي نفس الوقت أحد الذين هم -بحسب كلمات أفلوطين[١]:

(يرون كل الأشياء لا في حركات الصيرورة، لكن في الكينونة ويرون أنفسهم في الآخر. يحتوي كل كائن في نفسه على العالم الجلي. لذلك فالكل في كل مكان. كل كائن هو الكل هناك والكل هو كل كائن. لقد توقف الإنسان في سمته الحالي عن أن يكون الكل. لكنه عندما يتوقف

---

(١) أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠): فيلسوف يوناني، كانت الروحانية هي جوهر فلسفته.

عن أن يكون فردًا، فإنه يرفع من نفسه مجددًا ويخترق العالم كله).

إنها البداهة المبهمة نوعًا للواحدية التي هي أصل أو مبدأ كل تعدد، تتخذ منها الفلسفة حجة لها. وليست الفلسفة وحدها، بل يفعل العلم الطبيعي نفس الشيء. إذ يذهب ميرسون[١] إلى أن كل العلوم هي اختزال التعدد إلى تماثل. عند النظر في أمر الواحد في التعدد وفيما وراء التعدد، نكتشف معقولية جوهرية في أي تفسير للتنوع في ضوء المبدأ الواحد.

تعاود فلسفة الأوباناشيد الظهور في هيئة متطورة وثرية في البهاجافاد جيتا، وقد انتظمت بشكل نهائي في القرن التاسع لزماننا على يد شانكارا[٢]. وتعاليم شانكارا مثلها كمثل كل تعاليم أنصار الفلسفة الخالدة المخلصين نظرية وعملية في الوقت نفسه، وهي ملخصة في رسالته المنظومة فيفيكا تشوداماني (واسطة عقد الحكمة). كل العبارات اللاحقة مقتبسة من ذلك العمل الموجز واليسير، غير المغرق في الاصطلاح.

الأتمان هو ذلك الذي يتخلل الكون، لكن لا يتخلله شيء؛ هو ذلك الذي يسبب إشراق كل الأشياء، لكن لا تقدر كل الأشياء على جعله يشرق...

من اللازم معرفة طبيعة الحقيقة الواحدة عن طريق الإدراك الروحي الصافي الخاص بالواحد؛ لا يمكن أن يعرفها الواحد من خلال رجل عارف مبجل. كما هو من غير الممكن معرفة شكل القمر إلا من خلال

---

(١) إيميل ميرسون (١٨٥٩ - ١٩٣٣): كيميائي فرنسي، وباحث في فلسفة العلم والإبستمولوجيا.

(٢) آدي شانكارا (٧٨٨ - ٨٢٠): فيلسوف هندي تقوم تعاليمه على وحدة الأتمان والبراهمان.

عيني الواحد نفسه. كيف السبيل إلى معرفته من خلال الآخرين؟

من بخلاف الأتمان يستطيع إزالة قيود الجهل والشغف والفعل الأناني المتمحور حول الذات؟

من غير الممكن تحقيق الانعتاق إلا عن طريق إدراك تماثل الروح الفردية مع الروح الكونية. لا يمكن الخلوص إلى ذلك عن طريق اليوجا[١] (التدريب البدني)، أو عن طريق السانكهيا[٢] (الفلسفة التأملية)، أو عن طريق ممارسة الشعائر الدينية، أو عن طريق التعلم فقط...

لا يُشفى المرض نتيجة الإعلان عن اسم الدواء، لكن عن طريق تناول الدواء. لا يتحقق الخلاص عن طريق الإلحاح على تكرار كلمة 'براهمان،' لكن عن طريق الخبرة المباشرة بالبراهمان...

الأتمان هو شاهد العقل الفردي وعملياته. هو المعرفة المطلقة...

الحكيم هو ذلك الذي يفهم أن جوهر البراهمان والأتمان هو الوعي المجرد، والذي يدرك تماثلهما المطلق. تماثل البراهمان والأتمان مجزوم به في مئات النصوص المقدسة...

لا وجود للإثنية وللملة وللعائلة وللنسب في البراهمان. ليس للبراهمان اسم وليست له صورة، يتجاوز المزايا والعيوب، هو فوق الزمان والمكان وموضوعات الخبرة الحسية. هكذا هو البراهمان و'ذلك الذي هو أنت'. تدبر هذه الحقيقة في خاطرك.

البراهمان هو الأسمى، هو فوق طاقة البيان على التعبير، مع ذلك من

---

(١) مجموعة من التمارين الجسدية التي تهدف إلى التأمل.

(٢) واحدة من المدارس الفلسفية الهندية الأولى.

الممكن استيعابه بواسطة عين الاستنارة المجردة. كذلك هو البراهمان وكذلك هو 'ذلك الذي هو أنت' حقيقة مجردة ومطلقة وأزلية. تدبر هذه الحقيقة في خاطرك...

مع أنه واحد، إلا أن البراهمان هو سبب التعدد. لا سبب آخر هناك. ورغم ذلك فالبراهمان غير محكوم بقانون السببية. كذلك هو البراهمان و'ذلك الذي هو أنت'». تدبر هذه الحقيقة في خاطرك...

من الممكن فهم حقيقة البراهمان عقليًّا. لكن الرغبة في الاستقلال الشخصي (حتى فيما بين الذين يفهمون الحقيقة) متغلغلة ونافذة، إنها موجودة منذ زمن لا بداية له. هي التي تقف وراء تصور أنني 'أنا الفاعل، أنا صاحب الخبرة'. هذا التصور هو سبب أغلال الوجود والميلاد والموت. من الممكن التخلص منه عن طريق بذل الجهد بإخلاص من أجل العيش في اتحاد لا ينفصم مع البراهمان. يطلق الحكماء على التخلص من هذا التصور ومن السعي في دأب من أجل الاستقلال الشخصي الانعتاق.

إن الجهل هو ما يجعلنا نُعرِّف أنفسنا من خلال الجسد أو الأنا أو الحواس وأي شيء غير الأتمان. الحكيم هو مَن يتجاوز هذا الجهل عن طريق التفاني في الأتمان...

لا يمكن للمعرفة بالحقيقة أن تبزغ في الرجل عندما يتبع سبيل العالم أو سبيل اللحم والدم أو سبيل العرف (أي عندما يعتقد في أن الشعائر الدينية ونصوص الكتاب المقدس مقدسة في جوهرها).

يقول الحكيم إن هذا الطريق الثلاثي[١] مثل السلسلة الحديدية التي تربط أقدامه التي تطوق إلى الهروب من سجن هذا العالم. ذلك الذي يحرر نفسه من السلسلة يحقق الخلاص.

شانكارا.

في الصياغات الطاوية[٢] للفلسفة الخالدة هناك إلحاح -لا يقل بأي حال عن ذلك الذي في الأوباناشيد وفي الجيتا وفي كتابات شانكارا- على الجوهر الكوني للأساس الروحي المتسامي لكل وجود. ما يلي هو مقتطف من أحد كلاسيكيات الأدب الطاوي، كتاب جوانغ زي[٣] وقد كُتِب أغلبه فيما بين القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد.

«لا تسأل عما إذا كان المبدأ في هذا أم في ذاك؛ فهو في كل الموجودات. لهذا السبب نسبغ عليه نعوتًا على شاكلة الأسمى والكوني والكلي... لقد قضى بأن كل الأشياء ينبغي أن تكون محدودة، لكنه هو نفسه غير محدود، غير متناهٍ. أما بالنسبة إلى التجلي، فالمبدأ يسبب تتابع هيئاته، لكنه ليس هذا التتابع. إنه مبدع الأسباب والنتائج، لكنه ليس الأسباب والنتائج. إنه مبدع الحضور والزوال (الميلاد والموت وتغير الحال)، لكنه ليس هو نفسه الحضور والزوال. ينطلق الكل منه ويقع تحت سطوته. هو في كل الأشياء، لكنه غير مكافئ للموجودات، هو

(١) هي الأخلاق والتأمل والحكمة، وهي رحلة متصاعدة حيث توفر الأخلاق أسس التأمل وينتهي التأمل إلى الحكمة.

(٢) هي فلسفة صينية قديمة أو مذهب ديني يهدف إلى تحقيق التناغم مع الكون، ولا تتضمن طقوسًا دينية محددة بقدر ميلها إلى التأمل.

(٣) أحد فلاسفة الصين واسعي التأثير، وقد عاش في العصر الذهبي للفكر الصيني.

غير متمايز وغير محدود».

جوانغ زي.

ومن الطاوية نعبر إلى الماهايانا[١] البوذية والتي أصبحت في الشرق الأقصى على اتصال وثيق للغاية بالطاوية، تستعير منها وتضيف إليها، حتى وصل الحال بالاثنتين في النهاية إلى الالتحام فيما يعرف بالزن[٢]. لانكافاتارا[٣] سوترا المأخوذ منها المقتطف التالي هو الكتاب المقدس الذي يوصي به مؤسس بوذية الزن بشكل واضح وصريح لحوارييه الأوائل.

«أولئك الذين يتحدثون بالمنطق سدًى دون فهم للحقيقة هم تائهون في غابة فينانيا[٤] (الأشكال المتنوعة للمعارف النسبية)، يهرولون هنا وهناك، محاولين تبرير منظورهم الذاهب إلى مادية الأنا.

تظهر النفس عندما تدركها في عمق خاطرك في أقصى درجات نقائها؛ هذه هي تاتاجاتا - جاربها (حرفيًّا، رحم بوذا)، وهي مملكة لا يمكن الحصول عليها عن طريق الاستدلال المنطقي البحت...

نقية في طبيعتها الأولية الخاصة، ومتحررة من كل تصنيف متناهٍ وغير متناهٍ، إن العقل الكوني هو رحم بوذا غير المدنس، وهو ما تدركه

---

(١) الماهايانا، أحد المذهبين الرئيسين للبوذية.

(٢) فلسفة تأملية تفرعت عن الماهايانا البوذية.

(٣) يترجم على الكتاب المقدس للنزول إلى لاكا حيث يسرد تعاليما في المقام الأول بين جوتاما بوذا وبوديساتفا (وهو الشخص على طريق التنعم بالبوذية) يدعى ماهاماتي. وتقع أحداث السوترا (وهي الحكم والأقوال المأثورة وتستخدم للإشارة إلى النصوص الدينية الهندية القديمة) في مدينة لاكا.

(٤) تترجم على قوة الحياة أو العقل المحرك للأجسام المادية.

الموجودات المعتمدة على الحس بشكل خاطئ».

لانكافاتارا سوترا.

تسري طبيعة واحدة مثالية ومتغلغلة في كل الطبائع. تحتوي حقيقة واحدة جامعة للكل على كل الحقائق في داخلها. يعكس القمر الواحد نفسه أينما كان هناك مسطح مائي، وتجتمع كل الأقمار في كل المياه في القمر الواحد.

ينفذ جسم الدارما[١] (المطلق) لكل البوذات[٢] في وجودي الخاص.

ووجودي الخاص موجود في اتحاد مع وجودهم...

النور الداخلي مجاوز للإطراء و القدح؛

مثله كمثل الفضاء لا يعرف الحدود،

رغم ذلك فهو هنا، في داخلنا، يحتفظ بسكينته واكتماله.

فقط عندما تتحرى عنه، تضيعه؛

من غير الممكن أن تقبض عليه، لكن من غير الممكن أن تتخلص منه كذلك، وبينما لا تقدر على القيام بأي من الأمرين، يمضي هو في سبيله الخاص.

تبقى صامتًا فيتحدث هو؛ تتحدث فيصيبه الخرس؛ بوابة الإحسان

---

(١) هو أحد الأجسام الثلاثة، جسم الدارما هو جوهر البوذية وهو الحقيقة المطلقة أو القانون وهو الطبيعة الحقة لحياة بوذا. جسم المكافأة ويحصل عليه كمكافأة نتيجة للسير على درب بوذا. وأخيرًا جسم التجلي وهو الجسم الذي اتخذه بوذا على الأرض كي يبثهم التعاليم وينقذهم.

(٢) جوتاما بوذا وكل المستنيرين (البوذات) السابقين عليه.

العظيمة مفتوحة على مصرعيها، بلا أي معوقات قبالتها.

يونج تشيا تا شيه[١].

لست أهلًا لمناقشة الفوارق المذهبية بين البوذية والهندوسية، كما أنه ليس المكان المناسب لذلك. تكفي الإشارة إلى أن بوذا عندما كان يلح على أن البشر هم في طبيعتهم 'غير أتمانيين' (نسبة للأتمان) قد كان يتحدث بشكل واضح عن النفس الشخصية، لا النفس الكونية. لا يأتي المجادلون البراهمانيون -الذين يظهرون في شرائع بالي[٢]- أبدًا على ذكر مذهب فيدانتا[٣] الخاص بتماثل الأتمان والألوهة وعدم تماثل الأنا والأتمان. ما يبقون عليه وينكره جوتاما هو الطبيعة الجوهرية والبقاء الأزلي للذات. 'كما يسعى الرجل غير العاقل لاكتشاف المقام الموسيقي في جسم العود، كذلك يبحث عن الروح في السكاندا[٤] (الكومات المادية والذاتية التي تتركب منها مادة - عقل الفرد).' يستنكف بوذا من الحديث عن وجود الأتمان الذي هو البراهمان كما يستنكف من الحديث عن أغلب الأمور الميتافيزيقية، على اعتبار أن مثل هذه النقاشات لا تنحو إلى تنوير أعضاء الرهبنة ولا تدعم تطورهم الروحي، كما كان قد أسس له. لكن على الرغم من المخاطر التي تكتنف هذه الأمور الميتافيزيقية، إلا أنها قد تصبح أكثر ما يسلب الألباب؛

---

(١) يونج تشيا تا تشي: أحد رهبان الزن، ويُظن أنه قد تُوفي بينما كان يتأمل عام ٧١٣.

(٢) تعرف أيضًا بـ «تيبيتاكا»، وهي مجموعة قواعد المذهب البوذي تيرافادا، وهي أكثر شرائع البوذية اكتمالًا.

(٣) هي جزء من نصوص الفيدا.

(٤) هي الكومات الخمسة للذات، إلا أنها لا تحتوي على الروح، وهي: الشكل أو المادة، الإحساس أو الشعور، التصور أو التخيل، التميز والتشكيلات العقلية، الإرادة والوعي.

لأنها أخطر وأنبل الملهيات، ولأنه من غير الممكن اجتناب التفكير الميتافيزيقي، وأخيرًا لأنها ضرورية. حتى معتنقو الهينايانا[1] اكتشفوا هذا، وطور معتنقو الماهايانا[2] نظامًا مهيبًا وفعالًا للتفكير الكوني والأخلاقي والنفساني، وهو نظام متصل مع ممارستهم لديانتهم. يقوم هذا النظام على مسلمات المثالية الصارمة، ويذهب إلى التخلص من فكرة الرب. لكن الخبرة الروحية والأخلاقية كانت راسخة تمامًا بالنسبة إلى النظرية الفلسفية، وذلك في ظل إلهام الخبرة المباشرة، وجد كتاب الماهايانا سوترا أنفسهم يستخدمون كل حصيلتهم الإبداعية من أجل تفسير السبب وراء كشف التاتاجاتا والبوداساف[3] عن محبة لا نهائية نحو موجودات لا توجد بالفعل. وفي الوقت نفسه وسعوا من إطار عمل المثالية الذاتية من أجل أن يخلقوا مساحة للعقل الكوني؛ ووفقوا فكرة غياب الروح مع المذهب الذي مفاده أنه يمكن للعقل الفردي -إذا كان نقيا- أن يُعرّف نفسه من خلال العقل الكوني أو رحم بوذا؛ وبينما حافظوا على غياب الرب، أكدوا على أن هذا العقل الكوني القابل للإدراك هو الوعي الداخلي لبوذا الخالد، وعلى أن عقل بوذا مرتبط بـ 'قلب كبير رؤوف'، يرغب في انعتاق كل كائن يحس، ويسبغ نعمة إلهية على كل مَن يبذل مجهودًا كبيرًا من أجل تحقيق غاية الإنسان الخاتمة. باختصار، على الرغم من مفردات الماهايانا سوترا غير المباشرة إلا أن أفضل ما فيها يحتوي على صياغة سليمة للفلسفة الخالدة - صياغة هي الأكثر

(١) تعني حرفيًّا الطريق الصغير، وهي إحدى طوائف البوذية.

(٢) تعني حرفيًّا الطريق الكبير، وهي إحدى طوائف البوذية.

(٣) لقب يُطلق على مَن يسعى لتحقيق البوذية لصالح جميع الموجودات.

اكتمالًا من بعض النواحي مقارنة بأي صياغة أخرى (كما سوف نرى عندما نصل إلى جزء، 'الرب في العالم').

وفي الهند كما في فارس أُثري الفكر المحمدي[1] بالمعتقد الذاهب إلى أن الله متجلٍّ ومتسامٍ كذلك، بينما قد أُضيفت الالتزامات الأخلاقية و'التدريبات الروحية' في الممارسة المحمدية باعتبارها وسائل عن طريقها تتجهز النفس من أجل التبصر أو من أجل المعرفة الوحدوية بالربوبية. ومن الحقائق التاريخية الدالة أن المسلمين والهندوس يعترفون معًا بالشاعر القديس كابير[2] ويعتبرونه رجل دين. فسياسات أصحاب الغايات المجاوزة للزمن دائمًا ما تكون سلمية؛ وثنيو الماضي والمستقبل والذاكرة الرجعية والحلم اليوتوبي هم الذين يضطهدون ويخوضون غمار الحروب.

«لا تنظر إلا إلى الواحد في كل الأشياء؛ الثاني يحملك إلى الضلال».

كابير.

على ذلك، فهذا التبصر في طبيعة الأشياء وأصل الخير والشر لا يقتصر بشكل حصري على القديسين، لكن يدركه في غموض كل بشري، وهو ما تبرهن عليه بنية لغتنا. بالنسبة للغة، فكما بيّن ريتشارد ترينش[3] منذ زمن بعيد أن اللغة هي في الأغلب «أكثر حكمة»، لا من الغوغاء فقط بل من أحكم المتحدثين بها كذلك. تحبس أحيانًا حقائقَ، كانت معروفة

---

(١) يقصد الإسلامي، وهي تسمية شائعة في الغرب لتوصيف ما هو إسلامي أو مَن هو مسلم، ويعتبرها كثير من المسلمين تسمية عدائية، إلا أنني آثرت أن أوردها كما هي.

(٢) كابير (١٤٤٠ - ١٥١٨): شاعر صوفي وقديس من الهند.

(٣) ريتشارد شينيفيكس ترينش (١٨٠٧ - ١٨٨٦): شاعر بريطاني ومطران أنجليكاني.

جيدًا ذات مرة، لكنها نُسيت. في أحوال أخرى، تحتفظ ببذور حقائق يقبض النابغون في التأطير لها على لمحة منها في لحظة تبصر سعيدة. على سبيل المثال، ما مدى دلالة أن في اللغات الهند أوروبية[١] -كما بيّن دارمستتر[٢]- يشير المعنى الأصلي لـ «اثنين» ضمنا للسوء. السابقة اللغوية اليونانية **dys** (كما في كلمة **dyspepsia** (سوء الهضم) والسابقة اللغوية اللاتينية **dis** (كما في كلمة **dishonourable** (غير مُشرِّف)) مشتقتان كلتاهما من **duo** (اثنين). تضفي **bis** (بمعنى مكرر أو ثانٍ) -التي ترجع إلى الأصل نفسه- على الكلمات الفرنسية الحديثة مثل **bèvue** (والتي تعني التخبط أو الخطأ الكبير، وتعني حرفيًّا 'منظورين اثنين') حمولات للمعنى، تشير إلى الازدراء والانتقاص. يمكن العثور على آثار ذلك 'الثاني الذي يحملك إلى الضلال' في '**dubious**' (مريب) وفي '**doubt**' (شك) وفي **Zweifel** (لفظة ألمانية تفيد الشك ويلاحظ أن اثنين في الألمانية **Zwei**) - إذ إن الشك في أمر هو أن يكون لديك رأيان حياله. لدى بنيان[٣] في أعماله شخصية «السيد المواجه للسبيلين كليهما»[٤]، ولدى العامية الأمريكية **two timers**[٥]. تؤكد لغتنا بشكل غريب وحكيم دون وعي منها على اكتشافات الصوفية وتعضد من السوء

---

(١) يُعتقد أن لكل هذه اللغات أصلًا مشتركًا واحدًا.

(٢) جيمس دارمستتر (١٨٤٩ - ١٨٩٤): باحث فرنسي في اللغات القديمة.

(٣) جون بنيان (١٦٢٨ - ١٦٨٨): كاتب وواعظ إنجليزي، صاحب كتاب (رحلة سائح) وهو من أهم الكتب الصادرة بالإنجليزية كما أن له العديد من المواعظ الدينية.

(٤) هو أحد الشخصيات العديدة في كتابه (رحلة سائح).

(٥) حرفيًّا صاحب الوقتين، لكن المقصود هو الرجل الذي يخدع حبيبته أو زوجته بإقامة علاقة مع امرأة أخرى.

الجوهري الذي يكتنف الانقسام - وهي كلمة يظهر بها عدونا القديم عرضًا في سمت آخر مخادع.

قد نشير هاهنا إلى عقيدة الوحدة على المستوى السياسي، على اعتبار أنها ليست إلا مكافئًا مصطنعًا وثنيًّا لدين الوحدة الحقيقي على المستويين الشخصي والروحي. تبرر الأنظمة الشمولية وجودها من خلال فلسفات الأحادية، فوفقًا لها الدولة هي الإله على الأرض. التوحد تحت عقب الدولة المنزهة خلاص، وكل الوسائل التي تؤدي إلى مثل هذا التوحد -مهما كانت مفخخة في باطنها- صحيحة وقد تُستخدم بلا ذرة شك. تؤدي هذه الأحادية السياسية حال الممارسة إلى امتياز مفرط وسلطان زائد للقلة وإلى قمع للأكثرية، وإلى سخطٍ في الوطن وإلى حروبٍ خارجية. لكن الامتيازات المفرطة والسلطان الزائد هي إغراء دائم بالخيلاء والطمع والكبر والقسوة؛ يؤدي القمع إلى الخوف والحسد؛ تزرع الحرب الكراهية والبؤس واليأس. كل هذه المشاعر السلبية مهلكة للحياة الروحية. يمكن فقط لأنقياء القلب ولمَن يشعرون بعوزٍ روحي أن يصلوا إلى معرفة اتحادية بالرب. هكذا، فإن محاولة فرض وحدة أوسع على المجتمعات بدلًا من عناصرها الفردية كفيل بجعل إدراك أولئك الأفراد لوحدتهم مع الأصل الإلهي وبينهم أمرًا من قبيل المستحيل نفسانيًّا إلى حد كبير.

يُعنى المسيحيون والصوفية -الذين نرجع إلى كتاباتهم حاليًا- في الأساس بالعقل البشري والجوهر الرباني.

«أناي هو الرب، لا أدرك أي أنا أخرى سوى ربي نفسه».

القديسة كاثرين من جنوة[1].

«فيما يخص تلك الأمور التي لا تكون النفس فيها مشابهة للرب، فإنها لا تكون كذلك مشابهة لنفسها».

القديس برنارد[2].

«خرجت من الله إلى الله، حتى صاح مني فيّ: يا من أنا أنت».

أبو اليزيد البسطامي.

هناك طرفتان متواترتان عن ذلك القديس الصوفي تستحقان أن نقتبسهما هنا.

'عندما سُئل أبو اليزيد عن عمره، أجاب: «أربع سنين»، تساءلوا: «وما معنى هذا الكلام؟»، قال: «إني كنت في حُجُب الدنيا سبعين سنة، ولكن منذ أربع سنين خرقت الحُجُب وأرى الحق بلا كيفٍ، فلا جرم لا يكون أيام الحجاب إلا أربع سنين من العمر»'. وفي مناسبة أخرى جاء رجل بابه فدَّقه، فقال: 'من تطلب؟' قال: 'ليس في البيت غير الله'.

«كي نُقيِّم النفس، علينا أن نُقيِّمها بالنسبة إلى الرب؛ إذ إن أصل الرب وأصل النفس هما واحد متماثل».

إكهرت.

---

(١) قديسة كاثوليكية رومانية (١٤٤٧ - ١٥١٠): قضت جل حياتها في خدمة المرضى والمعوزين، خاصة أثناء الطاعون الذي اجتاح مدينة جنوة، ولها كتابات صوفية متنوعة.

(٢) القديس برنارد من كليرفو (١٠٩٠ - ١١٥٣): كان رئيسًا للدير الفرنسي وأحد الذين خاضوا غمار إصلاح الرهبنة.

«تكشف الروح عن الرب في طبيعتها المجردة بالضرورة، وتحرز جلاله».

رويسبرويك[1].

«على الرغم من انغماسها بالكلية في واحدية الربوبية، إلا أنها لا تلمس القعر أبدًا. إذ إن جوهر النفس أن تكون بلا حول أمام سبر غور خالقها. وعندئذٍ لا يمكن للواحد أن يواصل الحديث عن النفس؛ إذ إنها قد فقدت طبيعتها بعيدًا هناك في واحدية الجوهر الإلهي. ما عادت تُدعى نفسًا هناك، بل تُدعى بالموجود غير المحدود».

إكهرت

«العارف والمعروف واحد. يظن البسطاء من الناس أن عليهم أن يروا الله، كأنه يقف هناك وهم يقفون هنا. ليس الأمر على هذه الصورة. الله وأنا، نحن واحد في العرفان».

إكهرت

'أنا أحيا، لكنني لست أنا، بل المسيح فيّ'. أو ربما سيكون من الأدق لو استخدمت الفعل في صورته المتعدية وأقول، 'أنا أحيا، لست أنا؛ إذ إن اللوغوس[2] هو مَن يحياني. يحياني كما يحيا الممثل دوره. في مثل هذه الحالة، يكون الممثل دائمًا مهيمنًا على دوره بالطبع. حيثما كنا معنيين بالحياة الواقعية، فلا وجود لشخصيات شكسبيرية، هناك كاتو

---

(١) جون فان رويسبرويك (١٢٩٣ - ١٣٨١): متصوف فلمنكي.

(٢) لفظة يونانية تعني الكلمة أو العقل أو القانون وقد بدأت كمصطلح فلسفي يشير إلى القانون الأول المنظم للعالم وإلى المبدأ الفعال الذي يُسيِّر الحياة، وفهمه القديس يوحنا على أنه المسيح، ثم استخدم دينيًا باعتباره القوة الخارقة والصورة التي يتجلى عليها الله.

الأديسوني[١]، أو هناك بصورة أكبر السيد بيريشون[٢] الغريب أو عمات تشارلي[٣] يخالون أنفسهم يوليوس قيصر[٤] أو أمير الدنمارك[٥]. لكن مع تحلة متسامحة، ففي مقدور كل شخصية درامية أن تجعل خطوطها الوضيعة الغبية شديدة الوضوح، وقد تبدلت بشكل خارق للطبيعة عن طريق ذلك السماوي المكافئ لجاريك[٦].

«آه، يا إلهي، كيف لذلك أن يحدث في هذا العالم العتيق الفقير، كيف

(١) كاتو: هي مأساة كتبها جوزيف أديسون في عام ١٧١٢ وهي تحكي الأحداث الأخيرة لماركوس بورسيوس كاتو حيث جعلت منه مقاومته ليوليوس قيصر أيقونة للحرية.

(٢) إجازة السيد بيريشون، كتاب ألفه أوجين مارين وإدوارد مارتن، حيث يسافر السيد بيريشون وزوجته وابنته في إجازة، في المحطة يقترب منهما شابان يحاولان التقرب منهما بعد أن فتنتهما الابنة. ومن هنا يبدأ صراع بين الشابين على الفوز بالتقرب من الأسرة، ومن ثم الفوز بالفتاة. ينقذ الأول السيد بيريشون من السقوط من فوق الحصان وينال إعجاب الأسرة إلا أن ذلك يثير حفيظة السيد بيريشون ومن ثم يفكر الثاني في حيلة، إذ يتظاهر بالوقوع في كهف وينقذه السيد بيريشون الذي يقربه منه لذلك. دخل بيريشون كذلك في مشاحنة كادت تهدد حياته إلا أن الفتى الأول استطاع حلها وهو ما أدى إلى نتائج غير متوقعة. ينتهي الأمر بفوز الشاب الثاني والذي يفسر للأول أخطاءه، إذ يشير إلى أن السيد بيريشون ليس روحًا سامية، ولذلك فردود فعله ضيقة الأفق وكانت متوقعة.

(٣) عمة تشارلي: كوميديا كتبها براندون توماس عن اللورد فانكورت بابرلي، وهو طالب جامعي أقنعه صديقاه جاك وتشارلي بانتحال شخصية عمة تشارلي، وذلك كي يستطيعا دعوة فتاتين -كانا قد وقعا في غرامهما- إلى منزلهما لإعلان حبهما لهما، تتصاعد الأحداث بوصول عمة تشارلي الحقيقية وتنتهي القصة بثلاثة محبين، الشابان والفتاتان وعمة تشارلي ووالد جاك الأرمل.

(٤) يوليوس قيصر (١٠٠ ق.م. - ٤٤ ق.م.): أحد أشهر أباطرة الرومان، وقد ألف ويليم شكسبير مسرحية حملت اسمه، تستمد أحداثها من قصة حياته.

(٥) يقصد على الأرجح هاملت، وقد كان كذلك أحد أشهر شخصيات شكسبير.

(٦) دايفيد جاريك (١٧١٧ - ١٧٧٩): ممثل إنجليزي وكاتب مسرح شهير، كما عمل مديرًا للمسرح ومنتجًا، وقد كان متداخلًا بشكل كبير ومؤثر في زمانه في صناعة المسرح.

يكون جلالك بهذه العظمة البالغة ومع ذلك لا يستدل عليك أحدهم، كيف تنادي عاليًا جدًّا ولا يسمعك أحدهم، كيف تكون قريبًا للغاية ولا يشعر بك أحدهم، كيف تهب نفسك للكل ولا يعرف أحدهم اسمك؟ يفر الرجال منك ويقولون إنهم لا يستطيعون الاستدلال عليك؛ يدبرون ويقولون إنهم لا يستطيعون رؤيتك؛ يسدون آذانهم ويقولون إنهم لا يستطيعون سماعك!».

هانز دنك.

بين الصوفيين الكاثوليك من القرنين الرابع عشر والخامس عشر والكويكرز من القرن السابع عشر فجوة زمنية عريضة وصادمة -طالما كنا معنيين بالدين- مليئة بحروب السيادة المتبادلة والاضطهاد. لكن سلسلة من الرجال المتعاقبين عملت على رأب الصدع وقد كان كتاب روفوس جونز[١] المُسمَّى 'المصلحون الروحيون' هو العمل الإنجليزي الوحيد المتاح الذي كُرِّس لحيواتهم ولتعاليمهم.

أولئك الرجال أمثال دنك وفرانك وكاستيليو وفيجل[٢] وإفرارد وأفلاطونيو كامبريدج[٣] - بقي التعاقب الدعوي موصولًا على الرغم من القتل والجنون. أعاد الإنجليز الإعلاء من شأن الحقائق التي كان قد تحدث عنها كتاب اللاهوت الألماني[٤] -ذلك الكتاب الذي اعتنقه

(١) روفوس جونز (١٨٦٣ - ١٩٤٨): عالم عقيدة وصحفي وفيلسوف ومؤرخ أمريكي.

(٢) فالنتين فيجل، عالم عقيدة وفيلسوف ألماني (١٥٣٣ - ١٥٨٨).

(٣) مجموعة من اللاهوتيين والفلاسفة في جامعة كامبريدج في منتصف القرن السابع عشر.

(٤) رسالة غامضة، يُعتقد أنها قد كُتبت في أواخر القرن الرابع عشر بواسطة مؤلف مجهول وفقًا لمقدمتها، ولم تَحْظَ بالشهرة والانتشار إلا بعد اهتمام مارتن لوثر بها.

مارتن لوثر[1] بمحبة كبيرة والذي تعلم منه القليل جدًّا للغاية، إذا كان لنا أن نحكم عليه من واقع عمله- في أثناء الحرب الأهلية[2] وتحت الحكم الديكتاتوري لكرومويل[3]، توغل التقليد الصوفي وانتشر بفضل دأب المصلحين الروحيين البروتستانتيين في البيئة الدينية للعصر الذي كتب فيه جورج فوكس[4] 'افتتاحيته' الأولى العظيمة وعرف عن طريق الخبرة المباشرة أن:

«كل الرجال مستنيرون بالنور السماوي للمسيح، رأيته يشرق من خلالهم جميعًا؛ أولئك الذين آمنوا به خرجوا من ظلمات الجُرم وبلغوا نور الحياة وأصبحوا أبناءه؛ وأولئك الذين يبغضونه ولا يؤمنون به، جُرِّموا من قِبله، حتى لو أعلنوا اعتناق مذهب المسيح. رأيت هذا في أبواب النور الزكي، دون معونة من أي شخص، ولم أعرف وقتئذ كذلك أين أجده في النصوص المقدسة، إلا أنني بعد ذلك أخذت أبحث في النصوص المقدسة حتى عثرت عليه».

من جريدة فوكس.

حصل مذهب النور الداخلي على صياغة أوضح في كتابات الجيل

---

(١) مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦): راهب ألماني ومصلح ديني وعالم في اللاهوت، عارض صكوك الغفران، وحُكم عليه بالحرمان الكنسي، ودخل الكثير من الصراعات القاسية. وقد نشأ اللاهوت البروتستانتي عن أفكاره.

(٢) سلسلة من الصراعات المسلحة والسياسية التي اجتاحت مملكة إنجلترا في الفترة بين ١٦٤٢ - ١٦٥١.

(٣) أوليفر كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٥٨): سياسي وعسكري إنجليزي، أعلن إنجلترا جمهورية، وخاض حربًا إلى جانب البرلمانيين ضد الملكيين وهي الحرب الأهلية التي انتهت بانتصار الملكيين.

(٤) جورج فوكس (١٦٢٤ - ١٦٩١): عالم عقيدة إنجليزي.

الثاني للكويكرز. كتب وليام بين[١]: 'هناك ما هو أقرب لنا من النصوص المقدسة، أعني الكلمة التي في القلب التي انبعثت منها كل النصوص المقدسة'. وبعد ذلك بقليل سعى روبرت باركلي[٢] لتفسير الخبرة المباشرة لـ tat tvam asi (ذلك الذي هو أنت بالسنسكريتية) في ضوء لاهوت أوغسطينوس[٣]، والذي احتاج بالتأكيد للكثير من البسط والتشذيب قبل أن يتمكن من استيعاب الحقائق. أعلن في عمله الشهير أن المرء ما هو إلا كائن هاوٍ، غير قادر على اجتراء ما هو حسن، ما لم يتحد بالنور الإلهي. هذا النور الإلهي هو المسيح في النفس البشرية وهو كوني كما هي بذرة الخطيئة. أُنعم على كل البشر -المسيحيين وكذلك الوثنيين- بهذا النور الداخلي، حتى لو كانوا يجهلون تاريخ حياة المسيح في العالم الخارجي. الحق على ناصية أولئك الذين لا يقاومون النور الداخلي وهم بذلك يسمحون لميلادٍ جديدٍ للقداسة في دخائلهم.

«لا يحتاج الصلاح إلى الولوج إلى داخل النفس، فهو هناك بالفعل، هو غير مُدرَك فقط».

اللاهوت الألماني.

«عند النظر إلى عشرات آلاف الأشياء في واحديتها، فإننا نعود إلى الأصل ونبقى حيث كنا دائمًا».

سن تي سن[٤].

---

(١) وليام بين (١٦٤٤ - ١٧١٨): لاهوتي وفيلسوف إنجليزي.

(٢) روبرت باركلي (١٦٤٨ - ١٦٩٠): لاهوتي وكاتب أمريكي.

(٣) القديس أوغسطينوس (٣٥٤ - ٤٣٠): أحد آباء الكنيسة، وتعده الكنيسة الكاثوليكية والأنجليكانية قديسًا.

(٤) سن تي سن (٥٢٠ - ٦٠٦): يعرف باعتباره ثالث بطارقة الزن الصينيين.

«لأننا لا نعرف مَن نحن، لأننا لا نعرف أن مملكة السماء بداخلنا، نتصرف بطرق حمقاء في العموم وماجنة في الغالب وإجرامية أحيانًا، طرق هي من سمات البشر المميزة تمامًا. نجونا وحُرِّرنا واستنرنا عن طريق إدراك الصلاح غير المدرك إلى الآن والموجود بداخلنا بالفعل، وذلك عن طريق العودة إلى أصلنا الخالد والبقاء حيث كنا دائمًا، وهو ما لم نكن عارفين به. تحدث أفلاطون من نفس المنطلق حين قال في الجمهورية إن: 'فضيلة الحكمة تحتوي -أكثر من أي شيء آخر- على عنصر إلهي، يبقى دائمًا' وفي الثئيتتس[١] أشار إلى الأمر الذي يلح كثيرًا عليه أولئك الذين مارسوا التدين الروحي وهو أنه لا يمكننا معرفة الله إلا إذا صرنا ربانيين- وكي نصير ربانيين علينا تعريف أنفسنا بواسطة العنصر الإلهي الذي يشكل في الحقيقة طبيعتنا الجوهرية، لكننا نختار أن نبقى غير واعين به، جهلاء بمحض إرادتنا تمامًا.

الذين يدركون الرب مستعينين بالسماوي الروحي، الذين يعرفون النور بالنور أولئك على درب الحق».

فيلو[٢].

كان فيلو أحد معتنقي الديانة الصوفية الهلنستية نشأ -كما بين بروفيسور جودناف[٣]- بين يهود الشتات في الفترة بين ٢٠٠ ق. م. و١٠٠ ق. م. أعاد تفسير التوراة في ضوء البناء الميتافيزيقي المستمد

(١) واحدة من محاورات أفلاطون، وفيها يتحاور كل من سقراط وتيودوروس وثئيتتس حول ماهية المعرفة.

(٢) فيلو الإسكندرية (٢٠ ق.م - ٥٠ م): فيلسوف يهودي من الحقبة الهلنستية.

(٣) إرفين رامسديل جودناف (١٨٩٣ - ١٩٦٥): أستاذ تاريخ أديان.

من أفلاطون والفيثاغورسية الجديدة[١] والرواقية[٢]، حوَّل فيلو إله العهد القديم المتسامي تمامًا والمتشخص في هيئة البشر نوعًا ما إلى عقل الفلسفة الخالدة المطلق المتجلي المتسامي. لكن حتى عند الكتبة التقليديين والفريسيين[٣] من القرن المصيري الذي شهد إلى جانب انتشار مذاهب فيلو البدايات الأولى للمسيحية وتدمير المعبد في القدس[٤]، وحتى عند حماة القانون نسمع على نحو واضح غمغمات صوفية. ورد عن الحبر العظيم هليل[٥] -الذي تُقرأ تعاليمه في التضرع وفي محبة الرب والإنسان باعتبارها نسخة مبكرة خام لبعض عظات الإنجيل- أنه قد تحدث بالكلمات التالية أمام جمع في أروقة المعبد. 'إذا كنت هنا، فالكل هنا. إذا لم أكن هنا، فلا أحد هنا' (إنه يهوه[٦] يتحدث عبر فم رسوله).

«المحبوب هو الكل في الكل؛ بالكاد يحجبه الحبيب؛

المحبوب هو كل ما يحيا، وما الحبيب إلا ميت».

جلال الدين الرومي.

---

(١) الفيثاغورية: هي مدرسة دينية وفلسفية تعتمد أفكار فيثاغورس وتطرح أفكارًا روحية، وتقوم على قوة الأعداد وترد كل الأشياء إليها. والفيثاغورية الجديدة تعد إحياء جديد لها، ظهرت في الإسكندرية وفي أماكن أخرى.

(٢) مذهب فلسفي نشأ على يد زينون، يدعو إلى التناغم مع الكون.

(٣) الفريسيون: حزب سياسي ديني ظهر في القرن الأول الميلادي بين اليهود في فلسطين.

(٤) معبد القدس أو الهيكل بحسب اليهود هو كرسي الله على الأرض، وقد بُني ودُمر أكثر من مرة، آخرها عام ٧٠ م على يد الرومان.

(٥) هليل (١١٠ ق.م. - ١٠م): حبر يهودي اشتغل على تطوير التلمود.

(٦) اسم الله في التوراة.

«هناك روح في النفس، لا يمسها الزمن أو الجسد، تسري من الروح، تبقى في الروح، هي نفسها روحية تمامًا. الرب في هذا المبدأ، نضر دائمًا، مزهر دائمًا بكل البهجة والمجد التي لنفسه الفعلية. أطلقت على هذا المبدأ أحيانًا مثوى النفس، وأحيانًا النور الروحي، لحظة أقول إنها شرارة. لكنني أقول الآن إنه أجلُّ من هذا كما هي السماوات أجلُّ من الأرض. لذلك أسميه بطريقة أكثر نبلًا... هو خلو من الأسماء ومجرد من الأشكال. هو واحد وبسيط، كما هو الرب واحد وبسيط، ومن غير الممكن لأي شخص القبض عليه مهما أُوتي من فطنة».

إكهرت.

نعثر على صياغات خام لبعض مذاهب الفلسفة الخالدة في الأنظمة الفكرية للشعوب غير المتحضرة، أو ما يُطلق عليها شعوب العالم البدائية. على سبيل المثال، يشيع بين الماوري[١] النظر إلى كل بشري على أنه مكون من أربعة عناصر - مبدأ إلهي خالد يعرف باسم «تيورا»؛ وأنا تختفي عند الموت؛ وظل شبحي أو نفس تواصل البقاء مع الموت؛ وأخيرًا جسد. يُدعى العنصر الإلهي بين الأوجلالا[٢] سيكان، ويعد مماثلًا للتون أو للجوهر الإلهي للعالم. بقية عناصر النفس هي ناجي، أو الشخصية، ونيبا، أو النفس الحية. يعاود سيكان الاتحاد مع الأصل الإلهي لكل الأشياء بعد الموت، يواصل ناجي الحياة في العالم الشبحي للظاهرة النفسية ويختفي نيبا في الكون المادي.

---

(١) الماوري: هم السكان الأصليون لنيوزيلندا وجزر كوك.

(٢) واحدة من سبع قبائل تشكل معًا قبائل لاكوتا، وهي واحدة من قبائل السكان الأصليين لأمريكا المعروفين بهنود السهول.

هل في إمكاننا استبعاد احتمال تأثر مجتمعات القرن العشرين 'البدائية' ببعض الثقافات الأعلى أو استعارتها منها. يترتب على ذلك، ألا يحق لنا البرهنة على الماضي من الحاضر. لا يحق لنا الاستدلال دون تروٍّ على أن لرجال العصر الحجري الحديث والعصر الحجري القديم رؤى مماثلة، انطلاقًا من أن لكثير من القبائل البربرية المعاصرة فلسفة توحيدية مضمرة، وهو توحيد يكون أحيانًا على شاكلة 'ذلك هو أنت'.

الاستدلال القائم على ما نعرفه عن الفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) والسيكولوجيا الخاصين بنا أكثر جوازًا ومعقولية. نعرف أن العقول البشرية برهنت على كونها قادرة على كل شيء من البلاهة حتى نظرية الكم ومن كفاحي **Mein Kampf**[١]، والسادية حتى قداسة فيليب نيري[٢]، ومن الميتافيزيقا إلى ألغاز الكلمات المتقاطعة وسياسات القوة[٣] و**Missa Solemnis**[٤]. ونعرف كذلك أن العقول البشرية مرتبطة على نحو ما مع الأمخاخ البشرية، ولدينا أسباب وافرة نوعًا لافتراض أن هذه الأمخاخ لم تتغير بشكل مؤثر في الحجم أو الهيئة لعدة آلاف كثيرة من السنين. على ذلك، يبدو من المعقول الاستدلال على أن العقول البشرية في الماضي السحيق كانت قادرة على أنواع عديدة من النشاط وعلى درجات مختلفة منه، كما هي العقول في الوقت الحاضر.

مع ذلك، من المؤكد أن كثيرًا من الأنشطة التي تتصدى لها بعض

---

(١) كتاب سيرة ذاتية لأدولف هتلر.

(٢) فيليب رومولو نيري (١٥١٥ - ١٥٩٥): كاهن إيطالي أسس لمجتمع ديني علماني.

(٣) سياسات تقوم في الأساس على استخدام القوة (عسكريًا أو اقتصاديًا).

(٤) واحدة من مؤلفات بيتهوفن الموسيقية.

العقول في الوقت الحاضر، لم تتصدَّ لها أي عقول في الماضي السحيق مطلقًا. هناك أسباب متعددة وواضحة لهذا. لا يمكن تدبر بعض الأفكار عمليًّا إلا في ظل لغة مناسبة وضمن إطار عمل لنظام تصنيف مناسب. وحيثما لا تتوفر مثل هذه الأدوات اللازمة، لا يمكن التعبير عن مثل هذه الأفكار موضع التساؤل، بل لا يمكن حتى إدراكها. وليس هذا كل شيء: فالدافع إلى تنمية أدوات تفكير من نوع ما غير موجود دائمًا. لأزمنة تاريخية وما قبل تاريخية طويلة، بدا أن الرجال والنساء لا يرغبون في توجيه انتباههم صوب معضلات، وجدت ذريتهم أنها مثيرة أخاذة، وذلك على الرغم من مقدرتهم التامة على القيام بذلك. على سبيل المثال، ليس هناك سبب لافتراض أن العقل البشري بين القرنين الثالث عشر والعشرين قد مر بأي شكل من أشكال التغيرات التطورية مقارنة بالتغير -فلنقل- الذي حدث للتركيب التشريحي لحافر الحصان على مدار فترة جيولوجية طويلة، لا تقارن. ما حدث أن البشر قد حوَّلوا انتباههم من أوجه معينة للواقع نحو أوجه أخرى. وكانت نتيجة ذلك -من بين نتائج أخرى- نشأة العلوم الطبيعية. توجه إرادتنا مداركنا وفهمنا بدرجة كبيرة. ننتبه إلى الأشياء التي نريد أن نراها ونفكر فيها ونفهمها لسبب أو آخر. أينما وُجدت الإرادة، وُجد مسار الذهن. تكاد طاقات العقل البشري أن تكون بلا حد في عظمتها. أيًّا ما كان ما سوف نقوم به -سواء كان له أن يصل إلى المعرفة الاتحادية للربوبية أو إلى صناعة مطلقات اللهب ذاتية القذف- فإننا قادرون على القيام به بشرط أن تنعقد له إرادة كافية مستحكمة وثابتة. ومن الجلي أن كثيرًا من الأشياء التي اختار الرجال المعاصرون أن يعيروها انتباههم، قد أهملها أسلافهم. ترتب على ذلك

أن بقيت سبل التفكير الواضح والمثمر في مثل تلك الأمور غير مُعبَّدَة، ولا ينطبق ذلك على عصور ما قبل التاريخ فقط بل استمر حتى بدايات العصر الحديث. أذكر هاهنا سببين كافيين لتفسير بقاء الكثير للغاية من إمكانات العقل البشري التي لا يحدها تقريبًا أي حد غير متحققة لفترة زمنية طويلة جدًّا – أولًا، قصور الحصيلة اللغوية المناسبة وإطار الإسناد اللازم، وغياب أي رغبة قوية ومستمرة لابتكار الأدوات الضرورية للتفكير. هناك سبب آخر قاطع ومكافئ للسبب الأول ألا وهو: أن كثيرًا من أفكار العالم الأصيلة والمثمرة قام بها أشخاص ضعاف البنية، لهم طريقة تفكير مميزة غير عملية أبدًا. ولأن الأمر على هذه الصورة ولأنه قد عُرفت قيمة التفكير المجرد بصورة واضحة نوعًا –سواء كان التفكير تحليليًّا أو تكامليًّا– فقد أرسيت –ولا تزال ترسي– في كل المجتمعات المتحضرة قواعد من أجل توفير معايير الحماية للمفكرين من الانهاك المعتاد ومن ضغوط الحياة الاجتماعية. الصومعة والدير والكلية والأكاديمية ومعمل البحث، ووعاء الهبات والهبات والرعاية وإسهامات أموال دافعي الضرائب – هي الأدوات الرئيسة التي استخدمها النافذون من أجل حماية رفيقنا النادر، المفكر في الدين أو الفلسفة أو الفن أو العلم. عادةً ما تكون الأحوال قاسية في كثير من المجتمعات البدائية، حيث لا وجود لفائض من الثروة. على المفكر الوليد أن يكافح من أجل البقاء وأن يصارع من أجل السيادة المجتمعية بدون حماية. النتيجة، أنه في أغلب الأحيان إما أن يموت صغيرًا في السن وإما أن يصير منشغلًا في استماتة كي يبقى بالكاد على قيد الحياة وبذلك لا يكون قادرًا على تكريس انتباهه لأي شيء آخر. عندما يحدث هذا، تصبح الفلسفة

المهيمنة هي انعقاد السيادة للرجل المكافح الجسور غير المتحفظ.

يلقي كل هذا ببعض الضوء الشاحب على معضلة سرمدية الفلسفة الخالدة. اعتُبرت النصوص المقدسة في الهند، لا بمثابة فتوح أُلهمت عند لحظة تاريخية معينة، بل بمثابة أناجيل موجودة منذ أبد الآبدين وإلى أبد الآبدين؛ فهي معاصرة للإنسان بقدر ما هي معاصرة لأي كائن من أي نوع متجسد أو غير متجسد طالما يتملك المنطق منه. كان لأرسطو منظور مماثل، إذ اعتبر حقائق الدين الجوهرية أزلية وغير فانية. كانت هناك قيامات وانهيارات، وفترات (هي حرفيًّا مسارات دائرية أو دوائر) من التقدم والتراجع؛ لكن الإنسان رغم ذلك كان على وعي دائم بالحقيقة الكبرى عن الرب، وأنه المحرك الأول لكون معزوٍّ بالكامل إلى ذاته الإلهية. في ضوء ما نعرفه عن إنسان ما قبل التاريخ (وما نعرفه لا يزيد عن قطع قليلة من الصخور وبعض الصور والرسوم والمنحوتات فقط)، وفي ضوء ما قد نستدل عليه بشكل سليم من مجالات المعرفة الأخرى الأفضل توثيقًا، ما الذي ينبغي أن نفكر فيه بخصوص هذه المعتقدات التي تعود إلى تلك الجماعات البدائية؟ وجهة نظري الخاصة أنها قد تكون صحيحة. نعرف أنه على مر التاريخ المدون جاء ميلاد المفكرين المنتمين إلى كل من حقلي التفكير التحليلي والتكاملي في أعداد معتبرة وعلى فترات زمنية متقاربة. لذلك فإن هناك من الأسباب ما يجعلنا نفترض مجيء مثل هؤلاء المفكرين قبل تدوين التاريخ. ومن المؤكد أن كثيرًا من أولئك الأشخاص قد توفوا صغارًا في السن أو لم يقدروا على ممارسة مهاراتهم. لكن من المؤكد كذلك أن قلة منهم قد ظلت على قيد الحياة. نعثر في هذا السياق على نمطين للتفكير بين البدائيين

المعاصرين لنا، نمط للعامة، للكثرة غير المتفلسفة ونمط للخاصة، القلة المبادرة (وهو نمط توحيدي في الغالب، مع اعتقاد في الرب، لا في قدرته فقط لكن في ربوبيته وحكمته)، وهو الأمر الذي يحمل دلالة كبيرة. لا وجود لأدنى سبب لافتراض أن الأجواء قد كانت أصعب بالنسبة إلى إنسان ما قبل التاريخ عما هي عليه بالنسبة إلى البدائيين المعاصرين. لكن إذا كان توحيد الخاصة -من هذا النوع الذي يبدو كأنه يجيء للمفكرين بالفطرة وعلى نحو طبيعي- ممكنًا في المجتمعات البدائية الحديثة -التي تقبل غالبية أفرادها بذلك النوع من الفلسفات التعددية التي يبدو كأنها تجيء طبيعيًّا للبشر من أهل الكفاح- فمن المحتمل وجود مذهب مماثل للخاصة سارٍ في مجتمعات ما قبل التاريخ. من الصحيح أن مذاهب الخاصة الحديثة قد تكون مستقاة من ثقافات أعلى، لكن تبقى الحقيقة ذات الدلالة متمثلة في أنه إذا كانت حقًّا مستقاة على هذا النحو، إلا أنها لا تزال تحمل معنًى بالنسبة لأفراد معينين في المجتمع البدائي، وقد اعتبرت قيمة بالقدر الكافي للإبقاء عليها والاعتناء بها. لقد وجدنا أن هناك العديد من الأفكار التي لا يمكن تصورها إلا في وجود حصيلة لغوية وإطار إسناد مناسبين. لكن الأفكار الجوهرية للفلسفة الخالدة يمكن صياغتها باستخدام حصيلة لغوية بسيطة للغاية، أما الخبرات التي تدل عليها الأفكار فيمكن -بل في الحقيقة يجب- الحصول عليها مباشرة بغض النظر عن أي حصيلة لغوية أيًّا ما كانت. لقد سلَّموا بالفتوح العجيبة والظهور الإلهي[١] من أجل التهدئة من روع الأطفال الصغار الذين يتأثرون بشكل عميق أبدي

---

(١) يقصد بها تجسد الإله في صورة إنسان أو أي مخلوق آخر أو تجليه.

بهذه الخبرات. لا يوجد لدينا أدنى سبب لافتراض أن ما يحدث الآن لأناس حصيلتهم ضئيلة، لم يحدث في عصور سحيقة. يميل الطفل في العالم الحديث إلى أن هجر وعيه المباشر بأصل الأشياء الواحد (كما حدث فوجان[1] وتراهيرن[2] ووردزوورث[3] من بين آخرين)؛ لصالح الاعتياد على التفكير التحليلي وهو الأمر القاتل لبداهة التفكير التكاملي، سواء على المستوى النفساني أو الروحي. قد تكون الشواغل النفسانية عقبة ضخمة أمام الروحانية الحقيقية، بل هي في الغالب عقبة كؤود. كان هناك الكثير من الانشغال بالتفكير النفساني وانتشرت مهارات هذا التفكير في المجتمعات البدائية الموجودة حاليًا (وربما تلك التي كانت موجودة في الماضي البعيد). لكن قلة قليلة هي التي وجدت طريقها عبر ما هو نفساني نحو الخبرة الروحية الحقيقية - ينطبق الأمر نفسه تمامًا على المجتمعات الصناعية المعاصرة؛ إذ إن قلة قليلة هي مَن وجدت طريقها واستطاعت الخروج من الانشغال السائد بالمادة وتبني عادات التفكير التحليلي السائدة نحو الخبرة المباشرة بأصل الأشياء الروحي.

ها هنا إذَنْ باختصار الأسباب الكامنة وراء الاعتقاد في أن التقاليد التاريخية الشرقية ومواريثنا الكلاسيكية الخاصة قد تكون صائبة. من المثير أن نجد عالم إثنيات (أعراق) متميز ومعاصر متفق بصورة كبيرة مع أرسطو والفيداايين[4]. كتب د. بول رادين[5] في كتابه 'الرجل البدائي

(١) هنري فوجان (١٦٢١ - ١٦٩٥): شاعر ومترجم وطبيب وباحث في الميتافيزيقا من ويلز.

(٢) توماس تراهيرن (١٦٣٦ - ١٦٧٤): شاعر وعالم في اللاهوت إنجليزي.

(٣) ويليام ووردزوورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠): شاعر إنجليزي.

(٤) نسبة إلى الفيدا، والمقصود المؤمنون بالفيدا.

(٥) بول رادين (١٨٨٣ - ١٩٥٩): عالم أنثروبولوجيا أمريكي.

كفيلسوف' أن 'علم الإثنيات (الأعراق) التقليدي لم يكن إلا محاولة حماسية وغير دقيقة أبدًا لتطبيق النظرية الداروينية للتطور على حقائق الخبرة الاجتماعية'. وقد أضاف أنه 'لن يتحقق أي تقدم في علم الإثنيات (الأعراق) إلا إذا خلَّص الدارسون أنفسهم مرة واحدة وإلى الأبد من المفهوم الغريب الذاهب إلى أن كل شيء يملك تاريخًا؛ وحتى يدركوا أن بعض الأفكار وبعض المفاهيم هي مطلقة بالنسبة إلى الإنسان من جانبه الاجتماعي، كما هي بعض التفاعلات الفسيولوجية مطلقة بالنسبة إلى الإنسان من جانبه البيولوجي'. وفقًا لمنظور د. رادين، فالتوحيد هو أحد هذه المفاهيم المطلقة. في كثير من الأحيان لا يكون مثل هذا التوحيد إلا إدراكًا لقوة مفردة خفية خارقة تحكم العالم، لكنه قد يكون أحيانًا معنويًا وروحيًا حقًّا.

مال القرن التاسع عشر -المهووس بالتاريخ والطوباوية المنتظرة- إلى كف بصر الجميع -حتى أصحاب البصيرة الحادة من المفكرين- عن حقائق الأزل السرمدية. هكذا نجد توماس هيل جرين[1] يكتب عن الاتحاد الصوفي باعتباره عملية تطورية، لا باعتباره أمرًا كان طوال الوقت ضمن قدرة الإنسان على الإدراك، وذلك لا لشيء إلا لأنه إنسان: 'يتحول الكائن المنتمي إلى مملكة الحيوان والذي له تاريخه في الزمن تدريجيًّا إلى حاملٍ للوعي الكامل الأزلي، لا يمكن أن يملك الوعي في حد ذاته أي تاريخ، إلا تاريخًا للعملية التي يصبح بها الكائن المنتمي إلى مملكة الحيوان حاملًا له'. لكن في الواقع الفعلي لم يكن هناك أي تطور

---

(١) توماس هيل جرين (١٨٣٦ - ١٨٨٢): فيلسوف ومصلح وسياسي إنجليزي.

تاريخي حقيقي إلا فيما يخص المعارف الهامشية. ودون مرور الكثير من الوقت وتراكم الكثير من المهارات والمعلومات، ما كانت لتتشكل إلا معارف ناقصة عن الكون المادي. لكن الإدراك المباشر «للوعي أزلي الكمال» الذي هو أصل العالم المادي من المحتمل أن يتحصل عليه بعض البشر أحيانًا في أي مرحلة من مراحل تطورهم الشخصي من الطفولة إلى الكهولة، وفي أي حقبة زمنية لتاريخ هذا العرق.



* * *

الفصل الثاني

طبيعة الأصل

كنا قد بدأنا من نقطة تمثل معتقدًا نفسانيًّا 'ذلك هو أنت'. السؤال الذي يطرح نفسه الآن بشكل طبيعي تمامًا هو سؤال ميتافيزيقي: ما هو ذلك الذي يمكن لأنت اكتشاف مماثلتها له؟

لطالما أعطت الفلسفة الخالدة المستقرة تمامًا الإجابة نفسها بالأساس في كل الأزمنة وكل الأمكنة. الأساس الإلهي لكل وجود هو مطلق روحاني، من غير الممكن التعبير عنه باصطلاحات التفكير المنظم الاستطرادي، لكن من المتاح للإنسان أن يختبره ويدركه مباشرة (في أحوال معينة). هذا المطلق هو الرب غير المحدود بهيئة وفقًا للأساليب اللغوية للصوفية الهندوسية والمسيحية. غاية الإنسان القصوى والسبب النهائي لوجود الإنسان المعرفة الاتحادية بالأصل الإلهي - المعرفة التي يمكن أن تتأتى فقط للمستعدين 'لإفناء الذات'، هم بذلك يخلقون حيزًا للرب (أو أيًّا ما قد يكون). قلة قليلة من كل جيل من الرجال والنساء سوف تحرز الغاية النهائية لوجود الإنسان؛ غير أن فرصة بلوغ المعرفة الاتحادية سوف تبقى -على نحو ما أو الآخر- متاحة بشكل دائم ومستمر حتى تدرك كل الكائنات ذات الحس ما هي عليه في الحقيقة.

للأصل المطلق لكل الوجود ملمح شخصي[1]. تتجلى فعالية البراهمان في الإيشفارا[2]، ومن ثم تتجلى الإيشفارا في الثالوث الهندوسي[3]، ثم تتجلى عبر تحول أبعد في أرباب أو ملائكة مجمع الآلهة الهندي الأخرى. على نحو مماثل، يتجلى الجوهر الإلهي للعقائد الصوفية المسيحية الذي لا مثيل له ولا يمكن التعبير عنه في ثالوث من الأشخاص (الأقانيم)، من الممكن عزو بعض الخصائص الإنسانية لهم مثل الصلاح والحكمة والرحمة والحب، لكن بدرجة مجاوزة للغاية.

ختامًا، هناك حلول للرب في الإنسان الذي يمتلك خواص صفة الرب الشخصي نفسها، لكنه يكشف عنها ضمن الحدود المفروضة بالضرورة بسبب انحباسه ضمن حدود جسد مادي وُلِد في العالم عند لحظة زمنية ما. بالنسبة إلى المسيحيين لم يوجد -ولا يمكن أن يوجد- إلا حلول إلهي واحد مثل هذا وفقًا للمعتقد؛ بالنسبة للهنود يمكن أن يوجد -وقد كان هناك- الكثير. في البلاد المسيحية وكذلك في بلاد الشرق يدرك المتأملون الذين يسلكون طريق التبتل الحلول كحقيقة راسخة متجددة للخبرة وهم يقبضون عليها على نحو مباشر بالفعل. يتولد المسيح دائمًا داخل الروح بواسطة الآب، وحكاية كريشنا[4] هي الرمز التاريخي

---

(١) الإله الشخصي: هو الإله الذي تكون له ذات وشخص.. عكس الإله غير الشخصي الذي يكون مطلقًا وكليًّا وغير نسبي.. يمتلك الإله الشخصي صفات إنسانية متجسدة فهو يسمع ويبصر ويغضب ويرضى.

(٢) إيشفارا: مفهوم في الفلسفة الهندوسية يعني المتحكم أو الإله.

(٣) الثالوث الهندوسي: تؤمن الهندوسية في ثالوث من الآلهة، هم: براهما (الخالق)، وفشنو (الحافظ)، وشيفا (المدمر).

(٤) كريشنا: أحد آلهة الهندوسية ويمثل عادة في صورة ولد راعي بقر يعزف الناي، ويُعبد باعتباره أفاتار (تجسد) فيشنو.

المموه عليه للحقيقة النفسانية والميتافيزيقية الخالدة - الحقيقة الذاهبة إلى أنه بالنسبة للرب، تكون الروح الشخصية دائمًا أنثى وسلبية.

تلقن الماهايانا البوذية التعاليم الميتافيزيقية نفسها في صورة 'الأجساد الثلاثة' لبوذا - الدارماكايا المطلق والمعروف أيضًا باعتباره بوذا الابتدائي أو العقل أو ضوء الخواء الصافي؛ والسامبهوجاكايا المقابلة لإيشفارا أو الرب الشخصي للبوذية والمسيحية والإسلام؛ وأخيرًا النيرماناكايا، الجسد المادي الذي يحل فيه اللوغوس على الأرض ككائن حي، بوذا التاريخي.

يبدو المتصوفة وقد ذهبوا إلى اعتبار الحق / الحقيقة عمق الجوهر الإلهي فيما وراء الله الشخصي، بينما استُخرج النبي من التاريخ واعتبر حلولًا للوغوس.

يمكن الحصول على تصورٍ عن الثراء الذي لا ينضب للطبيعة الإلهية عن طريق تحليل التبتل الذي تبدأ به الصلاة الربية[1] كلمة بكلمة - 'أبانا الذي في السماوات'. الرب لنا - لنا بنفس المعنى الحميمي الذي يكون به وعينا لنا وحياتنا لنا. لكن بالإضافة إلى كونه لنا بشكلٍ جلي، فالرب كذلك هو الأب الشخصي في سمو، يحب مخلوقاته، ويدينون له بالحب والولاء في المقابل. 'أبانا الذي' عندما نأتي إلى التفكر في الاسم الموصول بمفرده، ندرك أن الرب الشخصي المتسامي المتجلي هو كذلك الواحد المتسامي المتجلي، جوهر ومبدأ كل وجود. وختامًا، كون الرب 'في السماوات'؛ الطبيعة الإلهية مختلفة عن طبيعة المخلوقات

---

(١) الصلاة الربية: صلاة مسيحية أوصى بها المسيح، وهي مذكورة في الإنجيل.

الذين يتجلى فيهم الرب ولا تُقارن بهم. ولذلك لا نحصل على المعرفة الاتحادية بالرب إلا عندما نصبح بقدر ما ربانيين، عندما نسمح لمملكة الرب بالتغلغل فينا، ما يذهب بمخلوقيتنا.

يمكن التعبد للرب وتأمله في أيٍّ من تجلياته. لكن من أجل المثابرة على السير في درب التعبد هناك تجلٍّ واحد يَجُبُّ كل البقية، ألا وهو المجازفة باقتحام دروب الروحانية العسيرة. على ذلك، لو تقربنا إلى الرب من خلال تصوراتنا المسبقة أنه حاكم العالم الجبار المتسامي الشخصي بلا شريك، فنحن نخاطر بالتورط في تدين طقوسي وقرابين تكفيرية (أحيانًا ما تكون في أكثر صورها إثارة للرعب) وامتثالات شرعية. لا مناص من ذلك؛ إذا ما كان الرب هناك مهيمنًا لا يمكن الوصول إليه، يطلق أوامرَ ملغزة. وهو نوع من التدين مناسب تمامًا لشكل العالم. أفضل ما يمكن أن يقال عن التشريع الطقوسي إنه يشذب السلوك. غير أنه لا يقدم إلا القليل فيما يتعلق بتعديل الشمائل، ولا شيء فيما يتعلق بتغيير الوعي.

تصبح الأمور أفضل كثيرًا عند النظر إلى الرب الشخصي المتسامي المهيمن بلا شريك باعتباره أبًا محبًّا كذلك. يغير التعبد المكرس لمثل هذا الرب من الشمائل كما يغير من السلوك، كما يقدم ما يعدِّل من الوعي. لكن تحول الوعي الكامل نحو 'الاستنارة' و'الخلاص' و'النجاة' لا يكون إلا عند النظر إلى الرب على الصورة التي تؤكد الفلسفة الخالدة على أنه عليها - متجلٍّ بالإضافة إلى تساميه، مفارق ومجاوز لما هو شخصي وكذلك شخصي - ولا تكون إلا عند توفيق الممارسات الدينية مع هذا المفهوم.

عند النظر إلى الرب باعتباره تجليًا محضًا، يُهجر التقيد الحرفي بالشرع وتُهجر الممارسات الخارجية ويصبح هناك تركيز على النور الداخلي. تكتنف ذلك مخاطر كالتسليم (السكينية)[1] والكفر بالتشريع، والتحول الجزئي للوعي وهو تحول غير مفيد بل ربما يكون ضارًّا؛ لأنه لا يكون مصحوبًا بتبدل الشمائل وهو المتطلب الضروري من أجل التبدل الكامل والكلي والمثمر روحانيًّا للوعي.

أخيرًا، من الممكن التدبر في الرب باعتباره كيانًا مجاوزًا لما هو شخصي فقط. يعد هذا المفهوم بالنسبة إلى بعض الأشخاص 'فلسفيًّا' للغاية كي يوفر دافعًا مناسبًا من أجل تقديم أي شيء عملي يتعلق بمعتقداتهم. لذلك لا قيمة له بالنسبة لهم.

سوف يكون من الخطأ بالتأكيد افتراض أن أولئك الذين يتعبدون إلى تجلٍّ واحد للرب يجُبّ كل البقية يجب أن يمروا -لا مناص- بمختلف العثرات المشار إليها سابقًا. لو لم يكونوا متعنتين للغاية فيما يتعلق بمعتقداتهم المسبقة، لو أنهم أذعنوا لما يحدث لهم في خضم عملية التعبد، ربما يفصح لهم الرب الذي هو متجلٍّ ومتسامٍ في ذات الآن والذي هو شخصي ويفوق ما هو شخصي في ذات الآن عن نفسه في كماله. مع ذلك، تبقى الحقيقة القائمة أنه من الأسهل لنا بلوغ هدفنا إذا لم نكن مكبلين بزمرة من المعتقدات الخاطئة وغير الملائمة عن الطريقة الصحيحة للوصول هناك وعن طبيعة ما نبحث عنه.

---

(١) السكينية **quietism**: ويقصد بها نظام من المعتقدات الغيبية، يلغي الإرادة الإنسانية، ويعلن أن السلام الداخلي في التأمل السلبي في الرب والأشياء السماوية.

«مَن الرب؟ لا يمكنني التفكير في إجابة أفضل من أنه هو هو. لا وجود لما هو أكثر ملاءمة من ذلك للتعبير عن سرمدية الرب. إذا ما أطلقت على الرب أنه خيِّر أو عظيم أو مقدس أو حكيم أو أي شيء آخر على غرار هذا، فذلك مضمن في هذه الكلمات، ما يعني أنه هو هو».

القديس برنارد.

«الغاية من وراء كل الكلمات توضيح معنى شيء ما. عند الاستماع إليها، يجب أن تمكن المستمع من فهم هذا المعنى، وهذا وفقًا للفئات الأربع، المادة والحركة والصفة والعلاقة. على سبيل المثال، تنتمي البقرة والحصان إلى فئة المادة. هو يطبخ أو هو يصلي ينتميان إلى فئة الحركة. الأبيض والأسود ينتميان إلى فئة الصفة. امتلاك مال أو حيازة بقرة ينتميان إلى فئة العلاقة. نرى الآن أنه لا وجود لفئة مادة ينتمي إليها البراهمان، إذ لا وجود لجنس مشترك، يجمعه بأي شيء. لذلك من غير الممكن الإشارة إليه بكلمات تدل على فئة الأشياء، على غرار 'إنه' بمعناها المعتاد. كذلك لا يمكن الإشارة إليه من خلال الصفات، إذ إنه بلا صفات؛ ولا يمكن الإشارة إليه عن طريق الحركات أيضًا، لأنه بلا حركة - ثابت، بلا أجزاء أو حركة،' بحسب النصوص المقدسة. ولا يمكن الإشارة إليه عن طريق العلاقات؛ إذ إنه 'بلا شريك' وهو ليس مضمون أي شيء إلا ذاته نفسها. لذلك لا يمكن تعريفه بالكلمات أو التصورات؛ كما تقول النصوص المقدسة، هو الواحد 'تعجز الكلمات أمامه'».

شانكارا.

«انبعثت الأرض والسماوات من اللااسم، ما المسميات إلا الرؤوم التي تُنشِّئ العشرة آلاف مخلوق، كلًّا تبع نوعه.

في الحقيقة، 'إنه ذلك الذي ينزه نفسه دائمًا أبدًا عن الشهوة في إمكانه رؤية الجواهر السرية'.

أما ذلك الذي لم ينزه نفسه أبدًا عن الشهوة، لا يمكنه أن يرى إلا الأعراض».

لاو تسو[١].

«أحد أعظم النعم التي تُسبَغ على النفس مؤقتًا في هذه الحياة تمكينها من الفهم الواضح تمامًا أنه من غير الممكن لها استيعاب الرب على الإطلاق وشعورها العميق بذلك. تشبه هذه الأنفس ها هنا إلى حد ما القديسين في السماوات، إذ يدرك بوضوح مَن يعرفونه حق المعرفة أنه غير قابل للاستيعاب مطلقًا؛ أما أصحاب الرؤى الأقل وضوحًا فلا يدركون -مقارنة بأولئك الآخرين- كيف يجاوز رؤاهم كثيرًا».

القديس يوحنا الصليبي[٢].

«عندما أفارق مقام الألوهة إلى مقام التعدد، تجهر كل الأشياء، 'هناك رب' (الخالق الشخصي). من غير الممكن لذلك أن يبهجني الآن، إذ أدرك نفسي هاهنا باعتباري مخلوقًا، لكنني عند لحظة الكشف يتبين لي أنني أرفع من كل المخلوقات؛ لست إلهًا ولست مخلوقًا؛ إنني ذلك الذي كنته وما سأبقى عليه، ما أنا عليه الآن وما سأكون عليه إلى الأبد. ملأتني هذه النكزة ثراء، إذ لم يعد الرب كافيًا بالنسبة لي، طالما كان ربًّا قائمًا بالأعمال السماوية فقط. فلقد أدركت المشترك بيني وبين الرب

---

(١) لاو تسو (٦٠٤ ق.م - ٥٣١ ق.م): فيلسوف صيني وأحد حكماء الطاوية.

(٢) يوحنا الصليب (١٥٤٢ - ١٥٩١): متصوف أسباني وقديس كاثوليكي.

خلال ذلك الكشف. فيه أكون ما كنته. فيه لا أزيد ولا أنقص. إذ إنني فيه غير المتحرك الذي يحرك كل الأشياء. بلغ الإنسان هنا من جديد ما هو عليه أبدًا وما سوف يكون عليه دوما. هنا قرَّ الرب في النفس».

إكهرت.

«يترك جوهر الألوهة كل شيء للرب. جوهر الألوهة فقير وعارٍ وفارغ كما لو أنه لم يكن، لم يحظَ، لن يكون، لا يريد، لا يعمل، لا يحصل. إنه الرب الذي يحظَى بالكنز والعروس[1] فيه، جوهر الألوهة مثله كمثل الخواء، كما لو أنه لم يكن».

إكهرت.

يمكننا تفهم بعض ما يقع فيما وراء خبرتنا بالتفكر في الحالات المشابهة التي تقع في نطاق خبرتنا. هكذا، تبدو العلاقات القائمة بين العالم والرب وبين الرب والجوهر الإلهي مشابهة -بمعيار ما على الأقل- لتلك القائمة بين الجسد (في بيئته) وما هو نفساني، وبين ما هو نفساني والروح. في ضوء ما نعرفه عن العلاقات الثانية -وما نعرفه ليس بالقدر الكبير للأسف- قد نكون قادرين على تشكيل مفاهيم عن العلاقات الأولى، وهي المفاهيم التي لن تكون محبطة للغاية، ولن تكون غير سليمة كثيرًا.

يؤثر العقل في جسده بأربع طرق - بشكل غير واعٍ عن طريق الذكاء الفسيولوجي المحكم على نحو يفوق التصور، الذي صاغه دريتش[2]

(١) يشار في المسيحية إلى الكنيسة باعتبارها عروس المسيح.

(٢) هانز دريتش (١٨٦٧ - ١٩٤١): عالم أحياء وفيلسوف ألماني، له أبحاثه في علوم الأجنة كما أسس للمذهب الحيوي الجديد (الإنتلخيا).

تحت اسم الإنتلخيا[١]؛ وبشكل واعٍ، عن طريق أفعال الإرادة المقصودة؛ وبشكل غير واعٍ مرة أخرى، عن طريق استجابات الكائن الفيزيائي لحالات المشاعر التي لا علاقة لها بالأعضاء والعمليات الحيوية التي تؤثر فيها؛ وبشكل واعٍ أو غير واعٍ يتعلق بظواهر 'فوق طبيعية' معينة. يمكن للمادة خارج الجسد أن تتأثر بالعقل عبر سبيلين - أولهما، عن طريق الجسد، وثانيهما عن طريق عملية 'فوق طبيعية'، دُرِست مؤخرًا في ظروف معملية ووُصفت 'بتأثير PK'[٢]. على نحو مماثل يمكن للعقل أن يقيم علاقات مع العقول الأخرى، سواء كان ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر، سواء كان ذلك عن طريق ترغيب جسده في القيام بأفعال رمزية مثل الحديث أو الكتابة؛ أو بشكل 'فوق طبيعي' عن طريق التواصل المباشر عبر قراءة الأفكار والتليباثي (التخاطر) والإدراك فوق الحسي.

دعنا نلقي نظرة أكثر قربًا قليلًا على هذه العلاقات. في بعض المستويات يعمل الذكاء الفسيولوجي بذاته منطلقًا من لدنه، على سبيل المثال عند توجيهه للعمليات العصبية الحاكمة للتنفس أو للامتصاص. في بعض المستويات الأخرى يعمل بناء على تعليمات العقل الواعي،

---

(١) الكمال الأول أو الإنتلخيا: في فلسفة أرسطو هو الغاية المتحققة أو المبدأ الفعال لتحويل الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل ويقوم تفسير الظواهر البيولوجية على فكرة الكمال الأول. وبحسب دريتش هي قوة مستقلة تشبه العقل ولا مكان لها وتتحكم في كافة العمليات العضوية وتتحرك نحو غاية محددة.

(٢) ارتباط غير طبيعي بين نتائج أحداث عشوائية والحالة العقلية للفاعل البشري الذي يرصد النتائج. يقال أن هذا التأثير يأتي جزئيًّا بفعل الإرادة البشرية التي تحكمها رغبات وتوقعات ومخاوف غير واعية.

على سبيل المثال عندما نرغب في إتمام بعض الأفعال، لكننا لا نستطيع فرض إرادتنا على وسائلنا العضلية والغددية والعصبية والوعائية وصولًا إلى الغاية المرجوة. يبين التقليد الجيد البسيط الذي يقوم به نوع من طيور الطبيعة الفائقة المسائل الرفيعة التي ينجزها الذكاء الفسيولوجي. عندما يقلد الببغاء الأصوات التي تخرج من شفتَي وأسنان وحنك وحبلي صوت إنسان ينطق بالكلمات، ما الذي يحدث بالضبط؟ (من أجل استيعاب المثال جيدًا، دعنا نتفكر في منقار ولسان وحلق طائر). بطريقة ما غير مفهومة بشكل كامل إلى الآن واستجابة لرغبة العقل الواعي في محاكاة حدث ما مدرك للتو أو مستدعى من الذاكرة، يدفع الذكاء الفسيولوجي عددًا كبيرًا من العضلات للحركة، تنسق مجهودها فيما بينها، ومع مثل هذه المهارات المتقنة تكون النتيجة نسخة مثالية إلى حد ما من الأصل. سوف يجد العقل الواعي للمخلوقات البشرية صاحبة العطية الأكبر -لا مجرد عقل ببغاء فقط- نفسه متحيرًا تمامًا أمام معضلة على هذا القدر من التعقيد.

كمثال على السبيل الثالث الذي تؤثر به عقولنا على المادة، قد نأتي على ذكر ظاهرة 'عسر الهضم' العصبي المألوفة تمامًا للجميع. تظهر على بعض الأشخاص أعراض سوء الهضم عندما يصاب العقل الواعي بالانزعاج أمام المشاعر السلبية مثل الخوف والحسد والغضب والكراهية. هذه المشاعر موجهة صوب أحداث أو أشخاص في العالم الخارجي؛ لكن بطريقة ما أو أخرى تبذل تأثيرًا سيئًا على الذكاء الفسيولوجي ويؤدي هذا التشويش -من بين ما يؤدي إليه- إلى 'عسر هضم عصبي'. من الدرن وقرحة المعدة حتى أمراض القلب بل وتسوس الأسنان نجد العديد من الأمراض الجسدية المرتبطة على نحو وثيق

بحالات ما غير محببة للعقل الواعي. على العكس من ذلك، يعرف كل الأطباء أن المريض الهادئ والمبتهج يملك احتمالات أكثر كثيرًا للشفاء مقارنة بمريض آخر متوتر ومحبط.

أخيرًا، نصل إلى تلك الوقائع الغريبة على نحو 'فوق طبيعي' لكنها على الرغم من ذلك مدعومة بتلال من البراهين، ما يجعل من الصعب غض الطرف عنها تمامًا. تلك الوقائع مثل العلاج الإيماني[1] أو الارتفاع عن الأرض. كيف يشفي الإيمان الأمراض بالضبط (سواء كان ذلك في لوردز[2] أو في غرفة استشارات المُنوِّم[3])، أو كيف كان في مقدور القديس جوزيف من كوبرتينو[4] تجاهل قوانين الجاذبية؟ لا نعرف! (لكن دعنا نتذكر أننا لسنا أقل جهلًا فيما يتعلق بالطريقة التي تتصل بها عقولنا وأجسادنا خلال أكثر الأنشطة اعتيادية وتكرارًا كل يوم). على غرار ذلك، ليس في إمكاننا تشكيل أي تصور عن طريقة عمل **modus operandi** ما أطلق عليه بروفيسور راين[5] تأثير **PK**. مع ذلك فحقيقة

---

(١) مثل الرقية في الثقافة الإسلامية.

(٢) مدينة تقع في جنوب غرب فرنسا على الحدود مع إسبانيا، وتمتاز بكونها مزارًا للكاثوليك، يزورها كل عام قرابة مليوني شخص على أمل الشفاء من أمراض عضوية.

(٣) التنويم المغناطيسي: حالة من الاسترخاء العقلي، يوضع فيها الشخص ويبذل عليه تأثيرًا إيحائيًا.

(٤) القديس جوزيف من كوبرتينو (١٦٠٣ - ١٦٦٣): اشتهر بمروره بحالات من الانخطاف ومناجاة الله، وقيل إنه كان يغرق في التأمل والتفكر في الملكوت حتى يرتفع عن الأرض، بل قيل إن ذلك قد حدث في الكنيسة أثناء الصلاة.

(٥) جوزيف بانكس راين (١٨٨٥ - ١٩٨٠): عالم نبات أمريكي، شغف بالظواهر فوق الطبيعية، ما جعله يتحول إلى دراستها حيث قام بمحاولة دمجها مع علم النفس؛ ليصبح أحد رواد الباراسيكولوجي.

أن سقوط النرد قد يتأثر بالحالات العقلية لبعض الأفراد تبدو الآن وقد ترسخت على نحو أبعد من أي احتمال للشك. وإذا كان في الإمكان عرض تأثير PK في المعمل وقياسه عن طريق المناهج الإحصائية، يصبح من الواضح إذَنْ بذلك ازدياد المصداقية المتغلغلة للأدلة المتناقلة anecdotal evidence[١] المتفرقة للتأثير المباشر للعقل على المادة على نحو لافت، وهو تأثير لا يقع ضمن حدود الجسد فقط، بل خارجه في العالم الخارجي كذلك. نفس الأمر صحيح أيضًا فيما يتعلق بالإدراك فوق الحسي. لا تلبث أن تبزغ أمثلة واضحة تدلل عليه بشكل مستمر في الحياة العادية. لكن العلم يعجز عن ملاحقة الحالات الخاصة واللحظات المنفصلة. غالبًا ما ينعت العلماء الدوجمائيون كل شيء يقع فيما وراء نطاق كفاءتهم الشاحبة أنه غير حقيقي، بل حتى مستحيل، مدفوعين بالإعلاء من شأن قصورهم المنهجي إلى درجة اعتباره صنوًا للحقيقة. لكن عندما يصبح في الإمكان تكرار اختبارات الإدراك فوق الحسي تحت شروط معيارية، يخضع الموضوع لحاكمية قانون الاحتمالات ويحقق معيار التقدير العلمي (رغم ما يواجه من معارضة متقدة).

مثل هذه المعطيات المختصرة والمجردة جدًّا هي أهم ما نعرفه عن العقل فيما يتعلق بقدرته على التأثير على المادة. من خلال هذه المعارف المتواضعة، ما الذي يحق لنا استنتاجه فيما يتعلق بالعنصر الإلهي انطلاقًا من جهلنا الكامل تقريبًا؟

---

(١) الأدلة المتناقلة: هي أدلة مجمعة بشكل غير منظم أو منهجي وتعتمد بدرجة كبيرة على الخبرة الشخصية.

أولًا، فيما يتعلق بأمر الخلق: إذا كان في مقدور العقل البشري التأثير بشكل مباشر على المادة، لا في داخل الجسد فقط، بل حتى خارجه، من ثم يحتمل أن يكون للعقل الإلهي -المتجلي في الكون أو المتسامي عنه- المقدرة على فرض هيئات وأشكال على فوضى مادة ما قبل الوجود غير المتشكلة أو حتى على المادة المفكرة بالإضافة إلى دفع الهيئات والأشكال إلى الوجود.

يجب صون العالم بمجرد خلقه أو الإلمام به إلهيًّا. يصبح من الواضح أن هناك ضرورة لإعادة خلق العالم بشكل مستمر، بحسب ديكارت 'عندما ننظر في طبيعة الزمن أو في مدد الأشياء؛ نجد أنها من هذا النوع الذي لا تعتمد أجزاؤه على بعضها البعض ولا تتواجد معًا أبدًا، وبذلك لا تعني حقيقة أننا موجودون الآن، أننا يجب نكون موجودين بالضرورة في لحظة تالية، إلا إذا قام السبب (أي ذلك الذي أنشأنا أول مرة) بإعادة إنشائنا باستمرار، ذلك ما سوف يُبقي علينا'. يبدو أن لدينا هاهنا على المستوى الكوني شيئًا مماثلًا لذلك الذكاء الفسيولوجي الذي يقوم بمهامه في البشر والحيوانات الأدنى بلا نوم، مراقبًا الأجساد من أجل أن تتصرف كما ينبغي لها. حقيقة، قد يكون من المعقول اعتبار الذكاء الفسيولوجي وجهًا خاصًّا من أوجه لوغوس إعادة الخلق العام. في النصوص الصينية المقدسة، هو التاو[1] بينما يفصح عن نفسه على مستوى الأجساد الحية.

تتأثر أجساد الكائنات البشرية بحالات عقولهم الجيدة والسيئة.

---

(١) التاو: هو الطريق في فلسفة آسيا الشرقية، هو الترتيب الطبيعي للكون، ذلك الترتيب الذي يجب أن تتسق معه فطرة الإنسان من أجل بلوغ مرتبة العرفان.

بالمثل، قد نعتبر أن وجود الطمأنينة الروحية والمودة في عمق الأشياء هو أحد الأسباب التي تفسر لماذا لا يسفر سوء العالم عن هلاكه، على الرغم من أنه سوء مزمن وراسخ. وإذا كان هناك أكثر من وعي بشري آخر تستحوذ عليه أفكار الشر والأنانية والتمرد في الكون النفساني، فربما يفسر ذلك بعض خبث السلوك البشري المتطرف وغير المعقول تمامًا.

تتم الأفعال التي توجهها إرادة عقولنا إما عن طريق أداتية الذكاء الفسيولوجي والجسد، وإما على نحو استثنائي للغاية وبدرجة محدودة عبر وسائل مباشرة فوق طبيعية لتنوعات **PK**. بالمثل، قد تنتظم الظروف الفيزيائية التي توجهها إرادة العناية الإلهية عن طريق العقل الخالق الذي يصون الكون أبدًا – في هذه الحالة سوف تبدو العناية الإلهية كأنها تؤدي عملها من خلال وسائل طبيعية بالكامل؛ أو قد يعمل العقل الإلهي بشكل استثنائي مباشرة على الكون من الخارج، في هذه الحالة سوف تبدو العناية الإلهية وعطايا الإحسان كأنها إعجازية. على نحو مشابه، قد يختار العقل الإلهي الاتصال مع العقول الفانية إما عن طريق التحكم في عالم البشر والأشياء عبر سبل سوف يجدها العقل المستهدف الوصول إليه في تلك اللحظة ذات مغزى؛ أو على نحو آخر قد يكون هناك اتصال مباشر من خلال شيء ما يشبه التخاطر.

بعبارات إكهرت، الرب خالق العالم ومعيد خلقه في دأب 'يمضي في الصيرورة ويتراجع'. بمعنى آخر، إنه قائم بدرجة ما على الأقل في الزمن. قد يتخذ الرب الزمني طبيعة رب العهد القديم العبراني؛ أو قد يكون إلهًا محدودًا، من النوع الذي وصفه بعض لاهوتيي القرن الحالي

الفلاسفة؛ أو عوضًا عن ذلك قد يكون ربًّا عارضًا، يبدأ دون روحانية عند ألفا[1] ويصبح بالتدريج أكثر قدسية بمرور الدهور وتعاقبها نحو أوميجا[2] ما نظرية. (لماذا على الحركة أن تكون نحو ما هو أكثر وأفضل بدلًا من أن تكون نحو ما هو أدنى وأسوأ، تكون نحو الارتقاء بدلًا من أن تكون نحو الخسف أو في هيئة تذبذبات؛ لماذا يجب أن تكون إلى الأمام بدلًا من أن تكون في دوائر ودوائر، لا يعرف الواحد منا بالفعل. لا يبدو أن هناك سببًا وراء أن لا يكون الرب الزمني حصرًا -الرب الذي يصير بالكاد، غير المتجذر في الأزل- تحت رحمة الزمن بالكامل، كما هو حال العقل الفردي بمعزل عن الروح. الرب الذي يمضي في صيرورة هو رب تتراجع صيرورته كذلك، وهو التراجع الذي قد يسود ختامًا، على ذلك، فالحالة الأخيرة للإله العارض قد تكون أسوأ من الحالة الأولى).

الأصل الذي تتجذر فيه النفس الشتى المحدودة بالزمن هو إدراك سرمدي طبيعي. عندما نجبل أنفسنا على نقاء السريرة والعوز لما هو روحاني، نصل للكشف ويصبح لنا أن نُعرف من خلال هذا الإدراك. لا نحظى فقط بالمعرفة الاتحادية بالأصل الإلهي في داخل الروح، بل نكون نحن المعرفة.

بالمثل يقوم الرب في الزمن على الآن السرمدي للجوهر الإلهي الذي لا مثيل له. في الجوهر الإلهي، تحيا الأشياء وتحظى العقول بكينونتها؛ من خلال الرب يحصلون على صيرورتهم - صيرورة هدفها وغرضها العودة إلى سرمدية الأصل.

---

(١) ألفا: أول حروف اللغة الإغريقية.

(٢) أوميجا: آخر حروف اللغة الإغريقية.

«في الوقت الذي أتوسل إليك فيه بالحقيقة السرمدية غير القابلة للفناء وبروحي، فلتتفكر ولتقبض على ما يذهل الأسماع. الرب والجوهر الإلهي متمايزان كما تتمايز السماء والأرض. تنتصب السماء فوق الأرض بألف ميل، ومع ذلك فالجوهر الإلهي فوق الرب. الرب يمضي في الصيرورة ويتراجع. مَن يفهم هذه الموعظة، أرجُ له الخير. لكن حتى لو لم يكن هنا من أحد، يجب على الاستمرار في إلقاء هذه الموعظة لصندوق النذور».

إكهرت.

كان إكهرت ضحية مهاراته الأدبية الخاصة إلى حد ما، مثله مثل القديس أوغسطينوس[1]. الأسلوب هو الرجل **Le style c'est l'homme**. لا شك في ذلك، لكن العكس صحيح جزئيًّا كذلك، الرجل هو الأسلوب **L'homme c'est Le style**؛ لأننا عندما نحظى بهبة الكتابة وفق نمط معين، نجد أنفسنا وقد أصبحنا طريقتنا في الكتابة بشكل ما. نقولب أنفسنا وفق ما يشابه نسق بلاغتنا الخاص. كان إكهرت أحد مؤسسي النثر الألماني، وقد كان مدفوعًا ببراعة تعابيره القوية المبتكرة حديثًا إلى تكريس نفسه إلى أقصى مدى - كان مدفوعًا إلى أن يصبح من حيث المذهب والمعتقد على صورة عباراته القوية والمفعمة بالمجاز. عبارة مثل تلك السابقة سوف تقود الواحد إلى الاعتقاد في احتقاره لما أطلق عليه الفيدانتيين 'المعرفة الدنيا بالبراهمان'، لا باعتباره الأصل المطلق لكل الأشياء، لكن

---

(١) القديس أوغسطينوس (٣٥٤ - ٤٣٠): يعد أحد أهم آباء الكنيستين الكاثوليكية والأنجليكانية، وكانت فلسفته شديدة التأثر بالأفلاطونية المحدثة.

باعتباره ربًّا شخصيًّا. في الحقيقة، هو مثل الفيدانتيين يقبل بالمعرفة الدنيا كمعرفة حقيقية ويعتبر التفاني في الرب الشخصي بمثابة الإعداد الأمثل من أجل المعرفة الاتحادية بالجوهر الإلهي. علينا إبراز نقطة أخرى، ما الجوهر الإلهي الذي لا مثيل له للفيدانتا ولبوذية المهايانا وللمسيحية وللصوفية الروحانية إلا أصل كل الصفات التي يمتلكها الرب الشخصي وتجسده. يقول إكهرت بأسلوبه العنيف وطريقته المتزيدة: 'الرب ليس صالحًا، أنا صالح'، ما يعنيه بالفعل 'أنا صالح صلاحًا بشريًّا؛ أما الرب فصلاحه فوق ما يمكن استجلاؤه؛ الجوهر الإلهي يكون، و«كينونته» (istigkeit، بلغة إكهرت الألمانية) تحوي الصلاح والمحبة والحكمة وكل ما هو كذلك في مبدئه وجوهره. نتيجة ذلك، فالجوهر الإلهي بالنسبة إلى معتنقي الفلسفة الخالدة ليس أبدًا المطلق الخاص بالميتافيزيقات الأكاديمية فقط، لكنه شيء ما أكثر عظمة، وأكثر تبجيلًا، بحيث يعشق حتى أكثر من الرب الشخصي أو تجسده البشري - كينونة من الممكن أن نشعر حيالها بأقوى أشكال التفاني، ومن اللازم أن نمارس في علاقتنا معها (إذا ما كان للواحد أن يصل إلى المعرفة الاتحادية التي هي غاية الإنسان النهائية) تأدبًا مُنهِكًا ومطردًا مقارنة بأي تأدب تفرضه أي سلطة كنسية.

«هناك تمايز واختلاف بين الرب وجوهر الألوهة، بين الحركة والثبات وهو أمر منطقي. الطبيعة المثمرة للأشخاص تطلق عملها في تباينات الحياة. لكن كينونة الرب البينة -وفقًا للطبيعة الخاصة به- هي ثبات سرمدي للرب ولكل الأشياء المخلوقة».

رويسبرويك.

«(في الواقع يُعرف الاتحادي عن طريق الصوفي)، لا يمكننا الحديث أكثر عن الآب والابن والروح القدس أو عن أي مخلوق، لكن عن كينونة واحدة، هي لب الأشخاص السماوية. قد كنا هناك جميعًا واحدًا قبل أن نُخلق، لذلك فهذا هو جوهرنا الأعلى. هناك الجوهر الإلهي في أصله البين بلا تقلبات الحركة».

رويسبرويك.

«ضوء الإيمان المقدس صافٍ جدًّا، لدرجة أن الأضواء المفردة بالمقارنة به ليست إلا دنسًا؛ حتى التصورات عن القديسين والعذراء المطهرة ورؤية المسيح عيسى في صورته البشرية ما هي إلا عوائق في سبيل رؤية الرب في صفائه الخالص».

جان جاك أولييه[1].

قد تبدو عبارة مثل هذه، صادرة عن كاثوليكي ورع من حركة الإصلاح المضاد[2] مذهلة نوعًا ما. لكن علينا أن نتذكر أن أولييه (الرجل الذي عاش حياة القديسين وأحد أكثر معلمي الدين تأثيرًا في القرن السابع عشر) يتحدث هنا عن مقام وعي، لا يصل إليه أبدًا إلا قلة من الناس. أما بالنسبة إلى أولئك القابعين عند مستويات الكينونة العادية، فنجده يوصي بأساليب أخرى للمعرفة. على سبيل المثال، وجه نصيحة إلى

(١) جان جاك أولييه (١٦٠٨ - ١٦٥٧): قس كاثوليكي فرنسي.

(٢) الإصلاح المضاد: هي حركة ناهضت الإصلاح البروتستانتي، وفي ذات الوقت قادت إصلاحًا كاثوليكيًّا، حاولت هذه الحركة إصلاح الهيكل الكنسي والعودة للأصول الروحانية للدين.

أحد المعترفين[1] له أن يقرأ -على سبيل الإصلاح- للقديس يوحنا الصليبي ولدعاة آخرين للاهوت الصوفي الخالص وأن يقرأ عن كشوف القديسة جيرترود[2] الخاصة بالتجسد وحتى عن الأوجه الفسيولوجية للألوهة. يرى أولييه وكذلك القادة الروحانيون -سواء كانوا كاثوليكًا أو هنودًا- أن من الحماقة تشجيع أشخاص، هم في حال لا يفهمون معه إلا الأوجه الشخصية والتجسدية للأصل الإلهي على عبادة رب بلا شكل. هذا مسلك حصيف تمامًا ونحن في حِلٍّ من تبني سياسة تتسق مع ذلك -مع الأخذ في الاعتبار دائمًا أننا نعي بوضوح أنه مع تبنينا لهذه السياسة قد نستحضر مخاطر وأضرارًا روحية. سوف تُناقش وتُوضَّح طبيعة هذه المخاطر والأضرار في قسم آخر. في الوقت الراهن سوف يكون من الكافي اقتباس كلمات فيلو التحذيرية: 'ذلك الذي يظن أن للرب أي صفة وليس هو الواحد، لا يجني على الرب بل يجني على نفسه'.

«يجب أن تحب الرب لا كرب ولا كروح ولا كشخص ولا كصورة، بل كما هو، كامل، واحد مطلق خالص، لا شريك له، يجب أن تغوص فيه من اللا شيء إلى اللا شيء».

إكهرت.

ما يصفه إكهرت باعتباره الواحد الخالص، المطلق الذي ليس برب،

---

(١) الاعتراف: هو أحد الأسرار السبعة المقدسة للكنيسة، وفيه يقر المعترف بالذنب ويطلب الصفح من الله أمام كاهن معرّف من أجل الحصول على إرشاد صحيح.

(٢) القديسة جيرترود (١٢٥٦ - ١٣٠٢): راهبة وُلدت في ألمانيا، وعاشت حياة التصوف والتأمل، ولها عدة مؤلفات حول الإيمان المسيحي والتصوف. وقيل إنها قد شاهدت المسيح في السادسة والعشرين من عمرها وقد حدثها قائلًا: «لا تخافي.. سأخلصكِ وأحرركِ».

الذي يجب أن نغوص فيه من اللا شيء إلى اللا شيء، يُدعى في بوذية الماهايانا بنور الخواء الجلي. ما يلي هو جزء من صيغة أشار بها كهنة التبت[١] إلى شخص في خضم سكرات الموت.

«يا نبيل المحتد، الآن جاءك الوقت كي تبحث عن الطريق. توشك الأنفاس على التوقف. وضعك معلمك في الماضي وجهًا لوجه أمام النور الجلي؛ والآن ذلك الذي هو أنت على وشك أن يختبر الأمر واقعيًّا في حالة الباردو (الحالة البينية' التي تستتبع الموت مباشرة، والتي تُحاكم فيها النفس – أو بالأحرى تحكم على نفسها بنوع حياة ما بعد الموت الذي سوف تحظى به، وذلك بحسب شمائلها التي تشكلت خلال حياتها على الأرض). في حالة الباردو، يصبح كل شيء مشابهًا لسماء بلا سحب، ويصبح الذهن العاري المجرد كمثل الخواء الشفيف بلا محيط أو مركز. في هذه اللحظة تعرف نفسك وتقبع في تلك الحالة. في هذا الوقت، أضعني كذلك وجهًا لوجه مع النور».

كتاب الموتى التبتي.

بالرجوع أبعد في الماضي، نجد في أحد أقدم نصوص الأوباناشيد الوصف الكلاسيكي للواحد المطلق باعتباره جوهرًا أسمى ليس كمثله شيء.

«يُعبَّر عن شأن البراهمان أنه نيتي نيتي (ليس كذلك أو كذاك)؛ أي أنك تقول إنه ليس كذلك ولا شيئًا هناك أبعد من ذلك. إلا أن اسمه 'حقيقة الحقيقة.' ما يعني أن تبصراتك حقيقية والبراهمان هو حقيقتها».

أوباناشيد بريهادارانياكا.

---

(١) التبتيون: شعب آسيوي، موطنهم الأصلي منطقة التبت، غرب الصين.

بمعنى آخر، هناك تدرج هرمي للحقيقة. عالم خبرتنا اليومية المتشعب حقيقي، حقيقته نسبية، ولا يمكن الجدال بشأنها على المستوى الخاص بها؛ لكن هذه الحقيقة النسبية قائمة داخل الحقيقة المطلقة وبسببها، ونتيجة اختلاف طبيعتها السرمدية التي لا تضاهى، لا يمكننا أن نأمل أبدًا في وصفها، على الرغم من أنه من الممكن لنا إدراكها مباشرة.

للمقتطف التالي أهميته التاريخية العظيمة، لأنه قد جاء من 'اللاهوت الصوفي' و'الأسماء الإلهية' لمفكر القرن الخامس ومسيحية العصور الوسطى الذي كتب تحت اسم ديونيسيوس الأريوباجي(١)، والذي كان على اتصال وثيق بالأفلاطونية المحدثة(٢)، وبذلك فقد كان على اتصال مع الفكر الميتافيزيقي والالتزام الهندي مع بعض الإزاحات. ترجم سكوتوس أريجينا(٣) الكتابين إلى اللاتينية في القرن التاسع، ومنذ ذلك الوقت قدمًا كان تأثيرهما على التفكير الفلسفي والحياة الدينية في الغرب واسعًا وعميقًا وجيدًا. كان أنصار الفلسفة الخالدة المسيحيين

---

(١) ديونيسيوس الأريوباجي: عالم لاهوت وفيلسوف مسيحي من أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادي. وهو غير ديونيسيوس الأريوباجي الذي كان من أوائل الأثينيين الذين تحولوا إلى المسيحية على يد بولس الرسول والذي عاش في القرن الأول الميلادي. حاول التوفيق بين اللاهوت المسيحي والفلسفة الأفلاطونية الحديثة، من أهم كتبه «الأسماء الإلهية» وفيه يتحدث عن طبيعة الله وصفاته، وكتاب «اللاهوت الصوفي» وفيه يتحدث عن ارتقاء النفس في المعرفة والإدراك إلى أن تتحد بالله.

(٢) الأفلاطونية المحدثة: مدرسة فلسفية نشأت في القرن الثالث الميلادي وانتهجت سبيل الصوفية المؤسسة على أعمال أفلاطون وتابعيه الأوائل. ويعد أفلوطين وأستاذه أمونيوس من المؤسسين الأوائل لهذه الفلسفة.

(٣) جون سكوتوس أريجينا (٨١٥ – ٨٧٧): فيلسوف إيرلندي عاش في فرنسا، أسس مذهبه على الأفلاطونية المحدثة، له كتاب شهير بعنوان (في الطبائع الإلهية).

يستنجدون بحظوة الأريوباجي، عندما يتوعدهم أولئك الذين انصب اهتمامهم الأولي على التنظيمات الشعائرية والتشريعية والكنسية (ودائمًا ما كانوا يتوعدونهم). ولأن ديونيسيوس غالبًا ما كان يُعرف عن طريق الخطأ باعتباره أول متحول إلى المسيحية على يد القديس بولس، لم تكن حظوته إلا حظوة رسولية؛ لذلك كان من غير الممكن طرح الاستنجاد به جانبًا باستخفاف حتى من قِبل أولئك الذين يرون أن اللا شيء أثمن من كتبه، وذلك بحسب قواعد السجال الكاثوليكي. على الرغم من سخطهم المتطرف، كان من اللازم التسامح حيال الرجال والنساء الذين انتهجوا سبيل ديونيسيوس. وبمجرد أن تُركوا أحرارًا كي يُنَضِّجوا ثمار الروح[1]، بلغ عدد منهم درجة بارزة من القداسة، حتى أصبح من المستحيل -حتى بالنسبة إلى رؤوس محاكم التفتيش- إدانة الشجرة التي أينعت منها مثل هذه الثمار.

«خفايا الحقيقة الإلهية المحضة والمطلقة وغير القابلة للتبدل مستترة في الظلام فائق اللمعان لذلك الصمت الذي يفصح في السر. على الرغم من غموضه الشديد للغاية إلا أنه واضح وهاج؛ وعلى الرغم من كونه أبعد من اللمس أو النظر إليه، يملأ عقولنا الغافلة بروائع الجمال المتسامي... نقبع طويلًا للغاية في هذا الظلام الشفيف ونراه، ذلك الذي هو فوق الرؤية والمعرفة عن طريق ألا نرى وألا نعرف - الحقيقة الجلية أنه لا يُرى ولا يُعرف. حقًّا نرى ونعرف ونقدس ذلك الذي هو مجاوز وفوق كل الأشياء عن طريق هجر كل الأشياء. لا يختلف هذا عن فن

(١) ثمار الروح: مصطلح إنجيلي يشير إلى تسع سمات للروح هي المحبة والفرح والسلام وطول الأناة والصلاح واللطف والإيمان والوداعة والتعفف.

أولئك الذين يتوقون إلى استكشاف صورة الحياة في الصخر؛ إذ يزيلون من حوله كل ما يعوق الرؤية الواضحة للهيئة الكامنة، كاشفين عن جماله المستتر، وذلك عن طريق الطرح فقط. أؤمن أن أنسب تقديس له بالطرح، لا بالعزو؛ إذ إننا نعزو إليه حين نبدأ من العموميات وننزل عبر المتوسطات إلى التفاصيل. لكننا نطرح هنا عنه كل الأشياء، نذهب من التفاصيل إلى العموميات، هكذا قد نعرف بوضوح ما هو غير قابل للمعرفة، ما هو مستتر في الأشياء التي قد تُعرف وتحتها. وندرك ذلك الظلام وراء الوجود، مستتر تحت كل ضوء طبيعي».

ديونيسيوس الأريوباجي.

يتكون العالم -كما يبدو للحس المشترك- من عدد غير محدد من الحوادث المتتابعة والتي يحتمل اتصالها سببيًّا، متضمنة عددًا غير محدد من الأشياء الفردية والحيوات والتصورات المنفصلة، تشكل جميعها كونًا منتظمًا إذ ربما. وذلك إذا ما أردنا وصف ومناقشة وإدارة عالم الحس المشترك الذي كانت قد أنشأته اللغات البشرية.

عندما نرغب -لأي سبب- في التفكير في العالم، لا كما يبدو للحس المشترك- لكن باعتباره متصلًا، نكتشف أن تركيب الجملة التقليدي والمفردات غير مناسبة أبدًا. لذلك كان المشتغلون بالرياضيات مجبرين على ابتكار نظام رمزي جديد جذريًّا، من أجل هذا الغرض التعبيري. لكن الأصل الإلهي لكل وجود ليس مجرد متصل، إنه خارج الزمن كذلك، ومختلف عن العالم الذي تناسبه اللغة التقليدية ولغات الرياضيات، لا في الدرجة فقط لكن في النوع كذلك. لذلك تبدو تناقضات التزيد اللغوي في كل شروح الفلسفة الخالدة أحيانًا كأنها على

قدر من الهرطقة. لم يبتكر أحدهم تفاضلًا وتكاملًا روحيًّا بعد، بحيث يكون في مقدورنا التحدث من خلاله باتساق عن الأصل الإلهي وعن العالم المدرك باعتباره تجلٍّ له. لذلك علينا في الوقت الراهن أن نصبر على الشطحات اللغوية لأولئك المجبرين على أن يصفوا أحد جوانب الخبرة بنظام رمزي، ترجع دلالاته لحقائق جانب آخر مختلف بالكلية.

ومن ثم لا تزال هناك إلى الآن معضلة تتعلق بالدلالات، طالما كان التعبير المناسب الكامل عن الفلسفة الخالدة مطلوبًا وهي معضلة غير قابلة للحل. الحقيقة يجب أن تكون ماثلة باستمرار في أذهان كل من يقرأون تلك الصياغات. بهذه الطريقة فقط سوف يكون بمقدورنا فهم ما الذي يجري الحديث حوله حتى ولو كان فهمًا من بعيد. على سبيل المثال، تأمل تلك التعريفات السلبية لأصل الوجود المتسامي والمتجلي. في عبارات مثل تلك التي لإكهرت لا يعادل الرب شيئًا. ومن منظور ما فالمعادلة مضبوطة؛ إذ إن الرب بالتأكيد ليس شيئًا. في العبارة التي استخدمها سكوتس أريجينا، الرب ليس ما؛ لكنه ذلك. بمعنى آخر، يمكن الإشارة إلى الأصل باعتباره هناك، لكنه لا يُعرَّف باعتباره مالكًا لخواص. يعني هذا أن المعرفة المنطقية الاستطرادية بالأصل، لا تكاد تكون مثل كل المعارف الاستدلالية، شيء على بعد نقلة أو حتى عدة نقلات من واقعية الإدراك المباشر. إنها معرفة متناقضة ويجب أن تكون كذلك؛ بسبب طبيعة لغتنا وبسبب طبيعة أنماطنا المعيارية للتفكير. لا يمكن الحصول على المعرفة المباشرة بالأصل إلا عن طريق الاتحاد، ويمكن تحقيق الاتحاد عن طريق فناء الأنا المتمحورة حول ذاتها فقط، تلك الأنا التي تقف حائلًا يفصل 'أنت' عن 'ذلك'.

الفصل الثالث

الشخصية والقداسة والتجسد الإلهي

تميل الكلمات ذات الأصل اللاتيني في الإنجليزية إلى حمل وقع 'رقي' ذهني وأخلاقي وجمالي، وهو وقع لا تحمله -كقاعدة- المرادفات الأنجلوساكسونية. على سبيل المثال كلمة 'maternal' لها نفس معنى 'motherly' أمومي، وكذلك 'intoxicated' مثل 'drunk' بمعنى مخمور - لكن مع ظلال هامة من الاختلاف الدقيق! وعندما احتاج شكسبير إلى اسم من أجل شخصية هزلية، جاء الاسم على صورة سير توبي بيلش Sir Toby Belch [1]، لا على صورة كفالير توبياس إراكتاشن Cavalier Tobias Eructation.

لكلمة 'الشخصية' personality المشتقة من اللاتينية وقع في أعلى درجات التقدير. نادرًا ما يستخدم المرادف السكسوني لكلمة 'personality' أبدًا؛ نظرًا لبعض الأسباب الغريبة المتعلقة بفقه

(١) سير تومي بيلش: أحد شخصيات مسرحية الليلة الثانية عشرة، وهو رجل مفلس مخمور يتباهى دائمًا بنبالة أصله. ويلاحظ أن سير وكفالير تعتبران مترادفتين بمعنى سيد، وكذلك بيلش وإراكتاشن مترادفتين بمعنى تجشؤ.

اللغة، وهو الأمر المثير للرثاء. إذ إنها إذا ما استُعملت – كما جرى استعمال 'بيلش' بدلًا من 'إراكتاشن' – فهل سيحتفي بها الناس مبجلين الشيء الذي تدل عليه كما فعل بعض الفلاسفة والباحثين في الأخلاق واللاهوتيين المتحدثين بالإنجليزية مؤخرًا؟ 'الشخصية' **Personality** كما يؤكدون علينا دائمًا هي أعلى درجات الحقيقة التي نستأنس بها. لكن الناس كانوا ليفكروا مرتين بالتأكيد قبل القيام بهذا الجزم أو القبول به إذا ما كانت الكلمة الموظفة بدلًا من 'الشخصية' **personality** هي المرادف التيوتوني[1] لها '**selfness**'[2]. على الرغم من أن لكلمة '**selfness**' نفس المعنى بالضبط إلا أنها لا تحمل أي وقع راق كالذي يصحب كلمة '**personality**'. على العكس من ذلك، يأتي معناها الأولي إلينا مبطنًا بنشاز كالذي لجرس مشروخ. وكما يلح كل دعاة الفلسفة الخالدة باستمرار، فإن إلحاح الوعي على الوجود كذات **self** منفصلة والإصرار على ذلك هو العقبة الكؤود الخاتمة أمام المعرفة الاتحادية بالرب. الذاتية بالنسبة لهم هي الخطيئة الأصلية، وفناء الذات **self** شعوريًا وإراديًا وذهنيًا هي الفضيلة الجامعة والخاتمة. تَذَكُر هذه الدلالات هو ما يستدعي الوقع غير المحبب الذي ترتبط به كلمة '**selfness**'. أما الوقع المحبب للغاية لكلمة 'الشخصية' **personality** فتستثيره جزئيًا لاتينيته المهيبة، لكن تستثيره كذلك ذكريات ما كان قد قيل عن 'أشخاص' **persons** الثالوث. غير أنه لا وجود لشيء مشترك يجمع أشخاص الثالوث بالأشخاص الذين هم من لحم ودم، أولئك

---

(١) اللغات التيوتونية: هي اللغات المنحدرة من الشعوب الجرمانية.

(٢) رغم أن لهذه الكلمة نفس المعنى، لكنها توحي أكثر بالأنانية والذاتية.

الذين نلتقي بهم كل يوم - لا شيء مشترك فيما عدا الروح الكائنة فيهم، التي نستطيع بها تعريف هوية أنفسنا وتوخيها، لكن أغلبنا يحبذ تجاهلها كذلك لصالح ذواتنا selfness المنفصلة. هكذا قد كان لزامًا علينا إسباغ ذات الاسم الممنوح للذاتية selfness -التي تُعَمِّي على الرب والتي هي ضد الروحانية- على الرب الذي هو روح، كان هذا سوء حظ على أقل تقدير. هذا الخطأ مثله كمثل كل الأخطاء المماثلة، ربما يكون متعمدًا ومقصودًا بطريقة ما غامضة وغير واعية. نحب ذواتنا selfness؛ نرغب في تبرير حبنا هذا؛ لذلك نُعَمِّدها باسم هو ذاته الذي يطلقه اللاهوتيون على الآب والابن والروح القدس.

لكنك تسألني الآن كيف يمكنك أن تتخلص من ذلك الإدراك والشعور المجردين بوجودك؟ بلا شك تظن أنك بتخلصك من ذلك الإدراك والوجود سوف تتخلص من كل العوائق الأخرى؛ وإذا ما فكرت على هذا النحو، فأنت بلا شك تفكر بشكل صحيح. لكنني أجيبك على ذلك وأقول دون فضل خاص كامل يمنحه الرب بالكامل ببذخ، ودون جدارة مقابلة كاملة من جهتك كي تتلقى هذا الفضل ما كنت لتتخلص من تلك المعرفة المجردة بوجودك ومن شعورك بذلك الوجود. وما هذه الجدارة إلا أسى قوي وروحي عميق... لدى كل فرد ما يأسى بشأنه؛ لكن لا يصيب أحدهم أسى أكبر من ذلك الذي يصيب مَن يشعر ويعرف بوجوده علاوة على وجود الله وفي مقابله. كل أسى آخر مقارنة بهذا، لا يعدو كونه صورة زائفة للشيء الفعلي. ذلك الذي يختبر الأسى الحقيقي، لا يعرف ولا يشعر بماهية ذلك الوجود فقط لكنه يعرف ويشعر بحاله هذا. أما ذلك الذي لم يشعر بهذا الأسى أبدًا، فدعه يأسَ لأنه لم

يعرف بعد ما هو الأسى المثالي. عندما يحل مثل هذا الأسى، فإنه يطهر النفس، لا من الخطايا فقط، لكن من المعاناة المستحقة بسبب الخطايا، كما يجعل النفس قادرة على استقبال المتعة التي تنزع عن الواحد كل إدراك وشعور بوجوده. عندما يكون هذا الأسى حقيقيًّا، يكون ممتلئًا بلهفة مقدسة؛ ودون هذه اللهفة لا يمكن لأحد على وجه الأرض أن يزعن له أو يطيقه. إذا لم تكن الروح قد تأودت بصالح الأعمال، ما لها أن تتحمل هذه المعاناة التي يستجلبها إدراك واستشعار الوجود. تاق إلى الأسى في أغلب الأحيان من نال معرفة حقيقية بربه وشعر به في صفاء الروح (كما قد يكون الحال هنا)، ثم شعر بأنه قد لا يحظى بالمعرفة والشعور؛ إذ يجد معرفته وشعوره دائمًا أبدًا كأنهما منشغلان وممتلئان بكتلة دنسة دنيئة من ذاته، عليه أن يكرهها ويزدريها وينبذها؛ إذا ما كان ليصبح حواري الرب المثالي، وهو ما علَّمته نفسه إياه أثناء ترقي جبل الكمال....

تحظى كل نفس بهذا الأسى وهذه اللهفة وتشعر بهما في دخيلتها (سواء بهذه الطريقة أو بطريقة أخرى)، عندما ينعم الرب بتعليم حوارييه الروحانيين وفق إرادته الطيبة واستعدادهم جسدًا وروحًا، ومرتبة ونزعة، وذلك قبل توحدهم بالرب في إحسان كامل - كما قد يكون عليه الحال هنا إذا ما أنعم الرب.

غمامة الجهل **The Cloud of Unkowing**.

ما طبيعة هذه 'الكتلة الدنيئة' التي للذات **selfness** أو للشخصية **personality**، التي يجب الندم عليها في ولع وإفنائها تمامًا قبل أن تكون هناك أي 'معرفة حقيقية بالرب في صفاء الروح'؟ أهزل الفرضيات

وأكثرها التباسًا هي تلك التي يقدمها هيوم. يقول: إن 'الجنس البشري ليس إلا حزمة أو جمعًا من المدركات المختلفة، تعقب إحداها الأخرى بسرعة لا يمكن تصورها، وهي في تدفق وحركة دائبة'. هناك إجابة مماثلة تقريبًا يقدمها البوذيون، يقوم معتقدهم في الأناتا[١] على إنكارهم لأي نفس باقية، تقع خلف تدفق الخبرة وسكاندا[٢] (النفسانية- الجسم) المتنوعة (وثيقة الصلة بحزم هيوم) التي تشكل العناصر الأبقى للشخصية. يقدم لنا هيوم والبوذيون وصفًا واقعيًّا للذات في حركتها؛ لكنهم يفشلون في تفسير كيف أصبحت الحزم حزمًا أو لماذا. هل اجتمعت ذراتها المكونة للخبرة معًا من تلقاء ذاتها؟ ولو كان الأمر على هذه الصورة، فلماذا وبأي وسيلة وضمن أي كون غير معيَّن؟ من العسير أن نجيب بإجابة معقولة عن هذه الأسئلة بحيث تتسق مع الأناتا، ما يدفعنا إلى تنحية المعتقد لصالح مفهوم يذهب إلى أنه خلف التدفق وداخل الحزم توجد نفس باقية، تنظم الخبرة ومن ثم تستغل هذه الخبرة المنظمة من أجل أن تصبح شخصية خاصة ومتفردة. هذا هو منظور الهندوسية التقليدية -التي انشقت عنها جماعة بوذا الفكرية- وكل الفكر الأوروبي تقريبًا من قبل زمن أرسطو حتى العصر الحالي. لكن بينما يجنح أغلب المفكرين المعاصرين نحو محاولة وصف الطبيعة البشرية بمصطلحات ثنائية النفسانية والجسد المتفاعلان معًا، أو الكل المكون من هذين العنصرين، لا انفصام لهما، داخل ذوات خاصة متجسدة، تشدد كل

---

(١) الأناتا: هو الأتمان بلغة بالي.

(٢) سكاندا: هي أي واحدة من الكومات الخمس التي تشكل خبرة الفرد، وهي الشكل والإحساس والتصور والتشكيلات العقلية والوعي.

شروح الفلسفة الخالدة -بشكل ما أو آخر- على أن الإنسان هو ثالوث، يتكون من الجسد والنفسانية والروح. الذات أو الشخصية هي نتاج العنصرين الأولين. العنصر الثالث -(ما لم يُخلَق ولا يُخلَق) **that quidquid increatum et increabile** كما أسماه إكهرت- مشابه للروح الإلهية أصل كل وجود، بل مماثل لها. غاية الإنسان الخاتمة، الغرض من وجوده، محبة الرب المتجلي والمتسامي ومعرفته والاتحاد معه. ويمكن تحقيق هذا التمثيل للذات من خلال المكون الروحاني غير الذاتي عن طريق «إفناء» الذات وإحياء الروح فقط.

«ما الذي قد يبدأ إنكار الذات، لو لم يكن في الإنسان ما يختلف عن الذات؟».

ويليام لو.

«ما الإنسان؟ إذا ما شاء هو ملاك، حيوان، خواء، عالم، لا شيء يحيط به الرب، فقير إلى الرب، قادر على الربوبية، ممتلئ بالرب».

بيرول[١].

«حياة المخلوقات المنفصلة مقارنة بالحياة في اتحاد مع الرب هي مجرد حياة من شهوات وجوع وحاجات متنوعة، ويستحيل أن تكون شيئًا آخر. لا يمكن لله نفسه أن يبدع مخلوقًا في ذاته أو على طبيعته ولا يكون إلا حالة من خواء. لا يمكن للحياة العليا الطبيعية المخلوقة أن تكون في موضع أعلى من هذا؛ ليس لها إلا أن تكون مساحة للصلاح

(١) بيرول (١٥٧٥ - ١٦٢٩): كاهن وكاردينال فرنسي، وأحد أهم متصوفي القرن السابع عشر في فرنسا.

ويستحيل أن تكون حياة صالحة وسعيدة إلا عن طريق حياة مسكونة بالرب وفي اتحاد معها. وهذه هي الحياة الازدواجية، التي يجب أن تكون بالضرورة مؤتلفة في داخل كل مخلوق صالح ومثالي وسعيد».

ويليام لو.

«تقول النصوص المقدسة عن البشر إن هناك إنسان الخارج مصحوبٌ بإنسان الداخل.

«تنتمي إلى إنسان الخارج تلك الأشياء التي تعتمد على النفس، لكنها في اتصال باللحم والدم، ممزوجة بهما، كما تنتمي إليه الوظائف التعاونية للأعضاء المتنوعة، مثل العين والأذن واللسان واليد وما إلى غير ذلك.

«تتحدث النصوص المقدسة عن كل هذا باعتباره الإنسان العتيق، الإنسان الأرضي، شخص الخارج، العدو، الخادم.

«داخلنا جميعًا الشخص الآخر، إنسان الداخل، الذي تدعوه النصوص المقدسة الإنسان الجديد، الإنسان السماوي، الشخص الشاب، الصديق، الأرستقراطي.

إكهرت.

«بذرة الرب فينا. إذا ما أُعطيت إلى فلاح ذكي يعمل بجد، فسوف تزدهر وتنمو إلى الرب، فهي بذرته؛ ومن ثم فثمارها سوف تكون من طبيعة ربانية. تنمو بذرة الكمثرى إلى شجرة كمثرى، وتنمو بذرة الجوز إلى شجرة جوز، وتنمو بذرة الرب إلى الرب».

إكهرت.

الإرادة حرة ونحن في بحبوحة كي نعرِّف هوية وجودنا إما من خلال ذاتنا واهتماماتها حصرًا، وذلك باعتبارها مستقلة عن الروح المحركة والربوبية المتسامية (وفي هذه الحالة سوف نُلعن أو سوف نكون شيطانيين)، وإما أن نُعرِّفها من خلال الإلهي في داخلنا وخارجنا حصرًا (وفي هذه الحالة سوف نكون قديسين)، أو أخيرًا من خلال ذاتنا في لحظة أو سياق ما ومن خلال المكون الروحاني غير الذاتي في لحظات وسياقات أخرى (وفي هذه الحالة سوف نكون أناسًا عاديين معتدلين، متمركزين حول الرب بشدة فلا نضل تمامًا، ومتمركزين حول الأنا بشدة فلا نحرز التنوير والخلاص التام). بما أنه لا يمكن إرضاء التوق الإنساني إلا من خلال المعرفة الاتحادية بالرب وبما أن العقل-الجسد البشري قادر على عدد ضخم من الخبرات المتنوعة، فنحن في حل من تعريف هوية ذواتنا من خلال عدد لا نهائي تقريبًا من الأغراض - على سبيل المثال، من خلال لذة الشراهة أو الإسراف أو الشهوانية؛ المال أو السلطة أو الشهرة؛ أو عائلتنا باعتبارها مملوكة لنا أو بالأحرى امتدادًا أو تشعبًا لذاوتنا؛ من خلال أمتعتنا ومنقولاتنا وهواياتنا ومجموعاتنا؛ من خلال مواهبنا الفنية والعلمية؛ من خلال فرع ما مفضل من المعرفة، 'موضوع خاص' جذاب؛ من خلال مهننا أو أحزابنا السياسية أو كنائسنا؛ من خلال آلامنا أو أمراضنا، من خلال ذكرياتنا عن النجاح أو المحن، وأمانينا ومخاوفنا ومخططاتنا للمستقبل؛ وأخيرًا من خلال الحقيقة الأزلية التي يحظى كل شيء آخر بوجوده من داخلها وعن طريقها. ونحن أحرار بالطبع كي نُعرِّف ذواتنا من خلال أكثر من واحد من هذه الأشياء في الوقت نفسه أو بشكل متتابع. على ذلك فالدمج بعيد

الاحتمال والمدهش تمامًا للسمات يشكل شخصية مركبة. هكذا قد يكون رجل في مرة هو أبرع السياسيين، ومخدوعًا بثرثراته هو نفسه، وشغوفًا بالبراندي والمال، وشغوفًا بشعر جورج ميرديث[1]، وشغوفًا بالفتيات القصَّر وبأمه بالقدر نفسه، وشغوفًا بسباقات الخيل وقصص المحققين وصالح بلده- وذلك كله مصحوب بخوف خفي وسجل لا تشوبه شائبة فيما يتعلق بالذهاب إلى الكنيسة أيام الآحاد. شخص مولود بنوع ما من البنى النفسانية الجسدية سوف يعمد إلى تعريف هوية ذاته عن طريق مجموعة من الاهتمامات والولع، بينما سوف يكون شخص طبعه من نوع آخر مدفوعًا إلى القيام بتعريفات مختلفة للغاية للهوية. لكن لا يجب الاستسلام إلى هذه الطباع (على الرغم من تأثيرها الشديد، إذا ما كان الانحياز البنيوي جليًّا بشدة)؛ يمكن للناس مقاومتها وهم يقومون بذلك بالفعل، يمكنهم رفض تعريف هوية ذواتهم من خلال ما يسهل أن يكونوا عليه وما هو طبيعي بالنسبة لهم وهم يقومون بتلك المقاومة بالفعل؛ يمكنهم أن يصبحوا أفضل من ذواتهم ومختلفين تمامًا عنها وهم يقومون بذلك بالفعل. في هذا السياق يعد المقال المختصر التالي عن 'كيف يتصرف الناس وقت الكوارث؟' (نُشِر مؤخرًا في عدد من أعداد مجلة هاربر[2]) دالاًّ بشكل كبير. 'يقول طبيب نفسي شاب كان قد خرج في خمس مهمات قتالية للقوة الجوية الثامنة في إنجلترا كمراقب طبي: إن الرجال في أوقات الضغوط والأهوال العظيمة يتصرفون في الغالب بشكل موحد تمامًا، حتى لو كانت شخصياتهم مختلفة بدرجة

---

(١) جورج ميرديث (١٨٢٨ - ١٩٠٩): روائي وشاعر إنجليزي.

(٢) مجلة أمريكية، تهتم بالثقافة والأدب، صدر عددها الأول عام ١٨٥٠.

كبيرة في الأحوال العادية. في إحدى المهام التي خرج فيها أصاب ضرر شديد الطائرة B-17 وطاقمها حتى بدت النجاة مستحيلة. كان قد درس بالفعل شخصيات الطاقم «على الأرض»، وكان قد وجد أنهم يمثلون تنوعًا عظيمًا للأنماط البشرية. ذكر عن سلوكهم إبان الكارثة:

’«كانت ردود أفعالهم مختلفة بشكل لافت. كانوا جميعًا خلال القتال العنيف والظرف الطارئ الذي تمخض عنه محددين تمامًا في اتصالاتهم البينية وحاسمين في أفعالهم. أُصيب الرامي عند الذيل وكذلك الرامي في الوسط على الجانب الأيمن والملاح بشدة في أول القتال، إلا أن ثلاثتهم جميعًا بقوا قائمين على مهامهم بكفاءة ودون توقف. وقع عبء التعامل مع الظرف الطارئ على عاتق الطيار والمهندس ورامي البرج الكروي، وجميعهم تصرفوا بسرعة ومهارة وفعالية ودون إهدار أي حركة واحدة. استقر عبء اتخاذ القرارات خلال القتال وبعده -وخصوصًا بعده- على عاتق الطيار في الأساس وعلى عاتق مساعد الطيار والمدفعجي فيما يتعلق بالتفاصيل الثانوية. بمجرد وصولهم إلى القرارات كانوا يتخذونها دون جدال في سرعة وحرص وقد برهنت القرارات على براعتها. في اللحظة التي بدت عندها الكارثة وشيكة، استوُضحت كل الخطط البديلة، ولم يكن هناك أي تفكير بخلاف التفكير في سلامة الطاقم بأكمله. في تلك اللحظة كانوا جميعًا هادئين، مستبشرين في دخيلتهم وجاهزين لأي شيء. لم تمر لحظة واحدة على أي واحد منهم انطوت على شلل أو رعب أو تفكير ملتبس أو حكم خاطئ أو مضطرب أو سعي لمصلحة ذاتية.

«ما كان لأحد أن يستدل من سلوكهم على أن هذا الرجل كان مزاجه غير مستقر وأن ذاك كان رجلًا خجولًا، هادئًا، استبطانيًّا. أصبح المظهر

الخارجي لهم جميعًا ينم عن هدوئهم ودقة تفكيرهم وتحدده وسرعة الفعل.

«هو فعل معتاد من طاقم يعرف بشكل وثيق ماهية الخوف، وعلى ذلك في إمكانهم استغلال التغيرات الفسيولوجية المصاحبة -دون أن تشتتهم؛ هو فعل معتاد من طاقم دُرب جيدًا، وعلى ذلك يستطيعون توجيه أفعالهم بوضوح؛ هو فعل معتاد من طاقم لديه كل ما هو أكثر من الثقة الشخصية متأصل في فريق موحد»[٩].

من ثم نجد أنه عندما حلت الكارثة، نسي كل من هؤلاء الشباب الشخصية الخاصة التي كان قد نماها من خلال العناصر التي مدته بها الوراثة والبيئة التي نشأ فيها؛ ذلك الفرد قاوم الميل -غير القابل للمقاومة في الظروف العادية- إلى تعريف هوية ذاته من خلال مزاجه اللحظي، كما قاوم آخر الميل إلى تعريف هوية ذاته من خلال أحلام اليقظة الخاصة به، وهكذا كان الحال مع البقية؛ وعلى ذلك جاءت تصرفاتهم جميعًا متماثلة على نحو لافت، إذ تصرفوا بطريقة مثيرة للإعجاب. كما لو أن الكارثة وتدريبهم الأولي على الكوارث قد رفعهم خارج شخصياتهم المتباعدة وارتقى بهم إلى المستوى الأعلى نفسه.

أحيانًا ما تكون الكارثة وحدها -دون أي تدريب تمهيدي- كافية كي تجعل الإنسان ينسى أن يكون صورة ذاته المعتادة، ويصبح في تلك اللحظة على هيئة مختلفة تمامًا. على ذلك سوف يتحول أكثر الناس بعدًا عن البطولة -تحت تأثير الكارثة- إلى أبطال وشهداء مؤقتًا، باذلين أنفسهم من أجل صالح رفاقهم. يؤدي الاقتراب من الموت كذلك في كثير من

الأحيان إلى نتائج مشابهة. على سبيل المثال كان صمويل جونسون[١] يتصرف دائمًا وفق أسلوب واحد للسلوك طوال أغلب مراحل حياته، بينما جاءت تصرفاته موافقة لأسلوب مختلف تمامًا خلال مرضه الأخير. لقد بعثت شخصيته المركبة بالكثير من البهجة في ستة أجيال من آل بوزويل[٢]، تلك الشخصية التي تمثل الجلف المتعلم والشره، المتنمر طيب القلب، المفكر المؤمن بالخرافة، المسيحي الواثق المولع، الرجل الشجاع الذي يخشى الموت، أصبحت تلك الشخصية المركبة بشكل مذهل بسيطة ومتفردة ووقورة ومتمركزة حول الرب عندما كان يموت.

الأمر متناقض كما قد يبدو، من الأسهل على أشخاص كثر جدًّا أن يتصرفوا بإنكار للذات في وقت النوائب والبلاء مقارنة بتصرفاتهم عندما تتخذ الحياة مسارها العادي في هدوء وطمأنينة، بلا إزعاج. عندما تكون الأحداث الجارية سلسة، فلا وجود لشيء يجعلنا ننسى ذاتنا الثمينة، لا شيء يصرف عقولنا عن الملهيات التي اخترنا تعريف هوياتنا من خلالها (باستثناء إرادتنا الراغبة في إماتة الجسد ومعرفة الرب)؛ نحن في بحبوحة تامة كي ننغمس في شخصيتنا إلى أن ترضى قلوبنا. ويا له من انغماس. لهذا السبب يلح كل قادة الحياة الروحية بشدة على أهمية الأشياء البسيطة.

«يطلب الرب التزامًا مخلصًا بأهون شيء أوكله لنا كي نقوم به، عوضًا عن الطموح شديد الحماس نحو الأشياء التي لم نستدعَ من أجلها».

القديس فرنسيس دي ساليس[٣].

---

(١) صمويل جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤): شاعر وفيلسوف ومؤلف مسرحي إنجليزي.

(٢) بوزويل (١٧٤٠ - ١٧٩٥): كاتب سير ومهندس اسكتلندي، كان صديقًا لصمويل جاكسون وكتب سيرته الشهيرة.

(٣) فرنسيس دي ساليس (١٥٦٧ - ١٦٢٢): عالم دين وكاهن كاثوليكي.

«ما من أحد في العالم لا يمكنه الوصول من دون صعوبة إلى الكمال الأسمى عن طريق الالتزام بحب بالواجبات المعتادة والغامضة».

جان بيير دي كوساد[١].

«يقيس بعض الناس قيمة الأفعال الصالحة عن طريق خواصها الطبيعية أو صعوبتها فقط، مانحين الأفضلية لما هو بارز وبراق. ينسى مثل هؤلاء الناس أنه يجب النظر إلى مناقب المسيح -التي هي إلهام الرب- من جانب الفضل، لا الطبيعة. يأثر شرف وصعوبة الفعل الصالح بالتأكيد على ما يدعى تقنيًّا بالقيمة الظرفية، لكن قيمته الأساسية كلها تأتي من الحب وحده».

جان بيير كامو[٢].

(مقتبسًا من سان فرنسيس دي ساليس).

القديس هو ذلك الذي يعرف أن كل لحظة في حياتنا البشرية هي لحظة بلاء؛ على ذلك نحن مدعوون في كل لحظة كي نقوم بقرار في غاية الأهمية - كي نختار بين الطريق الذي يؤدي إلى الموت والعتمة الروحية والطريق الذي يؤدي إلى الضوء والحياة؛ بين اهتماماتنا الوقتية حصرًا والنظام الأزلي؛ بين إرادتنا الشخصية أو إرادة بعض تشعبات شخصيتنا وإرادة الرب. ومن أجل أن يكيف نفسه للتعامل مع طوارئ طريقته في الحياة، يضطلع القديس بتدريب مناسب للعقل والجسد، كما يفعل الجندي. إلا أنه بينما تكون أهداف التدريب العسكري محدودة

---

(١) جان بيير دي كوساد (١٦٧٥ - ١٧٥١): كاهن يسوعي فرنسي.

(٢) جان بيير كامو (١٥٨٤ - ١٦٥٢): كاتب وروائي فرنسي.

وبسيطة للغاية، تحديدًا جعل الرجال شجعانًا وباردي الأعصاب وأكفاء متعاونين في أعمال قتال الرجال الآخرين، الذين لا تجمعهم بهم مشاحنات شخصية، تكون أهداف التدريب الروحي أكثر عمومية واتساعًا. الهدف هنا في المقام الأول هو الوصول بالبشر إلى حالة يكونون قادرين فيها على الوعي المستمر بالأصل الإلهي لأنفسهم ولكل البشر الآخرين؛ وذلك لأنه لم يعد هناك أي عوائق تحجب الرب قائمة فيما بينهم وبين الحقيقة، وفي المقام الثاني هو وسيلة لهذه الغاية، لمجابهة كل الأحداث اليومية -حتى تلك الهينة للغاية- دون خبث أو شراهة أو تعالٍ أو جهالة عمدية، لكن بحب وتفهم مستمر ومتسق. ولأن أهداف التدريب الروحي غير محدودة، ولأن كل لحظة هي لحظة ابتلاء بالنسبة إلى محبي الرب، فهو تدريب أكثر صعوبة وصرامة بشكل لا يقارن. هناك جنود صالحون كثر، وقديسون قليلون.

رأينا أن الجنود أثناء أوقات الطوارئ الحرجة مدربون بشكل متخصص كي يتأقلموا مع الوضع، يميلون إلى نسيان سماتهم المميزة الفطرية والمكتسبة، التي يُعرِّفون وجودهم من خلالها، ويتسامون بذواتهم، من أجل أن يتصرفوا بالطريقة نفسها، ذات التوجه الواحد، الأفضل من الطريقة الشخصية. وما هو صحيح فيما يتعلق بالجنود، صحيح كذلك فيما يتعلق بالقديسين، لكن مع فارق هام - إذ إن هدف التدريب الروحي جعل الناس منكرين لذواتهم في كل ملابسات الحياة، بينما هدف التدريب العسكري جعلهم منكرين لذواتهم أثناء ملابسات معينة خاصة جدًّا فقط، كما يتعلق بفئات معينة من البشر فقط. لا يمكن

لهذا أن يكون على صورة أخرى؛ فيما يتعلق بكل ما نحن عليه وما سوف نكونه وما نقوم به، فهو يعتمد -في التحليل الأخير- على ما نعتقد في أنه طبيعة الأشياء التي هي عليها. الفلسفة التي تسوِّغ سياسات القوة والتي تبرر الحرب هي دائمًا مذهب زائف وحشي لوثنية قومية أو عرقية أو أيديولوجية بغض النظر عن الديانة الرسمية للساسة وصناع الحرب، وهو ما يؤدي لا محالة إلى أفكار هيرينفولك[١] وإلى «الأحط الذين ينشأون دون قانون»[٢].

تشهد سِيَر القديسين بوضوح على حقيقة أن التدريب الروحي يقود إلى تسامي الشخصية، لا خلال الملابسات الخاصة بالمعركة فقط، لكن خلال كل الملابسات وكل المعاملات مع كل المخلوقات، لذلك فالقديس «يحب أعداءه»، أو إذا كان بوذيًّا فإنه لا يدرك حتى وجود الأعداء، لكنه يعامل كل المخلوقات التي تحس -البشر وما دون البشر- بالحنان نفسه والإرادة الطيبة الخالية من المصلحة. أولئك الذين يفوزون بسبيل إلى المعرفة الاتحادية بالرب ينطلقون في مسارهم من أكثر نقاط البدء تنوعًا واختلافًا. هؤلاء رجال وأولئك نساء؛ ينزع البعض إلى الحركة والفعل والبعض الآخر مولود تأملي النزعة؛ لم يرثوا الطبع والبنية الجسدية نفسها، ومضت حيواتهم في بيئات مادية وأخلاقية وفكرية متباينة بشدة. مع ذلك، طالما كانوا قديسين، فهم يمتلكون المعرفة

---

(١) ديمقراطية هيرينفولك: هي ديمقراطية عنصرية، إذ لا تشارك إلا الأغلبية العرقية في الحكومة بينما تحرم الأقليات.

(٢) من أشعار روديارد كيبلينج. والمقصود بالقانون القانون الإلهي.

الاتحادية التي تجعلهم «كاملين كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل»[١]، إنهم متشابهون تمامًا بشكل مدهش. تتميز أفعالهم بنكران دائم للذات، وهم دوما ذاكرون، لذلك يعرفون في كل وقت مَن هم وما علاقتهم الحقيقية بالكون وأصله الروحي. هناك فيما بين حتى الناس العاديين البسطاء الذي قد نطلق عليهم اسم «قبيلة» الكثير والكثير للغاية من الشخصيات المركبة بشكل استثنائي، تلك الشخصيات التي تُعرِّف ذواتها من خلال أمزجة عريضة التنوع والرغبات والآراء. على العكس من ذلك القديسون، فهم ليسوا مشتتي البال أو تعوزهم الحماسة، لكنهم مخلصون لهدف واحد وبسطاء للغاية، مهما كانت عظمة الهبات الفكرية التي لديهم. تخلت تعددية القبيلة عن مكانها لصالح أحادية التوجه - لا لصالح أي أحادية توجه شرير يقصد إلى الطموح أو الطمع أو شهوة السلطة أو الشهرة، ولا حتى لصالح أي أحادية توجه نبيل يقصد إلى الفن والدرس والعلم، إذ إنه لا يزال توجهًا بشريًا بالكامل، ينتهي إلى ذواتهم، لكن لصالح أحادية التوجه الأجل، الأرقى من أحادية التوجه البشري، إذ إن جوهر تلك النفوس التي تسعى بوعي واستمرار نحو الغاية الخاتمة للإنسان، المعرفة بالحقيقة الأزلية. في واحدة من نصوص بالي المقدسة نجد حكاية طريفة عن البراهمان درونا[٢] الذي «سأل المبارك[٣] الذي كان جالسًا أسفل شجرة «هل أنت ديفا[٤]؟»، أجابه الممجد: «لا لست

---

(١) إنجيل متى ٥ : ٤٨.

(٢) أحد شخصيات المهابهاراتا، كان أمهر رماة زمانه، كان كاهنًا في الإبداع وعالمًا في شبابه.

(٣) المبارك هو بوذا.

(٤) ديفا: بمعنى رباني أو سماوي بالسنسكريتية، وهو يشير إلى الكائنات الخارقة للطبيعة.

ديفا». «هل أنت جاندهارفا[1]؟»، «لا لست جاندهارفا». «هل أنت ياكشا[2]؟»، «لا لست ياكشا». «هل أنت إنسي؟»، «لا لست إنسيًّا». وبينما يتساءل البراهمان عما قد يكونه، أجابه المبارك: «لقد أفنيت تمامًا تلك المؤثرات الشريرة وتلك الرغبات التي كان عدم تدميرها يؤدي إلى تعييني كديفا وجاندهارفا وياكشا (ثلاثة أنواع من موجودات فوق طبيعية)، أو كإنسي».

يمكننا أن نلاحظ هنا أنه مع مرور الأحداث يمكن لأحادي التوجه فقط أن يقدر حقيقة على عبادة رب واحد. يمكن لشخص يوصف بأنه «قَبلي» (من قبيلة) أن يرضي التوحيد كنظرية، لكن عند الانتقال من النظرية إلى التطبيق، من المعرفة المنطقية بالرب الواحد إلى الإدراك المباشر له، يستحيل أن يكون هناك توحيد إلا حيثما كان القلب أحاديًّا. المعرفة في قلب العارف بحسب وضع العارف. إذا ما كان العارف متعدد النفسانيات، فسوف يكون الكون الذي يعرفه من خلال الخبرة المباشرة متعدد الآلهة. رفض بوذا التصريح بأي عبارة تتعلق بالحقيقة الربانية المطلقة. لم يكن يتحدث إلا عن النيرفانا، وهي اسم الخبرة التي تجيء إلى مَن ينكر الذات بالكامل، بحيث يصبح أحادي التوجه. أطلق آخرون على هذه الخبرة نفسها اسم الاتحاد بالبراهمان، بالحق، بالإله المتجلي والمتسامي. يحافظ بوذا في هذا الأمر على سلوكه الإجرائي الصارم، يتحدث فقط عن الخبرة الروحية، لا المكون الميتافيزيقي

---

(١) جاندهارفا: تشير إلى كائن خارق للطبيعة، لكنه أقل من الديفا.

(٢) ياكشا: فئة عريضة من أرواح الطبيعة، متصلة بالغابة والماء والأشجار والخصوبة والثروة والبرية.

الذي يفترضه رجال دين الديانات الأخرى، وكذلك رجال دين البوذية المتأخرة أيضًا، بحيث يكون غاية تلك الخبرة وفاعلها وجوهرها (إذ إن العارف والمعروف والمعرفة جميعًا واحد عند التأمل).

عندما يفتقر إنسان إلى التمييز، تطوف إرادته في كل الاتجاهات، وراء أهداف لا تحصى. أولئك الذين يعوزهم التمييز قد يقتبسون نصًّا من النصوص المقدسة؛ لكنهم في الحقيقة ينكرون حقيقته الباطنية. هم ممتلئون برغبات دنيوية وجوعى إلى نعم السماء. يستخدمون أشكالًا جميلة للخطاب؛ يعلِّمون طقوسًا متقنة، من المفترض أن تتحصل لمن يمارسها على اللذة والقوة. لكنهم في الحقيقة لا يفهمون شيئًا إلا قانون الكارما[١] الذي يقيد البشر إلى إعادة الميلاد.

«أولئك الذين سُلِب منهم التمييز بفعل مثل هذا الحديث ينشؤون متعلقين باللذة والقوة بشدة. ولذلك لا يقدرون على تطوير تركيز الإرادة أحادي التوجه، الذي يقود الإنسان إلى الاستغراق في الرب».

البهاجافاد جيتا.

أصبحت سير القديسين نوعًا أدبيًّا غير شائع فيما بين المثقفين ومتقدي الأذهان. وهي حقيقة لا تثير الدهشة على الإطلاق. للمثقفين ومتقدي الأذهان شهية نهمة لا تشبع نحو البدع والتنوعات والملهيات. إلا أن القديسين يتحكمون مع ذلك في مواهبهم وأيًّا ما كانت طبيعة أنشطتهم المهنية، هم منشغلون بأمر واحد فقط في الأساس – الحقيقة

---

(١) الكارما: تعني بالسنسكريتية العمل أو الفعل، وهي تشير إلى أن أفعال الإنسان سواء كانت خيرة أو شريرة تؤثر في مستقبله، إما ثوابًا أو عقابًا.

الروحية والسبل التي يستطيعون هم ورفاقهم من خلالها الوصول إلى معرفة اتحادية بتلك الحقيقة. أما أفعالهم فهي متسقة ثابتة الوتيرة كما هي أفكارهم؛ يتصرفون في كل الظروف والملابسات بنكران للذات وصبر وبر لا يعرف الكلل. من ثم فلا مجال للعجب من أن تظل سير مثل هؤلاء الرجال والنساء غير مقروءة. في مقابل كل شخص متعلم جيدًا قرأ أي شيء عن ويليام لو، هناك مئتان أو ثلاثمائة قرأوا كتاب بوزويل عن حياة معاصره. لماذا؟ لأن جونسون غمس نفسه في الفتنة الشديدة للشخصيات المتعددة حتى حلت ساعة احتضاره، بينما كان ويليام لو -على الرغم من تفوق مهاراته- بسيطًا وتفكيره أحادي بشكل سخيف. يفضل القَبلي أن يقرأ عن القَبلي. هذا هو السبب وراء غياب أي ممثلين لقديسين حقيقيين -الرب هو مركز عنايتهم- في كل مصنفات الملاحم والدراما والروايات.

«يا صديقي، ارجوه بينما تحيا، اعرف بينما تحيا، افهم بينما تحيا؛ إذ إن الخلاص في الحياة ينتظر.

إذا لم تنكسر علائقك بينما تحيا، ففيمَ رجاء الخلاص في الموت؟

ما اتحاد النفس به لمجرد أنها فارقت الجسد إلا حلم فارغ؛

إذا ما وجدته الآن، ستجده فيما بعد؛

إذا لم تجده، ليس أمامنا إلا المضي نحو سكنى مدينة الموت».

كابير.

يمثل هذا التكوين على هيئة شمس إرادة الرب (التوصيف لنقش على واجهة الطبعة الأولى لكتاب «قانون الكمال»). تمثل الوجوه الموضوعة هنا في الشمس النفوس التي تحيا في الإرادة الإلهية. تنتظم

هذه الوجوه في ثلاث دوائر متحدة المركز، مبينة الدرجات الثلاث لهذه الإرادة الإلهية. تدل الدرجة الأولى الخارجية على النفوس في الحياة الجارية؛ والثانية على تلك التي في حياة التأمل؛ والثالثة على تلك التي في حياة السمو. هناك أدوات عديدة خارج الدائرة الأولى مثل الكماشات والمطارق تشير إلى الحياة الجارية. لكننا لم نضع أي شيء على الإطلاق حول الدائرة الثانية، كي ندلل على أنه في حياة التأمل هذه يجب على الواحد ترك قياده لإرادة الرب، دون أي افتراضات أو ممارسات أخرى. الأدوات على الأرض وفي الظل بقدر ما هي الأعمال الخارجية مليئة بالظلام في حد ذاتها. مع ذلك، يلمس هذه الأدوات شعاع شمس، وهو ما يوضح أن هذه الأعمال قد تستنير وتستضيء بإرادة الرب.

«سوف يسطع الضوء الإلهي على وجوه الدائرة الأولى لكنه سطوع بسيط؛ يسطع أكثر كثيرًا على تلك التي في الدائرة الثانية؛ في حين أن أولئك في الدائرة الثالثة الداخلية يتلألؤون. تظهر ملامح أولئك الذين هم في الدائرة الأولى أكثر وضوحًا؛ ملامح أولئك الذين في الثانية أقل؛ وأما ملامح الذين في الدائرة الثالثة فلا تكاد تُرى. يدل هذا على أن النفوس في الدائرة الأولى في ذواتها؛ أولئك الذين في الثانية في ذواتهم بقدر أقل وبقدر أكبر في الرب؛ أما أولئك في الثالثة فليسوا في ذواتهم أبدًا تقريبًا وهم بالكامل في الرب، مستغرقون في إرادته الجوهرية. لهذه الوجوه جميعها أعين مثبتة على إرادة الرب».

بينيت كانفيلد[١].

---

(١) بينيت كانفيلد (١٥٦٢ - ١٦١٠): يعرف كذلك باسم الأب كانفيلد، وهو متصوف إنجليزي وكتابه «قانون الكمال» من أهم كتب التصوف في ذلك الوقت.

يستطيع القديس ممارسة تأثيره غير القسري أبدًا والخيِّر تمامًا على الأفراد وحتى على المجتمعات بأكملها بفضل استغراقه في الرب، وبسبب أنه لم يعرِّف وجوده من خلال عناصر شخصيته الخاصة الفطرية والمكتسبة. أو كي نكون أكثر دقة، بسبب أنه قد طهَّر نفسه من الذاتية، وبذلك يمكن للحقيقة الإلهية أن تستخدمه كقناة للجلال والقدرة. «فأحيا، لا أنا بل المسيح -اللوغوس الأزلي- يحيا فيَّ»[١]. هو أمر صحيح بالنسبة للقديس، فمن باب أولى أن يكون صحيحًا بالنسبة للأفاتار[٢] أو تجسد الرب. إذا ما كان القديس بولس -طالما كان قديسًا- «لا أنا»، فمن ثم قد كان المسيح بالتأكيد «لا أنا»؛ والحديث عن عبادة «شخصية يسوع» -كما يفعل العديد من رجال الكنيسة الليبراليين الآن- عبث. فمن الواضح أنه إذا ما ظل يسوع راضيًا بالكاد عن القبض على شخصيته -كما هو الحال مع بقيتنا- ما كان له أبدًا أن يمارس ذلك النوع من التأثير الذي مارسه بالفعل، وما كان لأحدهم أن يعتبره تجسدًا إلهيًا، ولا كان له أن يعرِّف نفسه من خلال اللوغوس. على ذلك فقد اعتقدوا فيه باعتباره المسيح بسبب أنه قد تجاوز الذاتية بالفعل وقد أصبح الممر الجسدي والذهني الذي تتدفق عبره الحياة فوق الطبيعية الأرقى من تلك الشخصية إلى العالم.

النفوس التي وصلت إلى معرفة اتحادية بالرب في عبارة بينيت كانفيلد «ليسوا في ذواتهم أبدًا تقريبًا وهم بالكامل في الرب». تبقى هذه الرواسب الآخذة في الاختفاء من الذات لأنهم لا يزالون -وفق

---

(١) بولس الرسول في رسالته إلى أهل غلاطية ٢ : ٢٠.

(٢) يشير في الهندوسية إلى تجسد إله أو كائن علوي على الأرض.

مقياس ما بسيط- يعرِّفون وجودهم من خلال خاصية جسدية - نفسانية فطرية ما أو من خلال عادة ما مكتسبة من الفكر أو المشاعر، أو من خلال عرف ما أو تيار لتحيز غير مدروس في البيئة الاجتماعية. كان يسوع مستغرقًا بالكامل تقريبًا في إرادة الرب الجوهرية؛ لكنه على الرغم من ذلك، ربما يكون قد استبقى بعض عناصر الذاتية. من الصعب للغاية الحكم بناء على الأدلة المتوفرة على قدر «أنا» التي بقيت موجودة في ارتباط مع ما هو إلهي، أكثر من شخصي «لا أنا». على سبيل المثال، هل فسر يسوع خبرته بالحقيقة الإلهية واستدلالاته الخاصة التلقائية من هذه الخبرة من خلال تلك المفاهيم التنبؤية المدهشة المتعلقة بنهاية العالم السارية في الدوائر اليهودية المعاصرة؟ يذهب بعض الدارسين البارزين إلى أن عقيدة التحلل المحدق بالعالم هي المحور المركزي لتعاليمه. يتمسك آخرون -على نفس القدر من المعرفة- أن ذلك نُسِب إليه عن طريق مؤلفي الأناجيل الإزائية[١]، وأن يسوع نفسه لم يُعرِّف خبرته وتفكيره اللاهوتي من خلال الآراء المحلية الشائعة. أي الحزبين يملك ناصية الصواب؟ الرب وحده يعرف. لا يسمح الدليل المتوفر في هذا الأمر وفي العديد غيره بإجابة محددة، تخلو من الغموض.

الحكمة من هذا واضحة وبسيطة. يأتي كم وكيف وثائق السيرة الباقية على الصورة التي تجعلنا لا نملك أي وسيلة لمعرفة كيف كانت شخصية يسوع المتبقية بالفعل. لكن لو أن الأناجيل تخبرنا القليل للغاية عن «أنا»

(١) الأناجيل الإزائية أو السينوبتية: هي أناجيل متى ومرقص ولوقا، وسُمِّيَت كذلك لأنه يمكن وضعها إزاء بعضها؛ لأنها تروي القصص نفسها.

التي هي يسوع، فهي تعوض عن هذا النقص عن طريق إخبارنا بالكثير في الخطابات والمواعظ مما يمكن به الاستدلال عن «لا أنا» الروحية، التي كان وجودها المتجلي في الرجل الفاني سبب إطلاق مريديه عليه اسم المسيح وتعريف هويته من خلال اللوغوس الأزلي.

لا تكون سيرة القديس أو الأفاتار قيمة إلا بقدر إلقائها الضوء على الوسائل التي من خلالها تنحى «أنا» بعيدًا في ظل ملابسات معينة لحياة بشرية معينة من أجل توفير مساحة لـ«لا أنا» الإلهي. لم يختر مؤلفو الأناجيل الإزائية كتابة سيرة كتلك، ولا يمكن أن يوجدها أي كمٍّ من نقد النصوص أو الحدس الحاذق. طوال المائة عام الأخيرة بُذِل قدر مهول من الطاقة على محاولة جعل الوثائق تفصح عن براهين أكثر مما تحوي في الحقيقة. مهما كان الأسف حيال افتقار الإزائيين للاهتمام بالسيرة وأيًّا كانت الاعتراضات التي قد تثار ضد اللاهوتيين بولس ويوحنا، فمما لا شك فيه أن ما فعلاه بداهة سليم. كتب كل منهما بطريقته الخاصة عن «لا أنا» الأزلي للمسيح بدلًا من «أنا» التاريخي، ركز كل منهما بطريقته الخاصة على هذا العنصر في حياة يسوع والذي يمكن لكل الشخوص أن تشارك فيه لأنه أكثر من شخصي. (طبيعة الذاتية هي على الصورة التي تجعل من غير الممكن لشخص أن يكون جزءًا من شخص آخر. يمكن لذات أن تحتوي على أو تُحتوى عن طريق شيء إما أقل من أو أكثر من ذات، لا يمكن أبدًا أن تحتوي على أو تُحتوى عن طريق ذات).

المعتقد الذاهب إلى إمكانية تجسد الرب في الشكل البشري موجود في أغلب الشروح الرئيسة التاريخية للفلسفة الخالدة - في الهندوسية

وفي بوذية الماهايانا وفي محمدية الصوفية، إذ عادلت بين الرسول واللوغوس الأزلي.

«عندما يضعف الصلاح،

عندما يزداد الشر،

أجعل من ذاتي جسدًا.

أعود في كل عصر

كي أوصل المقدس،

كي أدمر معصية العاصي،

كي أؤسس للبر.

مَن يعرف طبيعة

مهمتي وميلادي المقدس

لا يولد من جديد

عندما يغادر هذا الجسد؛

يأتي إليَّ.

محلقًا من عند الخوف،

من عند الشهوة والغضب،

يختبئ فيَّ،

في ملاذي وأماني.

يحترق نقيًّا في لهب وجودي،

يجد العديدون سكنهم فيَّ».

بهاجافاد جيتا.

«ثم تحدث المبارك، وقال: «اعرف يا فاثيتا أنه من وقت لآخر يولد تاتجاتا[١] في العالم، الواحد المستنير، مبارك وجدير، معزز بالحكمة والصلاح، سعيد بمعرفة العوالم، لا مثيل له كقائد للفانين الخطائين، معلم الأرباب والبشر، بوذا المبارك. يفهم هذا العالم تمامًا، وكأنما يراه وجهًا لوجه... الحقيقة التي ينادي بها في كل من خطابه وروحه فاتنة في أصلها وفاتنة في تطورها وفاتنة في تمامها. يُعرِّف بحياة أرقى بكل نقائها وبكل كمالها».

تيفيجا سوتا.

كريشنا هو تجسد براهمان، جوتاما بوذا ما يطلق عليه معتنقو ماهايانا اسم دارماكايا، الهكذائي[٢]، العقل، الأصل الروحي لكل الموجودات. يختلف المعتقد المسيحي لتجسد الربوبية في البشر عن ذلك الذي للهند والشرق الأقصى من حيث تأكيده على أنه قد كان هناك أفاتار واحد فقط ويستحيل أن يكون هناك إلا أفاتار واحد فقط.

ما نفعله يعتمد بدرجة كبيرة على ما نعتقد فيه، وإذا كان ما نفعله شرًّا،

---

(١) تاتجاتا: الاسم الذي يستخدمه بوذا عادة للإشارة إلى نفسه.

(٢) هكذائي: مصطلح أساسي في بوذية ماهايانا، ويشير إلى الحقيقة المطلقة التي لا يمكن التعبير عنها بكلمات.

فهناك سبب مُجرب جيد لافتراض أن أنماط تفكيرنا غير مناسبة للحقيقة المادية والعقلية والروحية. ولأن المسيحيين يؤمنون في أنه قد كان هناك أفاتار واحد فقط، فقد وُصِم التاريخ المسيحي بحملات صليبية وحروب طائفية واضطهاد واحتلال من أجل التبشير أكثر وأدمى مما كان في التاريخ الهندوسي والبوذي. تسببت المعتقدات الباطلة والوثنية التي تؤكد على الطبيعة شبه الإلهية للأقاليم ذات السيادة وقادتها في دفع الشعوب الشرقية إلى حروب سياسية لا تحصى -لا تقل بأي حال عن الحروب في الغرب- لكن لأن الشعوب الشرقية لم تؤمن في تجلٍّ حصري في لحظة زمنية وحيدة أو في منظمة إكليريكية شبه إلهية، فقد ظلوا بعيدين بدرجة لافتة عن القتل الجماعي من أجل غرض ديني، وهو الأمر الذي كان متواترًا بدرجة مرعبة في المسيحية. وبينما كان مستوى الأخلاق العامة -في هذا السياق الهام- أقل في الغرب من الشرق، لم تكن مستويات القداسة الاستثنائية أو الأخلاق الفردية المعتادة أعلى بأي شكل، وذلك وفق ما يمكن الحكم عليه من الأدلة المتاحة. لو كانت الشجرة تُعرف من خلال ثمارها بالفعل، إذَنْ يبدو أن مفارقة المسيحية لأعراف الفلسفة الخالدة ليس بالأمر المبرر فلسفيًّا.

لا يغادر اللوغوس الأزل إلى الزمن إلا بغية مساعدة المخلوقات -التي يتخذ شكلها الجسدي- كي تغادر الزمن إلى الأزل. لو أن ظهور الأفاتار على خشبة مسرح التاريخ هامًّا للغاية، فذلك يرجع إلى حقيقة أنه من خلال تعاليمه التي يلفت الانتباه إليها ومن خلال كونه قناة للجلال والقوة الإلهية التي هو عليها بالفعل، يمكن للبشر السمو فوق

قيود التاريخ. يجزم مؤلف الإنجيل الرابع أن الكلمة صارت لحمًا؛ لكنه يضيف في مقطع آخر أن اللحم لا يفيد شيئًا - وهو ما يعني أنه في حد ذاته لا شيء، لكنه إلى حد كبير وسيلة للاتحاد بالروح المتجلية والسامية بالتأكيد. في هذا السياق، من المثير جدًّا النظر إلى تطور البوذية. كتب ريجينالد فلمنج جونستون[1] في كتابه (الصين البوذية) «تعبر الماهايانا عن الكوني وفق صيغ التصورات الدينية والصوفية، بينما لا تستطيع الهينايانا الإفلات من هيمنة الحقيقة التاريخية». وفق كلمات مستشرق بارز، أناندا كوماراسوامي[2] فإن «المؤمن في الماهايانا يُنبَّه إلى أن أمور الحقيقة التاريخية بلا دلالة أو قيمة دينية، تمامًا كما نُبِّه عابد كريشنا في النصوص المقدسة الفيشنوية إلى أن كريشنا ليلا ليس تاريخًا». (علينا أن نضيف أنها بلا قيمة إلا إذا كانت تشير إلى الوسائل -أو كانت هي نفسها مكونات الوسائل التي من الممكن أن يصل البشر عن طريقها إلى الخلاص من الذاتية والنظام الزمني، وذلك سواء كانت بعيدة أو قريبة، سواء كانت سياسية أو أخلاقية أو روحية).

مضى المتصوفون في الغرب -نوعًا ما- في طريقهم صوب تحرير المسيحية من عبوديتها البائسة للحقيقة التاريخية (أو -كي نكون أكثر تحديدًا- تحريرها من عبوديتها لتلك الأخلاط المتنوعة المكونة من السجل المعاصر والاستدلالات اللاحقة والفانتازيا، والتي أُقر باعتبارها

---

(١) ريجينالد جونستون (١٨٧٤ - ١٩٣٨): دبلوماسي بريطاني وكاتب، عمل مستشارًا لإمبراطور الصين.

(٢) أناندا كوماراسوامي (١٨٧٧ - ١٩٤٧): فيلسوف ومؤرخ سريلانكي.

حقيقة تاريخية في حقب مختلفة). من الممكن استخلاص مسيحية جُعلت روحانية وكونية من كتابات إكهرت وتاولر[1] ورويسبرويك وبوهمه[2] وويليام لو والكويكرز، يجب أن تشير سرديات تلك الكتابات لا إلى التاريخ كما كان أو كما ظن أحدهم أنه سوف يكون، لكن إلى «عمليات يكشف عنها باستمرار في قلب الإنسان». لكن تأثير الصوفية لم يكن قويًّا كفاية أبدًا للأسف، كي يجلب ثورة جذرية ماهايانية في الغرب. على الرغم منها، ظلت المسيحية دينا، أُضيف إلى الفلسفة الخالدة الخالصة فيه انشغال وثني بالأحداث والأشياء في الزمن - أشياء وأحداث لم تعتبر وسائل نافعة بالكاد، لكن اعتبرت غايات مقدسة في جوهرها وإلهية حقًّا. علاوة على ذلك، عولجت مثل هذه التحسينات في التاريخ -كما أُرسيت على مر القرون- في غير حكمة، كأنها كانت هي نفسها جزءًا من التاريخ - وهو الإجراء الذي وضع سلاحًا جبارًا في أيدي البروتوستانتيين و-فيما بعد- مثيري الجدل العقلانيين. إلى أي حد كان من الأحكم لو اعتُرف بهذه الحقيقة -التي يعد الإقرار بها مثاليًّا- أن الرجال والنساء شعروا بحاجة إلى إضفاء طابع شخصي على العطف الإلهي في صيغة جديدة، وذلك عندما شُدِّد في إفراط على صرامة المسيح القاضي، وهو ما أدى إلى أن شخصية العذراء، الشفيعة لدى الشفيع ازدادت بروزًا. وعندما نما شعور بمهابة وجلال ملكة السماء مع مرور الزمن، أُعيد إضفاء الطابع الشخصي على العطف في الشخصية

(١) يوهانز تاولر (١٣٠٠ - ١٣٦١): قس كاثوليكي ومتصوف ألماني.

(٢) يعقوب بوهمه (١٥٧٥ - ١٦٢٤): فيلسوف ومتصوف ألماني.

المألوفة للقديس جوزيف[1]، والذي أصبح بذلك الشفيع لدى الشفيعة لدى الشفيع. بنفس الطريقة بالضبط، شعر العابدون البوذيون أن الساكياموني[2] التاريخي صارم للغاية وذهني للغاية، وذلك مع إصراره على أن الاستغراق والتمييز وإماتة الذات هي الوسائل الرئيسة للتحرر. وكانت النتيجة أن الحب والعطف اللذين كان الساكياموني قد غرسهما كذلك أصبحا مشخصين في بوذا، على سبيل المثال أميدا ومايتريا - شخصيتان سماويتان أزيلتا من التاريخ تمامًا، نظرًا إلى أن وظيفتها الزمنية قد وضعت في مكان ما، في الماضي البعيد أو المستقبل البعيد. قد يكون من الملاحظ هنا أن العدد المهول من بوذا والبوداسَف[3] -الذين يتحدث عنهم لاهوتيو الماهايانا- متناسب مع رحابة الكوزمولوجيا[4] الخاصة بهم. الزمن بالنسبة لهم بلا بداية، والأكوان التي لا تحصى -التي يدعم كل واحد منها كائنات تحس من كل نوع ممكن- تولد وتتطور وتضمحل وتموت، كي تعيد الدورة نفسها فقط - مرة تلو مرة، حتى التمام النهائي البعيد غير المتصور، عندما يحوز كل كائن يحس في كل العوالم على خلاصه من الزمن وصولًا إلى الهكذائية الأزلية أو البوذوية. هناك أوجه شبه بين هذه الخلفية الكوزمولوجية للبوذية وصورة العالم في علم الفلك الحديث - خاصة نسخته التي تقدمها نظرية د. ويزساكر[5] فيما يتعلق

---

(١) القديس جوزيف أو يوسف النجار: شخصية من شخصيات الكتاب المقدس، وهو خطيب السيدة مريم ومربي المسيح، ويعد الأب الأرضي له.

(٢) كان شعب بوذا يعرف باسم شعب ساكيا، لذلك يشار إليه أحيانا باعتباره بوذا الساكياموني.

(٣) البوداسَف: أي شخص في سبيله إلى تحقيق البوذية.

(٤) الكوزمولوجيا: علم الكونيات.

(٥) كارل فريدريش ويزساكر (١٩١٢ - ٢٠٠٧): فيزيائي وفيلسوف ألماني.

بنشأة الكواكب. لو صحت فرضية ويزساكر، فإن تكوُّن النظام الشمسي هو حلقة طبيعية في حياة كل نجم. يوجد أربعون ألف مليون نجم في نظامنا المجري فقط[1]، وفيما وراء مجرتنا توجد مجرات لا نهائية. لا خيار أمامنا سوى الاعتقاد في أن القوانين الروحية الحاكمة للوعي متسقة عبر كل الكون الذي يحظى بكواكب ومن المحتمل أن يدعم الحياة، ولو أن الحال على هذ الصورة، فمن ثم توجد بالتأكيد مساحة شاسعة لتلك التجسدات الفدائية التي لا حصر لها للهكذائية -وفي الوقت نفسه هناك حاجة ماسة وملحة لها، بلا شك.

«من جهتي، أظن أن السبب الرئيس الذي حض الرب غير المرئي على أن يصبح مرئيًّا في اللحم وعلى أن يعقد أحاديث مع البشر هو الأخذ بقياد البشر غير الروحانيين -الذين لا يقدرون إلا على الحب الجسدي (المادي) فقط- إلى الحب الصحي لجسده، وفيما بعد، رويدًا رويدًا إلى الحب الروحاني».

القديس برنارد.

أجمل بروفيسور إتيان جيلسون[2] معتقد القديس برنارد «للحب الجسدي (المادي) للمسيح» بشكل مثير للإعجاب في كتابه (اللاهوت الصوفي للقديس برنارد). «لقد توسعت المعرفة بالذات بالفعل وتحولت إلى حب جسدي (مادي) اجتماعي للأخ، وعلى ذلك توسع شقاء الواحد مرة ثانية وتحول إلى حب جسدي (مادي) للمسيح، نموذج العطف، إذ

---

(١) عدد النجوم في مجرتنا يقدر حاليًا بمائة مليار نجم (مائة ألف مليون).

(٢) إتيان جيلسون (١٨٨٤ - ١٩٧٨): فيلسوف ومؤرخ فرنسي.

أصبح رجل الأحزان من أجل خلاصنا. من ثم فهذا هو المكان الذي يشغله في صوفية السيسترسية[1]. وما التأمل في بشرية المسيح المرئية إلا بداية، لكنها بداية ضرورية ضرورة مطلقة... الإحسان روحاني بالضرورة، وحب من هذا النوع من المحتمل ألا يكون أكثر من لحظته الأولى. وهو حب يرتبط بصورة كبيرة للغاية بالحواس، ما لم نعرف كيف نستغله مع شيء من التبصر، وكيف نستند إليه فقط ونحن نضع في اعتبارنا أنه شيء يجب تجاوزه. كان القديس برنارد يقوم بتنظيم تعاليم مستقاة من خبرته الخاصة بالكاد عندما يعبر عن نفسه؛ إذ عرفنا عنه أنه قد كان مكرسًا للغاية من أجل ممارسة هذا الحب الشعوري في مستهل «تحوله إلى الإيمان»؛ فيما بعد كان عليه أن يعتبره خطوة إلى الأمام، عليه المرور إلى ما بعدها، ما يعني أنه ليس عليه نسيانه، لكن عليه إضافة شيئًا آخر، يفوقه كما يفوق العقلاني والروحاني الجسدي. إلا أن هذه البداية هي بالفعل قمة.

«أشار القديس برنارد إلى هذه العاطفة المرهفة تجاه المسيح باعتبارها حبًّا من درجة أدنى نسبيًّا. هو كذلك بالتحديد بسبب صفته الحسية، إذ إن الإحسان من جوهر روحاني خالص. الصواب أن النفس يجب أن تكون قادرة على الدخول مباشرة في اتحاد مع رب هو روح خالص، بفضل قواها الروحية. علاوة على ذلك، فالتجسد ينبغي اعتباره أحد تبعات خطيئة الإنسان، لذلك فحب شخص المسيح يرتبط -في الحقيقة- بتاريخ السقوط الذي ما كان ينبغي أن يحدث، ولا كان لازم الحدوث. بالإضافة

(١) السيسترسية: أحد أنظمة الرهبنة الكاثوليكية.

إلى ذلك، يسجل القديس برنارد في مواضع عديدة أن هذه العاطفة لا يمكن أن تنهض وحيدة بأمان، بل تحتاج إلى أن تدعم بما أسماه «علمًا». وقد كانت بحوزته أمثلة عديدة لانحرافات يمكن أن تسقط فيها حتى أكثر العبادات حرارة، عندما لا تكون مرتبطة بلاهوت سليم، ومحكومة به».

هل يمكن اعتبار النظريات الفانتازية والمتعارضة للتكفير عن الآثام والكفارات التي طُعِمَّ بها المعتقد المسيحي للتجسد الإلهي عناصر لا غنى عنها في «اللاهوت السليم»؟ أجد أنه من الصعب تصور كيف يمكن لأحد درس تاريخ هذه المفاهيم كما شرحها، على سبيل المثال مؤلف رسالة إلى العبرانيين(١)، أثناسيوس(٢) وأوغسطينوس، أنسلم(٣) ولوثر، كالفن(٤) وجروتيوس(٥) أن يجيب هذا السؤال بالإيجاب وتكون إجابته معقولة. في السياق الحالي، سوف يكون من الكافي توجيه الانتباه نحو واحدة من أكثر مهازل التاريخ مرارة. بالنسبة إلى مسيح الأناجيل، يبدو المحامون بعيدين عن مملكة السماء، غير نافذين إلى الحقيقة بدرجة محبطة، ولا يفوقهم في ذلك في الغالب أي فئة من فئات البشر الأخرى، فيما عدا الأغنياء. لكن اللاهوت المسيحي خاصة ذلك المرتبط بالكنائس الغربية، كان نتاج عقول تشربت النظام القانوني اليهودي والروماني. قام رجال قانون متأملون ومتفقهون فيه ميتافيزيقيون

---

(١) رسالة إلى العبرانيين: هي أحد رسائل العهد الجديد وهي رسالة موجهة إلى العبرانيين الذين تخلوا عن اليهودية واعتنقوا المسيحية.

(٢) أثناسيوس (٢٩٦ - ٣٧٣): بطريرك الإسكندرية في القرن الرابع.

(٣) أنسلم (١٠٣٣ - ١١٠٩): أسقف كانتربري، وهو لاهوتي وفيلسوف إيطالي المولد.

(٤) جون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤): لاهوتي وقس ومصلح فرنسي.

(٥) هوجو جروتيوس (١٥٨٣ - ١٦٤٥): قاضٍ ولاهوتي ومؤرخ وشاعر هولندي.

-لا فلاسفة- بعقلنة التبصرات المباشرة في الأفاتار والقديسين المتمركزين حول الرب ومنطقتها ضمن نظام. لماذا ينبغي أن يكون ما دعاه أبوت جون تشابمان[1] «مشكلة التوفيق (وليس التوحيد) بين الصوفية والمسيحية» أمرًا صعبًا للغاية؟ ببساطة لأن كثيرًا جدًّا من التفكير الروماني والبروتوستانتي قد أنجزه محامون، وهم الذين اعتبرهم المسيح غير قادرين على وجه الخصوص على فهم الطبيعة الحقيقية للأشياء. «يقول الأبوت (رئيس الدير، ومن الواضح أن تشابمان يشير إلى أبوت مارميون[2]): إن يوحنا الصليب[3] مثله كمثل إسفنجة مليئة بالمسيحية. يمكنك عصرها بشدة بالكامل، وتبقى النظرية الصوفية بالكامل (بمعنى آخر، تبقى الفلسفة الخالدة الخالصة). لذلك، كنت قد كرهت القديس يوحنا الصليب لفترة امتدت إلى خمسة عشر عامًا أو نحو ذلك ودعوته بالبوذي. أحببت القديسة تيريزا[4] وقرأتها مرارًا وتكرارًا؛ إذ إنها مسيحية في المقام الأول، ثم يأتي التصوف في مقام ثانوي فقط. ثم اكتشفت أنني أضعت خمسة عشر عامًا، طالما كنت معنيًّا بالتضرع».

والآن انظر في معنى مقولتي المسيح هاتين. الأولى، «ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي»[5]، وذلك عن طريق حياتي. المقولة الثانية «لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب»[6]؛ ما يعني أنه لا يتعهد بحياتي

---

(١) جون تشابمان (١٨٦٥ - ١٩٣٣): قس كاثوليكي إنجليزي.

(٢) أبوت مارميون (١٨٥٨ - ١٩٢٣): راهب أيرلندي كاثوليكي.

(٣) يوحنا الصليب (١٥٤٢ - ١٥٩١): متصوف وكاهن وقديس كاثوليكي إسباني.

(٤) القديسة تيريزا (١٥١٥ - ١٥٨٢): راهبة إسبانية.

(٥) إنجيل يوحنا ١٤ : ٦.

(٦) إنجيل يوحنا ٦ : ٤٤.

ويتبعني، إلا مَن يحركه ويجتذبه أبي، ذلك الذي هو الصلاح البسيط والكامل، الذي يقول عنه القديس بولس: «ولكن متى جاء الكامل، فحينئذ يبطل ما هو بعض»[١].

اللاهوت الجرماني[٢].

بمعنى آخر، يجب أن تكون هناك محاكاة للمسيح قبل أن يكون هناك تعريف للهوية من خلال الآب؛ ويجب أن تكون هناك مطابقة جوهرية أو تشابه جوهري بين الروح البشرية والرب الذي هو روح، بحيث تعبر دائمًا فكرة محاكاة السلوك الأرضي للألوهة المتجسدة في عقل أي شخص. يتحدث اللاهوتيون المسيحيون عن إمكانية «التأله»، لكنهم ينكرون وجود أي تطابق جوهري بين الحقيقة الروحية والروح الإنسانية. في بوذية فيدانتا وماهايانا وفيما بين الصوفيين كذلك الروح والروح الإلهي هما من نفس الجوهر، الأتمان هو البراهمان؛ ذلك هو أنت.

«عندما لا تكون مستنيرًا، لا تعدو البوذات (جمع بوذا) أن تكون مجرد مخلوقات عادية؛ عندما تكون هناك استنارة، تتحول المخلوقات العادية إلى بوذات».

هيو ننج[٣].

(١) رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ١٠ : ١٣.

(٢) اللاهوت الجرماني Theologia Germanica: رسالة مجهولة يُعتقد أنها كُتبت في القرن الرابع عشر، ووفق مقدمة الرسالة فكاتبها كان كاهنًا يعيش في ألمانيا.

(٣) هيو ننج (٦٣٨ - ٧١٣): البطريرك السادس والأخير لبوذية تشان، وهو صيني.

هكذا يمكن لكل بشري أن يصبح أفاتارًا عن طريق التبني، لا عن طريق جهوده من دون مساعدة. يجب أن يُريَ الطريق، ويجب أن يساعده الجلال الإلهي. هكذا يمكن للرجال والنساء أن يُرشدوا ويُساعدوا، تتخذ الألوهة شكلًا بشريًا عاديًا، عليه أن يحرز الخلاص والاستنارة بالطريقة المنصوص عليها من خلال الطبيعة الإلهية للأشياء - أي من خلال الإحسان، من خلال إفناء الذات الكامل، والوعي أحادي التوجه تمامًا. على ذلك فالمستنير، الأفاتار يمكنه كشف طريق الاستنارة للآخرين ومساعدتهم بالفعل كي يصبحوا ما هو كامن فيهم بالفعل. **Tel qu'en Lui-même enfin l'éternité le change**[1]. والأزل الذي يحولنا إلى أنفسنا ليس مجرد البقاء بعد الموت الجسدي. من ثم لن تكون هناك خبرة بالحقيقة المجاوزة للزمن، ما لم تكن المعرفة نفسها موجودة داخل عالم الزمن والمادة أو معرفة ما مشابهة لها. يُعلّمنا الأفاتار من خلال المبدأ والمثال أن هذه المعرفة المُحوِّلة ممكنة، وأن كل المخلوقات ذات الحس مدعوة لها وأنها جميعها سوف تصل إليها بالتأكيد، عاجلًا أو آجلًا، بطريقة ما أو أخرى.

❊ ❊ ❊

(١) من أشعار ستيفان مالارميه (١٨٤٢ - ١٨٩٨): وهو شاعر فرنسي ويعد أحد رواد تيار الرمزية، والشعر من قصيدة بعنوان (قبر إدجار بو)، إذ كتب، «كما هو في نفسه، حوله الأزل في النهاية».

الفصل الرابع

الرب في العالم

«ذلك هو أنت»: «انظر ليس هناك إلا واحد في كل الأشياء» - الرب في الداخل والرب في الخارج. هناك طريق إلى الحقيقة في النفس ومن خلال النفس، وهناك طريق إلى الحقيقة في العالم ومن خلال العالم. أما ما إذا كان من الممكن الوصول إلى الغاية الخاتمة عن طريق إتباع أيٍّ من هذين الطريقين إلى درجة إقصاء الآخر تمامًا، فهو أمر مشكوك فيه. الطريق الثالث، الأفضل والأصعب، هو ذلك الذي يقود إلى الأصل الإلهي في المُدرِك وفيما يُدرَك بالتزامن.

«ما العقل إلا بوذا، وما بوذا إلا كائن ذو حس. عندما يتخذ العقل شكل مخلوق ذي حس، لم يعانِ أي نقص؛ وعندما أصبح بوذا لم يضف أي شيء إلى نفسه».

هوانغ بو[١].

«كل المخلوقات قد وُجِدت أزليًا في الجوهر الإلهي، كما هي في نماذجها. بقدر تطابقها مع الفكرة الإلهية، كانت كل الموجودات شيئًا

(١) هوانغ بو: معلم زن صيني، توفي عام ٨٥٠.

واحدًا مع جوهر الرب، قبل خلقها. (خلق الرب في الزمن ما كان ولا يزال في الأزل). كانت كل المخلوقات في الأزل ربًّا في الرب... بقدر ما هي في الرب، هي الحياة نفسها، هي الجوهر نفسه، هي القدرة نفسها، هي الواحد نفسه، ولا شيء غيره».

سوسو[١].

«نجد صورة الرب جوهريًّا وشخصيًّا في كل الجنس البشري. كلٌّ يملكها كاملة وتامة وغير مجزأة، وجميعها معًا ليست إلا واحدًا مفردًا. على هذا النحو، نحن جميعًا واحد، متحدون بشكل وثيق في صورتنا الأزلية، التي هي صورة الرب و مصدر كل حياة لنا فينا. جوهرنا المخلوق وحياتنا مرتبطان بها دون انحراف، وهو ارتباط بسببهما الأزلي».

رويسبرويك.

«الرب في جوهره البسيط هو في كل مكان بالتساوي، إلا أنه في فعاليته هو في المخلوقات العاقلة على نحو آخر عنه في المخلوقات غير العاقلة وفي المخلوقات العاقلة الصالحة على نحو آخر عنه في الطالحة. هو في المخلوقات غير العاقلة على النحو الذي لا يمكن أن يدركوه به، مع ذلك يمكن أن تدركه المخلوقات العاقلة من خلال المعرفة، لكنه بواسطة الصلاح فقط يمكن أن يُدرك، وكذلك من خلال الحب».

القديس برنارد.

«متى يكون إنسان في مقام الفهم المجرد؟ أُجيب: «عندما يرى

(١) هاينريش سوسو (١٢٩٥ - ١٣٦٦): متصوف ألماني، اشتُهر بدفاعه عن إكهرت بعد أن اتُّهم بالهرطقة بعد وفاته.

الإنسان شيئًا منفصلا عن آخر». ومتى يكون إنسان في مقام أعلى من مقام الفهم المجرد؟ يمكنني أن أخبرك إذَنْ: «عندما يري الإنسان الكل في الكل، يكون قائمًا فيما وراء الفهم المجرد».

إكهرت.

«هناك أربعة أنواع من الدهيانا[١] (التدريبات الروحية). ما هي هذه الأربعة؟ هي، أولًا- الدهيانا التي يمارسها الجاهل؛ ثانيًا- الدهيانا المكرسة لفحص المعنى؛ ثالثًا- الدهيانا مع الهكذائية كغاية لها؛ رابعًا- دهيانا التاتاجاتات (البوذات).

«ما المقصود بالدهيانا التي يمارسها الجهلاء؟ هي تلك التي يلجأ إليها اليوجيون[٢] الذين يحملون على أنفسهم في تدريبات سرافاكا[٣] وبراتيكابوذا[٤] (هم متأملون و«بوذات منعزلة» من مدرسة الهينايانا)، يدركون أنه لا جوهر للذات (الأنا)، فالجسد ظل وهيكل عابر وغير نقي ومليء بالمعاناة، يتشبثون باستمرار بهذه الأفكار والتي تعتبر تمامًا على ما هي عليه وليست أي شيء آخر ومَن يبدأ منها يتقدم المراحل حتى يصل إلى التوقف، حيث لا أفكار هناك. يطلق على هذا الدهيانا التي يمارسها الجهلاء.

«ما هي إذَنْ الدهيانا المكرسة لفحص المعنى؟ إنها التي يمارسها الذين مضوا إلى ما هو أبعد من انعدام ذوات الأشياء، إلى ما هو أبعد من

(١) دهيانا في الهندوسية: التأمل.

(٢) اليوجيون / اليوجي، معلمو اليوجا / معلم اليوجا.

(٣) سرافاكا: المستمع أو المريد.

(٤) براتيكابوذا: المدركون بأنفسهم أو المتطورون ذاتيًا.

الفردانية والعمومية، إلى ما هو أبعد من عدم معقولية أفكار على شاكلة «الذات» و«الآخر» و«كليهما» التي يتمسك بها الفلاسفة، يواصلون فحص ومتابعة معنى الأوجه المتنوعة للسعي نحو البوداسَف. هذه هي الدهيانا المكرسة لفحص المعنى.

«ما هي الدهيانا مع تاتهاتا (أو الهكذائية) باعتبارها غايتها؟ عندما يدرك اليوجي أن التمييز بين صورتي انعدام الذات هو خيال محض وأنه حيثما يرسخ لنفسه في حقيقة الهكذائية لا بزوغ للتمييز - فإن هذا ما أطلق عليه اسم الدهيانا مع الهكذائية كغاية لها.

«ما هي دهيانا التاتاجاتا؟ عندما ينخرط اليوجي في مرحلة التاتاجاتية ويقيم في النعيم الثلاثي المميز لإدراك الذات الذي يصل إليه عن طريق الحكمة النبيلة، يكرس نفسه من أجل كل المخلوقات من أجل إتمام الأعمال التي لا سبيل إلى سبر غورها - هذا ما أطلق عليه دهيانا التاتاجاتا».

لانكافاتارا سوترا.

«عندما يفشل متبعو الزن في المضي إلى ما هو أبعد من عالم الحواس والأفكار، تكون كل أفعالهم وحركاتهم بلا قيمة. لكن عندما تبيد الحواس والأفكار، فإن كل الممرات إلى العقل الكوني تُعوَّق، ولا يصبح المرور إذَنْ ممكنًا. يُدرَك العقل الأصلي عن طريق الحواس والأفكار العاملة - هو لا ينتمي إليها فقط، وليس مستقلًّا عنها كذلك. لا تقيم رؤاك على حواسك وأفكارك؛ لكن لا تبحث في الوقت نفسه عن العقل بعيدًا عن حواسك وأفكارك، لا تحاول القبض على الحقيقة عن

طريق رفض حواسك وأفكارك. عندما لا تكون مرتبطًا بها ولا منفصلًا عنها، فمن ثم تنعم بحريتك دون عوائق، ومن ثم تحوز مقعد التنوير».

هوانغ بو.

من الممكن التفكير في كل موجود مفرد -من الذرة حتى أكثر الأجساد الحية تنظيمًا والعقول الزائلة الأكثر رفعة- باعتباره وفق عبارة ريني جينون[1] نقطة، يقابل عندها شعاع الربوبية الأولى أحد الانبثاقات الإبداعية المتمايزة لطاقة الخلق الربوبية نفسها. قد يكون المخلوق باعتباره مخلوقا بعيدًا جدًّا عن الرب من حيث افتقاره إلى ذكاء اكتشاف طبيعة الأصل الإلهي لوجوده. لكن المخلوق في جوهره الأزلي -باعتباره موضع التقاء إبداع الخلق والربوبية الأولى- هو واحد من عدد لا نهائي من النقاط حيث تكون الحقيقة الإلهية حاضرة على نحو كامل وأزلي. ولهذا السبب، يمكن للمخلوقات العاقلة الوصول إلى معرفة اتحادية بالأصل الإلهي، قد تكشف المخلوقات غير العاقلة والجمادات للمخلوقات العاقلة عن امتلائها بوجود الرب داخل أشكالها المادية. ليست رؤية الشاعر أو الرسام لما هو إلهي في الطبيعة، ولا وعي العابد بالوجود المقدس في الأسرار المقدسة[2]، أمورًا ذاتية بالكامل. صحيح أن المعرفة هي دور المخلوق، غير أنه لا يمكن لمثل هذه المُدركات أن تقع في خاطر كل المدركين لها إلا إذا كان الشيء المعروف مستقلًّا عن مزاج وطبيعة العارف. ما يراه الشاعر والرسام ويحاولان تسجيله لنا

---

(١) ريني جينون (١٨٨٦ - ١٩٥١): كاتب ومفكر فرنسي.

(٢) الأسرار المقدسة: طقوس دينية مسيحية، مثل سر المعمودية وزيت الميرون والقربان المقدس وسر التوبة وسر مسحة المرضى وسر الزيجة وسر الكهنوت.

هو هناك بالفعل، ينتظر أن يدركه أحد ما، يحظى بالنوع الصحيح من الملكات. بالمثل الأصل الإلهي حاضر بالكامل في الصورة أو في مواد الأسرار المقدسة. يجهز الإيمان والانصراف إلى العبادة عقل العابد من أجل إدراك شعاع الربوبية عند نقطة التقاطع مع قطعة المادة المعينة أمامه. تصبح هذه الرموز عَرَضًا عند تبجيلها مراكز لحقل قوة. تخلق أشواق ومشاعر وتصورات أولئك الذين يركعون -وكانوا قد ركعوا لأجيال- أمام المزار دوامة مستمرة في الوسط النفساني، بحيث تنبض الصورة بحياة ثانوية أدنى، تنبعث إليها من المبجلين لها، كما تنبض بحياة إلهية ابتدائية، وهي الحياة التي تتشاركها كل المخلوقات الحية وغير الحية، وهي تمتلكها بفضل علاقتها بالأصل الإلهي. قد تكون الخبرة الدينية لممارسي طقوس الأسرار المقدسة والمبجلين للصورة أصيلة وموضوعية تمامًا؛ لكنها ليست دائمًا أو بالضرورة خبرة بالرب أو بالربوبية. قد تكون خبرة بحقل القوة الذي ولَّدته عقول مبجلي الماضي والحاضر وانبعثت إلى أشياء الأسرار المقدسة حيث تعلقت بها -وربما يكون الأمر على هذه الصورة بالفعل في أغلب الحالات- وهي بذلك في حال يمكن أن نطلق عليه -إن جاز التعبير- موضوعية غير مباشرة، تنتظر أن تدركها عقول منسجمة معها. سوف تتوجب علينا مناقشة المدى الذي يعد به مثل هذا النوع من الخبرات مرغوبًا فيه بالفعل في فصل آخر. كل ما نحتاج إلى النص عليه هنا أنه ليس هناك ما يبرر ازدراء محطم الأيقونات[1] للأسرار المقدسة وللرموز على اعتبار أنها ليست

(١) مَن يدمر متعمدًا الأيقونات والرموز والآثار لأسباب دينية أو سياسية، وهي كلمة تشير كذلك إلى معارض المعتقدات السائدة.

أكثر من عرض باهت صامت من الألواح والصخور.

لا يزال العمال في شك، إلى أي رأي ينحازون،
ما إذا كنت من عمل قديس أم مِعلَفًا للخنازير،
بعد جدال أعزوني إلى قديس؛
ومن ثم أذاعوا أمر لويولا التي أمثلها[١].

كل الهجَّائين البروتوستانتيين ينسون أن الرب في معلف الخنازير بقدر لا يقل عن القدر الذي هو به في الصورة المقدسة المعتادة. «ارفع الحجر، فتجدني هناك»[٢] وهو جزم يوافق أكثر ما هو معروف عن مقولات يسوع في برديات أوكسيرينخوس[٣]، «اشطر حطبة، فأكون هناك»[٤]. أولئك الذين أدركوا بشكل شخصي ومباشر حقيقة هذه المقولة التي تتسق مع المقولة البراهمانية «ذلك هو أنت» قد حظوا بالخلاص الكامل.

«فشلت السرافاكا (التي تعني حرفيًّا «المستمع»، وهو الاسم الذي

(١) من كتاب (معًا مع بقاياه) للشاعر الإنجليزي جون أولدهام (١٦٥٣ - ١٦٨٣)، والمقطع يأتي على لسان قطعة خشبية من جذع شجرة ملقاة.
(٢) إنجيل توما: وهو أحد الأناجيل خارج الأناجيل الأربعة (مرقس ومتى ولوقا ويوحنا)، وقد فُقد لفترة طويلة، ثم أعيد اكتشافه حديثًا.
(٣) برديات أوكسيرينخوس: مجموعة من المخطوطات المكتشفة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بالقرب من أوكسيرينخوس (البهنسا الآن) في مصر.
(٤) إنجيل توما.

منحه بوذيو الماهايانا لمتأملي مدرسة الهينايانا) في إدراك ذلك العقل، كما هو في ذاته، بلا مراحل ولا عِلّيّة. فبإلزامه لنفسه بالسبب، قد أحرز النتيجة ولَزِم سمادهي (تأمل) الخواء إلى الأبد ولدهور كثيرة جدًّا. أيًّا ما كانت الاستنارة في هذا الطريق، فالسرافاكا ليست السبيل الصحيح بأي حال. من منظور البوداسَف فإن هذا مثل معاناة عذاب الجحيم. دفن السرافاكا نفسه في الخواء، ولم يعرف كيف يخرج من تأمله الهادئ، إذ إنه لم يحظَ بأي تبصر في طبيعة بوذا نفسها».

موزي[1].

«عندما تكون الاستنارة تامة، يكون البوداسَف متحررًا من عبودية الأشياء، لكنه لا يسعى إلى الخلاص من الأشياء. إنه لا يكره السامسارا (عالم الصيرورة) ولا يحب النيرفانا. عندما تسطع الاستنارة التامة، لا تكون عبودية ولا خلاصًا».

برونابوذا سوترا.

تبعث لمسة الأرض دائمًا بالنشاط في ابن الأرض، حتى عندما يسعى إلى معرفة مجاوزة للمادة (معرفة فوق فيزيائية). بل من الممكن حتى قول إن تلك المعرفة فوق الفيزيائية يمكن إتقانها بالفعل في كمالها، عندما نستبقي أقدامنا راسخة على المادي (الفيزيائي) فقط، غير أننا يمكننا بلوغ أعاليها دائمًا. تقول الأوبنشاد حين تصور الذات التي تتجلى في الكون «الأرض هي موطأ قدميه».

سري أوروبندو[2].

---

(١) موزي (٤٧٠ ق.م. - ٣٩١ ق.م.): فيلسوف صيني.

(٢) سري أوروبندو (١٨٧٢ - ١٩٥٠): فيلسوف وشاعر هندي ومعلم لليوجا.

«يمكننا بلوغ أعاليها دائمًا». بالنسبة إلى أولئك الذين لا يزالون يخوضون في المستنقع الأدنى، فإن العبارة تحمل مسحة تهكمية. غير أنه في ضوء أقل إلمام بالأعالي والكمال، من الممكن فهم ما يقصده المؤلف. إن اكتشاف مملكة الرب داخل الواحد حصرًا أسهل من اكتشافها، لا هناك فقط، بل في العالم الخارجي للعقول والأشياء والمخلوقات الحية كذلك. إنه أسهل لأن الأعالي بالداخل تفصح عن نفسها لأولئك الذين هم على أهبة الاستعداد كي يستبعدوا من منظورهم كل تلك الأكاذيب بالخارج. وبالرغم من أن هذا الاستبعاد قد يكون عملية مؤلمة وتنسكية، تبقى في الحقيقة أقل مشقة من عملية التضمين، التي نصل عن طريقها إلى معرفة كامل وأعالي الحياة الروحية كذلك. حيثما يكون هناك تركيز حصري على الأعالي بالداخل، تُتجنَّب المغريات والمشتتات ويصبح هناك رفض وكبح عام. لكن عندما يكون المرجو هو معرفة الرب بشكل شامل -إدراك الأصل الإلهي في العالم إضافة إلى إدراكه في النفس- لا يجب تجنب المغريات والمشتتات، بل يجب إخضاعها واستخدامها كفرص للتقدم؛ لا يجب أن يكون هناك أي كبح للأنشطة الجارية في الخارج، لكن تحويلها بحيث تصبح طقوسية (على علاقة بالأسرار المقدسة). يصبح التنسك أكثر تحريًا وأكثر براعة؛ وتكون هناك حاجة لانتباه لا يعرف الغفلة، وعلى مستويات التفكير والمشاعر والسلوك هناك حاجة لممارسة دائمة لشيء يشبه ذائقة وحساسية الفنان.

نجد في آداب الماهايانا وخاصة بوذية الزن البيان الأمثل لنفسانية الإنسان الذي تعد السامسارا والنيرفانا بالنسبة له شيئًا واحدًا، هما الشيء

نفسه؛ وكذلك يعد الزمن والأزل بالنسبة له شيئًا واحدًا، هما الشيء نفسه. تُعلِّم بوذية الشرق الأقصى -بشكل أكثر نظامية ربما من أي دين آخر- الطريق إلى المعرفة الروحية في كمالها وفي أعاليها كذلك، في العالم ومن خلاله وفي النفس ومن خلالها. في هذا السياق، قد نشير إلى حقيقة دالة للغاية، وهي أن الرسوم التي تصور الطبيعة التي لا مثيل لها في الصين واليابان كانت بالأساس فنًّا دينيًّا، استمد إلهامه من بوذية الطاوية والزن؛ على العكس من ذلك، كانت الرسوم التي تصور الطبيعة وأشعار «تمجيد الطبيعة» في أوروبا فنونًا علمانية، بزغت عند انحدار المسيحية واستقت من المثاليات المسيحية القليل من أجل إلهامها، أو لم تستقِ منها شيئًا قط.

«أعمى، أصم، أبكم!

بعيد إلى ما لا نهاية عن متناول البدع الخيالية!».

أطاح ساكو[1] في هذين السطرين بكل شيء بعيدًا من أجلك - ما تراه وما لا تراه، ما تسمعه وما لا تسمعه، ما تتحدث عنه وما لا يمكنك الحديث عنه. نُحي كل ذلك بالكامل، وقد حصلت على حياة الأعمى والأصم والأبكم. وُضع هنا حدٌّ نهائيٌّ لكل تصوراتك وبدعك وحساباتك مرة واحدة وإلى الأبد، لا استعمال لها أكثر من ذلك. عند هذا تقع أرقى أهداف الزن، عند هذا تحظى بعماء حقيقي وصمم حقيقي وبكم حقيقي، كل منها في منحاه البليد غير الفعال.

---

(١) ساكو (١١٠٥ - ١١٩٢): راهب صيني في بوذية الزن.

«فوق السماوات وتحت السماوات!

يا للسخافة، يا للإحباط!».

هنا يرفعنا ساكو عاليًا بإحدى يديه ويحط بنا بالأخرى. أخبرني ما الذي وجده سخيفًا، ما الذي وجده محبطًا. من السخيف أن هذا الأبكم ليس أبكمَ في النهاية، أن هذا الأصم ليس أصمَّ في النهاية؛ من المحبط أن ذلك الذي ليس أعمى على الإطلاق هو أعمى عن كل ذلك، وأن ذلك الذي ليس أصمَّ على الإطلاق هو أصم عن كل ذلك.

«لا يعرف لي لو كيف يميز اللون الصحيح».

عاش لي لو إبان حكم الإمبراطور هوانغ. قيل إنه كان قادرًا على تمييز طرف الشعرة الناعمة من مسافة مائة خطوة. كان مدى إبصاره غير عادي. عندما خرج الإمبراطور هوانغ في رحلة نهرية في نهر شي، أسقط جوهرته النفيسة في الماء وجعل لي يفتش له عنها. إلا أنه فشل. جعل الإمبراطور شي كو يبحث له عنها؛ لكنه فشل كذلك في العثور عليها. فيما بعد أُمر هسيانغ وانغ كي يأتي بها، وأتى بها. هكذا،

«عندما نزل هسيانغ وانغ سطعت الجوهرة بأشد درجات اللمعان؛

لكن عندما مر لي لو ارتفعت الأمواج حتى بلغت عنان السماء».

عندما نصل إلى هذه النطاقات العليا، فحتى عيني لي لو غير قادرة على تمييز اللون الصحيح.

«كيف استطاع شيه كوانغ إدراك النغمة الغامضة؟».

كان شيه كوانغ ابن شينغ كوانغ من عائلة شين في مقاطعة تشيانغ تحت حكم سلالة تشو. كان اسمه الآخر تزو يه. كان بمقدوره تمييز

الأصوات الخمسة والنغمات الست؛ كان في إمكانه سماع حتى النمل وهو يتقاتل على الجانب الآخر من التل. عندما كانت شين وتشو في حالة حرب، كان في استطاعة شيه كوانغ الإنباء بأن الالتحام لن يكون في صالح تشو بالتأكيد وذلك بلمس ناعم بأصابعه لعوده. وعلى الرغم من حساسيته الفائقة للمعتاد أعلن ساكو أنه غير قادر على إدراك النغمة الغامضة. في النهاية، مَن لم يكن أصمَّ على الإطلاق هو أصم بالفعل. أشد النغمات إبهارًا في النطاقات العليا هي أبعد من مسامع شيه كوانغ. يقول ساكو، لن أمضي إلى أن أكون لي لو ولا شيه كوانغ؛ إذ إن

«ما الذي قد تقارنه الحياة بهذا؟ وأنا جالس في سكينة بجوار النافذة،

أرى أوراق الشجر تسقط والزهور تزهر، مع مجيء وذهاب الفصول».

عندما يصل الواحد إلى هذه الدرجة من الإدراك، فإن الإبصار هو لا إبصار، والسمع هو لا سمع، والوعظ هو لا وعظ، وعند الجوع، يأكل الواحد، وعند التعب ينام الواحد. دع الأوراق تسقط، ودع الزهور تزهر كما تحب. عندما تسقط الأوراق، أعرف أنه الخريف؛ عندما تزهر الأزهار أعرف أنه الربيع.

يفتح ساكو الآن سبيلًا للمرور عن طريق الإطاحة بكل شيء تمامًا، إذ يقول:

«هل تفهم أم لا؟

هو قضيب من الحديد بلا ثقب!».

لقد قام بكل ما يستطيعه من أجلك؛ هو منهك - يستطيع أن يستدير فقط ويهديك هذا القضيب من الحديد بلا ثقب. إنه تعبير دال

للغاية. انظر ولترَ بعينيك! إذا ما ترددت، تضيِّع العلامة للأبد. رفع ينغو (مؤلف هذا التعقيب) عصاه حينئذ وقال: «هل ترى؟» ثم ضرب كرسيه وقال: «هل تسمع؟» نزل عن كرسيه وقال: «هل دار حديث عن أي شيء؟».

ما هي دلالة ذلك القضيب من الحديد بلا ثقب تحديدًا؟ لا أتظاهر بأنني أعرف. تخصصت الزن دائمًا فيما لا معنى له باعتباره وسيلة لتحفيز العقل للمضيِّ قدمًا إلى ما وراء المعنى؛ لذلك ربما يكون الهدف من القضيب يكمن تحديدًا في عبثيته وفي استجابتنا المشوشة والمتحيرة أمام هذا العبث.

«في الجذر تكون الحكمة الإلهية براهمان بالكامل؛ وفي الجذع تكون وهمًا بالكامل؛ وفي الزهرة تكون عالمًا بالكامل؛ وفي الثمرة تحررًا بالكامل».

تانترا تاتفا .

«عندما تصل السرافاكا والبراتيكابوذا إلى المرحلة الثامنة من تدريب البوداسَف، تصبح ثملة للغاية بنعيم الهدوء والطمأنينة الذهنية، إذ تفشل في إدراك أن العالم المرئي ليس إلا العقل. هم لا يزالون في مملكة الفردانية؛ تبصرهم ليس نقيًّا بعد. على الجهة الأخرى، البوداسَفات واعون بنذورهم وعهودهم الأصيلة المتدفقة من الحب الشامل الكائن في قلوبهم. لا يدخلون النيرفانا (باعتبارها حالة منفصلة عن عالم الصيرورة)؛ يعرفون أن العالم المرئي ليس إلا تجليًّا للعقل نفسه».

مكثفة من لانكافاترا سوترا.

يفهم كائن واعٍ فقط ما المقصود بالحركة؛ بالنسبة إلى تلك الموجودات التي لم توهب الوعي فالحركة أمر غير مفهوم.

إذا ما حملت نفسك على الممارسة التي تُبقي فيها عقلك دون حراك،
فغير المتحرك الذي تكتسبه، هو ذلك الذي يحظى به ما لا وعي له.
إذا كنت راغبًا في غير المتحرك حقًّا،
فإن غير المتحرك هو في المتحرك نفسه،
وهذا غير المتحرك هو غير المتحرك حقًّا.
لا وجود لبذور البوذوية حيث لا وجود للوعي.

لاحظ جيدًا كيف تتنوع مظاهر غير المتحرك،
واعرف أن الحقيقة الأولى غير متحركة.
عندما تحرز هذه الحقيقة فقط
يُفهم عمل الهكذائية الحقة.

هيو ننج.

تذكرنا هذه العبارات عن المحرك الأول الذي لا يتحرك بأرسطو. لكن بين أرسطو والداعين للفلسفة الخالدة داخل الموروثات الدينية العظيمة يوجد هذا الفارق الضخم: أرسطو معنيٌّ في المقام الأول بالكوزمولوجيا، أما الفلسفة الخالدة فمعنية في المقام الأول بالتحرر والاستنارة: أرسطو راضٍ بأن يعرف عن المحرك الذي لا يتحرك، من الخارج ونظريًّا؛ أما هدف فلاسفة الفلسفة الخالدة هو أن يصبحوا على

وعي مباشر به، أن يعرفوه اتحادًا، ومن ثم يصبحون هم ويصبح الآخرون الواحد الذي لا يتحرك. يمكن لهذه المعرفة الاتحادية أن تكون معرفة الأعالي أو معرفة الكمال أو معرفة الأعالي والكمال في الوقت نفسه. رفضت بوذية الماهايانا أن تكون المعرفة الروحية هي المعرفة في أعالي النفس حصرًا على اعتبار أنها معرفة هزيلة. سوف نأتي على ذكر الرفض المماثل لمذهب السكينية[١] **quietism** داخل الموروث المسيحي في فصل «التأمل والفعل». أما في الوقت الحالي فمن المثير أن نجد أن المعضلة التي استحثت مثل هذا الجدل الحاد الذي اجتاح أوروبا في القرن السابع عشر قد ظهرت لدى البوذيين في حقبة سابقة بكثير. لكن في الوقت الذي كانت فيه النتيجة النهائية للمعركة حول مولينوس[٢] ومدام جيون[٣] وفينيلون[٤] هي إطفاء جذوة الصوفية في النهاية ولمدة قرنين من الزمن، كان الحزبان في آسيا على درجة كافية من التسامح كي يقرا بالاختلاف. واصلت الهينايانا روحيًّا استكشاف الأعالي في الداخل، بينما تمسك معلمو الماهايانا بأن الأرهات[٥] ليس هو المثالي بل البوداسَف، وأشاروا إلى السبيل نحو المعرفة الروحية في كمالها

---

(١) مذهب السكينية **quietism**: هو مذهب اعتبرته الكنيسة الرومانية الكاثوليكية هرطقة، ويؤمن أتباعه في أن السبيل إلى الكمال والسلام الروحي يكمن في إلغاء الإرادة والاستغراق السلبي في تأمل الرب والأشياء الإلهية.

(٢) ميجيل دي مولينوس (١٦٢٨ - ١٦٩٦): الممثل الرئيس للصحوة الدينية المعروفة باسم مذهب اطمئنان الروح.

(٣) مدام جيون (جين بوفير) (١٦٤٨ - ١٧١٧): كاتبة ومتصوفة فرنسية.

(٤) فرانسوا دي ساليناك دي لا موثي فينيلون (١٦٥١ - ١٧١٧): لاهوتي وكاتب وشاعر فرنسي.

(٥) الشخص الذي يصل إلى أن حقيقة الوجود في السكينة، ومنها يصل إلى النيرفانا.

وكذلك في أعاليها. فيما يلي وصف شعري لأحد قديسي الزن في القرن الثامن عشر عن حال أولئك الذين أدركوا ما المثالي عند الزن.

مقيمون مع الذي لا يتجزأ الموجود في كل الجزئيات،
في رواحهم ومجيئهم يبقون إلى الأبد غير متحركين.
يقبضون على اللا تفكير الواقع في التفكير.
في كل فعل من أفعالهم يسمعون صوت الحقيقة.
كم هي سماء التأمل رحبة وبلا حدود!
كم هو شفيف الضوء القمري المنبعث من الحكمة الرباعية!
عندما تكشف الحقيقة عن نفسها في سكينتها الأزلية،
تصبح هذه الأرض هي أرض النقاء الموعودة،
وهذا الجسد هو جسد بوذا.

هاكوين[١].

«غرض الحياة ليس الأكل أو الشرب أو الملبس أو الراحة، ولا أي شيء آخر تُرِكَ الرب خارجه. سواء كنت تحب ذلك أو لا، سواء كنت تعرف ذلك أو لا، تسعى الحياة سرًّا إلى تحري المسار الذي من الممكن العثور على الرب فيه، تحاول ذلك وتفتش عنه».

إكهرت.

«أي برغوث طالما كان في الرب هو أنبل من أرقى ملاك في ذاته».

إكهرت.

---

(١) هاكوين إيكاكو (١٦٨٦ - ١٧٦٩): أحد أكثر الشخصيات تأثيرًا في بوذية الزن.

«يلتذ إنساني الداخلي بالأشياء، لا باعتبارها مخلوقات بل باعتبارها نعم الرب. لكن بالنسبة إلى إنساني الأعمق هي لا تدل على نعم الرب، بل على الأبدية والأزل».

إكهرت.

«تأكل الخنازير جوز البلوط، لكنها لا تتفكر في الشمس التي وهبته الحياة، ولا أثر السماوات التي غذَّته، ولا الشجرة الأصل التي جاء منها».

توماس تراهيرن[١]

«لا يكون استمتاعك بالحياة سليما أبدًا حتى تستيقظ كل يوم في الصباح وأنت في الفردوس؛ تنظر إلى نفسك في قصر أبيك؛ وتتطلع إلى السماوات والأرض والفضاء باعتبارها مباهجَ سماوية، تحظى بهذا الشرف المبجل الذي للجميع، كأنك بين الملائكة. ليست لدى عروس الملك في غرفة زوجها من أسباب السعادة ما لديك.

«لا تستمتع بالعالم أبدًا بشكل سليم حتى يتدفق البحر نفسه في أوردتك، حتى تُكسى بالسماوات وتُتوج بالنجوم؛ وتدرك نفسك باعتبارك الوريث الوحيد للعالم بأكمله، وأكثر من ذلك، لأن البشر فيه، كل منهم هو وريث وحيد مثلك كذلك. لا يمكنك الاستمتاع بالعالم أبدًا حتى تقدر على الغناء والابتهاج والسعادة في الرب، كما يفعل البخلاء في الذهب والملوك في السلطان.

«لا تستمتع بالعالم أبدًا حتى يملأ روحك العالم بأكمله، وتصبح النجوم جواهرك؛ حتى تعتاد طرق الرب في كل العصور، كما تعتاد

---

(١) توماس تراهيرن (١٦٣٦ - ١٦٧٤): شاعر ولاهوتي إنجليزي.

المشي وجدول أعمالك؛ حتى تلم بعمق بالعدم المبهم الذي صُنِع منه العالم؛ حتى تحب البشر حتى ترغب في سعادتهم مع توق مكافئ للذي تتحمس له لنفسك؛ حتى تسعد في الرب لكونك صالحًا نحو الجميع. حتى تشعر به أكثر مما تشعر بوضعك الخاص، حتى تكون موجودًا في القبة السماوية -تتفكر في الشموخ والحسن هناك- أكثر من وجودك في منزلك الخاص؛ حتى تتذكر كم تأخرت، وكم هو رائع حين وصلت إليه؛ وتبتهج في قصر مجدك أكثر من ابتهاجك لو أُقيم اليوم صباحًا.

لكنك مع بلوغك ذلك لا تستمتع أبدًا بالعالم بشكل سليم، حتى تحب كثيرًا جمال الاستمتاع به؛ إذ تطمع في إقناع الآخرين من أجل الاستمتاع به وتجد في سبيل ذلك. وتكره بشدة فساد البشر البغيض المتمثل في ازدرائه، حتى تكون معاناة الجحيم أهون عليك من أن تحمل ذنوبهم عن طوع.

«العالم هو مرآة الجمال اللانهائي التي لم يرها إنسان مع ذلك. هو معبد الجلال الذي لم يقدِّره إنسان مع ذلك. هو مساحة ضوء وسلام، لم يذهب بطمأنينتها البشر. هو جنة الرب. هو أكثر للإنسان منذ سقط، عما كان عليه. هو موضع الملائكة وبوابة السماء. عندما استيقظ يعقوب من حلمه، قال، الرب هنا، ولم أعرف ذلك. يا له من مكان مروع! هذا ليس إلا بيت الرب وبوابة السماء».

توماس تراهيرن.

قبل المضي قدمًا صوب مناقشة الوسائل التي عن طريقها من الممكن الوصول إلى كمال المعرفة الروحية إضافة إلى أعاليها، دعنا نتفكر بإيجاز

في خبرة أولئك الذين حُبوا بمزية «النظر إلى الواحد في كل الأشياء»، لكنهم لم يبذلوا أي جهد لإدراكه في داخلهم. قد نجد في كتاب بوك[1] (الوعي الكوني) مادة مثيرة حول هذا الموضوع. كل ما نحتاج إلى أن نشير إليه هنا أن «الوعي الكوني» قد يأتي دون سعي إليه، وهو شبيه بما يدعوه اللاهوتيون الكاثوليك «نعمة مجانية». قد يحصل أحدهم على نعمة مجانية (على سبيل المثال، القدرة على الإشفاء، أو التنبؤ) بينما هو على خطيئة مهلكة، وليست العطية ضرورية من أجل الخلاص أو كافية له. في أحسن الأحوال فإن مثل هذا الاقتراب من «الوعي الكوني» كما وصفه بوكي هو بالكاد بمثابة دعوة غير معتادة لبذل جهد شخصي أكبر في اتجاه المعرفة في أعاليها بالداخل وكذلك المعرفة في كمالها بالخارج. في حالات كثير للغاية لا تُقبل الدعوة؛ تثمن العطية وفق متعة النشوة التي تستجلبها؛ يتذكرها من نالها في نوستالجيا، ولو صادف وكان مَن تلقاها شاعرًا، يكتب عنها في فصاحة - مثل بايرون[2] على سبيل المثال الذي كتب في مقطع رائع عن تشايلد هارولد[3]، ومثل ووردزوورث[4] الذي كتب دير تينترن والفاتحة. ربما لا يجرؤ بشري على تمرير حكم محدد في مثل هذه الأمور على بشري آخر؛ لكن من المسموح به على الأقل أن يقال إنه بناء على الدليل المستقى من السيرة، لا يوجد سبب لافتراض أن أيًا من ووردزوورث أو بايرون قد قام بأي

---

(١) ريتشارد موريس بوكي (١٨٣٧ - ١٩٠٢): طبيب نفسي بريطاني بارز.

(٢) جورج جوردون بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤): لورد وشاعر بريطاني من رواد الشعر الرومانسي.

(٣) قصيدة سردية طويلة كتبها اللورد بايرون عن رحلة تشايلد هارولد.

(٤) ويليام ووردزوورث (١٧٧٠ - ١٨٥٠): شاعر إنجليزي.

شيء على نحو جاد من أجل التجليات التي وصفاها؛ ولا يوجد أي دليل على أن هذه التجليات كانت كافية بالنسبة لهما كي تغير شخصيتيهما. يبدو أن حب الذات الشديد الذي استشهد بها دي كوينسي[١] وكيتس[٢] وهايدون[٣] قد بقي مع ووردزوورث حتى النهاية. وكان بايرون بايرونيا بطريقة هزلية مأساوية مدهشة بعد أن نظر إلى الواحد في كل شيء، كما كان من قبل.

في هذا السياق، سوف يكون من المثير لو قارنا ووردزوورث بمحب آخر عظيم للطبيعة وأديب هو القديس برنارد. يقول في البداية: «دع الطبيعة تكون معلمك» ثم يمضي مشددًا على التالي:

دفقة واحدة من الغابة الربيعية

سوف تخبرك أكثر عن الإنسان

عن الإثم وعن الخير

أكثر مما يستطيع كل الحكماء

يتحدث القديس برنارد عما يبدو من الجنس نفسه: «ما أعرفه من العلوم الإلهية والنصوص المقدسة، تعلمته في الغابات والحقول. لم يكن لديَّ معلمون آخرون بخلاف أشجار الزان والسنديان». وفي موضع آخر يقول: «اسمع لرجل من أهل الخبرة: سوف تتعلم مما في الغابات أكثر مما في الكتب. سوف تعلمك الأشجار والأحجار أكثر مما يمكنك اكتسابه من

---

(١) توماس دي كوينسي (١٧٨٥ - ١٨٥٩): كاتب إنجليزي، اشتهر بكتابه (اعترافات مدمن أفيون).

(٢) جون كيتس (١٧٩٥ - ١٨٢١): أحد شعراء الحركة الرومانسية الإنجليز.

(٣) بنيامين هايدون (١٧٨٦ - ١٨٤٦): رسام إنجليزي.

فم أستاذ حكيم». العبارات متماثلة لكن مدلولها الداخلي مختلف جدًا. بحسب كلمات القديس أوغسطينوس، فالتنعم بالرب وحده؛ لا تنعم بالمخلوقات لكنها تستخدم -تستخدم بحب وعاطفة وتساؤل وتقدير متجرد باعتبارها وسائل لمعرفة ذلك الذي من الممكن التنعم به. ينصح ووردزوورث -مثل أغلب مبجلي الطبيعة الأدباء الآخرين- بالتنعم بالمخلوقات عوضًا عن استعمالها من أجل الحصول على الغايات الروحية- وهو استعمال يستلزم -كما سوف نرى- تدريبًا للذات أكبر بالنسبة للمستعمِل. من البديهي فيما يتعلق ببرنارد أن أشباهه يمارسون بفعالية هذا التدريب للذات وأن الطبيعة -على الرغم من المحبة نحوها والعناية بها كمعلم- لا تُستعمل إلا باعتبارها وسيلة من أجل الوصول إلى الرب، لا يُتنعم بها وكأنها هي الرب. لا يكادون يتلذذون بجمال الزهور والمنظر الطبيعي وكأن أحدهم «يتجول وحيدًا كسحابة»[1] عند الريف، ولا يكادون يستدعون ذكراها بسرور عندما يستلقي أحدهم «في مزاج متأمل خالٍ»[2] على أريكة في مكتبة، بعد الشاي. يجب أن تكون الاستجابة هادفة وجدية بشكل أكبر. يقول مؤلف بوذي قديم: «هنا يا إخواني جذور الأشجار، هنا الأماكن الخالية؛ تأملوا»، الحقيقة هي أن العالم بالتأكيد من أجل أولئك الذين يستحقونه؛ وفق كلمات فيلو فإنه من أجل «إنسان قد يكون حتى غير قادر على جعل نفسه مستحقًّا لخالق الكون، إلا أنه ينبغي أن يحاول جعل نفسه مستحقًّا للكون. ينبغي أن يغير نفسه من كونه إنسانًا في داخل طبيعة الكون إلى أن يصبح كونًا صغيرًا،

---

(١) قصيدة لووردزوورث.

(٢) اقتباس من نفس القصيدة السابقة.

إن جاز مثل هذا القول». أما بالنسبة إلى أولئك الذين لم يستحقوا العالم، سواء بجعل أنفسهم مستحقين لخالقه (عن طريق عدم التعلق أو طمس الذات) أو على نحو أقل مشقة عن طريق جعل أنفسهم مستحقين للكون (عن طريق استجلاب النظام ودرجة من الوحدة إلى التشوش المركب للشخصية البشرية غير الملتزمة)، فإن العالم هو مكان خطير جدًّا روحيًّا. كون النيرفانا والسامسارا شيئًا واحدًا هي حقيقة تتعلق بطبيعة الكون؛ لكنها حقيقة لا يمكن أن تدركها تمامًا أو تختبرها مباشرة إلا نفوس متقدمة كثيرًا في الروحانية. بالنسبة إلى الناس العاديين اللطفاء الضالين فإن قبول هذه الحقيقة عن طريق السماع والتصرف بناء عليها عند الممارسة هو بالكاد حكم بكارثة. كل القصص الكئيبة عن إسقاط التكاليف **antinomianism** [١] موجودة كي تحذرنا مما يحدث عندما يقوم الرجال والنساء بتطبيق عملي لنظرية هي بالكاد نظرية فكرية غير قابلة للتحقيق؛ إذ تنص النظرية على أن الكل هو الرب والرب هو الكل. أما «الحياة المتكاملة» **well rounded life** للمواطنين الصالحين الذين يبذلون قصارى جهدهم كي يعيشوا حياة طقوسية، لكنهم في الحقيقة ليس لديهم أي معرفة بما ترمز إليه هذه الأنشطة الطقوسية، ليست بأقل إحباطًا بالكاد من مشاهدة إسقاط التكاليف. كتب دكتور أومان[٢] في كتابه (الطبيعي وفوق الطبيعي) بالتفصيل في موضوع أن «التصالح مع

---

(١) إسقاط التكاليف: مصطلح يعود إلى مارتن لوثر كينج، وقد دعا من خلاله إلى أنه لا داعي للقيام بالفرائض التي تنص عليها التوراة؛ لأن الإيمان وحده هو ما يحتاجه المرء لينال الخلاص وفق البشارة المسيحية.

(٢) جون أومان (١٨٦٠ - ١٩٣٩): لاهوتي بريطاني.

الفناء هو إلهام الأبدية»؛ وفي نسخة حديثة من كتاب «العلم والدين والمستقبل» يطري الكاهن رافين[١] على دكتور أومان؛ لأنه نص على مبادئ لاهوت، لا يمكن أن يوجد فيه تناقض نهائي بين الطبيعة والنعمة والعلم والدين، ويُنظَر إلى عوالم العلماء ورجال الدين فيه باعتبارها هي نفسها، شيء واحد في حقيقة الأمر. يتفق كل هذا تمامًا مع بوذية الطاوية وبوذية الزن والتعاليم المسيحية كالتي للقديس أوغسطينوس (أَحِبَّ وافعلْ ما تريد) **Ama et facquod vis**[٢]، ونصيحة الأب لاليمانت[٣] للمتأملين المتمركزين حول الرب كي يخرجوا وينشطوا في العالم؛ إذ إن أفعالهم هي الوحيدة القادرة على القيام بأي صلاح فعلي للعالم. لكن ما لم يوضحه أي من دكتور أومان أو الكاهن رافين بشكل كافٍ أن الطبيعة والنعمة والسامسارا والنيرفانا والاضمحلال الدائم الثابت والأول هي بالفعل وعن تجربة شيء واحد بالنسبة إلى الأشخاص الذين وفُّوا بشروط معينة. افعل ما تريد **facquod vis** في العالم الزمني – لكن بشرط أن تكون قد تعلمت الفن الصعب إلى ما لا نهاية، ذلك الفن الخاص بمحبة الرب بكل عقلك وقلبك ومحبة أخيك كأنه نفسك. إذا لم تكن قد تعلمت هذا الدرس، فإما أن تصبح متطرفًا مسقطًا للتكاليف أو مجرمًا أو أن تحيا حياة متكاملة **well rounded** محترمة دون أن تترك لنفسك الوقت كي تفهم الطبيعة أو النعمة. الأناجيل واضحة بشكل مثالي

---

(١) تشارلز رافين (١٨٨٥ – ١٩٦٤): لاهوتي إنجليزي.

(٢) المقصود أنك عندما تحب الرب، تكون إرادتك من إرادته، وبالتالي فما تريده سوف يكون ما يريده هو.

(٣) لويس لاليمانت (١٥٧٨ – ١٦٣٥): لاهوتي فرنسي.

فيما يتعلق بالعملية التي عن طريقها -وعن طريقها وحدها- قد يكتسب إنسان الحق كي يعيش في العالم كأنه في بيته، على سجيته فيه: عليه أن يتنكر تمامًا لذاتيته، يخضعها لإماتة كاملة ومطلقة. يبدو أن يسوع نفسه في مرحلة من مساره قد باشر صرامة وتقشفًا، لم يخضع لهما العقل فقط بل الجسد كذلك. ورد عنه صيام أربعين يومًا، ووردت عنه كذلك عبارته المستقاة بوضوح من خبرته الشخصية، أن بعض الشياطين لا يطردها إلا أولئك الذين صاموا كثيرًا كما صلوا كثيرًا. (يلح جون فياني[١] **Curé d'Ars** -الذي تقوم معرفته بالمعجزات والكفارات الجسدية[٢] على خبرة شخصية- على الارتباط الوثيق بين التقشف والصرامة والقدرة على الحصول على صلاة توسلية تستجاب بطرق فوق طبيعية أحيانًا). قرَّع الفريسيون[٣] يسوع لأنه جاء يأكل ويشرب، «جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب محبًّا للعشارين والخطاة»[٤]؛ تجاهلوا -أو لم يكونوا على دراية بحقيقة- أن هذا الرسول المبعوث للعالم بوضوح قد بارى التقشف البدني ليحيى ابن زكريا وكان يمارس الإماتات الروحية التي كان يعظ بها باستمرار. كان نمط حياة المسيح مماثل في جوهره لذلك الذي كان للحكماء المثاليين، الذين تُتُبِّعَت مسيرتهم في صور الثيران العشرة[٥]،

---

(١) جون فياني والمعروف باسم **Curé d'Ars** (١٨٥٩ - ١٧٨٦): قديس وكاهن كاثوليكي فرنسي.

(٢) تدريبات جسدية لإماتة الجسد.

(٣) جماعة دينية سياسية يهودية متطرفة، وأصل الكلمة يعود للآرامية بمعنى المنعزل.

(٤) إنجيل متى ١١ : ١٩.

(٥) صور الثيران العشرة، سلسلة من القصائد القصيرة في موروث بوذية الزن، تشير إلى مراحل الترقي نحو التنوير.

الشهيرة للغاية بين بوذيي الزن. ترمز كلمة ثور إلى الذات الضالة، التي يُقبض عليها، وتُجبر على تغيير اتجاهها، ثم تُروض، وتتحول تدريجيًّا من الأسود إلى الأبيض. يمضي الإصلاح بعيدًا جدًّا لدرجة أن الثور يُفقد تمامًا في وقت ما، على ذلك لا يتبقى شيئًا كي يُصوَّر باستثناء القمر تام الاستدارة، والذي يرمز للعقل، الهكذائية، الأصل. لكن ليست هذه هي المرحلة النهائية. في النهاية، يعود الراعي إلى عالم البشر، راكبًا على ظهر ثوره. ولأنه يحب الآن، يحب إلى درجة تعريف هويته من خلال العنصر الإلهي لحبه، يمكنه أن يفعل ما يحب؛ لأن ما يحب هو ما تحبه طبيعة الأشياء. نجده بصحبة شاربي الخمر والجزارين، هو وهم جميعًا تحولوا إلى بوذات. بالنسبة له، هناك تصالح كامل مع الفاني وعن طريق هذا التصالح يتكشف الأزل. لكن بالنسبة إلى الضالين العاديين اللطفاء، فالتصالح الوحيد مع الفاني هو بالانغماس في الولع، والاستسلام للملهيات والتمتع بها. يعد إخبارك مثل هؤلاء الأشخاص أن الفناء والأبدية هما الشيء نفسه، وعدم تعديلك العبارة بالشكل المناسب في الحال أمرًا مهلكًا، لا جدال في ذلك - إذ إنهما في الواقع ليسا الشيء نفسه إلا بالنسبة إلى قديس؛ ولم يرد أن أي شخص قد بلغ منزلة القداسة ولم يتصرف -في مستهل مساره- على اعتبار أن الفناء والأبدية مختلفان بشدة وكذلك الطبيعة والنعمة مختلفان بشدة، وذلك من أوجه عديدة غير متوافقة؛ إذ إن السبيل إلى الروحانية كحد سكين بين هاويتين. على جانب هناك خطر الرفض والفرار، وعلى جانب آخر خطر القبول والتمتع بأشياء، ينبغي أن تستخدم فقط بوصفها أدوات أو رموزًا. يأتي المقطع الشعري المصاحب لآخر «صور الثيران العشرة» كالتالي:

حتى فيما وراء الحدود النهائية يمتد سبيل للمرور،

يعود عن طريقه إلى عوالم الوجود الستة[١].

كل قضية في العالم هي الآن مسألة بوذي،

وأينما ذهب ، يجد بيته المتنقل.

يقف مثل جوهرة ولو في الطين،

يشع مثل ذهب خالص ولو في أتون.

يسير على طول الطريق الذي بلا نهاية (طريق الميلاد والموت) مكتفيًا في نفسه.

يتحرك في كل الأحوال هادئًا وغير متعلق.

الوسائل التي عن طريقها يمكن الحصول على غاية الإنسان النهائية موصوفة ومشروحة في إسهاب في فصل «إماتة الجسد وعدم التعلق». أما هذا الفصل فمعنيٌّ في الأساس بتدريب الإرادة. لكن يجب أن يصحب تدريب الإرادة تدريب للوعي لا يقل عنه شمولًا. ينبغي أن يكون هناك تحولًا –سواء جاء مفاجئًا أو لا– وهو ليس مجرد تحول للقلب فقط، لكنه كذلك تحولا للحواس والعقل المدرك. ما يستتبع هو شرح مختصر لهذا «الميتانويا» كما يطلق عليه الإغريق، «تغيير العقل» الكامل والجذري.

---

(١) هي عوالم الآلهة والجبابرة والأشباح والبشر والحيوانات والجحيم.

يُعالج هذا الموضوع بصورة أكثر نظامية في الصياغات الهندية وصياغات الشرق الأقصى للفلسفة الخالدة. إذ تصف عملية تمييز واعٍ بين الذات الشخصية والذات المماثلة للبراهمان، بين الأنا الفردية ورحم بوذا أو العقل الكوني. تكون نتيجة هذا التمييز «تغييرا» تامًّا ومفاجئًا نوعًا ما للوعي وتحقيق حالة من «اللاعقل»، والتي قد توصف باعتبارها تحررا من التعلق الفكري الدائم بمبدأ - الأنا. توجد هذه الحالة من «اللاعقل» على حد سكين بين لا مبالاة الإنسان الحسي العادي وبين الجرأة المفرطة المتكلفة للمتعصبين من أجل الخلاص. من أجل تحقيق هذه الحالة، على الواحد أن يسير بلطف، ومن أجل الحفاظ عليها، على الواحد أن يتعلم الجمع بين أشد درجات الانتباه والاستسلام السلبي الهادئ المنكر للذات، الجمع بين عزم لا يلين وخضوع كامل لتوجيهات الروح. يقول هوانغ بو: «عندما يسعى العقل خلف اللاعقل، يجعل منه هذا قضية خاصة بالفكر. يوجد إقرار بالصمت فقط؛ يمضي إلى ما وراء التفكير». بمعنى آخر، فإننا كأفراد منفصلين، لا يجب أن نحاول تأمله، لكن علينا بدلًا من ذلك السماح لأنفسنا بأن يُتأمل فينا من خلاله. بالمثل، نقرأ في السوترا الماسية أن البوداسَف في محاولته لإدراك الهكذائية إذا ما «احتفظ بفكر الأنا أو بفكر شخص أو مخلوق منفصل أو نفس، فهو لم يعد بوداسَف». يشدد الغزالي -فيلسوف الصوفية- كذلك على الحاجة إلى الخضوع والانصياع الفكري. «وهذه الحالة إذا غابت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة فناء (مصطلح يشير عمومًا إلى «اللاعقل» «موشين») بل فناء الفناء؛ لأنه فني عن نفسه وفني عن

فنائه»[1]. هناك فناء مفعم بالوجد ناجم عن الفناء في الأعالي الداخلية للأتمان - براهمان؛ وهناك فناء آخر ناجم عن فناء أكثر شمولًا، ليس في الأعالي الداخلية فقط، بل في العالم وخلاله، في المعرفة اليومية اليقظة بالرب في كماله.

«يجب أن يصبح الإنسان فقيرًا بحق ومتحررًا من إرادته كمخلوق مثلما كان عندما وُلِد. وأخبرك من خلال الحقيقة الأبدية أنك لست فقيرًا بحق طالما كنت ترغب في تحقيق إرادة الرب وتتملكك أي لهفة نحو الأبدية والرب. الوحيد الذي يحظى بفقر روحي حقيقي من لا يريد شيئًا، ولا يعرف شيئًا، ولا يرغب في شيء».

إكهرت.

لا يعرف الطريق المثالي أي صعوبات،
بالنسبة إلى مَن رفضوا القيام بتفضيلات فقط.
عند التحرر من الكراهية والحب فقط،
يكشف عن نفسه بالكامل ودون استتار.

الفارق عُشر بوصة،
وقد فُصِلت السماوات والأرض.
إذا ما أملت في أن تراه أمام عينيك،
لا تحتفظ بأي أفكار نحوه، معه أو ضده.

(١) مشكاة الأنوار - الغزالي.

أن تضع ما تحب في مقابل ما لا تحب -
فإن هذا هو داء العقل.
عندما لا يكون هناك فهم للمعنى العميق للطريق،
يُشوَّش على سلام العقل دون داعٍ...

لا تَسْعَ وراء التشابكات الخارجية،
ولا تسكن الخواء الداخلي.
ولتمتلئ بسكينة واحدية الأشياء،
أما الثنائية فتختفي من تلقاء ذاتها.

عندما تسعى لنيل السكينة عن طريق التوقف عن الحركة،
تكون السكينة التي تلته على هذا النحو في حركة دائمًا.
طالما بقيت متلكئًا في مثل هذه الثنائية،
فكيف لك أن تدرك الواحدية؟

وعندما لا يُقبض على الواحدية بالكامل،
يستمر الضياع عبر سبيلين:
إنكار الواقع الخارجي هو تأكيد له،
والتأكيد على الخواء (المطلق) هو إنكار له...

تبدو التحولات الجارية في العالم الخاوي الذي يجابهنا
كأنها حقيقية بسبب الجهل.
لا تَسْعَ جاهدًا في البحث عن الحقيقي.
توقف فقط عن التعلق بآراء.

يوجد الاثنان بسبب الواحد؛
لكن لا تتمسك حتى بهذا الواحد.
عندما لا يُشوش على العقل،
لا تطرح العشرة آلاف شيء أي انتهاك...

لو لم يغشَ النوم عينين أبدًا،
سوف تتوقف كل الأحلام من تلقاء ذاتها؛
لو استبقى العقل حقيقته المطلقة،
تكون العشرة آلاف شيء من جوهر واحد.

عندما يُسبر غور الغموض العميق للهكذائية الواحدة،
ننسى فجأة تمامًا التشابكات الخارجية؛
عندما يُنظر إلى العشرة آلاف شيء في واحديتها،
نعود إلى الأصل ونبقى حيث كنا دائمًا....

واحد في الكل،

والكل في واحد -
لو تدرك ذلك فقط،
فلا مزيد من القلق حيال ألا تكون كاملًا.

عندما لا يُفصل العقل الكلي عن كل عقل مؤمن،
ويكون كل عقل مؤمن غير مفصول إلى أجزاء وكذلك العقل الكلي.
تفشل الكلمات هنا عن التعبير،
إذ لا ماضي أو مضارع أو مستقبل.

البطريرك الثالث للزن.

«افعلوا ما تفعلونه الآن، عانوا مما تعانونه الآن، لا تحتاجون إلى تغيير شيء سوى قلوبكم لتفعلوا ذلك بقداسة. تكمن القداسة في إرادة ما يحدث لنا بفعل ترتيب الرب».

دي كوساد.

مفردات الفرنسي من القرن السابع عشر مختلفة جدًّا عن تلك التي للصيني من القرن السابع عشر. لكن النصيحة التي يقدمانها هي نفسها في جوهرها. الامتثال لإرادة الرب، الخضوع، الانصياع لتوجيهات الروح القدس - يشبه ذلك في الواقع الامتثال للطريق الكامل، ورفض القيام بتفضيلات والتعلق بآراء، وإبقاء الأعين مفتوحة، وبالتالي قد تتوقف الأحلام وتكشف الحقيقة عن نفسها.

العالم المسكون بالضالين اللطفاء العادين ممل في الأساس (ممل إلى درجة أن عليهم تشتيت عقولهم عن الانتباه له عن طريق كل أنواع «الملهيات» الاصطناعية)، وهي ملهيات ممتعة بشدة لوقت قصير أحيانًا أو مزعجة ومؤلمة في الغالب. يتخذ العالم هيئة مختلفة جدًّا بالنسبة إلى أولئك الذين استحقوه عن طريق جعل أنفسهم لائقين من أجل رؤية الرب داخله وكذلك داخل أنفسهم.

«كانت الحبوب تتلألأ قمحًا خالدًا، ليس له أبدًا أن يُحصد أو أن يُنثر. ظننت أنه قد وقف قائمًا من الأزل وحتى الأزل. كان الغبار وحجارة الشارع ثمينة مثل الذهب. في البداية كانت البوابات هي نهاية العالم. عندما رأيت الأشجار المورقة أولًا عبر واحدة من البوابات، نقلتني وسلبت لبي؛ جعلت حلاوتها وجمالها غير المعتاد قلبي يتقافز وجعلته مجنونا تقريبًا من فرط النشوة، كانت بمثابة أشياء غير مألوفة ورائعة. البشر! يا لهم من كائنات مبجلة وموقرة كما يبدو مسنيهم! شيروبيم[١] خالدون! وشباب يبرقون وملائكة يتلألؤون وخادمات بمثابة قطع سيرافية[٢] غير مألوفة من الحياة والجمال! أولاد وبنات يقفزون ويلعبون في الطرقات، كانوا بمثابة جواهر تتحرك. لا أعرف إن كانوا قد ولدوا أو ينبغي أن يموتوا. لكن كل الأشياء بقيت أزليًّا كما لو كانت في مكانها الحق. تجلت الأبدية في ضوء النهار، وظهر شيء أزلي وراء كل شيء؛ خاطب تطلعاتي وحرك رغبتي. بدت المدينة كأنها قائمة في عدن أو مبنية

---

(١) شيروبيم: مجموعة من الملائكة مذكورة في الكتاب المقدس.

(٢) سيرافية: ملائكية.

في السماوات. كانت الشوارع لي، والمعابد لي، والناس لي، ملابسهم وذهبهم وفضتهم لي، وكذلك أعينهم اللامعة، وشقرتهم ووجوههم المتوردة. كانت السماوات لي وكذلك الشمس والقمر والنجوم، وكل العالم كان لي؛ وأنا الناظر الوحيد له والمتمتع الوحيد به... وهكذا كانت مراهقة عظيمة مني، أُفسدت ودُفعت إلى تعلم بدع العالم البذيئة. تلك التي نسيتها الآن وأصبحت كأني كفلٌ صغيرٌ من جديد، على ذلك قد أدخل إلى مملكة الرب».

توماس تراهيرن.

«ومن ثم أمنحك فكرة أخرى، لا تزال مع ذلك أنقى وأكثر روحانية: في مملكة السماوات الكل في الكل، والكل واحد، والكل لنا».

إكهرت.

يستتبع المعتقد الذاهب إلى أن الرب في العالم نتيجةً عمليةً هامةً – ألا وهي قداسة الطبيعة، وتأثيم وحماقة جهود الإنسان المفرطة من أجل أن يكون سيدها بدلًا من أن يكون شريكها المنصاع في ذكاء. يجب أن تعامل حيوات ما دون البشر وحتى الأشياء باحترام وتفهم، ولا تقمع بوحشية من أجل خدمة الغايات البشرية.

«كان شو هو حاكم المحيط الجنوبي، وكان هو هو حاكم المحيط الشمالي، وكان حاكم المحيط الواقع في الوسط هو كايوس (الفوضى). كان شو وهو يتقابلان باستمرار في أرض كايوس، الذي

عاملهم جيدًا للغاية. استشار أحدهما الآخر كيف يردان جميل لطفه، وقالا: «لدى كل البشر سبع فتحات تخدم أغراض الرؤية والسمع والأكل والتنفس، بينما هذا الحكام وحده ليست لديه أي واحدة منها. دعنا نحاول أن نجعلها له». وهكذا حفرا فتحة فيه كل يوم. وبنهاية السبعة أيام مات كايوس».

جوانغ زي[١].

في هذه الحكاية الهزلية اللطيفة كايوس هو الطبيعة في حالة وو-وي - حالة غير جازمة أو حالة تعادل. شو وهو هما الصور الحية لأولئك الأشخاص المشغولين الذين يظنون أنهم سوف يحسنون في الطبيعة عن طريق تحويل البراري الجافة إلى حقول قمح، وصحارٍ ناجمة عن ذلك؛ هما الصورة الحية لأولئك الذين يدَّعون في فخر غزو الهواء، ومن ثم يكتشفون أنهم قد قوضوا الحضارة؛ هما الصورة الحية لأولئك الذين جاروا على الغابات الشاسعة وتسببوا في تعريتها من أجل توفير ورق الصحف الذي تقتضيه الثقافة العالمية والتي كان لها أن تجعل العالم مستعدًّا للفهم والديموقراطية، وكذلك توفيره من أجل المجلات الرخيصة وجرائد دعاية الفاشيين والشيوعيين والرأسماليين والقوميين. باختصار، شو وهو هما متعصبو ديانة التقدم الحتمي الكارثية التي توشك أن تنهي العالم، وعقيدتهم أن مملكة السماء هي خارجك وفي المستقبل. على الجانب الآخر، جوانغ زي، مثله كمثل كل الطاويين الصالحين، لا رغبة له في ترهيب الطبيعة من أجل إخضاعها لخدمة غايات زمنية

(١) جوانغ زي (٣٦٩ ق.م. - ٢٨٦ ق.م.): فيلسوف صيني واسع التأثير.

رعناء، مغايرة لغاية البشر النهائية كما نُص عليها في الفلسفة الخالدة. يرجو العمل مع الطبيعة من أجل إتاحة ظروف مادية واجتماعية، قد يدرك فيها الأفراد الطاوية على كافة المستويات بدءًا مما هو فسيولوجي وحتى ما هو روحاني.

كان الموقف المسيحي نحو الطبيعة بالمقارنة بموقف الطاويين وبوذيي الشرق الأقصى قاسيًا بشكل عجيب ومستبدًّا وعنيفًا على نحو صرف. اعتبروا الحيوانات مجرد أشياء من الصائب أن يقوم البشر باستغلالها من أجل أغراضهم الخاصة، وقد استمدوا ذلك الملمح من سفر التكوين والأخلاقيين الكاثوليك. وكما كانت رسوم المناظر الطبيعية، كانت الحركة الإنسانية في أوروبا عملًا علمانيًّا بالكامل تقريبًا. أما في الشرق الأقصى فقد كان الاثنان دينيين بالأساس. آمن الإغريق في أن هوبريس[1] تستتبعه دائمًا نيميسيز[2]، إذ إنك إذا ما مضيت بعيدًا للغاية سوف تنال خبطة على رأسك كي تذكرك بأن الأرباب لن يتسامحوا مع أي غطرسة من جانب البشر الفانين. يفهم العقل الحديث في نطاق العلاقات الإنسانية مذهب الهوبريس. نرغب في الخيلاء حتى يكون سقوطًا، ونرى ذلك السقوط كثيرًا للغاية.

تستدعي حيازة سلطة كبيرة للغاية على أحد الرفاق والغنى الفاحش والعنف الشديد والطموح المفرط العقاب، ونلاحظ على المدى الطويل أن عقابًا من نوع ما أو آخر يأتي كما ينبغي. لكن الإغريق لا يقفون عند هذا الحد. لأنهم ينظرون إلى الطبيعة على أنها ربانية بطريقة ما، يشعرون

---

(١) هوبريس **hubris**: التصرف بغطرسة وفخر زائد.

(٢) نيميسيز **nemesis**: ربة الانتقام وحامية الآلهة من رذائل البشر.

أن احترامها واجب، وكانوا على قناعة أن عدم احترام الطبيعة المتغطرس فعل يستلزم عقاب نيميسيز المنتقمة. يقدم لنا إسخيلوس[1] في عمله «الفرس» أسباب هزيمة البرابرة - الأسباب الميتافيزيقية النهائية. عوقب خشايارشا[2] نظير إثمين - استعماره المتعجرف للأثينيين، واستعماره المتعجرف للطبيعة. حاول استعباد رفاقه البشر، وحاول استعباد البحر، عن طريق بناء جسر عبر الدردنيل.

أتوسا: من شاطئ إلى شاطئ، وصل الدردنيل بجسر.

شبح دارا: ماذا، هل يستطيع تكبيل البسفور الجبار؟

أتوسا: مع ذلك، يعضد تصميمه رب ما.

شبح دارا: رب ما ذو سلطان، كي يضبب عقله الجيد.

اليوم نعرف الشكل الأول من أشكال الاستعمار وندينه؛ لكن أغلبنا يتجاهل وجود النوع الثاني واحتماليته الكبيرة. لم يكن مؤلف إريوهون[3] أحمقَ بالتأكيد، إذ يبدو كتابه شديد الموضوعية، ونحن الآن ندفع الثمن المروع «لغزو الطبيعة» الذي سبق ودعونا إليه بحماس. لم يكن بتلر المتشكك الوحيد من القرن التاسع عشر في التقدم الحتمي.

---

(١) إسخيلوس (٥٢٥ ق.م - ٤٥٦ ق.م.): مسرحي إغريقي تراجيدي.

(٢) خشايارشا (٥١٨ ق.م. - ٤٦٥ ق.م.): ملك فارسي.

(٣) إريوهون Erewhon: كتاب لصمويل بتلر، وقد قصد من العنوان أن يقرأ لا مكان nowhere، إذا ما قرأ بالمعكوس. وبتلر: كاتب وروائي ورسام بريطاني (١٨٣٥ - ١٩٠٢).

كان ألفريد دي فيني[١] يكتب عن العجيبة التقنية الجديدة في عصره - محرك البخار، وذلك قبل جيلين أو أكثر من بتلر - بنبرة مختلفة جدًّا عن النبرة الحماسية الصارخة المدوية لمعاصره العظيم، فيكتور هوجو.

Sur le taureau de fer, qui fume, souffle et beugle,
L'homme est monté trop tôt. Nul ne connaît encor
Quels orages en lui porte ce rude aveugle,
Et le gai voyageur lui livre son trésor.

(استقل الرجل الثور الحديدي الذي يخور وينفخ في وقت مبكر للغاية. لا أحد يعرف ما العواصف التي قد يحملها هذا الفظ الأعمى بداخله، أما المسافر المبتهج فيمنحه كنزه).

ثم يضيف بعد ذلك بقليل في القصيدة نفسها:

Tous se sont dit : «Allons,» mais aucun n'est le maitre
D'un dragon mugissant qu'un savant a fait naître.
Nous nous sommes joués à plus fort que nous tous.[٢]

(قال الجميع لأنفسهم: «هيا بنا»، غير أنه لا سيد لهذا التنين الذي يعوي والذي وُلِد على يديّ عالِم. ولقد جازفنا بما يفوق قدراتنا مجتمعين).

لو استعدنا ما كان ونظرنا عبر الأشلاء والدمار، يمكننا أن نرى أن فيني كان محقًا تمامًا. لم يكن لدى أيٍّ من أولئك المسافرين المبتهجين

(١) ألفريد دي فيني (١٧٩٧ - ١٨٦٣): كاتب مسرحي وروائي وشاعر فرنسي.

(٢) في مايو ١٨٤٢، وقعت واحدة من أوائل حوادث السكك الحديدية، وخلفت خمسين قتيلًا ومائة مصاب، دفعت هذه الحادثة دي فيني إلى كتابة هذه الأبيات.

-والذين كان فيكتور هوجو هو الأكثر صخبًا وبلاغة من بينهم- أدنى فكرة إلى أين سوف يأخذهم أول مرجل ينفث الدخان (قطار) مرح. أو بالأحرى كانت لديهم فكرة واضحة جدًّا، لكن ثبت خطؤها تمامًا. إذ كانوا مقتنعين أن المرجل الذي ينفث الدخان كان يقلهم ويمضي بهم بسرعة قصوى نحو السلام العالمي والأخوة الإنسانية؛ كانت الصحف -التي افتخروا كثيرًا بإمكانية قراءتها بينما يمضي القطار مقعقعًا صوب وجهتهم اليوتوبية التي لا تبعد أكثر من خمسين عامًا أو نحو ذلك- هي ضمانتهم لانتصار الحرية والعقل في كل مكان. تحول المرجل الذي ينفث الدخان الآن إلى قاذفة رباعية المحركات، معبأة بالفسفور الأبيض والمتفجرات شديدة الانفجار، أما الصحافة الحرة فهي في خدمة المعلنين أو جماعات الضغط أو الحكومة في كل مكان. ومع ذلك، ولسبب لا تفسير له لا يزال المسافرون (البعيدون تمامًا عن أن يكونوا مبتهجين الآن) متمسكين بشدة بدين التقدم الحتمي وهو أمل وإيمان -وفق التحليل الأخير- أن الواحد بإمكانه الحصول على شيء ما دون مقابل (وذلك على الرغم من كل الخبرات الإنسانية في هذا المنحى).

كم كان منظور الإغريق أرجح وأكثر واقعية! إذ ذهبوا إلى أنه يجب دفع ثمن أي انتصار، وأن بعض الانتصارات تتطلب ثمنًا مرتفعًا للغاية، يفوق أي فائدة من الممكن الحصول عليها. لم يعد الإنسان الحديث يعتبر الطبيعة ربانية بأي حال ويشعر بحرية تامة إزاء التصرف نحوها كغاز أو طاغية متعجرف. كانت مغانم الاستعمار التكنولوجي ضخمة للغاية؛ لكن نيميسيز عاقدة العزم في الوقت نفسه على أن نحصل على ركلات أكثر من التحيات. على سبيل المثال، هل منحت القدرة على السفر في

اثنتي عشرة ساعة من نيويورك إلى لوس أنجلوس الجنس البشري بهجة أكبر من الألم الذي خلَّفه إلقاء القنابل والنيران؟ لا توجد وسيلة معروفة لحساب كمية الهناء أو جودة الحياة في العالم أجمع. مع ذلك، فمن الواضح أن المزايا الناجمة عن المنجزات التكنولوجية الحديثة -أو عن أفعال الهوبريس الأخيرة الموجهة نحو الطبيعة (وفق المصطلحات الإغريقية)- تكون مصحوبة بوجه عام بأضرار مقابلة، بحيث تستجلب المكاسب في اتجاه واحد خسائر في اتجاهات أخرى، وبحيث لا نحصل أبدًا على أي شيء إلا في مقابل شيء آخر. لا يمكننا أن نحدد أبدًا بدقة ما إذا كانت النتيجة النهائية لعمليات المكسب والخسارة تلك هي تقدم حقيقي في الفضيلة والسعادة والإحسان والذكاء. يرجع ذلك إلى أن حقيقة التقدم لا يمكن الجزم بها أبدًا، إذ إن القرنين التاسع عشر والعشرين كان عليهما أن يتعاملا معه باعتباره موضوعًا من موضوعات الإيمان الديني. لا يعد التساؤل عما إذا كان التقدم حتميًّا أو حتى حقيقيًّا أمرًا ذا أهمية جوهرية بالنسبة إلى شراح الفلسفة الخالدة. بالنسبة لهم، فالأمر المهم أن يصل الرجال والنساء إلى معرفة اتحادية بالأصل الإلهي، وما يعنيهم فيما يتعلق بالبيئة الاجتماعية، ليس تقدميتها أو عدم تقدميتها (بغض النظر عما قد يعنيه الاصطلاح)، بل الدرجة التي تساعد بها الأفراد في تقدمهم نحو غاية الإنسان النهائية أو تعوق ذلك التقدم.

* * *

الفصل الخامس

الإحسان

«ومَن لا يحب، لم يعرف الله؛ لأن الله محبة».

١ يوحنا ٤ : ٨.

«عن طريق الحب قد تحصل عليه وتقبض عليه، لكن ذلك غير ممكن أبدًا عن طريق التفكير».

غمامة الجهل.

«كل مَن يدرس -أيًّا مَن كان- كي يصل إلى التأمل (أي المعرفة الاتحادية) يجب أن يبدأ بمساءلة نفسه متقصيًّا ما مقدار حبه. إذ إن الحب هو القوة المحركة للعقل (ماشينا مينتيس)، يجذبه إلى خارج العالم ويرتقي به عاليًا.

القديس جريجوري العظيم[1].

(١) القديس جريجوري العظيم (٥٤٠ - ٦٠٤): البابا في الفترة منذ ٣ سبتمبر ٥٩٠ وحتى وفاته.

«الحب إسطرلاب أسرار السماء».

جلال الدين الرومي[1].

«وأنتِ أيتها السماء، استرسلي واحزبي بنوازلكِ

كل ذي ثروة مستفيضة، منغمس في الملذات والشهوات، والذي يسخر شريعتك لمراده، والذي لا يبصر لأنه لا يشعر. احزبيه عساه يشعر على عجل بقدرتك».

شكسبير[2].

«الحب منزه؛ لا أخطاء له، إذ إن كل الأخطاء هي الرغبة في الحب».

ويليام لو.

يمكننا أن نحب ما نعرفه فقط، ولا يمكننا أبدًا أن نعرف بشكل كامل ما لا نحبه. الحب هو أسلوب للمعرفة، وعندما يكون الحب بلا غرض وقوي كفاية، تصبح المعرفة اتحادية، وهو ما ينبني على درجة نزاهة الحب. حيثما غاب الحب الذي لا غرض له (أو غاب الإحسان، اختصارًا) يكون الحب منحازًا للذات، ويستتبع ذلك أن تكون معرفة كل من الذات وعالم الأشياء والحيوات والعقول والروح خارج الذات قاصرة ومشوهة. المنغمس في الشهوات «يسخر شريعة السماء» – ما يعني أنه يخضع قوانين الطبيعة والروح لمراده الخاص. وتكون النتيجة أنه «لا

---

(١) مثنوي– جلال الدين الرومي.

(٢) الملك لير– شكسبير– ترجمة: إبراهيم رمزي.

يشعر» وهو بذلك يجعل نفسه عاجزًا عن المعرفة. جهله إرادي تمامًا؛ إذا كان لا يستطيع أن يبصر، فذلك بسبب أنه «لا يبصر». يستتبع مثل هذا الجهل الإرادي جزاء غير محمود. تعقب نيميسيز هوبريس – على نحو مبهر أحيانًا، مثلما يكون الحال عندما يسقط المعمِّي ذاتيًّا (ماكبث، عطيل، لير) في مصيدة أعدها له طموحه الخاص أو نزوعه إلى التملك أو غروره النزق؛ وعلى نحو أقل وضوحًا في أحيان أخرى، وذلك في الحالات التي تبقى فيها القوة والازدهار والسمعة حتى النهاية، لكن على حساب ممانعة تزداد دائمًا تقف حائلًا أمام النعم والاستنارة، عجز يزداد، عجز عن الهرب الآن أو فيما بعد، من السجن الخانق للذات والانفصال. يدل سلوك الكاردينال ريشيليو[1] وهو في فراش الموت على مدى عمق الجهل الروحي الذي قد يُعاقب به «مسخرو شرائع السماوات». ألح القس الذي كان حاضرًا مع الرجل العظيم عليه كي يجهز نفسه للابتلاء القادم بمسامحة جميع أعدائه. أجاب الكاردينال بحسن نية الجهل المطمئنة -الذي حملته سنوات الكيد والجشع والطموح الطويلة على أن يكون جهلًا مطلقًا، كما كانت قوته السياسية مطلقة- «لم يكن لي أبدًا أي أعداء، باستثناء أولئك الذين في الدولة». مثله كمثل نابليون لكن على نحوٍ آخر «كان يشعر بقوة السماء»؛ لأنه رفض الشعور بالإحسان ولذلك رفض معرفة الحقيقة الكاملة عن نفسه أو عن أي شيء آخر.

«هنا على الأرض، محبة الرب أفضل من معرفة الرب، بينما من

(١) الكاردينال ريشيليو (١٥٨٥ - ١٦٤٢): رجل دين ونبيل فرنسي، وكان وزير الملك لويس الثالث عشر.

الأفضل لو تعرف الأشياء الأدنى بدلًا من أن تحبها. فنحن بمعرفتها نرفعها إلى تعقلنا بطريقة ما، في حين أننا بمحبتنا لها ننزل نحن لها، وربما نصبح أذلاء لها، مثلما هو البخيل وذهبه».

القديس توما الأكويني[1] (بتصرف).

تبدو هذه الملاحظة للوهلة الأولى غير متفقة مع ما يسبقها. لكن القديس توما في الواقع لا يكاد يميز بين أشكال الحب المتنوعة والمعرفة. من الأفضل أن تعرف الرب حبًّا بدلًا من أن تعرف عنه فقط من دون حب، من خلال قراءة رسائل في اللاهوت. على الجانب الآخر، لا ينبغي أبدًا أن يُعرف الذهب من خلال حب البخيل أو بالأحرى من خلال اشتهائه، لكن إما أن يُعرف مجردًا، كما يعرفه الباحث العلمي، وإما أن يُعرف من خلال معرفة حب الفنان اللامبالية بالمعدن أو من خلال معرفة حب الناظر لعمل الصائغ، لا بسبب قيمته النقدية، أو بغية امتلاكه، لكن لمجرد أنه جميل. وينطبق الأمر نفسه على كل الأشياء المخلوقة والحيوات والعقول. من السيئ أن نعرفها معرفة حب قائمة على التعلق الجشع المتمركز حول الذات، من الأفضل نوعًا ما معرفتها بنزاهة علمية؛ والأفضل توفير معرفة مجردة بلا جشع، وذلك من خلال معرفة حب حقيقية لا مبالية، تحظى بصفة البهجة الجمالية أو الإحسان أو كليهما مجتمعين.

«نصنع وثنًا للحقيقة نفسها؛ إذ إن الحقيقة مع استثناء الإحسان ليست

---

(١) القديس توما الأكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤): فيلسوف سكولائي واسع التأثير ولاهوتي إيطالي.

الرب، لكنها صورته ووثنه، يجب علينا ألا نحبهما أو نعبدهما».

باسكال.

أصبحت كلمة إحسان charity[١] في الإنجليزية الحديثة مرادفة لكلمة الصدقة almsgiving، ولا تستخدم أبدًا بمعناها الأصلي الذي يدل على أعلى أشكال الحب الإلهي وأعظمها (الإحسان في الحب)، وذلك عن طريق صدفة لغوية (وهي ربما ليست صدفة على الإطلاق، لكنها أحد الأدلة شديدة الدقة على إرادة الإنسان الراسخة نحو الجهل والظلام الروحي)، ونتيجة لهذا الإفقار في أحسن الأحوال لمخزوننا اللغوي غير الوافي أبدًا على مستوى الاصطلاحات النفسانية والروحية، كان على كلمة حب love أن تضطلع بحمل إضافي. «الله محبة»[٢] نكررها بلا تكلف، وكذلك يجب أن «تحب قريبك كنفسك»[٣]، لكن كلمة حب لسوء الحظ تمثل كل شيء، ابتداء مما يحدث على الشاشة عند التحام لقطتين عن قرب بشكل حماسي، وحتى ما يحدث عندما يشعر جون وولمان[٤] وبيتر كليفر[٥] بالقلق إزاء العبيد الزنوج؛ لأنهم هياكل الروح القدس - ابتداء مما يحدث عندما تصرخ الجموع وتغني

(١) آثرت استخدام كلمة إحسان؛ لأنها تحمل الدلالة الأقرب في العربية، فهي لا تشير إلى بذل الخير فقط، لكنها كذلك أعلى درجات الإيمان، والإحسان إخلاص القلب لله.

(٢) يوحنا ٤ : ٨.

(٣) متى ٢٢ : ٣٩.

(٤) جون وولمان (١٧٢٠ - ١٧٧٢): تاجر ومبشر وصحفي أمريكي.

(٥) بيتر كليفر (١٥٨٠ - ١٦٥٤): رجل دين ومبشر إسباني.

وتلوح بالأعلام في سبورت-بلاست[1] أو الميدان الأحمر[2]، وحتى ما يحدث عندما يستغرق متأمل منفرد في صلاة إجلال بسيطة. يقود الالتباس في معاني المفردات إلى تشوش التفكير. وفيما يتعلق بموضوع الحب، يخدم تشوش التفكير بشكل مبهر أهداف الطبيعة البشرية الضالة والمتفرقة، العازمة على القيام بالأفضل في كلا العالمين - كأن تقول هو في خدمة الرب بينما هو في الحقيقة في خدمة المامون (المال) ومارس[3] وبريابس[4].

وصف معلمو الحياة الروحية بشكل نظامي أو في أقوال مأثورة ومواعظ طبيعة الإحسان الحقيقي، وقد ميزوا بينه وبين الأشكال الأخرى الأدنى من الحب. دعنا نتفكر في خواصه الرئيسة بالترتيب. أولًا، الإحسان بلا غرض، لا يسأل جزاء ولا يسمح لنفسه بأي نقص نتيجة أي ردة للشر من أجل صالحه. يُحب الرب لأجل ذاته، لا لأجل عطاياه، ويُحب الأشخاص والأشياء من أجل الرب؛ لأنهم هياكل الروح القدس. علاوة على ذلك، فبما أن الإحسان لا غرض له، فمن المؤكد بالضرورة أنه كوني.

«لا يبحث الحب عن سبب فيما وراء ذاته أو عن ثمرة له؛ إنه هو ثمرته الخاصة، إنه متعته الخاصة. أحب لأنني أحب؛ أحب بسبب أني قد

(١) سبورت-بلاست: ساحة داخلية متعددة الأغراض في برلين، وقد ألقى وزير الدعاية في حكومة النازي جوزيف جوبلز خطاب الحرب منها.

(٢) الميدان الأحمر: الساحة الأكثر شهرة في موسكو، وتوجد في محيط الكريملين.

(٣) مارس: إله الحرب عند الرومان.

(٤) بريابس: أحد آلهة الرومان، وهو الإله الحارس للقطعان.

أحب... الحب من بين كل إيماءات النفس وعواطفها هو الوحيد الذي عن طريقه يمكن للمخلوق أن يتعامل مع الخالق وأن يعيد شيئًا يشبه ما كان قد منح له، وإن لم يكن على قدم المساواة... عندما يحب الرب، يرغب في أن يُحب فقط، وقد وقع في علمه أن الحب سوف يجعل كل من يحبونه سعداء».

القديس برنارد.

«ولأن الحب لا نهاية له، لا يريد شيئًا إلا زيادته هو نفسه، فمن ثم يكون كل شيء بمثابة الزيت بالنسبة إلى لهبه؛ يجب أن يحظى بما يريد ولا يمكن أن يُصاب بالخذلان؛ لأن كل شيء (بما في ذلك القسوة من جانب المحبين) تساعده بطبيعة الحال على الحياة بطريقته الخاصة والإفصاح عن عمله الخاص».

ويليام لو.

«أولئك الذين يتحدثون عني بِشَرٍّ، هم بالفعل أصدقائي الخيِّرون.

«عندما يُشهَّر بي، لا أستبقي في صدري عداوة أو فضل، تنمو هناك فيَّ قوة الحب والقنوت، وهو ميلاد الذي لا يولد».

يونج تشيا تا شيه.

«يريد بعض الناس أن يروا الرب بأعينهم كما يرون بقرة، وأن يحبوه كما يحبون بقرة – من أجل اللبن والجبن والفائدة التي تدرها عليهم. هذا هو حال أولئك الذين يحبون الرب من أجل الثروة الخارجية أو الراحة الداخلية. هم لا يحبون الرب بشكل صحيح، عندما يحبونه من أجل مصلحتهم الشخصية. سوف أخبرك بالصدق حقيقة، أي شيء

تحمله في عقلك -مهما كان صلاحه- سوف يكون بمثابة حائل بينك وبين الحقيقة الأعمق».

إكهرت.

«فقير، أسألك، يا سيدي
أكثر مما قد يسأل ألف ملك.
يريد كل منهم شيئًا، يسألك إياه.
وقد جئت أسألك أن تعطيني ذاتك»[١].

الأنصاري الهروي[٢].

«لا دخل لي بالحب الذي يكون للرب أو في الرب. هذا حب لا يمكن أن يقبله الحب الخالص؛ إذ إن الحب الخالص هو الرب نفسه».

القديسة كاترين من جنوة[٣].

«مثلما تحمي الأم ابنها -ابنها الوحيد- حتى ولو كان ذلك على حساب حياتها هي نفسها، تجد الإرادة الصالحة التي لا حد لها بين المخلوقات. فلتسمح للإرادة الصالحة بالسواد في كل أنحاء العالم، عاليه وسافله وهنا وهناك، إرادة بلا حدود، لا تشوبها أي مشاعر نحو اهتمامات مختلفة أو متعارضة. لو بقي إنسان ثابتًا على هذه الحالة العقلية طوال وقت يقظته، فمن ثم يصل إلى تعضيد المقولة، «حتى في

(١) مناجاة نامه: الخواجة عبد الله الأنصاري.

(٢) الخواجة أبو إسماعيل عبد الله الهروي الأنصاري (١٠٠٦ - ١٠٨٨): متصوف فارسي وفقيه حنبلي، له العديد من المؤلفات بالعربية والفارسية.

(٣) القديسة كاترين من جنوة (١٤٤٧ - ١٥١٠): قديسة صوفية كاثوليكية، اشتهرت بأعمال البر والكتابات الصوفية.

هذا العالم، نجد القداسة».

ميتا سوتا[1].

«تعلم النظر إلى الكائنات بعين تساوي فيما بينها، ترى الذات الواحدة في الكل».

سريماد بهاجافاتا[2].

«العلامة الثانية المميزة للإحسان أنه ليس على شاكلة الأنواع الأدنى من الحب، هو ليس عاطفة. يبدأ الإحسان باعتباره فعلًا للإرادة ثم يكون تمامه في هيئة وعي خالص الروحانية، معرفة حب اتحادية بجوهر موضوعها.

«فليفهم الجميع أن حب الرب الحقيقي لا يكمن في ذرف الدموع ولا في تلك الحلاوة والطلاوة التي نتوق إليها غالبًا، لمجرد أنها تعزينا، لكن في خدمة الرب في العدالة وجَلَد النفس والقنوت».

القديسة تيريزا.

«لا تكمن قيمة الحب في المشاعر الرهيفة، لكن في عدم التعلق، وفي الصبر تحت وطأة كل الابتلاءات، من أجل الرب الذي نحبه».

القديس يوحنا الصليب.

«لا أقصد بالحب العاطفة الطبيعية، التي توجد في الناس بشكل يزيد وينقص وفق تركيبتهم؛ لكنني أقصد مبدأ أكبر للنفس، راسخ في العقل والتقوى، يجعلنا عاطفيين ورحماء ولطفاء مع كل رفاقنا المخلوقات،

---

(١) ميتا سوتا: أحد النصوص البوذية.

(٢) سريماد بهاجافاتام: أحد نصوص البوذية.

وذلك لأنها مخلوقات الرب ولأجل الرب».

ويليام لو.

يُعرِّف شانكارا -القديس الفيدانتي العظيم وفيلسوف القرن التاسع- طبيعة الإحسان أو معرفة الرب القائمة على الحب في البيت الثاني والثلاثين من نصه فيفيكاتشوداماني.

من بين كل أدوات التحرر، نجد أن أعلاها قدرًا هو التفاني. يقال إن تأمل الهيئة الفعلية للنفس الحقيقية (الأتمان الذي يماثل البراهمان) هو التفاني.

بمعنى آخر، أعلى أشكال حب الرب هو بداهة روحية تلقائية، «تجعل العارف والمعروف والمعرفة واحدًا». يصف شانكارا السبل إلى معرفة حب الروح الأعلى للروح والمراحل الأولى لذلك الحب في قصيدته الشعرية الفلسفية السابقة، وتكمن هذه السبل في أفعال للإرادة موجهة نحو إنكار الذاتية في التفكير والشعور والفعل، وموجهة نحو انعدام الرغبة وعدم التعلق أو نحو «اللا مبالاة المقدسة» **holy indifference** (إذا ما استخدمنا الاصطلاح المسيحي المقابل)، ونحو قبول للبلاء بقلب مبتهج، دون أسف على النفس ودون تفكير في رد الشر بالشر، وأخيرًا نحو تركيز عقلي كامل يقظ متمحور حول الربوبية المتسامية والمتجلية في كل نفس - بسبب تساميها.

من الجلي أنه لا شيء متفرد -مهما سر الإرادة- قد يكون ربا؛ ولهذا السبب، إذا ما كان للإرادة أن تتحد مع الرب، عليها أن تخلي نفسها، وأن تلقي بعيدًا بكل ميل مخالف نحو الرغبات، وبكل شبع قد تحصل عليه لا ريب، سواء كان راقيًا أو دنيئًا، زمنيًّا أو روحيًّا، وبذلك عندما تصبح

نقية ومطهرة من كل الشبع والبهجة والرغبة الجامحة، قد تصبح مشغولة بالكامل بكل ميولها بحب الرب. إذا كان للإرادة عبر أي سبيل أن تدرك الرب وأن تتحد به، فمن المستحيل أن يتم ذلك عن طريق الرغبة، لكن عن طريق الحب فقط، ويستتبع ذلك أن لا شيء على شاكلة البهجة أو العذوبة أو الفرح، مما تستسيغه الإرادة ويترك انطباعًا مرضيًّا وليس حبًّا قد يكون الوسيلة المناسبة لتوحيد الإرادة مع الرب. إذ تكمن هذه الوسيلة في فعل للإرادة. ولأن فعل الإرادة يختلف تمامًا عن الشعور، تتحد الإرادة عن طريق هذا الفعل بالرب وتستقر فيه؛ ذلك الفعل هو الحب. مستحيل أن يشكل الشعور أو تكلف الرغبة هذا الاتحاد أبدًا؛ إذ يبقيان في النفس كهدفين وغايتين. يمكن لهذه المشاعر أن تخدم الغاية باعتبارها محفزات للحب فقط، إذا ما كانت الإرادة عاقدة العزم على المضي قدمًا، وليس أي شيء آخر...

من ثم، فذلك الذي يفكر في أن الرب قد تخلى عنه عندما تخذله العذوبة والبهجة الروحية غير حكيم؛ وعندما يجدهما من جديد يبتهج ويفرح، ظانًّا أنه قد وصل عبر ذلك السبيل إلى امتلاك الرب.

ولا يزال الأحمق منه، مَن يمضي في البحث عن العذوبة في الرب، ويبتهج به، ويمعن التفكير فيه، إذ إنه بفعله هذا هو لا يسعى إلى الرب بإرادة متجذرة في خواء الإيمان والإحسان، لكن في العذوبة والبهجة الروحية فقط، وهي شيء مخلوق، يتبع هنا إرادته وبهجته المحببة. من المستحيل على الإرادة أن تحصل على عذوبة ونعيم الاتحاد الإلهي إلا من خلال عدم التعلق ورفض كل رغبة في أشياء السماء والأرض.

القديس يوحنا الصليب.

«الحب (الحب الحسي الذي للمشاعر) لا يتحد. من الصحيح أنه يتحد في الفعل، لكنه لا يتحد في الجوهر».

إكهرت.

«السبب وراء أن الحب الحسي حتى ذلك الحب الحسي نحو أرقى الأشياء، لا يمكن أن يوحِّد النفس مع أصلها الإلهي في الجوهر الروحاني هو أن الحب الحسي مثله كمثل مشاعر القلب الأخرى يقوِّي تلك الذاتية، العقبة الأخيرة في سبيل مثل هذه الوحدة. «اللعنة في الحركة الدائمة دون أي امتزاج بالسكون؛ نحن الفانون -الذين ما زلنا نخوض في رحلتنا الطويلة- نتحرك حينًا ونسكن حينًا... الرب فقط في سكون بلا حركة». يستتبع ذلك أننا لو أقمنا فقط في سلام الرب الذي يجاوز كل الفهم، ففي إمكاننا أن نقيم في معرفة ومحبة الرب. وعلينا أن نمضي نحو السلام الذي يجاوز المعرفة عن طريق السلام البسيط والمعتاد للغاية، والذي من الممكن أن يتفهمه الجميع - السلام بين الأمم وداخلها (إذ أن الحروب والثورات العنيفة تؤدي إلى الحجب الكامل نوعًا ما للرب بالنسبة إلى أغلبية المتورطين فيها)؛ والسلام بين الأفراد وداخل النفس المفردة (إذ إن المشاحنات الشخصية والمخاوف الخاصة والمحبة والكراهية والطموح والمشتتات ليست بأقل خطورة على تطور الحياة الروحية بالمقارنة بالبلايا الأعظم). علينا أن نريد السلام الواقع في متناول يدنا من أجل أن نحصل عليه لأنفسنا وللآخرين، إذ ربما نصبح مؤهلين لاستقبال ذلك السلام الآخر، الذي هو ثمرة الروح وحال معرفة الحب الاتحادية بالرب، كما افترض القديس بولس.

«عن طريق سكينة العقل تصبح قادرًا على تبديل هذا العقل الزائف عقل الموت وإعادة الميلاد بعقل صافٍ بديهي، وعن طريق ذلك تصبح قادرًا على إدراك جوهر العقل الأساسي والتنويري. عليك أن تجعل من هذا نقطة انطلاقك نحو الممارسات الروحية. وبمناغمتك نقطة انطلاقك مع أهدافك، سوف تكون قادرًا على تحقيق غايتك الحقيقية للاستنارة الكاملة عن طريق الممارسة الصحيحة.

«إذا ما رغبت في سكينة عقلك واستعادة طهارته الأصيلة، عليك أن تواصل كما كنت لتفعل إذا ما كنت تطهر جرة ماء معكر بطين. في البداية تتركها قائمة حتى تستقر الرواسب في القعر، عندما يصبح الماء صافيًا، وهو المقابل لحالة العقل قبل أن تعكره الشهوات الدنسة. ثم ترشح الماء النقي بحرص.

«... عندما يصبح العقل في سكينة وتركيز على الاتحاد الكامل، تُرى كل الأشياء، لا في انفصالها، لكن في وحدتها، حيث لا ما مكان لدخول الشهوات، وهي في انسجام كامل مع نقاء النيرفانا الغامض الذي يفوق الوصف».

سورانجاما سوترا.

«هذا التماثل من الواحد وفي الواحد ومع الواحد مصدر الحب البراق ومنبعه ومنطلق بزوغه».

إكهرت.

يتخذ التقدم الروحي مسارًا لولبيًّا دائمًا وتبادليًّا، كما رأينا عندما واتتنا الفرصة لاكتشاف ذلك في سياقات أخرى عديدة. السلام بعيدًا عن المشتتات والانفعالات العاطفية هو السبيل إلى الإحسان، والإحسان -أو معرفة الحب الاتحادية- هو السبيل إلى سلام الرب الأرقى. وينطبق الأمر نفسه على التواضع، وهو العلامة الثالثة المميزة للإحسان. التواضع شرط جوهري من شروط أعلى أشكال الحب، ويجعل أعلى أشكال الحب من اكتمال التواضع وتحقيق الفناء الكامل للذات أمرًا ممكنًا.

«هل ستصير مسافرًا على طريق الحب؟

الشرط الأول أن تتواضع مثل التراب والرماد».

الأنصاري الهروي.

«ليس لديَّ سوى كلمة واحدة كي أقولها لك فيما يتعلق بحب أخيك، وهي أنه لا وجود لشيء يستثني التواضع قد ينجح في تشكيلك من أجل أن تحب أخاك؛ لا شيء سوى وعيك بضعفك قد يجعلك مترفقًا ومشفقًا على ضعف الآخرين. سوف يأتي ردك، أنك تدرك تمامًا أن التواضع يولد رحمة نحو الآخرين، لكن كيف لي أن أكتسب التواضع في البداية؟ يستجلبه لك شيئان مجتمعان، يجب ألا تفرق بينهما أبدًا. الأول هو التأمل في الهاوية العميقة التي انتشلتك يد الرب كلي القدرة منها، وهو يمسك بك معلقًا أعلاها دائمًا. والثانية وجود ذلك الرب المتغلغل تمامًا. وعن طريق تأمل الرب ومحبته يمكننا أن نتعلم إهمال الذات، وتحجيم الانبهار بالتوافه وتعويد أنفسنا على التضاؤل حامدين في حضرة الجلال العظيم الذي يفنى فيه كل شيء. أحبَّ الرب وسوف تتواضع؛ أحبَّ

الرب وسوف تتخلص من حب الذات؛ أحبَّ الرب وسوف تحب كل ما منحه لك كي تحبه من أجل حبه».

فنلون[1].

كما رأينا يمكن للمشاعر أن تكون بمثابة محفزات للإحسان؛ لكن الإحسان كإحسان له مقدماته في الإرادة - إرادة السلام والتواضع في نفس الواحد، إرادة الشفقة واللطف نحو المخلوقات المرافقة للواحد، إرادة حب الرب، ذلك الحب المنزه من الغرض، الذي «لا يسأل شيئًا ولا يرفض شيئًا». لكن من الممكن تقوية الإرادة عن طريق الممارسة والتأكيد عليها عن طريق المثابرة. ويتضح ذلك المعنى جليًّا في التسجيل التالي للحوار الذي دار بين أسقف بيلي[2] الشاب وصديقه المحبب ومعلمه فرنسيس دي ساليس، وهو تسجيل ممتع بسبب وضوحه البوزويلي[3].

سألت في مرة أسقف جينيف عما يجب أن يفعله المرء كي يحرز الكمال. أجاب: «يجب أن تحب الرب بكل جوارحك وأن تحب أخاك كحبك لنفسك».

عدت إلى الحديث: «إنني لا أسأل أين يقع الكمال؟ لكن عن كيفية الحصول عليه». قال لي مرةً أخرى: «الإحسان، هو الوسيلة والغاية كلاهما، السبيل الوحيد الذي يمكننا عن طريقه الوصول إلى ذلك الكمال هو الإحسان نفسه في النهاية... وكما أن النفس هي حياة الجسد،

(١) فرانسوا فنلون (١٦٥١ - ١٧١٥): شاعر وكاتب فرنسي.

(٢) مدينة فرنسية.

(٣) نسبة إلى بوزويل، كاتب السير والمهندس الاسكتلندي، الذي كنا قد أشرنا إليه باعتباره صديق صمويل جونسون وصاحب الطريقة المميزة حينها في كتابة سيرته.

كذلك الإحسان هو حياة النفس».

قلت: «أعلم كل ذلك، لكنني أريد أن أعرف كيف يمكن للمرء أن يحب الرب بكل جوارحه وأن يحب أخاه كحبه لنفسه».

لكنه أجابني من جديد: «يجب أن نحب الرب بكل جوارحنا وأن نحب إخواننا كحبنا لأنفسنا».

أجبته: «لم أتحرك قيد أنملة وأنا الآن حيث بدأت، اخبرني كيف أكتسب مثل هذا الحب».

«الطريق الأمثل والأقصر والأبسط نحو حب الرب بكل جوارح المرء هو حبه حبًّا كاملًا وبحرارة من كل شغاف القلب!»

لم يكن ليجيب بأي إجابة أخرى. مع ذلك قال الأسقف في النهاية: «هناك جوانب عديدة يا مَن تريدني أن أخبرك بالمناهج والنظم والطرق السرية التي تمكنك من أن تصبح كاملًا، وما يمكنني أن أخبرك به فقط أن السر الوحيد هو حب الرب حبًّا من القلب، والطريقة الوحيدة لإحراز هذا الحب هي بالحب. تتعلم الحديث عن طريق الحديث، والدرس عن طريق الدرس، والجري عن طريق الجري، والعمل عن طريق العمل، وبالمثل تمامًا تتعلم أن تحب الرب والإنسان عن طريق الحب. كل من يظنون أنهم يحبونه عن طريق أي وسيلة أخرى يخدعون أنفسهم. إذا أردت أن تحب الرب، فامضِ في حبه أكثر وأكثر. ابدأ كمجرد مبتدئ وقوة الحب العظيمة سوف تقودك إلى أن تصبح خبيرًا في هذا الفن. أولئك الذين أحرزوا أغلب المنشود سوف يواصلون السعي، لا يصدقون أنفسهم أبدًا أنهم أدركوا غايتهم، إذ

ينبغي أن يستمر تزايد الإحسان حتى نسحب آخر أنفاسنا».

جان بيير كامو.

إنه اجتياز ما أطلق عليه القديس برنارد «الحب الحسي» للإنسانية المكرسة إلى الحب الروحي للربوبية، المرور من الحب العاطفي الذي يمكن أن يوحد المحب والمحبوب في فعل فقط إلى الإحسان الكامل الذي يوحدهما في جوهر روحي. وتتمثل صورته في الممارسة الدينية في العبور من التدبر المنطقي والعاطفي إلى التأمل المتشبع. يلح كل الكتاب المسيحيين على أن حب الربوبية الروحي أرقى من حب الإنسانية الحسي، الذي هو بمثابة مقدمة ووسيلة لغاية الإنسان النهائية المتمثلة في معرفة الحب الاتحادية بالأصل الإلهي؛ لكنهم جميعًا يلحون كذلك الإلحاح نفسه على أن الحب الحسي مقدمة ضرورية ووسيلة لا غنى عنها. يؤيد الكتاب الشرقيون صحة ذلك بالنسبة لبعض الأشخاص، لكن ليس بالنسبة إلى الجميع، إذ إن هناك بعض المتأملين المولودين بالفطرة وهم قادرون على «مناغمة نقطة انطلاقهم مع هدفهم» ويباشرون من فورهم بيوجا[1] المعرفة. كتب أعظم فلاسفة الطاوية عن منظور المتأملين المولودين بالفطرة في الفقرة التالية:

«أولئك البشر الذين ينظرون إلى السماء بطريقة خاصة باعتبارها الآب ويحبونها حبًّا شخصيًّا، ما مقدار الحب الأكبر الذي عليهم أن يحبوا به ما فوق السماء باعتباره الآب! بعض البشر ينظرون بطريقة خاصة إلى

(١) يوجا: كلمة سنسكريتية مشتقة من الرقم واحد وتعني التوحيد، وتطلق على تدريبات تهدف إلى التأمل وتوحيد الفرد بالروح الكونية.

حكامهم باعتبارهم أفضل منهم، ويموتون شخصيًّا من أجلهم. ما مقدار الموت الأكبر الذي عليهم أن يموتوا به من أجل ما هو أحق من حاكم! عندما تجف منابع الماء، تصبح الأسماك جميعها معًا على أرض جافة. من ثم ترطب بعضها برطوبتها وتحافظ على ابتلال بعضها البعض بمخاطها. لكن ذلك لا يمكن أن يقارن بنسيان بعضها البعض عندما تكون في نهر أو بحيرة».

جوانغ زي.

«يشبه مخاط الحب الشخصي والعاطفي ماء الوجود الروحي شبهًا بعيدًا، فهو من درجة أدنى، غير كافية (تحديدًا لأن الحب عاطفي وبالتالي شخصي). يتسبب جهلهم الإرادي وفعلهم الخاطئ ووجودهم الخاطئ في جفاف المنابع الإلهية، يمكن للبشر أن يفعلوا بعض الأمور من أجل تخفيف الرعب الذي يكتنف موقفهم عن طريق المحافظة على ابتلال بعضهم البعض بمخاطهم. لكن يستحيل أن تكون هناك سعادة أو أمان أو خلاص إلى الأبدية، حتى يتركوا التفكير في أن المخاط كافٍ، وحتى يهجروا أنفسهم إلى ما هو في الحقيقة أصلهم، ويستدعون مياه الأبدية. سوف يضاف إلى كل أولئك الذين يسعون في المقام الأول إلى مملكة الرب كل ما بقى. سوف يؤخذ كل شيء من أولئك الذين يسعون في المقام الأول إلى كل ما بقي -مثل وثنيي التقدم- ظنًّا منهم أن مملكة الرب سوف تضاف (بعد استخدام الطاقة النووية والثورة التالية بل الثالثة). ومع ذلك نواصل الثقة في التقدم، واعتبار المخاط الشخصي أرقى أشكال الرطوبة الروحية وتفضيل وجودا مؤلمًا ومستحيلًا على أرض جافة على الحب والفرح والسلام في محيطنا، موطننا الأصلي.

«تحيا النفس بواسطة ذلك الذي تحبه، لا في الجسد الذي تحركه. حياتها ليست في الجسد، لكنها تمنح الحياة للجسد بدلًا من ذلك وتحيا في ذلك الذي تحبه».

القديس يوحنا الصليب.

«لا مثيل لطائفة المحبين؛

للمحبين دينهم وإيمانهم».

جلال الدين الرومي.

«الزهد هو حب يُسلِّم نفسه بالكامل له، هو غايته؛ الشجاعة هي حب يتحمل كل شيء بسرور من أجله، هو غايته؛ العدل هو حب يخدمه فقط، هو غايته، ولذلك يحكم بشكل صائب؛ الفصاحة هي حب يميز بحكمة بين ما يعوق وما يساعد».

القديس أوغسطينوس.

العلامات المميزة للإحسان هي الخلو من الغرض، والسكينة، والتواضع. لكن حيثما يكون هناك خلو من الغرض، لا تجد طمعًا في فائدة شخصية أو خوفًا من خسارة شخصية أو عقاب؛ وحيثما تكون هناك سكينة، لا تجد توقًا أو نفورًا، بل إرادة ثابتة نحو الاتساق مع الطاو أو اللوغوس الإلهي على كل مستوى من مستويات الوجود ووعي ثابت بالهكذائية الإلهية وما العلاقات التي ينبغي أن تكون للمرء به؛ وحيثما يكون هناك تواضع، لا تجد ميلًا للنقد أو تفخيمًا للأنا ولا لأي أنا أخرى مختلقة على حساب الآخرين، الذين ينظر إليهم باعتبارهم يعانون الضعف نفسه ويرتكبون الأخطاء ذاتها، لكنهم يمتلكون كذلك القدرة

نفسها التي تسمو بهم إلى المعرفة الاتحادية بالرب، كما يمتلكها المرء نفسه. نصل من كل هذا إلى أن الإحسان هو أصل وجوهر الفضيلة، وكلما كان الإحسان أقل، كلما قلت القدرة على اجتناب الشر. وقد جمعت صيغة أوغسطينوس كل هذا وأوجزته: «أحبَّ وافعلْ ما تريد».

من بين المعالجات اللاحقة لمبحث أوغسطينوس، نقتبس من كتابات جون إفرارد في المقطع التالي، وجون إفرارد هو أحد لاهوتيي القرن السابع عشر المنشغلين بالروحانيات، كانت تعاليمه تصك مسامع طوائف الصم المتناحرة، وتصك مسامع حتى مَن كانوا أكثر صممًا من كهنة الإصلاح ومن تلاهم في العصر الأغسطسي[١]. (يمكن الحكم على مدى صمم تلك الآذان من خلال ما كتبه سويفت[٢] عن هويهنهنمز[٣] المفضلة لديه والمثالية أخلاقيًا. تدور المواضيع الرئيسية لأحاديثها كما في أشعارها حول «الصداقة أو البر أو عمليات الطبيعة المرئية أو التقاليد القديمة؛ أو حدود وقيود الفضيلة، أو أحكام العقل الصائبة». لم يحدث في مرة أن شغلت عقولها أفكار عن الرب أو الإحسان أو الخلاص. وهو ما يبين بشكل واضح كفاية فكر عميد كاتدرائية القديس باتريك الديني، الذي كسب به نقوده).

---

(١) العصر الأغسطسي: اصطلاح يطلق على القرن الثامن عشر نظرًا لوجود حكومة مستقرة في ذلك الوقت وإمبراطورية ومجتمع مادي، وهي الظروف المشابهة لإمبراطورية أغسطس الرومانية.

(٢) جوناثان سويفت (١٦٦٧ - ١٧٤٥): مؤلف وسياسي بريطاني، ومن أشهر أعماله «رحلات جاليفر»، كما كان عميدًا لكاتدرائية القديس باتريك.

(٣) هويهنهنمز: سباق خيالي لخيول ذكية، وصفها جوناثان سويفت في الجزء الأول من سلسلة رواياته «رحلات جاليفر».

«اترك العنان للرجل الذي عثر على الدليل الحي بداخله، ومن ثم اجعله يهمل الخارج إذا استطاع! كما لو كنت تقول لرجل يحب زوجته بكل عواطفه، «أنت حر كي تضربها أو تجرحها أو تقتلها، إذا ما أردت».

جون إفرارد.

«من ذلك نصل إلى أنه حيثما يكون الإحسان، فلا إكراه هناك.

لا يجبر الرب أحدًا؛ إذ إن الحب لا يُفرض بالقوة، ولذلك فخدمة الرب هي أمر من أمور الحرية التامة».

هانز دنك.

«لكن لأنه لا يمكن فرض الإحسان بالقوة، نجد أن له نوع من السلطان، قوة غير جبرية، يدافع بها عن نفسه، ويحقق بها إرادته الطيبة في العالم – ليس دائمًا بالطبع، وليس بصورة محتومة أو تلقائية (إذ أن الأفراد وبصورة أكبر المؤسسات قد تكون محصنة بشكل منيع ضد التأثير الإلهي)، لكنه يحقق إرادته مع ذلك في كثير من الحالات وبشكل مدهش.

تحتضن السماء في شفقة أولئك الذين ما كان أن تراهم محطمين».

لاو تسو.

«أساء إليَّ، ضربني، أعجزني، سرقني» – لن تتوقف الكراهية أبدًا لدى أولئك الذين يأوون أفكارا كتلك.

«أساء إليَّ، ضربني، أعجزني، سرقني» – تتوقف الكراهية لدى أولئك الذين لا يأوون أفكارًا كتلك.

إذ إن الكراهية لا تتوقف عن طريق الكراهية في أي عصر - هذه قاعدة عتيقة».

دهامابادا[١].

يقوم قدر كبير من ترتيباتنا الاقتصادية والسياسية والدولية الحالية على انعدام الحب. نبدأ بالافتقاد إلى الإحسان نحو الطبيعة، وبذلك بدلًا من محاولة العمل مع الطاو أو اللوغوس على مستوى الكائنات غير الحية وما دون البشر، نحاول الهيمنة والاستغلال، نهدر موارد الأرض المعدنية، ندمر تربتها، نخرب غاباتها، نصب القذارة في أنهارها ونضخ العوادم السامة في هوائها. ومن انعدام الحب فيما يتعلق بالطبيعة، نتقدم نحو انعدام الحب فيما يتعلق بالفن - وهو انعدام للحب شديد للغاية إلى درجة قتلنا لكل الفنون الأساسية أو النافعة والتأسيس لأنواع مختلفة من الإنتاج الضخم عن طريق آلات وإحلال ذلك الإنتاج الضخم محل الفنون. وبالطبع فإن انعدام الحب نحو الفن، هو في الوقت نفسه انعدام للحب نحو البشر، الذين عليهم الاضطلاع بمهام بسيطة للغاية ومقدَّرة، لا تترك فرصًا للإبداع، وهي مهام تفرضها بدائل آلية للفن وترتبط بالإنتاج الضخم والتوزيع الضخم عن طريق أعمال ورقية مكتبية لا نهاية لها. يمضي التمويل الضخم جنبًا إلى جنب الإنتاج الضخم والتوزيع الضخم، ويتآمر الثلاثة معًا على مصادرة أراض وأدوات إنتاج أعداد متزايدة من صغار الملاك، وهو ما يقلل حجم الحرية بين الأغلبية ويزيد من قوة الأقلية، ما يُمَكِّن المنتمين إلى تلك الأقلية من ممارسة

(١) دهامابادا: أحد الكتب المتصلة بشريعة بالي البوذية، ويضم أقوالاً لبوذا.

سيطرة قهرية على حيوات رفاقهم. تتكون هذه الأقلية المسيطرة سيطرة قهرية من رأسماليي القطاع الخاص أو من البيروقراطيين الحكوميين أو من كلا فئتي رؤساء العمل، يعملون في تعاون - وتبقى الطبيعة القهرية للتحكم، وبالتالي الطبيعة المفتقرة إلى الحب بالضرورة هي نفسها بالتأكيد، سواء أطلق الرؤساء على أنفسهم أسماء على شاكلة «مديري الشركة» أو «موظفي الخدمة المدنية». الفارق الوحيد بين هذين النوعين من حكام الأوليجاركية أن النوع الأول يتحصل على القدر الأكبر من سلطته عن طريق ثروته، لا مكانته داخل هيراركية مقدرة في المعتاد، بينما يتحصل النوع الثاني على القدر الأكبر من سلطته عن طريق المكانة، لا الثروة. تنشأ نتيجة هذه العلاقات المتسقة منعدمة الحب في الأساس علاقات أخرى، تختلف بشكل واسع من مجتمع لآخر، بحسب الظروف المحلية وعادات التفكير والشعور. وها هي بعض الأمثلة: ازدراء واستغلال الأقليات الملونة التي تعيش بين أغلبية بيضاء، أو ازدراء واستغلال أقليات محتلة بيضاء لأغلبية ملونة؛ أو كراهية اليهود أو الكاثوليك أو الماسونيين أو أي أقلية أخرى، صادف واختلفت لغتها أو عاداتها أو مظهرها أو دينها عن لغة وعادات ومظهر ودين الأغلبية المحلية. أما البنية الفوقية المتوجة لانعدام الإحسان فتتمثل في انعدام الحب النظامي للعلاقات بين الأقاليم والدولة ذات السيادة - انعدام للحب يعبر عن نفسه في الافتراضات البديهية الذاهبة إلى أنه من الصواب والطبيعي للمنظمات الوطنية أن تتصرف كاللصوص والقتلة، متسلحة بأسلحة عديدة، من أجل أن تسرق وتقتل عند أول فرصة سانحة. (يضرب لنا تاريخ وسط أمريكا مثالًا عن مدى بداهة هذه الافتراضات

عن طبيعة الوطنية. طالما كان يطلق على مناطق وسط أمريكا التي تفصل بينها حدود عبثية أقاليم خاضعة للإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية، كان السلام سائدًا بين سكانها. لكن في أوائل القرن التاسع عشر أنهت القطاعات الإدارية المتنوعة للإمبراطورية الإسبانية ولاءها «للبلد الأم» وقررت أن تصبح دولًا على غرار النموذج الأوروبي. كانت النتيجة: أنها مضت مباشرة إلى الحرب مع إحداها الأخرى. لماذا؟ لأن الدولة الوطنية ذات السيادة ومن خلال التعريف هي منظمة لديها الحق والواجب كي تكره أعضاءها على السرقة والقتل على أوسع نطاق ممكن).

يجب أن تكون عبارة «لا تقدنا إلى الفتن» المبدأ الموجه لكل المنظمات الاجتماعية، أما الفتن التي تجب الحماية منها والتخلص منها بقدر الإمكان عن طريق الترتيبات الاقتصادية والسياسية المناسبة فهي الفتن ضد الإحسان، بمعنى أنها الفتن ضد حب الرب والطبيعة والإنسان حبًّا لا غرض له. أولًا، سوف يؤدي انتشار الفلسفة الخالدة والقبول العام بها وفق أي شكل إلى حفظ الرجال والنساء من فتنة التقديس الوثني للأشياء في الزمن - تقديس الكنيسة، تقديس الدولة، تقديس المستقبل الثوري، تقديس الذات الإنسانية ، كل منها يعارض جوهريًّا وبالضرورة الإحسان. ثم تأتي بعد ذلك اللامركزية، الملكية الخاصة الواسعة للأرض ووسائل الإنتاج على نطاق صغير، مكافحة احتكار الدولة أو المؤسسة، تقسيم السلطة الاقتصادية والسياسية (وهي الضمانة الوحيدة، إذ لم يصب التعب اللورد أكتون[1] أبدًا بينما يلح على

---

(١) اللورد أكتون (١٨٣٤ - ١٩٠٢): مؤرخ وسياسي إنجليزي.

الحرية المدنية تحت مظلة حكم القانون). سوف تفعل هذه الإصلاحات التنظيمية الاجتماعية الكثير فيما يتعلق بمنع الأفراد الطموحين والمنظمات والحكومات الطموحة من أن يساقوا إلى فتنة التصرف بطغيان؛ بينما سوف تُخَلِّص اجتماعات البلديات وكذلك المنظمات الاحترافية التعاونية التي تحكمها الديموقراطية جموع الناس من فتنة جعل فرديتهم اللامركزية فظة للغاية. لكن من المستحيل بالتأكيد أن تتحقق أي من هذه الإصلاحات المرغوبة في جوهرها طالما كان هناك اعتقاد في أنه من الصواب والطبيعي أن تتجهز الدول ذات السيادة من أجل شن حروب على إحداها الأخرى. لا يمكن أن تشن حروبًا حديثة إلا دول تحظى بصناعة سلع رأسمالية شديدة التقدم، دول تُدار فيها القوة الاقتصادية إما عن طريق الدولة وإما عن طريق المؤسسات الاحتكارية القليلة ببراعة شديدة، بحيث يكون من السهل فرض الضرائب أو حتى التأميم المؤقت لو لزم الأمر؛ دول تكون فيها جموع العاملين بلا جذور ممتدة لأنها بلا ملكيات، وبالتالي من السهل نقلها من مكان إلى آخر، تنظمها تمامًا أحكام المصنع. أي مجتمع لا مركزي حر، مكون من صغار ملَّاك غير مقهورين وله اقتصاد متوازن في تناسب سوف يكون في عالم صانع للحروب كعالمنا تحت رحمة أحد تلك المجتمعات المركزية، ذات الإنتاج المميكن، والاقتصاد غير المتوازن، والتي ليس لدى شعوبها ملكيات، وبالتالي من السهل قهرهم. وهذا هو السبب وراء الرغبة الواحدة عند الدول غير المتقدمة مثل المكسيك والصين في أن تصبح مثل ألمانيا أو إنجلترا أو الولايات المتحدة الأمريكية. طالما بقي انعدام الحب منظمًا للحرب والتجهيز للحرب، لن يكون هناك تخفيف

على أي مستوى واسع أو دولي أو عالمي لحالة انعدام الحب المنظمة لعلاقاتنا الاقتصادية والسياسية. الحرب والتجهيز للحرب هي فتن قائمة من أجل جعل الحاضر سيئًا، وجعل الترتيبات المجتمعية التي تحجب الرب أسوأ وأسوأ بصورة متزايدة، وهو الأمر الذي يكون مصحوبا بتزايد كفاءة التقنية.

* * *

الفصل السادس

إماتة الجسد وعدم التعلق والمعاش الصالح

«أخفى الزمن والتعدد وأعمال النفس أو طبيعتها الخَلقية كنز مملكة الرب. لكن بقدر استطاعة النفس فصل نفسها عن هذا التعدد، بقدر كشفها عن مملكة الرب في داخل نفسها. ها هنا النفس والربوبية واحد».

إكهرت.

«تذهب مملكتنا» هي العبارة الملازمة بالضرورة لمقولة «تأتي مملكتك»[١]، وهي عبارة لا يمكن الإعراض عنها؛ إذ إنه كلما كان هناك المزيد من الذات، كان هناك القليل من الرب. يمكن فقط لأولئك الذين فقدوا عن عمد الحياة الانفصالية غير المكتملة للرغبات والمصالح الذاتية والتفكير والشعور والرغبة والفعل المتمحور حول الأنا أن يحققوا كمال الأبدية الإلهي للحياة. إماتة الجسد أو النكران المتعمد للذات مغروس بحزم لا هوادة فيه في كتابات المسيحية والهندوسية والبوذية وأغلب ديانات العالم الأخرى الكبرى والصغرى وينص عليه كل قديس تركيزه منصب على الرب وكل مصلح روحي قضى عمره

---

(١) تأتي مملكتك: مقصود بها الجنة أو الأبدية.

شارحًا لمبادئ الفلسفة الخالدة. غير أن إفناء الذات لا يعتبر غاية في حد ذاته (على الأقل لا يعتبره كذلك مَن يعرف الموضوع الذي يتحدث عنه). يمتلك بالكاد قيمة أداتية باعتباره وسيلةً لا يمكن الاستغناء عنها من أجل شيء آخر. ووفق كلمات أحد الذين جاءت مناسبات عديدة للاقتباس منه في فصول سابقة، من الضروري لنا جميعًا أن «نعرف الطبيعة الحقيقية وقيمة كل إنكار للذات وإماتة للجسد».

«بحسب طبيعتهما -المفترضة فيهما- فلا صلاح أو قدسية فيهما أو أي جانب حقيقي من جوانب قداستنا، ليستا الطعام أو التغذية الحقيقية للحياة الإلهية في أنفسنا، لا طاقة لهما على بث الحياة أو القداسة، تكمن قيمتهما الوحيدة في أنهما يزيلان العوائق أمام القداسة ويدمران ما يقف بين الرب وبيننا، ويفتحان طريقًا لروح الرب التي تبث الحياة والقداسة كي تعمل على أنفسنا، عمل الرب فقط هو الشيء الوحيد الذي بإمكانه إنماء الحياة الإلهية في النفس، أو مساعدتها على اكتساب أقل درجات القداسة أو الحياة الروحية الحقيقية... هكذا قد نعرف السبب وراء أن كثيرًا من الناس لا يضيعون الفائدة فقط، لكن تلحق بهم إماتة الجسد أسوأ الضرر؛ لأنهم أخطؤوا طبيعتها وقيمتها تمامًا، مارسوها من أجلها هي نفسها، باعتبارها شيئًا جيدًا في حد ذاته؛ ظنوها جانبًا حقيقيًّا من جوانب القداسة، ومن ثم مكثوا فيها، ولم يتطلعوا إلى ما هو أبعد، لكنهم امتلؤوا ثقة في النفس وإعجابًا بها بسبب مضيهم قدمًا فيها. جعلهم هذا مكتفين بذواتهم، متجهمين، حكامًا قساة تجاه كل ما لا يقترب من إماتتهم للجسد. وبذلك لا يتحصلون من إنكار الذات على أكثر مما قد

يحصل عليه الآخرون من الغفران[1]. يقاومون ويكبحون عمل الرب على أرواحهم، وبدلًا من أن يصبحوا منكرين فعليين لذواتهم، يعضدون مملكة الذات ويبقون عليها».

ويليام لو.

«على الرغم من أن الهزيمة المنكرة للرغبات وتدميرها هو أمر صالح، إلا أنه ليس تمام الصلاح، اكتشاف الحكمة هو الصلاح الفائق. عندما نجد هذا، سوف يشدو كل الناس».

فيلو.

«إذا لم يكن المرء على المسار الصحيح للصلاة وبقية الممارسات بين الرب وبين النفس، فإن طبيعة المرء الذي يعيش في الدين سوف تنمو على نحو أسوأ مما كان ليحدث لو عاش في العالم - وهو الأمر الذي بإمكاني الحديث عنه من خلال الخبرة؛ إذ إن الفخر ومحبة الذات -اللتين تجذرهما الخطيئة في النفس- يجدان وسائل لتقوية نفسيهما بشكل مفرط في الدين، ما لم تكن النفس على المسار الذي قد يعلمها ويستجلب لها التواضع والخضوع. إذ إنني أجد قلبي يجمد ويصبح في صلابة الصخر بسبب تصحيحات الإرادة وتناقضاتها (وهي الأمور التي لا يستطيع اجتنابها مقيم في مجتمع متدين)، وليس بمقدور شيء ترقيقه إلا إذا وُضِع في مسار الصلاة، التي تميل النفس بها نحو الرب وتتعلم منه درس الحط الفعلي من قدر نفسها».

السيدة جيرترود مور[2].

---

(١) الغفران، إندولجنتيا: هو الإعفاء الكامل أو الجزئي من العقاب الدنيوي، وهي منحة تمنحها الكنيسة الكاثوليكية لمن اعترفوا أمامها بخطاياهم.

(٢) السيدة جيرترود مور (١٦٠٦ - ١٦٣٣): راهبة وكاتبة إنجليزية.

«بينما كنت أغمغم متذمرة من إجباري على أكل اللحم وعدم القيام بكفارات، سمعت جملة تقال: إنه في بعض الأحيان يوجد في مثل هذا الأسى حبٌّ للذات أكبر مما فيه من رغبة للقيام بكفارات».

القديسة تيريزا.

على ذلك فمن المألوف في التاريخ والخيال الروائي وعلم النفس الوصفي أن مَن أماتوا الأجساد هم أسوأ غالبًا في بعض النواحي ممن لم يميتوا الأجساد. على ذلك فالبيوريتاني[١] قد يمارس كل الفضائل الأساسية -الحكمة والجلد والاعتدال والعفة- ويبقى رجلًا سيئًا في المجمل؛ إذ إن هذه الفضائل في كثيرٍ للغاية من الحالات تكون مصحوبة -بل مرتبطة سببيًا بالفعل- بآثام الفخر والحسد والغضب المتكرر ومنع الإحسان الذي يصل في بعض الأحيان إلى مستوى القسوة الفعلية. قد يخطئ البيوريتاني في الوسيلة ويعتبرها غايته، يوهم نفسه بالقداسة لأنه متقشف في جلد. لكن التقشف في جلدٍ هو بالكاد إعلاء للجانب الذي يُنظر إليه في إكبار على حساب الجانب الذي لا يُنظر إليه في إكبار. القداسة هي على النقيض من ذلك، فهي إنكار كامل للذات الانفصالية، إنكار لجوانبها التي يُنظر إليها في إكبار بذات درجة إنكار الجوانب التي لا يُنظر إليها في إكبار، وهي تخلٍّ كامل عن الإرادة للرب. بقدر التعلق بأنا ولي وملكي، يقل التعلق بالأصل الإلهي، وبالتالي تنعدم المعرفة

(١) البيوريتانية، التطهيرية: هي مذهب بروتستانتي، ازدهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ويهدف إلى اتباع تعاليم الكتاب المقدس في كل مناحي الحياة، لا العبادات فقط وذلك في تحرر مما أورثته الكنيسة من تقاليد على مر السنين، ويظن البيوريتانيون أن الله اختارهم وفضلهم على العالمين.

الاتحادية. يجب القيام بإماتة الجسد إلى درجة عدم التعلق أو (على حد تعبير القديس فرنسيس دي ساليس) إلى درجة اللا مبالاة المقدسة «holy indifference»، وإلا فإنها تنقل بالكاد إرادة الذات من قناة إلى أخرى، دون تقليل من المقدار الكامل لصوت إرادة الذات، بل مع زيادة فعلية في ذلك المقدار أحيانًا. وكما هو معتاد فإن فساد الأفضل هو أسوأ الأمور. يكمن الفارق بين الرواقي[١] الذي أمات الجسد لكنه لا يزال فخورًا بصنيعه ومتمركزًا حول ذاته وبين معتنق مذهب اللذة[٢] الذي لم يمارس إماتة الجسد في: أن الأخير ولأنه متخاذل، ضعيف الهمة، يخجل من نفسه في دخيلته ويفتقر إلى الطاقة والدافعية، لا يؤذي أحدًا أو شيئًا بخلاف جسده هو وعقله هو وروحه هو؛ بينما الأول ولأنه يحظى بكل الفضائل الثانوية ويحتقر مَن لا يشابهونه، معزز أخلاقيًا كي يرغب في إلحاق الأذى على أوسع نطاق وبضمير مستريح تمامًا وهو قادر على ذلك بالفعل. هذه حقائق جلية، وإلى الآن لا تزال كلمة «لا أخلاقي» محجوزة في الاصطلاح الديني الحالي حصريًا تقريبًا من أجل المنغمسين في الملذات الجسدية. لا يكاد يوجه اللوم إلى أولئك الطماعين والطموحين، والأجلاف المحترمين، وأولئك الذي يخفون شهوتهم نحو السلطة والمكانة تحت عباءة ادعاء المثالية في رياء، بل يُعلى من قدرهم باعتبارهم نماذج للفضيلة والتقوى. يبدأ ممثلو الكنائس

---

(١) الرواقيون: فلسفة هلنستية، تذهب إلى أن الإنسان الحكيم لا يعاني عواطف فهي خطأ في الحكم وتدعو إلى الكونية، فكل الناس هي مظاهر لروح عالمية.

(٢) مذهب اللذة: أسسه أبيقور، وهو يذهب إلى أن اللذة هي الشيء الخير الوحيد والذي تقيم به الأشياء في الوجود.

النظامية بوضع هالات القداسة على رؤوس أولئك الأكثر تأجيجًا للحروب والثورات، ثم يمضون في جزع متسائلين عن السبب وراء أن العالم تجتاحه مثل هذه الفوضى.

ليست إماتة الجسد أمرًا يتعلق في الأساس بالتقشف المادي الشديد، كما يقع في تصور كثير من الناس. من المحتمل أن تبرهن ممارسة التقشف المادي عن كونه نافعًا فيما يتعلق بالتقدم نحو غاية الإنسان النهائية، وذلك بالنسبة لبعض الأشخاص في ظروف خاصة. مع ذلك، يبدو في أغلب الحالات أن ما يُكتسب عن طريق التقشف ليس التحرر لكنه شيء مختلف تمامًا - ما يُكتسب هو الحصول على قوى «نفسانية». يبدو أن إمكانات على شاكلة القدرة على أن يكون التوسل في الصلاة مستجابًا، والقدرة على الإشفاء والقيام بمعجزات أخرى، وملكة النظر إلى المستقبل أو في عقول بشر آخرين مرتبطة غالبًا بطريقة ما سببيًّا بالصوم والمراقبة وإلحاق الألم بالذات. اعترف أغلب القديسين العظماء المتمركزين حول الرب والمعلمين الروحانيين بوجود قوى فوق طبيعية موجودة فقط -رغم ذلك- من أجل التأسف عليها. الظن في أن لمثل هذه السيدهيس[1] **Siddhis** -كما يسميها الهنود- أي علاقة بالتحرر هو توهم خطير، بحسب ما يقولون. هذه الأشياء هي غير ذات صلة بموضوع الحياة الأساسي، بل هي عائق في سبيل التقدم الروحي إذا ما صارت مُثمَّنة ومشهودة. وليست هذه الاعتراضات الوحيدة على التقشف المادي. فقد يكون التقشف خطيرًا

(١) السيدهيس: قوى مادية فوق طبيعية، خارقة للعادة، أو قدرات سحرية.

على الصحة إذا ما جاوز الحدود -ومن دون الصحة والمثابرة المستمرة على بذل الجهد اللازم للحياة الروحية من الصعب تحقيق أي تقدم بخصوصها. ولأن التقشف المادي صعب ومؤلم وبارز فهو يغري دائمًا بالخيلاء وروح التنافس من أجل كسر الأرقام القياسية. «عندما تدفع نفسك نحو إماتة الجسد، تكنْ عظيمًا ومقدرًا». لذلك كتب سوسو عن خبراته الخاصة، وهي خبرات قادته -كما كانت قد قادت جوتاما بوذا منذ قرون عديدة مضت- إلى التخلي عن مساره فيما يتعلق بالكفارات الجسدية. كما أشارت القديسة تيريزا إلى كم هو من الأسهل فرض كفارات جسدية على المرء مقارنة بمعاناة الصبر والإحسان والخضوع في الممارسات اليومية للحياة العائلية المعتادة (وهو ما لم يمنعها عرضًا من ممارسة أشد أشكال تعذيب النفس إيلامًا حتى يوم وفاتها. وسواء ساعدتها هذه الكفارات بالفعل كي تصل إلى معرفة اتحادية بالرب أو ثمنتها وواصلت فيها بسبب القوى النفسانية التي ساعدت في تطويرها، فما من وسيلة لتحديد ذلك).

«استنكر عزيزنا القديس (فرنسيس دي ساليس) الصيام غير المعتدل. اعتاد أن يقول إن الروح لا تستطيع تحمل الجسد عندما يفرط في الطعام، لكن إذا ما لم يحصل الجسد على كفايته من الطعام فلن يتحمل الروح».

جان بيير كامو.

«في اللحظة التي تشعر فيها الإرادة بأي فرحة في الأشياء الحسية وتعلو مرتفعة في الفرحة نحو الرب، وعندما تحركها الأشياء الحسية كي تتضرع وتصلي، لا يجب أن تهمل تلك الأشياء، بل عليها أن

تستفيد منها، من أجل ممارسة مقدسة للغاية؛ لأن الأشياء الحسية في هذه الأحوال تخدم الغاية التي خلقها الرب من أجلها، تحديدًا أن تجعل الرب معروفًا ومحبوبًا بصورة أفضل».

القديس يوحنا الصليب.

«ذلك الذي لا يعي حرية الروح فيما بين أشياء الحس والعذوبة -الأشياء التي ينبغي أن تعمل باعتبارها دوافعَ إلى التضرع والصلاة والتي تستقر عليها إرادته وتتغذى عليها- قد يمتنع عن استعمالها؛ إذ إنها بالنسبة له عوائق في الطريق إلى الرب».

القديس يوحنا الصليب.

«قد يعلن المرء أنه لا يستطيع الصيام؛ لكن هل في مقدوره الإعلان عن أنه لا يستطيع أن يحب الرب؟ قد يشدد آخر على أنه لا يستطيع الحفاظ على عذريته أو بيع كل بضاعته من أجل منح الثمن للفقراء؛ لكن هل في مقدوره إخباري أنه لا يستطيع أن يحب أعداءه؟ كل ما يلزم مجرد نظرة في داخل قلب المرء؛ إذ إن ما أمرنا الرب به لا يوجد على مسافة بعيدة».

القديس جيروم[١].

«أي شخص يرغب في القيام بذلك، يمكنه إحراز كل ما يريد، وفي الحقيقة أكثر مما يريد، يمكنه تحقيق إماتة الجسد التي يبغي، وذلك في إطار اللحظات اليومية المعتادة، دون اللجوء أبدًا إلى الكفارات الجسدية الخشنة. ها هنا القاعدة التي وضعها مؤلف الحكمة المقدسة

(١) القديس جيروم (٣٤٧ - ٤٢٠): اشتهر بترجمة الكتاب المقدس من العبرية إلى اللاتينية.

من أجل السيدة جيرترود مور.

أولًا- ينبغي عليها القيام بكل ما أسنده إليها أي قانون، بشري أو إلهي. ثانيًا- ينبغي عليها الامتناع عن القيام بتلك الأشياء التي حرّمها عليها القانون البشري أو الإلهي أو الوحي الإلهي. ثالثًا- ينبغي عليها تحمل كل ما يتقاطع مع إرادتها الطبيعية ويعارضها مما تتنزل به يد الرب بأكبر قدر من الصبر أو التسليم الممكن. على سبيل المثال مثل القحط والفتن والابتلاءات والألم الجسدي والمرض والوهن؛ أو فقدان الأصدقاء أو الرغبة في الضروريات وسبل الراحة. يجب تحمل كل هذا في صبر، سواء كانت تلك الأمور المتقاطعة قادمة مباشرة من الرب أو عن طريق مخلوقاته... هذه بالفعل وسائل إماتة للجسد كافية من أجل السيدة جيرترود مور أو من أجل أي نفس أخرى، ولا حاجة أن ينصح أحدهم بأمور أخرى أو يفرضها».

أوغسطين بيكر[1].

الخلاصة أن إماتة الجسد هي أفضل ما يؤدي إلى محو إرادة الذات والعناية بالذات والتفكير والرغبات والتصورات المتمركزة حول الذات. من المستبعد أن يحقق التقشف المادي الشديد هذا النوع من إماتة الجسد. لكن ذلك القبول لما يحدث لنا في مسار حياتنا اليومي من المحتمل أن يؤدي إلى هذه النتيجة (باستثناء ما ينتج بالطبع عن خطايانا). إذا ما اضطلع المرء بممارسات معينة فيما يتعلق بإنكار الذات، فينبغي أن تكون تلك الممارسات غير بارزة وغير تنافسية وغير مؤذية للصحة.

(١) أوغسطين بيكر (١٥٧٥ - ١٦٤١): راهب إنجليزي ولاهوتي صوفي.

على ذلك، فبالنسبة إلى النظام الغذائي سوف يجد أغلب الناس أن في الامتناع عن أكل كل الأشياء التي يرفضها خبراء التغذية لأنها غير صحية إماتة كافية للجسد. وحيثما نكون معنيين بالعلاقات الاجتماعية، يجب ألا يتخذ إنكار الذات شكل الأفعال الاستعراضية لتواضع مدَّعى، لكن يجب أن يكون في صورة سيطرة على اللسان والمزاج، من حيث الامتناع عن قول أي شيء بعيد عن الإحسان أو حتى طائش فقط (وهو ما يعني عند الممارسة الامتناع عن خمسين في المائة من المحادثات المعتادة)، كما يجب أن يكون في صورة تصرف بهدوء وبمرح تام وذلك عندما تكون الظروف الخارجية أو حالتنا الجسدية تجعلنا عرضة للقلق أو الكآبة أو البهجة المفرطة.

«عندما يمارس إنسان الإحسان بغية أن يولد من جديد في السماء أو من أجل الشهرة أو المكافأة أو بسبب الخوف، فمن المستحيل أن يتحصل مثل هذا الإحسان على أي أثر نقي».

سوترا في تمييز وحماية الدارما.

«عندما كان الأمير ون وانغ في جولة استطلاع في تسانغ، رأى شيخًا يصطاد. لكن صيده لم يكن صيدًا فعليًا، إذ إنه لم يكن يصطاد من أجل الإمساك بالسمك، لكن من أجل إمتاع نفسه. لذا رغب ون وانغ في توظيفه في إدارة الحكومة، لكنه خشي من اعتراض وزرائه وأعمامه وإخوانه المحتمل. لكن على الجانب الآخر، إذا ما ترك الشيخ يمضي، لن يستطيع تحمل التفكير في حرمان الناس من مثل هذا التأثير».

جوانغ زي.

«إلهي إذا كنت أعبدك خوفًا من النار فاحرقني بها، أو طمعًا في الجنة فاحرمني منها، وإذا كنت لا أعبدك إلا من أجلك فلا تحرمني من مشاهدة وجهك».

رابعة[1].

تتحدث رابعة، القديسة الصوفية وتفكر وتشعر وفق مبادئ التفاني في الواحد؛ ويفعل لاهوتيو البوذية وفق مبادئ القانون الأخلاقي الشخصي؛ ويفعل فلاسفة الصين في كياسة مميزة وفق مبادئ السياسة؛ لكن الثلاثة يلحون على الحاجة إلى عدم التعلق بهوى النفس - يلحون على ذلك بشدة كما ألح المسيح عندما استنكر تنسك الفريسيين المتمركز حول الأنا، وكما فعل كريشنا البهاجافاد جيتا عندما أخبر أرجونا أن يقوم بواجبه الذي أمرت به السماء دون توق إلى ثمار أفعاله ودون خشيتها.

سُئل القديس إغناطيوس دي لويولا[2] ذات مرة عما ستكون عليه مشاعره إذا ما كان البابا قد انتوى قمع جماعة اليسوعيين[3]. أجاب: «ربع ساعة من الصلاة، ولن أفكر في هذا الأمر أكثر من ذلك».

فيما يبدو أن هذا هو ربما أصعب أنواع إماتة الجسد - تحقيق «اللامبالاة المقدسة» نحو النجاح أو الفشل الزمني فيما يتعلق بالسبب الذي وجه إليه المرء أفضل جهوده المخلصة. إذا ما كان نصرًا، فهو أمر جيد وحسن؛ وإذا ما صادفت الجهود الهزيمة فهو أمر جيد وحسن

---

(١) رابعة العدوية (٧١٣ - ٨٠١): أشهر المتصوفات في الإسلام.

(٢) إغناطيوس دي لويولا (١٤٩١ - ١٥٥٦): فارس إسباني ولاهوتي ومتنسك.

(٣) جماعة تأسست على يد القديس إغناطيوس دي لويولا في القرن السادس عشر في إسبانيا في عهد البابا بولس الثالث؛ كي تكون حركة إصلاحية مضادة.

كذلك، ولو حدث ذلك وفق طرق غير مفهومة تمامًا هنا والآن، بالنسبة إلى عقل محدود ومحصور في الزمن.

«عندما أقول «إنسان بلا رغبات» فإنني أقصد إنسانًا لا يسمح للخير أو الشر أن يشوش على اقتصاده الداخلي، لكنه عوضًا عن ذلك يقبل بما يحدث ولا يضيف شيئًا إلى محصلة أخلاقياته».

جوانغ زي.

«النزعة اللائقة للاتحاد مع الرب ليست في فهم النفس أو شعورها أو تذوقها أو تصورها لأي شيء في أمر طبيعة الرب، أو في أي أمر آخر مهما كان، لكن في أن تبقى في تلك الطهارة وذلك الحب والذي هو تسليم تام وانفصال كامل عن كل الأشياء من أجل الرب وحده».

القديس يوحنا الصليب.

«القلق هو أمر باطل دائمًا، لأنه لا يقدم أي خير. نعم حتى لو أُلقي بكل العالم وكل شيء فيه في آتون الاضطراب، فإن القلق حيال هذا الأمر سوف يكون باطلًا».

القديس يوحنا الصليب.

لا تكفي شرور اليوم فقط، لكن تكفي شرور المكان كذلك[١]. التوتر الشديد حيال مجريات الأمور التي لا طاقة لنا على تغييرها -سواء كان ذلك بسبب أنها لم تحدث بعد، أو لأنها تحدث على مسافة بعيدة عن متناولنا- لا تؤدي إلى تحقيق ما هو أبعد من دس الشر المتوقع أو

(١) في إشارة إلى إنجيل متى ٦ : ٣٤، إذ إنه لا يجب القلق بشأن المستقبل، فكل يوم يحمل شروره وأعباءَهُ.

البعيد الذي هو محور قلقنا في اللحظة الآنية والمكان الحالي. يوصف ما يحدث هذه الأيام من استماع إلى مذيعي نشرات الأخبار والمعلقين عليها أربع أو خمس مرات في اليوم، وقراءة الصحف الصباحية وكل تلك الصحف الأسبوعية والشهرية باعتباره «انصرافًا نابهًا نحو أمور السياسة». كان القديس يوحنا الصليب ليطلق عليه انغماس في فضول فارغ وزراعة للقلق من أجل القلق.

«أريد القليل للغاية. والذي أريده أرغب فيه أقل القليل. ليست لدي بالكاد أي رغبات، لكن إذا كان لي أن أولد من جديد، كان ينبغي عليَّ ألا يكون لديَّ أي رغبات على الإطلاق. علينا ألا نطلب أي شيء وألا نرفض أي شيء، لكن أن نترك أنفسنا بين يدي التدبير الإلهي، دون تضييع الوقت في أي رغبة، باستثناء أن نريد ما يريده الرب لنا».

القديس فرنسيس دي ساليس.

ادفع بعيدًا كفاية صوب الخواء،

استمسك بحزم كافٍ بالسكينة،

ومن بين العشرة آلاف شيء، لا شيء إلا ويمكن أن تعمل عليه.

لقد تأملتها، إلى أي مكان عادت.

انظر، تعود كل الأشياء مهما ازدهرت

إلى الجذور التي نمت منها.

تُدعى هذه العودة إلى الجذور بالسكينة،

تُدعى السكينة بالخضوع إلى القدر؛

ما خضع للقدر يصبح جزءًا مما هو كذلك دائمًا؛
أن تعرف ذلك الذي هو كذلك دائمًا هو أن تكون مستنيرًا؛
ويعني ألا تعرف أن تمضي في عماء نحو الكارثة».

لاو تسو.

«أرجو لو كنت قادرًا على الانضمام إلى «المنعزلين» (في جزيرة كالدي[1]) بدلًا من أن أكون في مقام أرقى وعليَّ أن أكتب الكتب. لكنني لا أرغب في الحصول على ما أرغب فيه بالتأكيد».

أبوت جون تشابمان.

«لا يجب أن نرجو أي شيء بخلاف ما يحدث بين الفينة والأخرى، طوال الوقت، مهما حملنا على أنفسنا التزامًا بالصلاح».

القديسة كاترين من جنوة.

التقدم في ممارسة إماتة الجسد -مثله كمثل التقدم في أغلب المجالات الأخرى- هو تقدم على حد سكين. على جانب تتربص سيلا[2] التقشف المتمركز حول الأنا، وعلى الجانب الآخر خاريبدس السكينة غير المهتمة. اللا مبالاة المقدسة التي زرعها شارحو الفلسفة الخالدة ليست بالرواقية ولا بالسلبية المجردة. هي بالأحرى تسليم فاعل. هناك تخلٍّ عن الإرادة الذاتية، وهو ما لا يعني أن هناك تعطيلًا

---

(١) جزيرة كالدي: جزيرة صغيرة بالقرب من سواحل ويلز.

(٢) سيلا وخاريبدس: وحشان من وحوش الأساطير اليونانية ويعيش كل منهما على صخرة على جانبي مضيق ضيق، ويُستخدمان دائمًا ضمن تعبير يدل على الاختيار بين أمرين أحلاهما مر.

تامًّا للإرادة، لكن أن الإرادة الإلهية قد تستخدم العقل والجسد اللذين مارسا الإماتة باعتبارهما أداتيها من أجل صنع الخير. أو قد نقول بصحبة كابير إن «الساعي إلى التقى، هو ذلك الذي يمزج في قلبه تياري الحب والانفصال مثلما يمتزج تياري نهري الغانج والجمنا». لا يمكن أن يوجد حب للرب بكل القلب والعقل والقوة ولا أن يوجد إحسان كوني نحو كل المخلوقات من أجل الرب إلى أن توضع نهاية للارتباطات الخاصة. ومن هنا كانت الأقوال القاسية في الأناجيل حول الحاجة إلى التخلي عن الروابط الأسرية الحصرية. وإذا لم يكن لابن الإنسان مكانٌ كي يسند رأسه، وإذا كانت أفكار التاتاجاتا والبوداسَف «قد انتبهت إلى طبيعة الحقيقة دون إقامة في أي شيء أيًّا كان» فإن ذلك بسبب أن الحب الإلهي -الذي مثله كمثل الشمس يشع بالتساوي على العادل والظالم- يستحيل أن يدركه عقل حبيس مواطن التفضيل والنفور الخاصة به.

«مهما كان الخير الذي قد يوجد في النفس المتعلقة بأي شيء، فلن تصل إلى حرية الاتحاد الإلهي. لا يهم ما إذا كان الطائر ممسوكًا بحبل قوي من السلك أو بخيط نحيل ضامر، إذا كان ممسوكًا بشدة بالفعل؛ إذ إنه ما لم ينقطع الرباط، فالطائر لا يقدر على الطيران. هكذا هي النفس، ممسوكة بروابط العواطف البشرية، لا تستطيع أن تنطلق في سبيلها إلى الرب ما دامت الروابط باقية، حتى لو كانت بسيطة».

القديس يوحنا الصليب.

«لا يزال البعض ممن أحرزوا الخلاص من خطاياهم وما شابه في وقت حديث، مبتدئين وبلا خبرة وخرعين وضعفاء، وذلك على الرغم من عزمهم على محبة الرب... يحبون عددًا من الأشياء الخطيرة وغير

الضرورية والتي لا جدوى منها، كما يحبون الرب وفي الوقت نفسه. على الرغم من حبهم للرب فوق كل الأشياء، ما زالوا مستمرين في الاستمتاع بأشياء عديدة، لا يحبونها في اتساق مع محبتهم للرب، لكن إلى جانب محبتهم له - أشياء على شاكلة الإفراط الطفيف في القول والإيماء والملبس واللهو والعبث».

القديس فرنسيس دي ساليس.

«هناك أرواح قد أحرزت تقدمًا ما في الحب الإلهي وقد توقفت عن كل الحب الذي كان لديها نحو الأشياء الخطيرة؛ مع ذلك ما زال لديهم حب غير ضروري وخطير؛ لأنهم يحبون ما يريدهم الرب أن يحبوه لكن بصورة زائدة وانفعالية للغاية وبحماس شديد... حب علاقاتنا وأصدقائنا والمحسنين هو في حد ذاته حب في اتساق مع الرب، لكننا قد نحبهم بشكل زائد؛ وكذلك قد نحب النداءات الباطنية -مهما كانت روحانية- والممارسات المكرسة (التي علينا أن نحبها مع ذلك كثيرًا للغاية) في إفراط، عندما نجعلها فوق الطاعة والخير الأعم أو نعنى بها باعتبارها غاية، في الوقت الذي هي فيه وسيلة».

القديس فرنسيس دي ساليس.

«يمكن لقلب خالٍ ومنعزل فقط أن يحتوي بضاعة الرب التي هي فوق كل مقياس».

القديس يوحنا الصليب.

«افترض أن قاربًا يعبر نهرًا وأن قاربًا آخر -خالٍ- يوشك أن يصطدم به. لن يستشيط غضبًا حتى الإنسان سريع الانفعال. لكن افترض أنه قد كان هناك شخص ما في القارب الثاني. فمن ثم سوف يصرخ شاغل القارب الأول فيه أن يبتعد. وإذا لم يسمعه في المرة الأولى ولم يسمعه حتى بعد أن نادى عليه ثلاثًا، فسوف يتبع ذلك بشتائم بذيئة، لا محالة. في الحالة الأولى، لم يكن هناك أي غضب، في الحالة الثانية كان هناك غضب - لأنه في الحالة الأولى كان القارب شاغرًا، وفي الحالة الثانية كان مشغولًا. وهو الأمر نفسه مع الإنسان. لو في مقدوره فقط أن يمر عبر الحياة شاغرًا، فمن ذا الذي يستطيع أن يؤذيه؟».

جوانغ زي.

«عندما يبكي القلب على ما فقده، تضحك الروح على ما وجدته».

قول مأثور لصوفي غير معروف.

نحافظ على الحياة الكامنة وغير المكتشفة إلى الآن، عن طريق تخلينا عن الحياة المتمركزة حول الأنا، تلك الحياة الكامنة التي نتشاركها مع الأصل الإلهي، في الجانب الروحي من وجودنا. هذه الحياة التي عثرنا عليها حديثا «أكثر وفرة» من الأخرى وهي من نوع مختلف أرقى. حيازتها تحرر في الأزل والتحرر نعمة. الأمر على هذه الصورة لا محالة، إذ إن البراهمان -الذي هو واحد مع الأتمان- ليس وجودًا ومعرفة فقط، لكنه كذلك نعمة، والثمرة النهائية للروح هي السرور، بعد الحب والسلام. إماتة الجسد مؤلمة، لكنها الشرط المسبق للنعمة. تشوش اللغة التي تصف هذه الخبرة الروحية عليها أحيانًا. لذلك، عندما

يقول المسيح إن مملكة السماء لا يمكن أن يدخلها إلا أولئك الذين هم مثل الأطفال الصغار، (ولأن الصورة التي تستثيرها العبارة مؤثرة جدا) نميل إلى نسيان أن الإنسان لا يمكن أن يصبح مثل الطفل إلا إذا اختار الاضطلاع بمسار إنكار الذات الأكثر مشقة ومدعاة للبحث. عند الممارسة نجد أن الحث على أن نصبح مثل أطفال صغار مماثل للحث على التخلي عن حياة المرء. وكما أوضح تراهيرن في فصل «الرب في العالم» أن المرء لا يمكن أن يعرف الطبيعة المخلوقة في كل مناحي جمالها المقدس بالضرورة، إلا إذا طرح المرء عنه أولًا الوسائل الدنيئة للبشر الناضجين. يبدو الكون مثل كومة استثنائية من الروث عند النظر إليه من خلال نظارة المصالح الشخصية التي هي بلون الروث؛ ولأنه مع طول ارتداء النظارة تنزرع في كريتي العينين، تكون عملية «تنظيف بوابات الإدراك» في المراحل الأولى من الحياة الروحية عملية مؤلمة مثل العمليات الجراحية في الغالب وعلى أي حال. فيما بعد، قد تصبح عملية إفناء الذات مخضبة بسعادة الروح. سوف نجد المقطع اللاحق من كتاب القرن الرابع عشر «دَرَج الكمال»[١] عند هذه النقطة تنويريًّا.

«يحوز الكثير من الناس فضائل التواضع والصبر والإحسان نحو إخوانهم، ضمن حدود المنطق والإرادة، دون بهجة أو حب حيالها؛ يشعرون في أغلب الأحيان بالضغينة والثقل والمرارة عند القيام بتلك الفضائل، لكنهم مع ذلك يفعلونها، إنها حماسة العقل خشية من الرب. يحوز هذا الشخص على هذه الفضائل ضمن حدود المنطق والإرادة،

---

(١) دَرَج الكمال: أحد أهم كتب الصوفية المكتوبة بالإنجليزية ومن أوائلها، وهو من تأليف والتر هيلتون (١٣٤٠ - ١٣٩٦)، وهو كاتب ومؤلف صوفي إنجليزي.

لكنه لا يحوز حبها في الوجدان. لكن عندما يتحول المنطق إلى ضوء والإرادة إلى حب عن طريق نعمة يسوع والتدريبات الروحية والجسدية، يحظى عندها بالفضائل في الوجدان؛ إذ إنه قضم بذلك قشرة الجوز المرة أو اللحاء المر، وقد خرقها بعد مدة ويتغذى الآن على اللباب؛ بمعنى أن الفضائل التي كانت في البداية ثقيلة عند الممارسة، تحولت الآن إلى شيء مبهج جدًّا وطيب المذاق».

والتر هيلتون.

«طالما أكون هذا أو ذاك، أو أحظى بهذا أو ذاك، فأنا لست كل الأشياء ولا أحظى بكل الأشياء. كن نقيًّا حتى لا تكون هذا أو ذاك أو تحظى بهذا أو ذاك، ومن ثم تصبح كلي الوجود، ولست هذا أو ذاك، أنت كل الأشياء».

إكهرت.

دائمًا ما يشير فلاسفة أخلاق الحياة الروحية وعلماء نفسها إلى الأمر الذي شدد عليه إكهرت بصورة درامية في هذه السطور. عندما نتخلى فقط عن انشغالنا المسبق «بأنا» و«لي» و«ملكي»، يمكننا حقيقة امتلاك العالم الذي نعيش فيه. كل شيء هو لنا، بشرط ألا نعتبر أي شيء ملكية لنا. وليس كل شيء لنا فقط؛ بل كذلك ملك كل شخص آخر.

يختلف الحب الحقيقي في هذا عن الخبث والصلصال،

في أن التقسيم ليس طرحًا[1].

---

(١) الاقتباس في الأصل من الشاعر الإنجليزي بيرسي بيش شيللي (١٧٩٢ - ١٨٢٢): لكن استبدلت بكلمة «الذهب» كلمة «الخبث».

من المستحيل أن توجد شيوعية كاملة إلا فيما يتعلق ببضاعة الروح، وإلى حد ما فيما يتعلق ببضاعة العقل، وذلك عندما يمتلك هذه البضاعة رجال ونساء في حالة من عدم التعلق وإنكار الذات. يجب ملاحظة أن درجة ما من إماتة الجسد هي شرط أساسي لا غنى عنه من أجل إبداع البضاعة الجمالية والفكرية والاستمتاع بها. يختار أولئك الذين يختارون مهنة الفنان أو الفيلسوف أو رجل العلم في كثير من الحالات حياة الفقر والعمل الجاد بلا مقابل. لكن هذه ليست بأي حال إماتة الجسد الوحيدة التي عليهم أن يضطلعوا بها. عندما ينظر الفنان إلى العالم، عليه أن ينكر ميله الإنساني الطبيعي إلى التفكير في الأشياء في ضوء مفاهيم نفعية، تدور حول اهتمامات الذات ومصالحها. بالمثل على فيلسوف الفلسفة النقدية أن يميت حسه البديهي، بينما على العامل في مجال البحث أن يقاوم بثبات إغراءات التبسيط الزائد والتفكير المألوف، وأن يجعل نفسه منصاعًا لمقدمات الحقيقة الغامضة. وما هو صحيح بالنسبة إلى مبدأ البضاعة الجمالية والفكرية، صحيح كذلك بالنسبة إلى مَن يستمتع بمثل هذه البضاعة عند إبداعها. هذه الإماتات للجسد ليست تافهة بأي حال، وقد قام بها الكثيرون على طول التاريخ مرارًا وتكرارًا. على سبيل المثال قد نُعنى بأمر سقراط الذي مارس الإماتة الفكرية والشوكران الذي كافأه به أبناء بلده الذين لم يمارسوا الإماتة. قد نعنى بالجهود البطولية التي كان على جاليليو ورفاقه بذلها من أجل الانفصال عن التقليد الأرسطي في التفكير، والجهود -التي لا تقل عنها أبدًا- التي على أي عالم -يؤمن أن هناك في الكون ما يزيد عما يمكن اكتشافه عن طريق توظيف صيغ ديكارت طويلة الأمد- بذلها اليوم. لمثل هذه الإماتات للجسد عوائدها

في صورة حالة من الوعي، تقابل حالة النعيم الروحي، وإن كانت على مستوى أقل. يعرف الفنان -الفلاسفة ورجال العلم هم فنانون كذلك- نعمة التأمل الجمالي والاكتشاف والامتلاك غير المتعلق بشيء.

بضاعة الفكر والمشاعر والخيال هي بضاعة حقيقية؛ لكنها ليست البضاعة النهائية، وعندما نعاملها باعتبارها غايات في حد ذاتها، نقع في الوثنية. إماتة الإرادة والرغبة والفعل ليست كافية؛ يجب أن تكون هناك كذلك إماتة في مجالات المعرفة والتفكير والشعور والتخيل.

«يؤدي السقوط إلى أن تصبح قدرات الإنسان الفكرية في حال أسوأ كثيرًا من الشهوات الحيوانية وتحتاج إلى إنكار أكبر كثيرًا للذات. وعند إطلاق العنان لإرادة الشخص وفهمه وخياله وإشباعها وجعلها تبدو غنية وجديرة عن طريق الكنوز المكتسبة من دراسة الآداب الجميلة، فإنها تساعد الإنسان الساقط الفقير كي يصبح مشابها في عقله ومزاجه للمسيح، كما تساعد دراسة فن الطهو جيدًا وعلى نحو وافٍ بروفيسور في الإنجيل في الوصول إلى الروح وممارسة العفة المسيحية».

ويليام لو.

ولأنها كانت كلمة ألمانية وتنطق بحرف **K**، كانت **Kulture** (ثقافة باللغة الألمانية) موضوعًا للازدراء الساخر، خلال الحرب العالمية الأولى. ولقد تغير كل ذلك الآن. لقد أصبح الأدب والفن والعلم في روسيا الأقانيم الثلاثة للثالوث الإنساني الجديد. ولا يقتصر مذهب الثقافة على الاتحاد السوفيتي فقط. إذ تمارسه غالبية المفكرين في الديموقراطيات الرأسمالية. أما الصحفيون المهرة العمليون الواقعيون

الذين يكتبون عن كل شيء بالتهكم المشوب بالازدراء الذي للعارفين بكل شيء عن الرب والإنسان والكون والذين أدركوا الحقيقة العبثية لكل شيء، فيتحمسون بشكل مبالغ فيه عندما يكون الحديث عن الثقافة. يدعوننا كي نشاركهم عواطفهم الإيمانية الإيجابية في حضرة الفن الراقي كما تقدمه الجداريات الأحدث والمراكز المدنية وذلك في جدية وحماس سخيفين بدرجة لا توصف في تلك المناسبات؛ يلحون على أنه طالما كانت السيدة س تواصل في كتابة رواياتها التي لا تضاهى والسيد ص يواصل في كتابة نقده الأكثر من كولريدجي[1] فإن للعالم معنى، على الرغم من كل المظاهر التي تشير إلى العكس. لقد غزا المدارس والجامعات التقدير الزائد عن الحد نفسه للثقافة والاعتقاد نفسه في أن الفن والأدب هما غايتان في حد ذاتهما وبإمكانهما الازدهار في معزل عن فلسفة معقولة وواقعية للحياة. أصبح هناك العديدون من بين خبراء التربية «التقدميون» الذين يبدون كأنهم يظنون أن كل شيء سوف يكون جيدًا طالما كان مسموحًا للمراهقين «التعبير عن أنفسهم» وطالما كان الأطفال الصغار يُشجَّعون من أجل أن «يبدعوا» في حصص الفنون. لكن التذمر والصلصال والتعبير عن الذات لن يحل مشاكل التعليم وكذلك لن تحلها التكنولوجيا والتوجيه المهني؛ ولن تحلها أيضًا الكلاسيكيات ومئات الكتب الأفضل. وُجِّهت الانتقادات التالية للتعليم منذ أكثر من قرنين ونصف، لكنها لا تزال وثيقة الصلة اليوم كما كانت في القرن السابع عشر.

---

(١) كولريدجي: نسبة إلى صمويل تايلر كولريدج (١٧٧٢ - ١٨٣٤): وهو شاعر إنجليزي رومانتيكي وأحد مؤسسي هذا الاتجاه.

«لا يعرف شيئًا -مما يجب عليه معرفته- مَن يظن أنه يعرف أي شيء دون رؤية موضع ذلك الشيء الذي يدل منه على الرب والملائكة والبشر وعلى كل المخلوقات في الأرض والفردوس والجحيم والزمن والأبدية، والكيفية التي يدل بها عليها».

توماس تراهيرن.

«مع ذلك كانت هناك أشياء معيبة أيضًا (في أكسفورد ضمن الكومنولث). لم يوجد محاضر يعلم السعادة بمهنية أبدًا، على الرغم من أنها سيدة كل العلوم الأخرى. ولم يدرس أي منا هذه الأشياء إلا باعتبارها أشياء غريبة، كان علينا أن ندرسها باعتبارها متعنا الشخصية. درسنا من أجل أن نزيد من معارفنا، لكننا لم نعرف الغاية من وراء دراستنا. وبسبب الافتقاد إلى استهداف غاية معينة، أخطأنا في الأسلوب».

توماس تراهيرن.

تعني «السعادة» في مفردات تراهيرن «الطوباوية» والتي تماثل التحرر عند الممارسة، والتي هي بدورها المعرفة الاتحادية بالرب في الأعالي بالداخل وفي الكمال بالخارج والداخل أيضًا.

أما التالي فهو شرح للإماتات الفكرية التي يجب أن يمارسها أولئك الذين ينصب اهتمامهم الأولي على المعرفة بالربوبية في أعالي النفس الداخلية.

«سعيد هو الرجل الذي عن طريق إفناء كل الصور ومن خلال الانكفاء على الذات والسمو بعقله إلى الرب، ينسى في النهاية ويترك من خلفه مثل هذه المعوقات كلها. لأنه عن طريق مثل هذه الوسائل فقط

يعمل داخليًّا بوجدانه وفكره المجرد النقي البسيط على الموضوع الأنقى والأبسط، الرب. وبذلك ترى أن مباشرتك الكاملة للرب في داخلك ربما تعتمد بالكامل على فكرك ووجدانك وإرادتك المجردة فقط. وفي الحقيقة لا يمكن إطلاق هذه المباشرة عن طريق أي من أعضاء الجسد أو عن طريق الحواس الخارجية، لكن عن طريق ما يشكل جوهر الإنسان – الفهم والحب. لذلك إذا ما رغبت «أنت» في سلم آمن وممر قصير من أجل الوصول إلى غاية النعمة الحقيقية، فسوف يكون ذلك عن طريق عقل عاقد العزم ورغبة جادة وتوق، وبعد تطهير متواصل للقلب ونقاء للعقل. أضف إلى هذا سكينة دائمة وسكونًا للحواس واسترجاعًا لعواطف القلب، والتهذيب المتواصل لها مرارًا وتكرارًا. اعمل من أجل تبسيط القلب، إذ إنه عندما يصير غير متحرك وفي سلام من أي غزو لتوهمات، لا جدوى منها، قد تتشبث «أنت» بقوة بالرب في داخلك، إلى تلك الدرجة التي تكون معها النفس كأنما دخلت بالفعل لحظة الحاضر الدائمة للأزل – وذلك هو حال الألوهة. السمو إلى الرب هو دخول في النفس. إذ إن ذلك الذي يسمو ويدخل ويمضي أعلى وأبعد من نفسه، يسمو بالفعل إلى الرب. عندئذ يجب على العقل أن يعلو بنفسه فوق نفسه ويقول: «هو ذلك الذي هو فوق كل ما أحتاجه، هو فوق كل ما أعرفه». وتتعلم النفس من خلال حملها على الوجود في ظلام العقل، وتجهيز نفسها من أجل الصلاح الكامل البقاء في المحل بصحبة كل العواطف التي تكشف عنها وبذلك تصبح راسخة في ألفة في الصلاح الأسمى بالداخل. لذلك، واصل حتى تصبح «أنت» لا تُضاهى وتصل إلى تلك الحياة الحقيقية التي هي الرب نفسه، من دون تقلبات المكان

أو الزمن، في ثبات دائم، مستريحًا في بيت الألوهة السري والهادئ بالداخل».

ألبيرتوس ماجنوس[1].

«يحب بعض الناس المعرفة والفطنة باعتبارهما الأفضل والأكثر تميزا من بين كل الأشياء. تصبح المعرفة والفطنة عندئذ محبوبة أكثر مما يُفطن إليه؛ ومن ثم يحب ضوء النهار الزائف معرفته وقواه -التي هي نفسه- أكثر مما يُعرف. وإذا كان من المحتمل لضوء النهار الزائف هذا أن يفهم الحقيقة البسيطة -كما هي في الرب وفي الحقيقة- فإنه لم يفقد بعد ملكيته الخاصة، وبالتالي لا يمكن أن يغادر نفسه والأشياء التي تخصه».

اللاهوت الجرماني.

العلاقة بين الفعل الأخلاقي والمعرفة الروحية علاقة دائرية وتبادلية. يجعل السلوك الإيثاري من الوصول إلى المعرفة أمرًا ممكنًا، ويجعل الوصول إلى المعرفة من ممارسة أفعال أكثر إيثارًا وصدقًا أمرًا ممكنًا، وهي الأفعال التي تعزز بدورها قدرة الفاعل على المعرفة. وهكذا دواليك، لو سار كل شيء بشكل جيد وكان هناك انصياع تام وطاعة، بلا حدود. تلخص سطور قليلة من مايترايانا أوبانيشاد هذه العملية.

يضطلع الشخص بالفعل السليم (والذي يتضمن بالتأكيد السكينة السليمة والتأمل السليم)، وهو ما يمكنه من القبض على لمحة من الذات

---

(١) ألبيرتوس ماجنوس (١٢٠٠ تقريبًا - ١٢٨٠): لاهوتي وفيلسوف ألماني، دعا للتعايش بين العلم والدين.

التي تقبع تحت فرديته المنفصلة. «وعندما يرى ذاته باعتبارها النفس، يصبح مؤثرًا على ذاته (ويتصرف بإيثار) وبفضل الإيثار يُدرك باعتباره مطلقًا. وهذا هو السر الأسمى، التحرر الدال؛ لا يشارك في المتعة أو الألم (بمعنى آخر، يدخل حالة من عدم التعلق أو اللامبالاة المقدسة) بسبب الإيثار، لكنه يحقق المطلق» (أو كما قال ألبيرتوس ماجنوس «حتى تصبح لا تُضاهى وتصل إلى تلك الحياة الحقيقية التي هي الرب نفسه»).

عندما تكون إماتة الجسد كاملة، فإن ثمرتها الأميز هي البساطة.

سوف يحب قلبٌ بسيطٌ كل ما هو ثمين للغاية على الأرض، الزوج أو الزوجة، الوالد أو الطفل، الأخ أو الصديق، من دون أن تتأثر أحاديته؛ لن يكون للأشياء الخارجية أي جاذبية إلا بقدر ما تقود النفوس إليه؛ من اللازم إزالة كل الغلو أو التوهم، العاطفة والزيف من مثل ذلك المرء، كما يجف الندى قبل إشراق الشمس. الدافع الوحيد هو إرضاء الرب، وهكذا تبزغ اللامبالاة الكاملة نحو ما يقوله الآخرون ويفكرون فيه، وبذلك تصبح تلك الكلمات والأفعال بسيطة وطبيعية تمامًا، وفق منظوره فقط. مثل هذه البساطة المسيحية هي الكمال التام للحياة الداخلية - موضوعها الوحيد هو الرب (إرادته وإرضاؤه)».

ن. جرو[١].

وها هنا شرح أوفى للموضوع لواحد من أساطين التحليل النفسي.

«في هذا العالم، عندما يصف الناس أحدهم بأنه بسيط، فإنهم

(١) جان نيكولاس جرو (١٧٣١ - ١٨٠٣): كاهن وكاتب متصوف فرنسي.

يقصدون في العموم أنه شخص أحمق، جاهل، ساذج. لكن البساطة الفعلية بعيدة كل البعد عن الحماقة، توشك أن تكون سموًّا. كل الرجال الصالحين الذين يحبونها ويعجبون بها، على وعي بالخطيئة التي ترتكب في حقها، يلاحظونها في الآخرين ويعرفون ما تتضمنه؛ ورغم ذلك لا يستطيعون تعريفها بدقة. ينبغي عليَّ أن أقول إن البساطة هي استقامة للنفس، تمنع الوعي بالذات. هي ليست مماثلة للإخلاص، إذ إنه قيمة ذات مكانة أقل. كثير من الناس مخلصون وليسوا بسطاء. لا يقولون شيئًا إلا ما يعتقدون في أنه صحيح، ولا يهدفون إلى إظهار شيء بخلاف ما هم عليه. لكنهم يفكرون في أنفسهم دائمًا، يزنون كل كلمة وفكرة لهم ويسهبون في التفكير خشية أن يكونوا قد فعلوا ما يزيد أو ما يقل عن المطلوب. هؤلاء الناس مخلصون لكنهم غير بسطاء. هؤلاء الناس ليسوا على سجيتهم مع الآخرين، يعاملونهم بسلاسة ولا الآخرين على سجيتهم معهم، يعاملونهم بسلاسة. لا شيء سلس أو صادق أو غير مقيد أو طبيعي فيما يتعلق بهم. يشعر المرء أن الواحد كان ليحب الناس الأقل جلالًا، أولئك الذين ليسوا شديدي القساوة.

«إن الانغماس في العالم المحيط وعدم إيلاء ولو بعض الانتباه لما في الداخل، هو بمثابة العمى الذي يصيب البعض، إذ يحملهم بعيدًا ما هو جذاب وملموس، وهو أمر على النقيض تمامًا من البساطة. أما الاستغراق مع النفس في كل الأمور -سواء كانت واجبًا للرب أو لإنسان، فهي على الطرف القصي الآخر، تجعل الشخص حكيمًا في قرارة نفسه - متحفظًا، واعيًا بذاته، لا يأخذ أقل الأشياء التي تزعج رضاه الداخلي بسلاسة. على الرغم من جلال مثل هذه الحكمة الزائفة، إلا أنها لا تقل تفاهة وحماقة

عن حماقة أولئك الذين يستغرقون في متع العالم بطيش. يسكر الأول بمحيطه الخارجي، ويسكر الآخر بما يعتقد في قرارة نفسه أنه يقوم به داخليًّا؛ لكن الاثنين في حالة سكر، والثاني في حالة أسوأ مقارنة بالأول، لأن الأمر يبدو كما لو كان حكيمًا، إلا أن الأمر ليس على هذه الصورة بالفعل، والناس على هذه الشاكلة لا يسعون إلى العلاج. تقع البساطة الفعلية في منطقة وسطى، متحررة بذات القدر من كل من الاستغراق في التفكير مع النفس والتكلف، إذ تكون النفس عندها غير مستغرقة في الأمور الخارجية إلى الدرجة التي تكون معها غير قادرة على التبصر فيما يحث عليه الوعي بالذات، كما أنها ليست خاضعة تمامًا بعد لتهذيب بلا نهاية. تمتلك النفس التي تتطلع إلى حيث تمضي -دون تضييع الوقت عند القيام بكل خطوة أو النظر خلفها باستمرار- بساطة حقيقية. مثل هذه البساطة هي بالفعل كنز عظيم. كيف يمكننا الحصول عليه؟ كنت لأتخلى عن كل شيء أمتلكه من أجلها، إنها لؤلؤة النصوص المقدسة الثمينة.

«الخطوة الأولى إذَنْ، هي في تخلي النفس عن الأشياء الخارجية والنظر في الداخل، من أجل أن تعرف مصلحتها الخاصة الفعلية، التي هي في كل ما هو صحيح وطبيعي، هي في ذلك القدر من الحب الحكيم للذات فقط، في السعي إلى تجنب السكر بالعالم.

«في الخطوة التالية، يتوجب على النفس أن تضيف تأمل الرب -الذي تخشاه- إلى تأمل النفس. هذا اقتراب باهت من الحكمة الفعلية، لكن النفس لا تزال مستغرقة بشدة في ذاتها: هي غير مكتفية بخشية الرب؛ تريد التأكد من أنها تخشاه وتخشى من ألا تخشاه، تدور في دوائر مستمرة للوعي الذاتي. كل هذا الإسهاب في التفكير في الذات بعيد كل البعد عن

سلام وحرية الحب الفعلي؛ لابد أن تجتاز النفس فترة من التجارب، وإذا ما انغمست فجأة في حالة من الهدوء، فإنها لن تعرف كيف تستغلها.

«الخطوة الثالثة في التوقف عن تأمل الذات الذي لا يهدأ، تبدأ النفس في الإسهاب في التفكير في الرب عوضًا عن ذلك، وتنسى ذاتها فيه على درجات. تصبح ممتلئة به وتتوقف عن التغذي على الذات. لا تعمى مثل هذه النفس عن عيوبها وهي ليست بغير المبالية بأخطائها؛ هي على وعي بها أكثر من أي وقت مضى، والضوء المتزايد يظهرها في هيئة أوضح، لكن هذه المعرفة بالذات تأتي من الرب، ومن ثم هي ليست معرفة قلقة لا تهدأ أو غير بسيطة وسلسة».

فنلون.

إلى أي درجة هذا ثاقب ودقيق بدرجة مثيرة للإعجاب! استثنائي للغاية، إذ إن أحد أكثر أباطيل القرن العشرين افتراض أنه لم يكن هناك من عرف أي شيء عن علم النفس قبل زمن فرويد. لكن الحقيقة الفعلية أن علماء النفس المحدثين يفهمون البشر بدرجة أقل من فهم أسلافهم البارعين. يعرف فنلون ولا روشفوكو[1] كل شيء عن المبررات السطحية لدوافع اللاوعي العميقة والمخزية، وكانوا على دراية كاملة بأن النشاط الجنسي والرغبة في السيطرة هما القوتان الفاعلتان العاملتان في أغلب الأحيان تحت قناع الشخصية المظهرية المهذب. رسم مكيافيلي[2] التمييز الذي

---

(١) فرانسوا دو لا روشفوكو (١٦١٣ - ١٦٨٠): مؤلف فرنسي، كتب عن الإنسان ولم يقسُ عليه أو يحتفِ به بشكل مبالغ فيه.

(٢) نيكولو مكيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧): مفكر وفيلسوف سياسي إيطالي شهير من عصر النهضة.

صاغه باريتو[1] بين «البقايا» و«الاشتقاقات» - بين دوافع الفعل السياسي الفعلية والمعنية بمصلحة الذات وبين وهم النظريات والمبادئ والمثل والتي تُفسر وتبرر مثل هذه الأفعال للسذج من العامة. لم يكن كذلك منظور باسكال للفضيلة والمنطق الإنساني أقل واقعية بأي حال، مثله كمثل منظور بوذا والقديس أوغسطين. لكن كل أولئك الرجال وحتى لا روشفوكو وحتى مكيافيلي كانوا على دراية ببعض الحقائق التي اختار علماء نفس القرن العشرين تجاهلها - حقيقة أن للطبيعة البشرية ثلاثة جوانب، إذ تتكون من الروح بالإضافة إلى العقل والجسد، وحقيقة أننا نعيش على خط حدودي بين عالمين، العالم الزمني وعالم الأبدية، عالم الإنسان المادي الحيوي والعالم الإلهي؛ حقيقة أن الإنسان على الرغم من كونه لا شيء في حد ذاته، إلا أنه «لا شيء محاط بالرب وفقير إلى الرب ومؤهل للرب وممتلئ بالرب، إذا ما رغب في ذلك».

البساطة المسيحية التي يكتب عنها جرو وفنلون هي نفسها الفضيلة التي يتيه لاو تسو وخلفاؤه إعجابًا بها. هذه الخطايا الشخصية وسوء التصرف الاجتماعي كلها بحسب الحكماء الصينيين نتيجة حقيقة أن البشر قد فصلوا أنفسهم عن منشأهم الإلهي ويعيشون وفق إرادتهم الخاصة ومفاهيمهم، لا وفق الطاو - الذي هو الطريق الأعظم واللوغوس وطبيعة الأشياء كما تُظهر نفسها في كل المستويات، من المادي، وعبر الحيواني والذهني، وإلى الروحي. تأتي الاستنارة عندما نتخلى عن إرادة

(١) فيلفريدو باريتو (١٨٤٨ - ١٩٢٣): أحد أشهر علماء الاقتصاد والاجتماع الفرنسيين، كان يرى أن كثير من الأفعال الاجتماعية هي أفعال غير عقلانية، مدفوعة ببعض البقايا والاشتقاقات منها.

الذات ونجعل أنفسنا تنصاع إلى أعمال الطاو في العالم من حولنا وفي أجسادنا وعقولنا وأرواحنا. يكتب الطاويون أحيانًا كأنهم يعتقدون في همجي روسو النبيل[1]؛ (إذ إن الصينيين ولأنهم صينيون فهم يعتنون بالملموس والعملي أكثر كثيرًا من عنايتهم بالتأملي المجرد)، هم مغرمون بوصف المناهج التي قد يختزل الحكام عن طريقها تعقد الحضارة، وبذلك يحفظون رعيتهم من التأثيرات المفسدة للأعراف الفكرية والشعورية والأفعال، التي هي من صنع البشر وبالتالي حاجبة للطاو. لكن الحكام الذين كانوا لينجزون تلك المهمة من أجل الجموع يجب أن يكونوا هم أنفسهم حكماء؛ ويجب على الواحد التخلص من كل يبوس البلوغ غير المتجدد وأن يصبح من جديد كالطفل الصغير، من أجل أن يصبح حكيمًا؛ إذ إن اللين والطيِّع هو الحي في الحقيقة؛ أما قاهر كل شيء ومغالبه فهو مَن يكيف نفسه وفق كل شيء، مَن يسعى دومًا إلى المكان الأدنى - تأمل الصخرة الصلبة والمياه التي تبلي التلال السرمدية. بساطة وعفوية الحكيم الكامل هما ثمرتا إماتة الجسد - إماتة الإرادة وعن طريق التأمل والسكينة إماتة العقل. يمكن لفنان شديد الالتزام فقط استعادة عفوية الأطفال في حضرة أول علبة ألوان لهم. لا شيء أصعب من أن تغدو بسيطًا.

قال يان هوي: «هل في إمكاني أن أسألك فيمَ يكمن صيام القلب؟».

رد كونفوشيوس، «نمِّ الاتحاد، بحيث لا يكون سمعك بأذنيك، لكن

---

(١) الهمجي النبيل: فكرة تذهب إلى أن الإنسان البدائي كان نبيلًا ثم لوثته الحضارة والمجتمع، أي أن الأصل في الإنسان النبل، وروسو هو جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨): كاتب وأديب وفيلسوف سويسري، صاحب نظرية العقد الاجتماعي.

بعقلك؛ بل لا يكون بعقلك، لكن بروحك. اجعل السمع يتوقف عند أذنيك. واجعل عمل العقل يتوقف عند ذاته. ومن ثم سوف تكون النفس في حالة وجود سلبي، تستجيب بسلبية نحو الأمور الخارجية. في مثل هذا الوجود السلبي، يمكن للطاو فقط السكن. وهذه الحالة من السلبية هي صيام القلب».

قال يان هوي[1]: «إذَنْ فالسبب وراء عدم قدرتي على الاستفادة من هذا النهج يكمن في فرديتي الخاصة بي. إذا ما قدر لي الاستفادة منه، فإن فرديتي كانت لتذهب. هل هذا هو ما تقصده بالحالة السلبية؟».

رد المعلم: «هو ذلك تمامًا، دعني أخبرك. إذا كان لك أن تدخل حيز هذا الأمير (حاكم سيئ، كان يان هوي يطمح إلى إصلاحه) من دون إهانة حبه لذاته، باشًا إذا كان يسمعك، وسلبيًا إذا لم يكن؛ من دون عرفان، من دون عقاقير، تعيش هناك ببساطة في حالة من اللا مبالاة الكاملة - فسوف تكون قريبًا من النجاح... انظر إلى تلك النافذة. تصبح المساحة الخالية من خلالها مضيئة ومشهدية؛ لكن المنظر الطبيعي يقف بالخارج. بهذا المعنى، قد تستخدم أذنيك وعينيك للتواصل في الداخل، لكنك تمنع الحكمة كلها (بمعنى الأقوال المأثورة المعتادة وكتبها) من النفاذ إلى عقلك. هذا هو منهاج إصلاح كل الخلق».

جوانغ زي.

يمكن اعتبار إماتة الجسد في هذا السياق بمثابة عملية دراسة، نتعلم عن طريقها على الأقل أن نتخذ استجابات غير مدروسة تجاه الأحداث

---

(١) يان هوي (٥٢١ ق.م. - ٤٨١ ق.م.): التلميذ المفضل لكونفوشيوس.

– استجابات متناغمة مع الطاو والهكذائية وإرادة الرب. أولئك الذين جعلوا أنفسهم تنصاع إلى الطبيعة الإلهية للأشياء، أولئك الذين استجابوا للظروف، لا بالتوق والنفور، لكن بالمحبة التي تسمح لهم أن يقوموا بعفوية بما يحبون؛ أولئك الذين يستطيعون أن يقولوا بصدق، لست أنا، لكنه الرب فيَّ – مثل أولئك الرجال والنساء هم الذين يشبههم شراح الفلسفة الخالدة بالأطفال والحمقى والمغفلين، بل وأحيانًا -كما في المقطع اللاحق- بالسكيرين.

«السكير الذي يسقط عن العربة، على الرغم من أنه قد يعاني، إلا أنه لا يموت. عظامه مثل عظام الآخرين؛ لكنه يستقبل حادثته بطريقة مغايرة. روحه في حالة من الأمان. هو غير واعٍ بركوبه العربة؛ ولا واعٍ كذلك بسقوطه عنها. لا يمكن لهواجس الحياة والموت والخوف والتوق أن تنفذ إلى صدره؛ ومن ثم هو لا يعاني من الاتصال بالوجود الموضوعي. وإذا كان من الممكن الوصول إلى مثل هذا الأمان من الخمر، فكم قدر الأمان الذي من الممكن الوصول إليه من الرب؟».

جوانغ زي.

يصل الفنان إلى العفوية التلقائية والتمكن البارع عن طريق الطاعة والعمل الجاد لوقت طويل. هو يعرف أنه لا يستطيع إبداع أي شيء بمفرده من خلال طبقات وعيه العليا (إذا جاز التعبير)، لذا يُسلِّم طوعًا لتدابير «الإلهام». كما يعرف أن الوسط الذي يعمل فيه له طبيعته الذاتية الخاصة، والتي لا يمكن تجاهلها أو السيطرة عليها بعنف، لذا يجعل من نفسه خادمه المطيع، وبهذه الطريقة يحقق حرية التعبير التامة. لكن الحياة فن كذلك، والشخص الذي كان ليصبح فنانًا بارعًا بين الخلق

عليه أن يتبع -على كل مستويات وجوده- الإجراء نفسه الذي وصل عن طريقه الرسام أو النحات أو أي حرفي بارع إلى كماله المحدود جدًّا بالمقارنة.

«كان طباخ الأمير هوي يقطع عجلًا. كانت كل ضربة لسكينه، كل رفعة لكتفيه، كل دعسة بقدميه، كل «وهشه» لتمزق اللحم، كل «تشك» للساطور في تناغم تام – إيقاعية مثل رقص مولبري جروف، عفوية مثل تشينغ شو.

«هتف الأمير: «أحسنت عملًا! تمتلك المهارة بالتأكيد».

«رد الطباخ: «مولاي، لقد كرست نفسي للطاو دائمًا. ذلك أفضل من المهارة. عندما بدأت لأول مرة تقطيع العجول، رأيت أمامي ببساطة عجولًا كاملة. بعد ثلاث سنوات من الممارسة لم أعد أرى حيوانات كاملة. والآن أعمل بعقلي، لا بعيني. عندما تطلب مني حواسي التوقف، لكن يحثني عقلي على المواصلة، فإنني ألجأ إلى المبادئ الأزلية. أتتبع تلك الفتحات أو الفجوات حيثما قد تكون، بحسب البنية الطبيعية للحيوان. لا أحاول أن أقطع في المفاصل ولا أحاول بدرجة أكبر أن أقطع في العظام الضخمة.

«يغير الطباخ الجيد ساطوره مرة في العام – لأنه يقطع. أما الطباخ العادي فيغيره مرة في الشهر – لأنه يضرب في غير نظام. لكنني أمتلك هذا الساطور منذ تسعة عشر عامًا، وعلى الرغم من أنني قد قطعت به عدة آلاف من العجول، إلا أن حده جديد كأنما جاء للتو من حجر الشحذ. إذ إنه توجد في المفاصل فُرَجٌ دائمًا ولأن حد الساطور بلا سماكة، لا يبقى

إلا دس ذلك الذي بلا سماكة في مثل تلك الفرج. وبهذه الطريقة تتسع الفرجة، ويجد النصل مساحة واسعة. وهكذا حافظت على ساطوري لتسعة عشر عامًا، وكأنما جاء للتو من حجر الشحذ.

«مع ذلك عندما أصل إلى جزء صعب، حيث يواجه النصل صعوبة، أكون في غاية الحذر. أثبت عينيَّ عليه. أقيم يدي وبلطف أنزل بالنصل، حتى يستسلم ذلك الجزء مع سماع «هواه» مثل أرض تندك دكًّا. ثم أسحب الساطور وأنهض وأنظر من حولي؛ وفي النهاية أمسح ساطوري وأضعه بحرص بعيدا».

هتف الأمير: «أحسنت صنعًا!.. لقد تعلمت من كلمات هذا الطباخ كيف أعتني بحياتي».

جوانغ زي.

يصف بوذا في الأفرع السبعة الأولى لمساره النبيل الثماني[١] الشروط التي يجب أن يستوفيها من يرغب في الوصول إلى التأمل الصحيح الذي هو الفرع الثامن والأخير. يستلزم استيفاء هذه الشروط الاضطلاع بمسار إماتة هو الأكثر استقصاء وشمولًا - إماتة الفكر والإرادة، وإماتة التوق والعواطف والهواجس والحديث والفعل وأخيرًا وسائل المعاش. بعض المهن لا تتماشى نوعًا ما مع تحقيق الغاية النهائية للإنسان؛ وهناك سبل لكسب الرزق والمعاش تؤدي إلى ضرر جسدي وأهم من ذلك تؤدي إلى ضرر أخلاقي وفكري وروحي عظيم جدًّا، حتى لو كان من الممكن

---

(١) المسار الثماني لبوذا: هو الوسيلة التي يمكن بها تحقيق التنوير ويتكون من: عرض صحيح أو فهم صحيح، النية الصحيحة، الكلام الصحيح، الإجراء الصحيح، سبل العيش الصحيحة، الجهد الصحيح، اليقظة الصحيحة، التركيز الصحيح.

ممارستها بروح غير متعلقة (وهو الأمر المستحيل في العموم)، فلا يزال من اللازم أن يجتنبها كل مَن وهب نفسه إلى مهمة التحرير، لا تحرير نفسه، بل تحرير الآخرين. لا يرتاح شراح الفلسفة الخالدة إلى اجتناب وتحريم ممارسة مهن مجرمة، على شاكلة إدارة بيوت للدعارة والتزييف والابتزاز وما يشابهها؛ بينما يجتنبون هم أنفسهم ويحذرون الآخرين من عدد من طرق المعاش التي تعتبر شرعية في العموم. لذلك في العديد من المجتمعات البوذية لا تُكافأ صناعة الأسلحة ولا إعداد الخمور المسكرة ولا بيع لحوم الجزارة جملةً بالثروة والنبالة والتأثير السياسي، كما في المجتمعات المسيحية المعاصرة؛ بل يأسفون بشدة بخصوصها لأنها بمثابة أعمال يظنون أنها تمثل صعوبة أمام تحقيق التنوير والتحرر خاصة بالنسبة إلى ممارسيها وبالنسبة إلى أعضاء المجتمع الآخرين الذي تمارس فيه. بالمثل، كان محرم على المسيحين في أوروبا العصور الوسطى أن يكسبوا قوتهم من أخذ الفوائد على المال أو من احتكار السوق. لقد أوضح تاوني[1] وآخرون أن الاتجار في القسائم والفوائد والمضاربة على الأسهم والسلع لم تصبح أمورًا مقدرة ومباركة كنسيًّا إلا بعد الإصلاح.

يعتبر التجنيد بالنسبة إلى الكويكرز شكلًا من أشكال المعاش الخاطئ – تعتبر أعمال الحرب في أعينهم مخالفة للمسيحية، لا لأنها تتسبب في المعاناة فقط، لكن بدرجة أكبر لأنها تنشر الكراهية، وتثمن من الاحتيال والقسوة، وتصيب المجتمعات بأكملها بعدوى الغضب والخوف

---

(١) ريتشارد هنري تاوني (١٨٨٠ - ١٩٦٢): اقتصادي ومؤرخ إنجليزي.

والغطرسة وعدم التسامح. تحجب مثل هذه العواطف الضوء الداخلي، لذلك فالحروب عند مَن يثيرونها ويأجوجونها دائمًا هي بمثابة حملات صليبية من أجل جعل العالم آمنًا أمام الظلمة الروحية، وذلك بغض النظر عن النتيجة السياسية المباشرة. اتضح عن طريق التجربة أنه من الخطير وضع قواعد تفصيلية وغير مرنة للمعاش الصحيح - خطير لأن أغلب الناس لا يرون مبررًا لأن يكونوا صالحين بصورة مبالغ فيها، ويترتب على ذلك استجابتهم لفرض قواعد جامدة للغاية بالنفاق والتمرد المفتوح. على سبيل المثال هناك تمييز في التقليد المسيحي بين التعاليم التي تسري على الجميع، على اختلاف مشاربهم، وبين نصائح الكمال التي تسري على أولئك الذين يشعرون بميل نحو التخلي التام عن «العالم». تتضمن التعاليم القواعد الأخلاقية المعتادة ووصايا حب الرب بكل شغاف قلب المرء وبكل قواه وعقله، وحب الأخ كحب الواحد لنفسه. يجد بعض أولئك الذين يبذلون جهودًا جادة من أجل طاعة هذه الوصايا الأخيرة والعظمى أنهم لا يقدرون على مثل هذا الإخلاص الكامل إلا إذا تبعوا النصائح وقطعوا كل صلاتهم بالعالم. مع ذلك فمن الممكن لكل رجل وامرأة تحقيق «الكمال» الذي هو الخلاص في صورة معرفة اتحادية بالرب، دون التخلي عن الحياة الزوجية وبدون بيع كل ما يمتلكونه ومنح الثمن للفقراء. الفقر الفعلي (عدم امتلاك المال) ليس دائمًا بأي حال فقرًا وجدانيًّا (لا مبالاة تجاه المال). قد يكون أحدهم فقيرًا لكنه مهتم بشدة بما قد يشتريه المال، ممتلئ بالرغبات والحسد ورثاء الذات المرير. وقد يكون لدى آخر المال، لكنه غير متعلق بالمال أو الأشياء أو السلطات أو الامتيازات التي قد يشتريها المال. «الفقر الإنجيلي» هو مزيج من الفقر

الفعلي والفقر الوجداني؛ لكن فقر الروح الصادق ممكن حتى عند أولئك الذي ليسوا فقراء فعليًا. من ثم سوف نجد أن مشاكل المعاش الصحيح هي مشاكل شخصية تمامًا، طالما كانت تقع خارج سلطان القواعد الأخلاقية المعتادة. تعتمد الطريقة التي تطرح بها أي مشكلة فردية نفسها وطبيعة الحل المناسب على درجة المعرفة والحس الأخلاقي والتبصر الروحي التي حققها الفرد المعني. ولهذا السبب من غير الممكن صياغة قانون عام قابل للتطبيق إلا وفق أكثر الأحوال عمومية. قال لاو تسو: «ها هي كنوزي الثلاثة. احرسها واحفظها! الأول الرحمة، والثاني التقشف، والثالث رفض أن تكون في المقام الأول وقبل كل الأشياء تحت السماوات (أي في العالم)». وعندما طلب غريب من المسيح فض نزاع بينه وبين أخيه على ميراث، رفض أن يكون حكمًا في القضية (لأنه لا يعرف الملابسات) وأصدر بالكاد تحذيرًا عامًّا من الجشع.

خطب يومًا جا-سان في مريديه: «أولئك الذين يتحدثون ضد القتل، والذين يرغبون في حفظ حيوات كل المخلوقات الواعية، هم على صواب. من الجيد حماية حتى الحيوانات والحشرات. لكن ماذا عن أولئك الأشخاص الذين يقتلون الوقت ويهدرونه، ماذا عن أولئك الذين يقضون على الثروات، ماذا عن أولئك الذين يغتالون اقتصاد مجتمعاتهم؟ علينا ألا نتغاضى عنهم. ومرة أخرى، ماذا عن ذلك الذي يعظ دون استنارة؟ هو يقتل البوذوية».

من كتاب «مائة حكاية وحكاية من حكايات الزن»[١].

---

(١) مائة حكاية وحكاية من حكايات الزن، مصنف وُضع في عام ١٩١٩ لأقوال مأثورة وأسئلة وقصص تتعلق بحكمة الزن.

بينما كان إبراهيم المبارك جالسا على عرشه،
وصل إلى مسامعه صخب وضوضاء لصيحات على السطح،
وكذلك خطوات أقدام ثقيلة على سطح قصره.
قال لنفسه: «لمن هذه الخطوات الثقيلة؟».
هتف من النافذة: «من يسير هناك؟».
أحنى الحراس رؤوسهم، وقد تملك الارتباك منهم قائلين:
«إننا نحن، نمضي من مكان إلى مكان باحثين».
قال: «عمَّ تبحثون؟» قالوا: «جمالنا».
قال: «مَن ذا الذي يبحث يومًا عن جمال على سطح بيت؟».
قالوا: «نحن نحتذي مثالك،
تبحث عن اتحاد بالرب، بينما تجلس على عرش».

جلال الدين الرومي.

من بين كل المشكلات الاجتماعية والأخلاقية والروحية، فإن مشكلة السلطة هي الأكثر إلحاحًا على مر الزمن والأصعب في الحل. ليس التوق إلى السلطة رذيلة للجسد، وبالتالي فلا وجود لحدود معروفة تفرضها الفسيولوجيا المتعبة أو المشبعة على الشراهة والمغالاة والشهوة. هو ينمو مع كل إشباع متعاقب، يمكن لاشتهاء السلطة أن يفصح عن نفسه إلى ما لا نهاية، دون أن يقطع اطراده تعب أو مرض جسدي. علاوة على ذلك، فطبيعة المجتمع هي على النحو الذي يكون معه، كلما تسلق رجل سلم الهرم السياسي

أو الاقتصادي أو الديني، كلما عظمت فرصه وموارده التي تسمح له بممارسة السلطة. لكن تسلق سلم الهرم عملية بطيئة في المعتاد، ونادرًا ما يصل الطموحون إلى القمة حتى يكونوا قد تقدموا كثيرًا في العمر. كلما ازداد العمر، كلما امتلك محب السلطة فرصًا أكثر من أجل إشباع رذيلته المتواصلة، وكلما كان معرضًا باستمرار إلى المغريات، وكلما أصبحت هذه المغريات أكثر فتنة. يختلف الوضع من هذا المنطلق بشدة عن ذلك الخاص بالفاسق. قد لا يترك الأخير عامدًا رذائله أبدًا، لكنه على الأقل عندما يتقدم في العمر يجد أن رذائله تتركه؛ أما الأول فلا يترك رذائله ولا تتركه رذائله. بدلًا من أن يجلب التقدم في العمر لمحب السلطة هدنة رحيمة من إدمانه، يميل إلى تقوية ذلك الإدمان عن طريق جعل تلبية رغباته أسهل على نطاق أوسع وبطريقة مذهلة. وهذا هو السبب وراء كلمات أكتون[1]: «كل الرجال العظماء سيئون». لذلك هل من الممكن أن تندهش إذا وجدت أن الفعل السياسي المتخذ -في كثير للغاية من الحالات- لا يكون من أجل صالح العامة، لكنه من أجل إشباع شهوات السلطة التي لدى رجل سيئ فحسب أو على الأقل من أجل ذلك في المقام الأول؟!

يقول الطاغية: «الدولة أنا، وأنا الدولة»[2] **L'état c'est moi**،

---

(١) اللورد أكتون (١٨٣٤ - ١٩٠٢): مؤرخ وكاتب وسياسي إنجليزي.

(٢) **L'état c'est moi**: مقولة منسوبة إلى الملك الفرنسي لويس الرابع عشر (١٦٦١ - ١٧١٥).

وهذا صحيح بالتأكيد، ليس فقط بالنسبة إلى السادة المستبدين على قمة الهرم، لكن بالنسبة إلى كل أعضاء الأقلية الحاكمة التي يحكم من خلالها المستبدون، تلك الأقلية التي هي في الحقيقة الحكام الفعليون للأمة. علاوة على ذلك، طالما كانت السياسة التي تشبع شهوات سلطة الطبقة الحاكمة ناجحة، وطالما كان ثمن النجاح ليس غاليا جدًّا، فحتى جموع المحكومين سوف تشعر بأن الدولة هي هم- إسقاط ضخم ومبهر لأنا الفرد التافهة في جوهرها. يمكن للرجل البسيط أن يرضي شهوته للسلطة بالإنابة من خلال أنشطة الدولة الإمبريالية، مثلما يفعل الرجل القوي؛ الفارق فيما بينهما هو فارق في الدرجة لا في النوع.

لم يُبتكر أي منهج ناجح من أجل التحكم في التجليات السياسية لشهوة السلطة. لا تمكن مراجعة السلطة إلا عن طريق ضربها بسلطة أخرى؛ لأن السلطة في جوهرها العميق توسعية. لذلك فأي مجتمع يقدر الحرية -بمعنى حكم القانون بدلًا من الحكم لصالح فئة أو بفرمانات شخصية- يجب أن يخطط لتقسيم سلطة حكامه. تعني الحكومة القومية الخضوع إلى رجل منفرد وأوليجاركيته الداعمة(١). الفصل المنظم والمتوازن للسلطة هو شرط الحرية الأساسي. المعارضة المخلصة لجلالته هي أكثر صور الموالاة؛ لأنها مفيدة حقيقة لأي مجتمع محب للحرية. علاوة على ذلك، لا يوجد أي مجتمع يقدر الحرية يمكن أن يتحمل منح حكامه فترات طويلة على رأس الدولة؛ لأن اشتهاء السلطة هو اشتهاء عقلي خالص، وبالتالي غير قابل للإشباع ومحصن ضد

(١) أوليجاركية: حكم الأقلية.

المرض والتقدم في العمر. يدين النظام الكرتوزي[1] -الذي لم يُصلَح أبدًا لأنه لم يتشوه أبدًا- بمناعته الطويلة ضد الفساد لحقيقة أن رؤساء الرهبان كانوا يُنتخبون لفترات تمتد لعام واحد فقط. كانت العلاقة عكسية في روما القديمة بين مدى الحرية تحت مظلة القانون وطول فترات حكم الحكام. من السهل جدًّا صياغة هذه القوانين المقيدة لشهوة السلطة، لكن من الصعب جدًّا فرضها عند الممارسة، كما بيَّن لنا التاريخ. من الصعب بشكل خاص فرضها في فترات زمنية معينة، من بينها الوقت الراهن، حين نُظر إلى الآلية السياسية التي استمرت لأزمنة طويلة باعتبارها بالية نتيجة التغير التقني السريع وحين تطلب الأمر تجسيد المبادئ الصحية لفصل السلطة المنظم والمتوازن في مؤسسات جديدة أكثر ملاءمة.

كان رأي أكتون -المؤرخ الكاثوليكي المثقف- أن كل الرجال العظماء سيئون؛ ظن الرومي -الشاعر الفارسي والمتصوف- أن السعي من أجل الاتحاد مع الرب مع احتلال عرش لا يمكن أن يؤخذ بالكاد باعتباره عملًا أكثر عقلانية من البحث عن الجمال بين المداخن على الأسطح. إلا أن هناك قولًا أكثر تفاؤلًا بعض الشيء منسوب إلى القديس فرنسيس دي ساليس، وقد سجل منظوره حول الأمر مريده -الذي يشبه بوزويل- أسقف بيلي الشاب.

قلت يومًا: «يا أبي **Mon père**، كيف من الممكن لأولئك الذين يشغلون مكانًا راقيًا في الحكم أن يمارسوا فضيلة الطاعة؟».

---

(١) النظام الكرتوزي: هو نظام للرهبانية الصارمة، أسسها القديس برونو في عام ١٠٨٤.

رد فرنسيس دي ساليس: «لديهم طرق أعظم وأفضل ممن هم دونهم للقيام بذلك».

ولأنني لم أفهم هذا الرد، مضى يقول: «أولئك المقيدون بالطاعة، هم في العادة تابعون لأحدهم أعلى منهم فقط... أما أولئك الأعلون أنفسهم فلديهم مجال أعرض للطاعة حتى وهم يصدرون الأوامر؛ إذ لو كانوا يحملون في أذهانهم فكرة أن الرب مَن وضعهم فوق البشر الآخرين، ومنحهم السلطة التي بحوزتهم، فسوف يمارسونها باعتبارها مخولة إليهم من الرب، ولذلك فحتى وهم يحكمون، سوف يطيعون. علاوة على ذلك، فلا وجود لمكانة عالية جدًّا إلا وهي تابعة لمن هو أعلى روحانيًّا فيما يتعلق بالوجدان والنفس. لكن لا تزال هناك منطقة أعلى للطاعة التي قد يطمح إليها كل الأعلون، أعلى حتى من تلك التي ألمح إليها القديس بولس حين قال: «فإني إذ كنت حرًّا من الجميع، استعبدت نفسي للجميع». عن طريق هذه الطاعة العامة للجميع، نصير «للكل كل شيء»؛ ونخدم الجميع من أجل الرب، نبجل الكل كي يكونوا بمثابة الأعلون بالنسبة لنا.

«تماشيًا مع هذه القاعدة، لاحظت دائمًا كيف عامل فرنسيس دي ساليس جميع مَن يقترب منه حتى أولئك عديمي الأهمية، كأنه الأدنى مكانة، لم يصدَّ أحدًا أبدًا، لم يرفض تجاذب أطراف الحوار أبدًا، لم يرفض الحديث أو الاستماع، لم يكشف عن أبسط علامات الضجر أو نفاد الصبر أو الضيق، مهما كان الإزعاج أو سوء توقيت المقاطعة. كان رده الدائم على أولئك الذين يسألونه عن سبب تضييعه للوقت على هذا النحو: «هي مشيئة الرب؛ هذا ما يريده مني؛ ما حاجتي إلى طلب ما هو

أكثر من ذلك؟ بينما أقوم بهذا، ليس مطلوبًا مني القيام بأي شيء آخر. يجب أن تكون مشيئة الرب المقدسة هي المركز الذي يتشعب منه كل ما نقوم به؛ كل ما عدا ذلك هو مجرد ضجر وإثارة».

جان بيير كامو.

من ثم نرى أن «الرجل العظيم» قد يكون صالحًا -صالحًا كفاية حتى ليطمح إلى معرفة اتحادية بالأصل الإلهي- شريطة أنه بينما يمارس السلطة، يوفي بشرطين. الشرط الأول، عليه أن ينفي عن نفسه كل الامتيازات الشخصية التي للسلطة وعليه ممارسة الصبر والسكينة، إذ إنه من دونهما من المستحيل أن يكون هناك حب، سواء للإنسان أو للرب. والشرط الثاني، يجب عليه إدراك أن مصادفة امتلاكه لسلطة زمنية لا تمنحه سلطة روحية، تلك السلطة التي تعود إلى أولئك الروحانيين فقط، الأحياء أو الأموات، الذين قد حققوا تبصرًا مباشرًا في طبيعة الأشياء. مجتمع فيه الرئيس مجنون كفاية كي يعتقد في نفسه نبيًّا، هو مجتمع مصيره الدمار. المجتمع الحيوي هو المجتمع الذي فيه أولئك الذين أهلوا أنفسهم للفهم يحددون المقاصد التي يجب استهدافها، بينما أولئك الذين عملهم الحكم يحترمون السلطة ويستمعون إلى نصيحة الروحانيين. كان كل هذا مفهومًا من الناحية النظرية على الأقل في الهند، وحتى زمن الإصلاح في أوروبا، حيث «لا وجود لمكانة عالية جدًّا إلا وتكون تابعة لمَن هو أعلى روحانيًّا فيما يتعلق بالوجدان والنفس». تحاول الكنائس للأسف بذل قصارى جهدها في العالمين - الجمع بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية، وتدبير ذلك سواء بشكل مباشر أو عبر وسيط، من وراء العرش. غير أنه من الممكن فقط لأولئك الذين نزَّهوا

أنفسهم تمامًا من الغرض والذين كانت دوافعهم بسبب ذلك فوق أي اشتباه أن يمارسوا السلطة الروحية. قد تطلق المؤسسات الكنسية على نفسها جسد المسيح السري؛ لكن لو كان أساقفتها مالكي عبيد وحكام إقطاعيات، كما كانوا في الماضي، أو لو كانت المؤسسة مؤسسة رأسمالية على نطاق عريض، كما هو الحال اليوم، فمن غير الممكن لأي ألقاب -مهما كانت مشرفة- أن تلغي حقيقة أنها عندما تمرر حكمًا، فإنها تفعل ذلك من منطلق كونها حزبًا له مصالح وبعض المآرب السياسية والاقتصادية. ومن الصحيح أن رجال الكنيسة قد يبرهنون فرادى عن أنهم ربما يكونون -وقد كانوا بالفعل- منزهين تمامًا من الغرض في الأمور التي لا تعنى مباشرة بالسلطة الزمنية -وهو ما يترتب عليه أنهم ربما يمتلكون سلطانًا روحيًّا حقيقيًّا- وقد امتلكوه بالفعل. والقديس فيليب نيري مثال جيد تمامًا على ذلك. كان يبذل تأثيرًا هائلًا على أوروبا القرن السادس عشر بسبب افتقاره لأي سلطة زمنية على الإطلاق. لكن بسبب هذا التأثير قد نشك فيما إذا كانت جهود مجمع ترنت[١] من أجل إصلاح الكنيسة الرومانية من الداخل قد أتت أكلها وحققت نجاحًا.

في أرض الواقع، كم عدد الرجال العظماء الذين أوفوا أو كان من المحتمل أن يوفوا بالشروط التي تجعل من السلطة أمرًا حميدًا لكل من الحاكم والمحكوم؟ من الواضح أنه عدد قليل جدًّا. مشكلة السلطة هي مشكلة بلا حل في النهاية إلا من خلال قديسين. لكن بسبب أن الحكم الذاتي الحقيقي ممكن فقط ضمن جماعات صغيرة جدًّا، نجد أن

(١) مجمع ترنت: عُقد بين عامي ١٥٤٥ و١٥٦٣ في ترنت شمال إيطاليا؛ مدفوعًا بمحاولة للإصلاح المضاد في مواجهة حركة الإصلاح البروتستانتية.

المجتمعات على المستوى القومي والمستوى متعدد القوميات سوف تحكمها دائمًا أقليات أوليجاركية، يصل أعضاؤها إلى السلطة لأن لديهم شهوة نحو السلطة. وهو ما يعني أن مشكلة السلطة سوف تظهر دائمًا، وسوف تمثل أزمة لأنه لا يمكن حلها إلا عن طريق أناس على شاكلة فرنسيس دي ساليس. وهو ما يعني بدوره أنه لا يمكننا توقع أن مجتمعات المستقبل الكبيرة سوف تكون أفضل حالًا بكثير مما كانت عليه مجتمعات الماضي خلال الفترات الوجيزة التي كانت فيها في أفضل حالاتها.



* * *

الفصل السابع

الحقيقة

«لماذا تثرثر «أنت» عن الرب؟ أيًّا ما تقوله «أنت» عنه، فهو غير حقيقي».

إكهرت.

تستخدم كلمة «حقيقة» في المتون الدينية بشكل غير محدد، إذ إنها تأتي بثلاثة معانٍ على الأقل وهي معانٍ مختلفة ومتمايزة. لذلك، تعامل في بعض الأحيان باعتبارها مرادفة «للموجود فعليًّا»، مثلما تأتي عندما نشدد على أن الرب حقيقة – بمعنى أنه الوجود الأول. لكن من الواضح أن هذا ليس معنى الكلمة في جملة على شاكلة «يسجدون للرب بالروح والحقيقة». من الواضح هنا أن «الحقيقة» تدل على الاستيعاب المباشر لليقين الروحي، مقارنة بالمعرفة المأخوذة عن أحد حول الوجود، تلك المعرفة المصاغة في جمل أو المقبولة بفعل ما لها من سلطان أو بسبب حجاج له وجاهته المنطقية، كان قد دار حول افتراضات مسلم بها. وأخيرًا هناك معنى الكلمة الأكثر اعتيادًا، مثلما يأتي في جملة على

شاكلة، «هذه العبارة هي الحقيقة»، حيث نشدد على أن الرموز اللفظية التي تتكون منها العبارة موافقة للحقائق التي تشير إليها. عندما كتب إكهرت أن «أيًا ما تقوله «أنت» عن الرب فهو غير حقيقي»، لم يكن يشدد على أن الشروح اللاهوتية خاطئة. طالما كان هناك توافق من نوع ما بين الرموز البشرية والحقائق الإلهية، فسوف تكون بعض الشروح اللاهوتية صحيحة حسب قدرتنا على صياغتها. كان إكهرت اللاهوتي نفسه ليعترف بهذا. لكن إلى جانب كونه لاهوتيًا، كان إكهرت متصوفًا. ولأنه متصوف فقد فهم بشكل واضح تمامًا ما كان متخصصو دراسة المعنى اللغوي مشغولين جدًّا بمحاولة إعادته مرارًا وتكرارًا على العقول المعاصرة (ومن الجدير بالذكر أنهم لم يحققوا النجاح الكافي في هذا الخصوص كذلك)، لقد انشغلوا بالتشديد على أن الكلمات ليست هي الأشياء نفسها، وأن المعارف التي تتيحها الكلمات عن الحقائق ليست مكافئة بأي حال لفهم الحقائق نفسها بشكل مباشر وفوري. يشدد إكهرت على التالي: أيًا ما قد يقوله المرء عن الرب يستحيل في أي حال أن يكون «الحقيقة» بالمعنين الأولين للكلمة الملتبسة التي يُساء استخدامها. كان القديس توما الأكويني يقول الشيء نفسه تمامًا ضمنًا عندما رفض أن يمضي في عمله اللاهوتي بعدما تشبعت خبراته التأملية، إذ صرح أن كل شيء قد كتبه حتى ذلك الوقت مجرد هباء منثورًا مقارنة بالمعرفة المباشرة التي وُهبت له. كان عالم الدين العظيم أبو حامد الغزالي قد تحول بشكل مشابه من العناية بالحقائق حول الرب إلى التأمل والإدراك المباشر للحقيقة على وجه اليقين، تحول من التدريب الفكري الخالص الذي للفلاسفة إلى التدريب الأخلاقي والروحي الذي للمتصوفة.

دلالة كل هذا جلية تمامًا. في أي وقت نسمع أو نقرأ عن «الحقيقة»، علينا أنا نتوقف دائمًا لوقت طويل يكفي كي نسأل أنفسنا عن معنى الكلمة المستخدمة في هذه اللحظة من بين المعاني الثلاثة المذكورة سابقًا. سوف نحمي أنفسنا إلى حد كبير من التشوش الذهني المزعج وغير الضروري أبدًا عن طريق هذا الاحتياط البسيط (وهو فعل فاضل في الأساس مبعثه أمانة فكرية).

«يسمح بوذا متلاعبًا للكلمات أن تهرب من فمه الذهبي، رغبة منه في اجتذاب العميان؛ مُلئت السماء والأرض منذ ذلك الحين بزهور برية ذات أشواك متشابكة».

داي أو كوكوشي[1].

لا وجود لشيء حقيقي في أي مكان.

لا يمكن العثور على الحق في أي مكان.

إذا قلت إنك قد رأيت الحق،

فهذا الذي رأيته ليس الواحد الحق.

عندما يُترك الحق في ذاته،

فلا وجود لشيء زائف فيه، إذ إنه حينها هو العقل نفسه.

عندما لا يُحرر العقل في ذاته من الزيف،

(١) داي أو كوكوشي (١٢٣٥ - ١٣٠٩): راهب زن ياباني.

«فلا وجود لشيء حقيقي؛ لا يمكن العثور على الحق في أي مكان».

هيو ننج.

«لم يعظ بوذا أبدًا في شأن الحقيقة عينها، يرى أنه على المرء أن يدركها داخل نفسه».

سوترا لامكارا.

«كلما ارتحل المرء مبتعدًا، كلما قل ما يعرف».

لاو تسو.

«صرخ القرد: «استمع إليَّ، بعد كل الصعاب التي لحقت بنا كي نصل من الصين إلى هنا، وبعد أن أمرت أنت بشكل خاص أن علينا تلقي النصوص المقدسة. قام أناندا وكاشيابا[١] بتسليم فيه تدليس. أعطونا صحفا فارغة كي نذهب بها؛ وأنا أسألك، ما نفع ذلك لنا؟».

قال بوذا مبتسمًا: «لا حاجة بك للصراخ... في الواقع، مثل هذه اللفائف الفارغة هي النصوص المقدسة حقيقة. لكنني أظن تمامًا أن ناس الصين حمقى وجهلاء للغاية كي يصدقوا في هذا، لذلك لم يكن هناك بد من إعطائهم صحفًا فيها كتابات».

وو تشنغن[٢].

---

(١) أناندا وكاشيابا: اثنان من أهم كتاب شرائع البوذية.

(٢) وو تشنغن (١٥٠٠ - ١٥٨٢): شاعر وروائي صيني، أشهر رواياته (الرحلة نحو الغرب)، وهي تحكي عن الناسك شوانزانغ الذي سافر إلى الهند بحثًا عن نصوص مقدسة بصحبة قرد وخنزير وسمكة.

«الفلاسفة بارعون كفاية حقًّا، لكنهم راغبون بشدة في الوصول إلى الحكمة؛

هم بالنسبة إلى الآخرين إما جهلاء وإما طفوليون!

ينظرون إلى قبضة فارغة كأنها تحتوي على شيء فعلي، وإلى الإصبع الذي يشير كأنه الهدف المشار إليه.

كل جهودهم ضائعة؛ لأنهم ينظرون إلى الإصبع كأنه القمر».

يوكا دايشي[١].

«ما هو معروف باعتباره تعاليم بوذا، ليس تعاليم بوذا».

السوترا الماسية.

- ما هي ذروة تعاليم البوذوية؟

- لن تفهمها حتى تحظى بها.

شي تاو[٢].

موضوع الفلسفة الخالدة هو طبيعة الوجود الروحي الأزلي؛ لكن اللغة التي تُصاغ بها طُورت من أجل التعامل مع ظاهرة زمنية. وهذا هو السبب وراء أننا نجد في كل هذه الصياغات شيئًا من التناقض. لا يمكن وصف الحقيقة على وجه اليقين باستخدام الرموز اللفظية التي لا تتوافق معها بالشكل المناسب. في أفضل الأحوال يمكن إعطاء لمحة عنها باصطلاحات متناقضة ومتضاربة.

---

(١) يوكا دايشي (٦٦٥ - ٧١٣): راهب بوذي.

(٢) شي تاو (١٦٤٢ - ١٧٠٧): رسام وشاعر صيني.

وقد اختار بعض كتاب الروحانيات أن يضيفوا إلى هذه المتناقضات قدرًا فادحًا متعمدًا ومحسوبًا من ألاعيب اللغة - مقولات صعبة ومبالغات وعبارات مسرفة حمالة أوجه أو مرحة، مصممة من أجل إدهاش القارئ وصدمه خارج ذلك الإعجاب الراضي عن الذات، الذي هو الخطيئة الأصلية للفكر. كان معلمو الطاوية وبوذية الزن مغرمين بهذا النوع الثاني من المفارقات. استفادوا فعليًّا من المغالطات وحتى الهراء كوسيلة من أجل جعل «ملكوت السماوات يُغصب»[1]. شُجِّع الطامحون إلى حياة الكمال على ممارسة التأمل القائم على الاستطراد المنطقي، وهو تأمل في أمر لا يخضع للمنطق أبدًا. كانت النتيجة نوعًا من برهان الخلف[2] لكل عملية الاستطراد المنطقي المتمركزة حول الذات والمتمركزة حول العالم وفتحًا جديدًا مفاجئًا بالانتقال من «العقل» (بلغة الفلسفة السكولائية) إلى التفكير الحدسي، القادر على التبصر الأصيل في الأصل الإلهي للموجودات. يصدمنا هذا المنهج بكونه غريبًا ومتطرفًا؛ لكن تبقى حقيقة أنه يعمل إلى درجة بعث الميتانويا (تغير العقل) أو تغير الوعي والشخصية.

استخدام الزن للعبارات المسرفة الهزلية من أجل تأكيد الحقائق الفلسفية التي يعتبرونها شديدة الأهمية واضح للغاية في المقتطفات المقتبسة سابقًا. لسنا مستعدين جديًّا لنتصور أن أفاتارا (تجسدًا) يعظ من أجل أن يمزح مزاحًا ثقيلًا مع الجنس البشري. لكن المؤلف نجح

---

(١) إنجيل متى ١١ : ١٢.

(٢) برهان الخلف: هو برهان منطقي قائم على البرهنة على صحة قضية ما عن طريق إبطال نقيضها.

في الوقت نفسه في إدهاشنا بالخروج عن الرضى المعتاد تجاه العالم اللفظي الذي صاغه البشر والذي نحيا فيه أغلب الوقت. الكلمات ليست حقائق، وبدرجة أكبر هي ليست الحقيقة الأولى. إذا ما أخذناها بجدية شديدة للغاية، فسوف نضل سبيلنا في غابة من الزهور البرية المتشابكة ذات الأشواك. لكن على العكس من ذلك، إذا لم نأخذها بالقدر الكافي من الجدية، فسوف نظل غير منتبهين إلى وجود سبيل قد نضيعه أو هدف قد نصل إليه. لو لم يعظِ المستنير، فلن يكون هناك خلاص لأحد. لكن نظرًا إلى أن العقول البشرية واللغات البشرية على ما هي عليه، فهذا الوعظ الضروري واللازم تكتنفه الأخطار. تاريخ الأديان كلها متشابه في منحى واحد مهم؛ فبعض معتنقيها نالوا الاستنارة والخلاص؛ لأنهم اختاروا أن يستجيبوا بالشكل المناسب تجاه الكلمات التي أوضحها المؤسسون؛ أما البعض الآخر فيحقق خلاصًا جزئيًّا عن طريق الاستجابة على نحو ملائم جزئيًّا؛ إلا أن هناك آخرين يلحقون الأذى بأنفسهم ورفاقهم عن طريق الاستجابة بشكل غير مناسب تمامًا - إما عن طريق تجاهل الكلمات بالكلية وإما -وهو الأمر الأكثر غلبة- عن طريق أخذها بشكل جدي للغاية ومعاملتها كأنها مماثلة للحقائق التي تشير إليها.

لقد أدرك كل شراح الفلسفة الخالدة أن هذه الكلمات كانت لازمة مرة ومهلكة في حالات عدة. لذلك تحدث يسوع عن نفسه بوصفه مَن جلب إلى العالم شيئًا يعتبر أسوأ من الزهور البرية ذات الأشواك - السيف. فرَّق القديس بولس بين الحرف الذي يقتل والروح التي تحيي. وطوال القرون التالية وجد معلمو الروحانية المسيحية أنه من الضروري التأكيد مرارًا وتكرارًا ومرة تلو الأخرى على أمر لم يعفُ عليه الزمن

أبدًا لأن الإنسان المتكلم homo loquax، الحيوان المتكلم لا يزال مبتهجًا بسذاجة بمنجزه الرئيس، لا يزال ضحية كلماته وبلا حول، مثلما كان حاله عندما كان برج بابل يُبنى. شهدت السنوات الأخيرة نشر أعمال متعددة عن علم الدلالة (السيمانطيقا) ونشر طوفانًا من الدعاية القومية والعنصرية والعسكرية. لم يحذر عدد كبير من الكتاب المتمكنين البشرية من مخاطر الخطابات المغلوطة أبدًا - كما لم يستخدم السياسيون الكلمات من قبل بمثل هذا الطيش أو يأخذها العامة بمثل هذه الجدية. حقيقة الأمر ثابتة بصورة مؤكدة كفاية، إذ إن المشاكل القديمة تبقى كما كانت دائمًا - عاجلة وغير محلولة وتبدو بلا حل من كافة الأوجه، تتغير صورها فقط.

«كل ما يقدر الخيال على تصوره، وكل ما يدركه العقل ويفهمه في هذه الحياة، ليس وسيلة مباشرة للاتحاد بالرب، ومن المستحيل أن يكون كذلك».

القديس يوحنا الصليب.

«قد تبسط الافتراضات الصبيانية والعقيمة طيات ثوب الحقيقة، لكن ليس في إمكانها اكتشاف وجهه المحبب».

جون سميث، الأفلاطوني.

«يظهر وجه الوجوه في كل الوجوه، محتجبًا وفي أحجية. إلا أنه لا يُرى بلا حجاب، حتى يدخل الإنسان في صمت سري وصوفي دون كل الوجوه، حيث لا وجود في هذا الصمت لمفهوم الوجه أو معرفة به. هذا الضباب أو الغمام أو الظلمة أو الجهل التي يدخلها من يبحث عن وجه

الكريم -عندما يمضي إلى ما وراء كل المعارف أو المفاهيم- هي الحالة التي لا يمكن العثور على وجه الكريم دونها، إلا محجوبًا؛ لكن تلك الظلمة الشديدة تكشف عن وجود وجه الكريم هناك وراء كل الحجب. لذلك لاحظت كم أنا في حاجة إلى دخول الظلمة وإلى الاعتراف بوقوع المتضادات معًا، فيما وراء كل إدراك للعقل، وهناك يمكن البحث عن الحقيقة، حيث تلتقي بنا الاستحالة».

نيقولاس الكوزاني[١].

«ولأن الألوهة غير معينة، وكل تعيين لها غريب عنها، لذلك فالنفس غير معينة أيضًا؛ إذ إنها هنا مثلها كمثل الرب».

إكهرت.

«لأن الرب بعيد المنال، لا يقع في نطاق تدبر الأشياء التي تدركها الحواس أو يستوعبها الفهم. إرضاء هذا التدبر بما هو أقل من الرب؛ سوف يدمر طاقة النفس، الضرورية من أجل المضي في معيته».

القديس يوحنا والصليب.

«لن يكون حالك أبدًا سواء هنا أو في الآخرة العثور على الرب أو معرفته على وجه الحقيقة عن طريق أي براهين خارجية أو عن طريق أي شيء بخلاف ما يجعله الرب نفسه جليًّا وبديهيًّا فيك. إذ إنه لا الرب ولا السماء ولا الجحيم ولا الشيطان ولا اللحم يمكن أن يُعرفوا فيك أو أن تعرفهم عن طريق أي سبيل سوى وجودهم وتجليهم فيك. وكل المعرفة الظاهرية بأي من هذه الأشياء -خارج الإدراك البديهي لميلادهم داخلك

---

(١) نيقولاس الكوزاني (١٤٠١ - ١٤٦٤): لاهوتي وفيلسوف ورياضي ألماني.

ومن دونه- تشبه تمامًا معرفة الأعمى بالضوء الذي لم يدخل فيه أبدًا».

ويليام لو.

فيما يلي ملخصٌ صاغه دارس بارز للمذاهب الهندية، يتعلق بالجنانا، معرفة البراهمان (أو الأصل الإلهي) المُحرِرة.

«الجنانا أزلية وعامة وضرورية وليست معرفة شخصية لهذا المرء أو ذاك. هي هناك بوصفها معرفة بالأتمان نفسه، تقبع هناك مختفية تحت كل أفيديا (جهل)، لا تمكن زحزحتها - وعلى الرغم من أنها قد تكون غامضة وغير قابلة للإثبات؛ لأنها بديهية، إلا أنها لا تحتاج إلى برهان، لأنها هي نفسها ما يمنح كل برهان الأساس الذي تنهض إمكانيته عليه. تقترب هذه الجمل من «معرفة» إكهرت وتعاليم أوغسطينوس عن الحقيقة الأزلية في النفس وهي المعرفة اليقينية في حد ذاتها، وهو يقين مباشر وأصل كل يقين، هذه المعرفة هي ملك «النفس»، لا ملك أ أو ب».

رودولف أوتو[١].

علم الجمال ليس مماثلًا لممارسة وتذوق الفنون ولا حتى وسيلة للدنو من ذلك. كيف يمكن للمرء أن يتعلم أن تخطف اللوحات عينيه أو أن يصبح رسامًا جيدًا؟ بالتأكيد ليس عن طريق قراءة بينيدتو كروتشه[٢]. يتعلم المرء الرسم عن طريق الرسم، ويتعلم المرء تذوق اللوحات عن طريق ارتياد معارض الرسوم والنظر إليها.

لكن ذلك لا يعني أن كروتشه ورفاقه قد أهدروا أعمارهم. يجب

---

(١) رودولف أوتو (١٨٦٩ - ١٩٣٧): لاهوتي وفيلسوف ألماني.

(٢) بينيدتو كروتشه (١٨٦٦ - ١٩٥٢): فيلسوف ومؤرخ إيطالي.

أن نمتن لهم من أجل جهودهم التي بذلوها لبناء نسق فكري، يمكن عن طريقه تقييم دلالة وقيمة الفن -اللذين يدركان مباشرة- في ضوء المعرفة العامة المتصلة بحقائق الخبرة الأخرى، وبهذه الطريقة وبهذا القدر «يمكن تفسيرهما».

وما هو صحيح فيما يتعلق بعلم الجمال صحيح كذلك فيما يتعلق باللاهوت. للافتراضات اللاهوتية قيمتها طالما كانت تمكن أولئك الذين لديهم خبرة مباشرة بالجوانب المختلفة للرب من تشكيل أفكار مفهومة حول طبيعة الأصل الإلهي وحول علاقة خبرتهم بالأصل الإلهي بالخبرات الأخرى. ومن المفيد تطوير نظام لاهوتي متسق طالما كان يقنع أولئك الذين يدرسونه أنه لا وجود لتناقض ذاتي متأصل في مسلمة الأصل الإلهي، وأن المسلمة قد تصبح حقيقة مدركة بالنسبة إلى أولئك الذين هم على استعداد للوفاء بشروط معينة. غير أنه لا يمكن تحت أي ظرف أن تحل دراسة اللاهوت أو الإجماع العقلي على الفرضيات اللاهوتية محل ما أطلق عليه لو «ميلاد الرب بالداخل». إذ إن النظرية ليست هي الممارسة والكلمات ليست هي الأشياء التي ترمز إليها.

«شكَّل المتصوفون العظماء -خصوصًا القديس أوغسطينوس والقديس توما- اللاهوت كما نعرفه. وما كان للكثير من اللاهوتيين الآخرين العظماء -خصوصًا القديس جريجوري والقديس برنارد ونزولًا حتى إلى القديس سواريز[1]- أن يحظوا بمثل هذا التبصر من دون المعرفة الفوقية الصوفية».

أبوت جون تشابمان.

---

(١) فرانسيسكو سواريز (١٥٤٨ - ١٦١٧): لاهوتي وفيلسوف إسباني.

علينا أن نعرض منظور د. تينانت[1] في مقابل هذا، إذ يرى أن الخبرة الدينية هي شيء واقعي ومتفرد، لكنها لا تضيف أي شيء إلى المعرفة اليقينية النهائية للذي يختبرها ويجب أن تأول دائمًا من حيث كونها فكرة عن الرب مستقاة من مصادر أخرى. ترجح دراسة للحقائق أن الرأيين كليهما صائب بدرجة ما. تُبرِّر حقائق التبصر الصوفي (إلى جانب ما ينظر إليه باعتباره وحيًا تاريخيًّا) من حيث كونها معارف عامة وتصبح أساس اللاهوت. ومن الجهة الاخرى، يبذل لاهوت موجود -من حيث كونه معرفة عامة- تأثيرًا عميقًا على أولئك الذين اتخذوا سبيل الحياة الروحية، متسببا في جعلهم راضين بصورة أدنى من المعرفة إذا كان لاهوتهم من درجة دنيا، أو في جعلهم يرفضون أي خبرة بالحقيقة من أي نوع باعتبارها غير كافية إذا كان لاهوتهم من درجة عالية، إذ إن للحقيقة صفات لا تتفق مع تلك التي للرب الموصوف في الكتب. هكذا تخلق الصوفية اللاهوت ويخلق اللاهوت الصوفية. الشخص الذي يقبل بمعتقد يجانبه الصواب أو الذي يمنح كل انتباهه وإخلاصه إلى معتقد واحد على صواب ضمن نظام شامل، بينما يتجاهل المعتقدات الأخرى (مثلما يركز كثير من المسيحيين حصرا على الأقنوم الثاني في الثالوث، متجاهلين الآب والروح القدس) يخاطر بتقييد فهمه المباشر للحقيقة مقدمًا. الخبرة تحددها الخبرة فقط في الدين، كما هو الحال في العلوم الطبيعية. ومن المهلك الحكم بشكل مسبق عليها، من أجل إجبارها كي تناسب قالبًا مفروضًا نظريًّا، إما أنه لا يتفق مع الحقائق على الإطلاق، أو يتفق مع بعض الحقائق فقط. كتب أحد معلمي الزن: «لا تستميتوا في سعيكم وراء الحقيقة، توقفوا

---

(١) فردريك روبرت تينانت (١٨٦٦ - ١٩٥٧): لاهوتي وفيلسوف إنجليزي.

عن التعلق بالآراء فقط». يوجد سبيل واحد فقط لعلاج آثار الاعتقاد في لاهوت زائف أو غير كامل، وهو كذلك السبيل الوحيد المعروف نفسه للعبور من الاعتقاد في أصدق لاهوت إلى المعرفة أو الحقيقة الأولى - إنكار الذات والسلاسة والانفتاح نحو المعرفة بالأزل. الآراء هي أشياء من صنعنا، وبالتالي في إمكاننا فهمها وصياغتها والجدال حولها. لكن الركون إلى «الأشياء التي تدركها الحواس أو يستوعبها الفهم هو إرضاء لهذا التدبر بما هو أقل من الرب»، بحسب كلمات القديس يوحنا الصليب. يمكن فقط للذين «توقفوا عن التعلق بالآراء» -حتى تلك الآراء الصحيحة بقدر ما هو ممكن بالنسبة إلى التجريدات اللفظية- أن يصلوا إلى معرفة اتحادية بالرب.

«أما بعد، أيتها النفس النبيلة! ارتدي حذاء القفز الخاص بكِ، والذي هو الفكر والحب، واقفزي فوق تبجيل قواكِ الذهنية، واقفزي فوق فهمكِ، واندفعي في قلب الرب، في حجابه، حيث تحتجب ذاته التي هي أنتِ عن كل المخلوقات».

إكهرت.

«على الواحد أن يمضي إلى ما وراء الكلمة والتمييز بمشكاة الكلمة والتمييز، وأن يدخل سبيل الإدراك».

لانكافاترا سوترا.

يستخدم إكهرت كلمة «فطنة» بالمعنى السكولائي والذي هو البداهة المباشرة. يقول الأكويني: «الفطنة والعقل ليسا قوتين اثنتين، لكنهما مختلفان اختلاف الكامل وغير الكامل... تعني الفطنة نفاذًا خاصًّا إلى

الحقيقة، أما العقل فتساؤل وخطاب». يمكن للمرء عن طريق اتباع السبيل العقلي والعاطفي «للكلمة والتمييز» ثم التخلي عنه، الولوج إلى «سبيل الإدراك» الفطن أو البديهي. ومع ذلك، على الرغم من التحذيرات التي يهتف بها أولئك الذين عبروا عن طريق إنكار الذات من الكلمة إلى الروح ومن النظرية إلى المعرفة المباشرة، أصرت الكنائس المسيحية النظامية على عادة مهلكة، ألا وهي خلط الوسائل بالغايات. أُخذت عبارات اللاهوت اللفظية -والتي هي تبرير من نوع ما للخبرة- بشكل جاد للغاية وعاملتها بتوقير، يرجع في الأساس إلى الحقيقة المراد منها وصفها. توهموا أن النفوس تنجو إذا ما وافقت على ما يعتبر الصياغة الصحيحة لدى جماعة ما، وتضيع إذا ما امتنعت عن تلك الموافقة. ربما لا تكون الكلمتان «ومن الابن»[1] **filioque** السبب الوحيد للشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية؛ لكنهما كانتا بلا شك حجة وذريعة الحرب.

قد تعتبر المغالاة في تقييم الكلمات والصيغ بمثابة حالة خاصة لتلك المغالاة في تقييم الأشياء التي تنتسب إلى الزمن، وهي الصفة المهلكة للغاية المميزة للمسيحية التاريخية. معرفة الحقيقة على وجه اليقين ومعرفتها اتحادًا «بالروح والحقيقة في صورة استيعاب مباشر» - هو الخلاص، عليه «تنهض حياتنا الأبدية». أما ألفة الحقائق اللفظية -التي تتوافق رمزيًّا مع الحقيقة على وجه اليقين بقدر ما يمكن تمييزها في حقيقة الاستيعاب المباشر أو حقيقة الوحي التاريخي، أو الاستدلال

---

(١) ومن الابن **filioque**: تؤمن الكنيسة الشرقية في أن الروح القدس منبثق من الآب بينما تذهب الكنيسة الغربية إلى أنه منبثق من الآب ومن الابن.. وكلمة **filioque** كلمة لاتينية، تعني «من الابن».

عليها منهما- فليست خلاصًا، لكنها مجرد دراسة لفرع خاص في الفلسفة. حتى أكثر الخبرات اعتيادًا بشيءٍ أو حدثٍ في الزمن لا يمكن وصفها بالكلمات بشكل كامل أو مناسب. لا يمكن توصيل خبرة رؤية السماء أو الشعور بالتهاب الأعصاب للآخرين؛ أفضل ما يمكننا القيام به هو أن نقول «زرقاء» أو «ألم»، على أمل أن أولئك الذين يسمعوننا كانوا قد حظوا بخبرات مماثلة للخبرة الخاصة بنا، وبالتالي قادرين على الإتيان بنسخة المعنى الخاصة بهم. إلا أن الرب ليس شيئًا أو حدثًا في الزمن، والكلمات المرتبطة بالزمن التي لا تستطيع إنصاف حتى الأمور الزمنية، لا تناسب بدرجة أكبر الطبيعة الداخلية وخبرتنا الاتحادية بذلك الذي ينتمي إلى نسق آخر غير قابل للقياس. افتراض أن الناس قد ينجون عن طريق دراسة الصيغ والإقرار بها مشابه لافتراض أن المرء يستطيع الذهاب إلى تمبكتو[1] عن طريق التحديق في خريطة أفريقيا. الخرائط رموز، بل إن أفضلها يعتبر رموزًا غير دقيقة أو كاملة. لكن الخرائط بالنسبة إلى أي أحد يرغب بالفعل في الوصول إلى وجهة معينة، تعتبر مفيدة بشكل لا غنى عنه، إذ تحدد الاتجاه الذي على المسافر أن ينطلق فيه والطريق الذي عليه أن يأخذه.

اعتُبرت الكلمات في الفلسفة البوذية المتأخرة أحد العوامل الأولية المحددة للتطور الإبداعي للمخلوقات البشرية. يمكن التعرف على خمس فئات للكينونة في هذه الفلسفة - الاسم والمظهر والتمييز والمعرفة الصحيحة والهكذائية. تتعلق الثلاثة الأولى بالشر، وتتعلق

(١) تمبكتو: مدينة في شمال مالي.

الاثنتان الأخريان بالخير. يمكن تمييز المظاهر عن طريق أعضاء الحس ثم تجسدها التسمية. لذلك تعامل الكلمات باعتبارها هي الأشياء، وتستخدم الرموز باعتبارها مقياس الواقع. واللغة وفق ذلك هي مصدر الشعور بالانفصال وفكرة الاكتفاء الذاتي الفردي التجديفية وما يستتبع ذلك من جشع وحسد واشتهاء للسلطة وغضب وقسوة. ويصدر عن هذه العواطف الشريرة الحاجة إلى وجود منفصل ممتد بلا حد ومتجدد في ظل أحوال الرغبة والافتتان المتجددة ذاتيًّا. يتمثل المهرب الوحيد في فعل إبداعي للإرادة، مدعوم بإنعام بوذا، يقود عن طريق إنكار الذات إلى المعرفة الصحيحة، والتي تكمن في أشياء عدة، من بينها التقييم الصحيح للأسماء والمظاهر والتمييز. يغادر المرء عن طريق المعرفة الصحيحة ضلالات الافتتان بـ «أنا» و«لي» و«ملكي»، ويقاوم إغراء إنكار العالم الذي يورث حالة من النشوة غير الناضجة، أحادية الجانب، كما يقاوم إغراء إقرار العالم عن طريق العيش مثل الرجل الشهواني العادي، وفي النهاية يصل المرء إلى تبدل الوعي، إذ تصبح السامسارا والنيرفانا واحد، كما يصل إلى استيعاب اتحادي للهكذائية الخالصة - الأصل النهائي، والذي يمكن الإشارة إليه فقط -لا وصفه- عن طريق الرموز اللفظية.

وفي اتصال بمنظور معتنقي المهايانا الذاهب إلى أن الكلمات تلعب دورًا هامًّا بل وإبداعيًّا في تطور الطبيعة البشرية الضالة، قد نأتي على ذكر حجج هيوم[1] ضد واقعية السببية. تبدأ هذه الحجج من المسلمة الذاهبة إلى أن كل الأحداث «مفككة ومنفصلة» عن بعضها، ومن ثم

(١) ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦): أسكتلندي وأحد أشهر الفلاسفة الذين تركوا بصمة في تاريخ الفكر الإنساني.

تمضي حججه مستعينة بمنطق لا يخطئ إلى استنتاج يجعل من كل التفكير المنظم والأفعال الهادفة هراء تام. يقع الخطأ -كما أوضح بروفيسور ستويت- في المسلمة الأولية. وعندما نسأل أنفسنا ما الذي حدا بهيوم إلى طرح هذه الفرضية الشاذة وغير الواقعية تمامًا والتي تذهب إلى أن الأحداث «مفككة ومنفصلة»، نجد أن علته الوحيدة كي يتحول ضد الخبرة المباشرة هي أن الأشياء والحوادث في الحقيقة تُطرح رمزيًّا في تفكيرنا عن طريق الأسماء والأفعال والصفات، وهذه الكلمات هي فيما يتعلق بفعاليتها «مفككة ومنفصلة» عن بعضها، بطريقة من الواضح أن الأحداث والأشياء التي تدل عليها هذه الكلمات لا تتفق معها. فرض هيوم النمط غير المترابط أو النقطي **pointillist** الذي للغة على اتصالية الخبرة الفعلية، وذلك نتيجة تعاطيه مع الكلمات باعتبارها مقياسًا للأشياء بدلًا من أن تكون الأشياء هي مقياس الكلمات، وهو ما اقتضى النتائج المتضاربة في استحالة والتي نحن جميعًا على ألفة بها. أغلب البشر ليسوا فلاسفة ولا يهتمون إطلاقًا طوال الوقت بالفكر أو الفعل. لذلك يُسلِّمون في بعض الأحوال بأن الأحداث ليست «مفككة ومنفصلة» بل توجد معًا أو يتبع أحدها الآخر داخل المجال المُنظَّم والمُنظِّم للكل الكوني. لكنهم في مناسبات أخرى عندما يكون المنظور العكسي أكثر تماشيًا مع عواطفهم واهتماماتهم يتبنون -بصورة لا واعية تمامًا- موقف هيوم ويعالجون الأحداث كأنها مستقلة عن بعضها البعض وعن بقية العالم مثلما هي الكلمات التي ترمز إلى هذه الأحداث. هذا صحيح بوجه عام فيما يتعلق بكل الوقائع التي تتضمن «أنا» و«لي» و«ملكي». بتجسيدنا للأسماء «المفككة والمنفصلة»،

نعتبر أن الأشياء هي الأخرى مفككة ومنفصلة كذلك - ليست خاضعة لقانون ولا مضمنة في شبكة العلاقات، والتي ترتبط عن طريقها في الحقيقة ببيئتها الفيزيائية والاجتماعية والروحية. ننظر إلى الفكرة الذاهبة إلى عدم وجود أي عملية سببية في الطبيعة وإلى عدم وجود اتصال عضوي بين الأحداث والأشياء في حيوات الناس الآخرين باعتبارها فكرة عبثية؛ لكننا في الوقت نفسه نقبل بالمفهوم الذاهب إلى أن الأنا المقدسة الخاصة بنا «مفككة ومنفصلة» عن الكون كأنه مسلمة، وهو قانون في حد ذاته فوق الدارما الأخلاقية، بل فوق قانون السببية الطبيعي من أوجه عدة. شُجِّع الرهبان والراهبات في البوذية والكاثوليكية على اجتناب استخدام الضمائر الشخصية والحديث عن أنفسهم في صورة إطناب يشير بوضوح إلى علاقتهم الفعلية بالواقع الكوني ورفاقهم من المخلوقات. كان التحذير حكيمًا. استجاباتنا للكلمات المألوفة ردود فعل انعكاسية شرطية. يمكننا القيام بشيء من أجل تغيير الاستجابة عن طريق تغيير المؤثر. لا لجرس بافلوف[1] ولا لسيلان اللعاب؛ لا لترديد كلمات مثل «أنا» و«لي» و«ملكي» مرارًا وتكرارًا، لا للأنانية الخالصة الآلية وغير الانعكاسية. عندما يتحدث راهبًا عن نفسه، لا بصفته «أنا» لكن بصفته «هذا المذنب» أو «هذا الخادم غير النافع»، فإنه يتوقف عن اعتبار ذاتيه «المفككة والمنفصلة» أمرًا مسلمًا به، ويجعل نفسه واعيًا

---

(١) إيفان بافلوف (١٨٤٩ - ١٩٣٦): عالم وظائف أعضاء روسي، أهم أعماله نظرية الاستجابة الشرطية، إذ إن أي مؤثر محايد قد يثير استجابة ما إذا ما ارتبط دائمًا بأمر آخر يثير هذه الاستجابة.. كأن يسيل لعاب الكلب قبل أن يرى الطعام، وذلك بمجرد رؤيته لمن يقدم له الطعام أو سماعه لجرس تقديم الطعام.

بعلاقته الفعلية والعضوية بالرب وإخوانه.

تستخدم الكلمات عند الممارسة من أجل أغراض أخرى غير القيام بإفادات عن الحقائق. تستخدم في كثير من الأحيان بشكل بلاغي، من أجل استثارة العواطف وتوجيه الإرادة نحو مسار معين للفعل، يعتبر مرغوبًا. وتستخدم في أحيانٍ أخرى كذلك بشكل شعري - بمعنى أنه إلى جانب استخدامها للقيام بإفادات عن الأشياء والأحداث الفعلية والخيالية، وإلى جانب جذبها للإرادة والعواطف بلاغيًا، تستخدم بالطريقة التي تسبب انتباه القارئ إلى جمالها. الجمال في الفن أو الطبيعة هو مسألة علاقات بين أشياء ليست جميلة جوهريًا في حد ذاتها. على سبيل المثال، لا شيء جميل في لفظتي «دهر» أو «جملة». لكن عندما نستخدمهما في عبارة على شاكلة «وحتى آخر جملة في سجل الدهر»[1]، فإن العلاقة بين معاني الكلمات المكونة للجملة، وبين أفكارنا عن الأشياء التي تدل عليها وبين المعاني الإضافية المحمل بها ارتباط الكلمة بالعبارة ككل، تُدرك عن طريق البديهة المباشرة واللحظية بوصفها جميلة.

لا حاجة لقول المزيد عن الاستخدام البلاغي للكلمات. توجد بلاغة لأغراض جيدة وبلاغة لأغراض سيئة - بلاغة صحيحة بشكل مستساغ بخصوص ما تعرضه من حقائق وكذلك هي محرضة عاطفيًا، وبلاغة ما هي إلا كذب سواء كان كذب لا واعيًا أو متعمدًا. تَعلُّم التمييز بين أنواع البلاغة المختلفة هو جانب جوهري من جوانب الفضيلة العقلية؛

---

(١) مقطع من المشهد الخامس من الفصل الخامس من مسرحية (ماكبث) لويليام شكسبير.

والفضيلة العقلية شرط مسبق ضروري من شروط الحياة الروحية مثله كمثل التحكم في الإرادة ومراقبة القلب واللسان.

علينا الآن أن نعني بأمر مشكلة أصعب. كيف يرتبط الاستخدام الشعري للكلمات بحياة الروح؟ (وما ينطبق على الاستخدام الشعري للكلمات، ينطبق بالتأكيد بشكل مماثل على الاستخدام التصويري للأصباغ والاستخدام الموسيقي للأصوات، واستخدام النحت للصلصال والحجر - ينطبق إجمالًا على كل الفنون).

«الجمال هو الحقيقة، الحقيقة هي الجمال». لكن كيتس فشل لسوء الحظ في تعيين المعنى الذي كان يقصده من وراء كلمة «الحقيقة» من بين معانيها الرئيسة. افترض بعض النقاد أنه كان يستخدم الكلمة بالمعنى الثالث في قائمة المعاني في بداية هذا الفصل، وبذلك رفضوا المقولة بوصفها هراء لا معنى له.

$Zn + H_2SO_4 \rightarrow ZnSO_4 + H_2$ هذه هي الحقيقة بالمعنى الثالث للكلمة - ومن الجلي أن هذه الحقيقة غير مماثلة للجمال. لكن من الجلي كذلك أن كيتس لم يكن يتحدث عن هذا النوع من «الحقيقة». كان يستخدم الكلمة في الأساس بمعناها الأول، باعتبارها مرادفة «لوجود فعلي»، وثانيًا بدلالتها المرتبطة بها في عبارة يوحنا «يسجدون للرب بالروح والحق (الحقيقة)». لذلك فجملته تحمل معنيين. «الجمال هو الوجود الأول، والوجود الأول هو الجمال، مبدأ كل جمال خاص»؛ «والجمال هو خبرة مباشرة، وهذه الخبرة المباشرة مماثلة للجمال كمبدأ، مماثلة له كوجود أول». تتفق أولى هاتين العبارتين تمامًا مع مذاهب الفلسفة الخالدة. الثالوث الذي يتجلى فيه الجليل الذي يفوق

كل وصف من بين كل الثواليث هو ثالوث الخير والحق والجمال. ندرك الجمال في المساحات بين أجزاء الكل. من المحتمل أن يُعرَّف الأصل الإلهي في هذا السياق بشكل متناقض باعتباره مسافة صُراح، مستقلة عما هو منفصل ومتناغمة داخل الكل.

لن يتفق شراح الفلسفة الخالدة بالتأكيد مع عبارة كيتس الثانية. ربما تشابه الخبرة بالجمال في الفن أو الطبيعة الخبرة المباشرة الاتحادية بالأصل الإلهي أو الربوبية نوعيًّا، لكنها ليست هي الخبرة نفسها، وعلى الرغم من أن حقيقة الجمال الخاصة التي تتعرض لها الخبرة مشابهة نوعًا ما للطبيعة الإلهية، لكنها بعيدة كثيرًا عن الربوبية. وُهِب الشاعر ومحب الطبيعة ومتذوق الجمال استيعاب للوجود مشابه للاستيعاب الممنوح للمتأمل منكر الذات؛ لكنهم غير قادرين على معرفة الجمال الإلهي في كماله، كما هو في ذاته؛ لأنهم لم يشقوا ليجعلوا أنفسهم منكرين تمامًا للذات. وُلِد الشاعر مع ملكة تنظيم الكلمات بطريقة تُمكِّن شيئًا ما -من فئة النعمة والإلهام اللذين تلقاهما- من أن يجعل نفسه محسوسًا للبشر الآخرين في المساحات البيضاء، أي بين سطور أبياته الشعرية. هي هبة عظيمة وغالية؛ لكن لو ظل الشاعر مكتفيًا بهبته، لو استمر في تبجيل الجمال في الفن والطبيعة دون المضي نحو جعل نفسه قادرًا على استيعاب الجمال كما هو في الأصل الإلهي من خلال إنكار الذات، فمن ثم هو وثني. صحيح أن وثنيته هي وثنية راقية ومن أرقى ما يقدر عليه البشر، لكنها بالرغم من ذلك تظل وثنية.

«الخبرة الجمالية خبرة خالصة، تتجلى في الذات، تتركب بشكل متساوٍ من المتعة والوعي، خالية من الامتزاج بأي إدراك آخر، هي توأم

الخبرة الصوفية، وحياتها إعجاز يفوق حس الحواس... يستمتع بها أولئك المؤهلون لها، مثلها كمثل صورة الرب، هي نفسها المتعة التي تُدرك بها».

فيسفاناتا[١].

«فيما يلي آخر ما كتبته راهبة زن، كانت في شبابها ذات جمال عظيم وشاعرة متحققة.

تأملتْ هاتان العينان المشهد المتغير للخريف ستًّا وستين مرة.

لقد قلت ما يكفي عن ضوء القمر،

لا تسألني أكثر،

استمع فقط إلى صوت أشجار الصنوبر وأشجار الأرز عندما لا تكون هناك رياح تحركها».

ريو–نين[٢].

«الصمت تحت أشجار لا تهزها رياح هو ما كان مالارميه ليطلق عليه موسيقى الخواء الفارغ **creux néant musicien**. لكن حيثما تكون الموسيقى التي تستمع إليها الشاعرة جمالية ومحفزة للخيال، فهي ترجع للهكذائية الخالصة، التي تنفتح لها المتأملة التي تفني ذاتها. «كفوا واعلموا أني أنا الله»[٣].

يجب أن تُعاش هذه الحياة، لا أن ينطق بها الفم فقط...

---

(١) فيسفاناتا (١٦٢٦ – ١٧٠٨): أحد معلمي الفيدية البنغالية.

(٢) ريو–نين (١٦٤٦ – ١٧١١): راهبة بوذية.

(٣) سفر المزامير ٤٦ : ١٠.

لا يوجد فعليًّا ما نتجادل حوله بخصوص هذه التعاليم.

سوف يعارض كل جدال الغرض منها بالتأكيد.

المذاهب التي تستسلم للخلاف والجدال تقود نفسها إلى الميلاد والموت».

هيو ننج.

بعيدًا إذَنْ، مع توهمات وأعمال العقل المنطقي، سواء لصالح أو ضد المسيحية! تلك التوهمات والأعمال ليست إلا روح العقل الوحشية، هي جاهلة بالرب ولا تشعر بطبيعته وحاله. الحياة والموت فقط هما محل العناية؛ الحياة هي الرب يحيا ويعمل في النفس؛ الموت هو النفس تحيا وتعمل وفقًا لحس وعقل اللحم والدم البهيميين. هذه الحياة والموت كلاهما ينموان نموًّا ذاتيًّا، ينموان من بذرتيهما داخلنا، لا عندما يتحدث ويوجه العقل المشغول، لكن عندما يتجه القلب إلى أحدهما أو الآخر».

ويليام لو.

هل يمكنني أن أوضح الخليل لواحد هو ليس خليله؟».

جلال الدين الرومي.

عندما تهتف أم برضيعها: «تعالَ، يا بني، أنا الأم!».

هل يجيبها الابن، «يا أمي، برهني على ذلك،

وبذلك أجد راحة في تناول لبنك؟».

جلال الدين الرومي.

«لا تستحوذ الحقائق العظيمة على قلوب الجموع. والآن، بينما العالم

كله على خطأ كيف يمكنني الظن في أنني أعرف الطريق الحقيقي، كيف يمكنني أن أوجه؟ لو أنني أعرف أنني غير قادر على النجاح، ورغم ذلك أحاول فرض النجاح، فلن يكون هذا إلا مصدرًا آخر للخطأ. إذَنْ فمن الأفضل الإقلاع عن ذلك والتوقف عن السعي المجهد. لكنني لو لم أجاهد، فمن سيفعل؟».

جوانغ زي.

لا مهرب من بين شقي رحى معضلة زي إلا عبر سبيل الحب والسلام والابتهاج. يمكن فقط لأولئك الذين يظهرون ما يملكونه من ثمار الروح -ولو بقدر قليل- أن يقنعوا الآخرين أن حياة الروح تستحق أن تعاش. لا فائدة يمكن جنيها من وراء الخلاف والجدل؛ بل كانا في الحقيقة ضارين في كثير من المرات. لكن هذا أمر يجد البارعون الذين وُهبوا القدرة على القياس المنطقي والتهكم صعوبة استثنائية في القبول به. اعتقد ملتون[1] صادقًا بلا شك في أنه كان يعمل من أجل الحقيقة والصلاح وجلال الرب عن طريق توجيه سيول من الفظاظة العارفة إلى أعداء ديكتاتوره المفضل وشكل الانشقاق المفضل لديه. فعليًّا وفي الحقيقة، لم يتسبب هو ومثيرو الجدل الآخرون في القرنين السادس عشر والسابع عشر إلا في الإضرار بقضية الإيمان الحقيقي، تلك التي كانوا يقاتلون من أجلها رجالًا على ذات الدرجة من العلم والأصالة على جانب ما أو الآخر، وذلك بلغة مسرفة وألسنة خشنة. استمرت الخلافات المتتابعة قرابة القرنين، مع فترات صفاء بينية من حين إلى آخر - يتجادل

(١) جون ملتون (١٦٠٨ - ١٦٧٤): أحد أشهر الشعراء الإنجليز ومؤلف (الفردوس المفقود)، كما اشتهر بنشاطه الديني والسياسي إبان الحرب الأهلية الإنجليزية.

البابويون[١] مع معارضي البابوية، والبروتستانتيون مع بروتستانتيين آخرين، واليسوعيون مع المنتمين إلى السكينية ومع الينسينية[٢]. وعندما انخفضت حدة الضوضاء أخيرًا، كانت المسيحية (وهي مثلها كمثل أي ديانة أخرى، يمكنها أن تبقى حية فقط إذا ما أظهرت ثمار الروح) على شفا الموت؛ لقد أصبحت ديانة غالبية المتعلمين الأوروبيين الآن هي الوثنية القومية. لقد بدا هذا التغيير نحو الوثنية خلال القرن الثامن عشر تغييرًا نحو الأفضل (بعد الفظائع التي ارتكبها فالنشتاين[٣] وتيلي[٤] باسم المسيحية). يرجع هذا إلى أن الطبقات الحاكمة حسمت قرارها، ينبغي ألا تتكرر فظائع الحروب الدينية، ولذلك خففوا من سياسات القوة عن عمد بنبل. لا يزال في إمكاننا التعرف على النبل في حروب نابليون وشبه جزيرة القرم. لكن مولوخ[٥] القومية ما زال يفترس مثالية القرن الثامن عشر. لقد شهدنا خلال الحربين العالميتين الأولى والثانية المحو الكامل للعهود القديمة وضبط النفس. تفصح تبعات الوثنية السياسية الآن عن نفسها دون أدنى تلطيف من قِبَل الشرف الإنساني وقواعد السلوك أو من قِبَل الدين المجاوز. أتمت المسيحية التاريخية أعمال التدمير الذاتي من خلال المشاحنات الضارية حول الكلمات وأشكال التنظيم والمال

(١) البابويون: اصطلاح أطلقه البروتستانتيون والإنجيليون على خصومهم الكاثوليك الرومان لتمييزهم باعتبارهم يقبلون بسلطة البابا على الكنيسة المسيحية.

(٢) الينسيون: حركة دينية نشأت في قلب الإصلاح الكاثوليكي في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

(٣) فالنشتاين (١٥٨٣ - ١٦٣٤): أحد قادة الحرب الذين قاتلوا إلى جانب الكاثوليكية في حرب الثلاثين عامًا.

(٤) كونت تيلي (١٥٥٩ - ١٦٣٢): أحد قادة الكاثوليك في حرب الثلاثين عامًا.

(٥) مولوخ: إله كنعاني قديم كان يحرق الأطفال بالقرب من مذبحه كقرابين.

والسلطة، كان انشغال الكنيسة المبالغ فيه بأشياء زمنية قد أدى من البداية إلى هذا الدمار الذاتي بشكل مأساوي للغاية.

«بِع براعتك واشترِ الذهول؛

البراعة مجرد رأي، أما الذهول فبداهة».

جلال الدين الرومي.

«العقل مثله كمثل قائد الجيش عندما يظهر الملك؛

يفقد سلطته ويتوارى.

العقل هو الظل الذي يلقيه الله؛ الله هو الشمس».

جلال الدين الرومي.

المخلوقات غير العاقلة لا تنظر إلى ما مضى أو إلى ما هو قادم، لكنها تعيش في أبدية الحاضر الدائم الحيوانية؛ نعمتها الحيوانية وإلهامها المستمر غريزة؛ ولا تميل أبدًا إلى الحياة إلا وفقًا للدارما الحيوانية الخاصة بها، أو القانون الباطني. يعيش الإنسان (في حالته الإنسانية المجردة) بفضل قدراته العقلية وأدوات المنطق واللغة في حنين وتخوف وأمل في الماضي والمستقبل بالإضافة إلى الحاضر؛ لا غريزة لديه كي تخبره بما عليه أن يفعل؛ عليه الركون إلى براعته الشخصية عوضًا عن الإلهام القادم من الطبيعة الإلهية للأشياء؛ يجد نفسه في حالة من الحرب الداخلية المزمنة بين العاطفة والفضيلة، وعلى مستوى أعلى من الوعي و الحساسية الأخلاقية بين الأنانية والروحانية المنبثقة. لكن هذا «الوضع المتعب للبشرية»[1] هو المتطلب الذي لا غنى عنه

(١) ترجع المقولة للشاعر والكاتب والسياسي الإنجليزي فولك جريفيل (١٥٥٤ - ١٦٢٨).

من أجل التنوير والخلاص. يجب على الإنسان العيش في الزمن من أجل أن يقدر على التقدم في الأبدية أكثر من ذلك، لا على المستوى الحيواني، لكن على المستوى الروحي؛ يجب أن يعي ذاته باعتبارها أنا منفصلة من أجل أن يكون قادرًا بوعي على السمو فوق الذاتية المنفصلة؛ عليه أن يخوض معركة مع الذات الدنيا من أجل أن يصبح معروفًا من خلال تلك الذات العليا بداخله، تلك المشابهة ل (اللا ذات) الإلهية؛ وأخيرًا عليه الاستفادة من براعته من أجل أن يمر إلى ما وراء البراعة نحو التبصر الفَطِّن في الحقيقة، المعرفة الاتحادية المباشرة بالأصل الإلهي. العقل وأعماله «ليست ولا يمكن أن تكون وسيلة للاقتراب من الاتحاد بالرب». وسيلة الاقتراب هي «الفطنة» بمعنى الكلمة السكولائي أو الروح. استخدام العقل والغرض منه في التحليل الأخير هو خلق الظروف الداخلية والخارجية المواتية من أجل تحوله عن طريق الروح وفيها. إنه المصباح الذي يجد عن طريقه السبيل إلى أن يمضي فيما وراءه هو ذاته. من ثم نرى أن التحليل المنطقي الاستطرادي له قيمة هائلة بوصفه وسيلة تفضي إلى وسيلة الاقتراب من الغاية. لكننا إذا ما عاملناه بكبريائنا وجنوننا بوصفه وسيلة اقتراب من الغاية الإلهية (مثلما فعل الكثير من المتدينين وما زالوا يفعلون) أو لو اعتبرناه وسيلة التقدم الفوري وهدفه الزمني المتضائل دائمًا منكرين وجود غاية أزلية، تصبح البراعة عدوًّا ومصدرًا للعماء الروحي وشرًّا أخلاقيًّا وكارثة اجتماعية. لم تنل البراعة كل هذا التقدير الشديد في أي فترة تاريخية ولم تمارس بدربة بشكل واسع وفعال في مناخٍ معينة مثلما عليه الحال في الوقت الراهن. ولم يسبق في أي فترة زمنيةٍ أن حُطَّ من قدر التبصر الفَطن والروحانية

بهذه الدرجة أو كان السعي من أجل الغاية التي يعتبران وسيلة اقتراب منها أقل انتشارًا وجدية. لأنه مع تقدم التكنولوجيا، نتوهم أننا نمضي في تقدم مكافئ على طول الخط؛ لأننا نملك قوة لها وزنها على الطبيعة غير الحية، نقتنع أننا سادة مصائرنا وربابنة أرواحنا المستغنون عن العالمين؛ ونظرًا إلى أن البراعة قد وهبتنا التكنولوجيا والقوة، نعتقد -على الرغم من كل الأدلة التي تشير إلى عكس ذلك- أن كل ما علينا هو المضي قدمًا فقط كي نصبح أبرع على نحو أكثر منهجية من أجل تحقيق التنظيم الاجتماعي والسلام العالمي والسعادة الشخصية. في رائعة وو تشنغن الاستثنائية (والتي ترجمها بشكل مبهر جدًّا السيد آرثر ويلي[١])، توجد حادثة هزلية وعميقة في الوقت ذاته، وفيها يصل القرد (والذي يمثل في الحكاية الرمزية تجسد البراعة الإنسانية) إلى السماء، وهناك يتسبب في إزعاج كبير جدًّا، إلى درجة أنه كان من اللازم استدعاء بوذا كي يعقد اتفاقًا معه. تنتهي الحادثة في المقطع التالي:

قال بوذا: «سوف أتراهن معك، لو أنك بارع جدًّا بالفعل، اقفزْ من فوق راحة يدي اليمنى. لو نجحت سوف أبلغ الإمبراطور جايد[٢] أن يأتي ويعيش معي في الجنة الغربية، وسوف يكون من نصيبك عرشه بلا جدال. لكنك لو فشلت، سوف تعود إلى الأرض وتؤدي الكفارة هناك لحقب طويلة قبل أن تعود إليَّ بثرثرتك».

فكر القرد بينه وبين نفسه: «بوذا هذا أحمق تمامًا. يمكنني القفز لمائة

---

(١) آرثر ويلي (١٨٨٩ - ١٩٦٦): مستشرق بريطاني، ترجم العديد من الأعمال الشعرية الصينية واليابانية.

(٢) الإمبراطور جايد: أحد أهم الآلهة الصينيين وأكثرهم شعبية وهو حاكم السماء.

وثمانية ألف فرسخ، في حين أن راحة يده لا يمكن أن يزيد عرضها عن ثماني بوصات. كيف يمكنني أن أفشل في تنفيذ قفزة سليمة من فوقها؟».

سأله: «هل أنت متأكد من أنك في مكانة تسمح لك بفعل ذلك من أجلي؟».

قال بوذا: «بالتأكيد».

مد يده اليمنى والتي بدت في حجم ورقة من أوراق اللوتس. وضع القرد هراوته وراء أذنه، وقفز بكل قواه. قال لنفسه: «كل شيء جيد للغاية، مررت بها من فوري الآن». كان يطن من فرط السرعة حتى كاد أن يكون غير مرئي، أما بوذا الذي كان ينظر إليه بعين الحكمة فقد شاهد قذيفة مندفعة إلى الأمام فقط، تدور كدوامة.

وصل القرد في النهاية إلى خمس أعمدة وردية، منتصبة في الهواء، قال القرد لنفسه: «هذه هي نهاية العالم، كل ما عليَّ فعله هو العودة إلى بوذا والمطالبة برهاني. العرش لي».

قال في الحال: «انتظر لوهلة، من الأفضل لو أترك تسجيلًا من نوع ما لما حدث، في حال واجهتني مشكلة مع بوذا». نتف شعرة ونفخ فيها زفرة سحرية، هتف: «تغيري!». تغيرت في التو إلى فرشاة كتابة محملة بحبر ثقيل، وكتب عند قاعدة العمود الأوسط «الحكيم العظيم الكفؤ للسماء بلغ هذا المكان». ومن أجل أن يبرز ازدراءه، قضى حاجته أسفل العامود الأول، وتشقلب عائدًا من حيث أتى. قال بينما يقف على راحة بوذا: «حسنًا، لقد ذهبت وعدت. يمكنك أن تذهب وتخبر الإمبراطور جايد أن يسلمني قصور السماء».

قال بوذا: «أيها القرد النتن، لقد كنت على راحة يدي طوال الوقت».

قال القرد: «أنت مخطئ تمامًا، لقد وصلت إلى نهاية العالم، حيث رأيت خمسة أعمدة بلون اللحم شامخة نحو السماء. كتبت شيئًا على واحد منها. سوف آخذك إلى هناك وأريك، إذا أحببت».

قال بوذا: «لا حاجة لذلك، انظر أسفل منك فقط».

حدق القرد أسفل منه بعينين متوقدتين فولاذيتين، ورأى مكتوبًا عند قاعدة الإصبع الأوسط: «الحكيم العظيم الكفء للسماء بلغ هذا المكان»، ومن عند التشعب بين الإبهام والسبابة هبت رائحة بول قرد.

وهكذا، مع تبول القرد في انتصار على يد الحكمة الممدودة، يعود القرد بداخلنا، مملوءًا بثقة متغطرسة في قدرته المطلقة، ينبري إلى إعادة تشكيل عالم البشر والأشياء إلى ما هو أقرب إلى رغبة قلبه. نواياه صالحة أحيانًا، وفي أحيان أخرى تكون خبيثة عن عمد. لكن مهما كانت النوايا، فإن نتائج الأفعال التي تتخذها ألمع البراعات -عندما لا تكون مستنيرة بالطبيعة الإلهية للأشياء وغير خاضعة للروح- خبيثة بوجه عام. تبرهن استخدامات اللغة على أن البشرية بوجه عام قد فهمت هذا بصورة واضحة دائمًا. «الشاطر» **cunning** و«الماكر» **canny** معادلان «للواعي» **knowing** والصفات الثلاثة جميعًا تمرر حكمًا أخلاقيًّا غير مستحب نوعًا على أولئك الذين تنطبق عليهم. «الخيلاء» **conceit** هو مجرد «تخيل أو تصور أو إدراك» **concept**؛ لكن أوضح ما يخاله عقل المرء ويتصوره ويدركه هو قيمة أناه العليا. «الداهية» **shrewd** من الفعل «دهى» والكلمة تعني ضررًا، وهي متصلة بإلحاق الأذى

واللعنة beshrew، وتستخدم الآن باعتبارها مجاملة حمالة أوجه، مع رجال الأعمال والموكَّلين المحنكين. يدعى العرَّافون wizard هكذا لأنهم عارفين - لكنها معرفة بالطبع بالمعنى الأمريكي الدارج لعبارة، («المُتعالِم» wise guy عارف). على العكس من ذلك، عُرف الأبله ذات مرة باعتباره بريئًا، يقول ريتشارد ترينش: «يفترض هذا الاستخدام لكلمة بريء أن الإيذاء والضرر هما الوظيفة الأساسية التي يحول البشر نحوها قواهم الفكرية؛ إذ إنهم حينما يكونون حكماء، فإنهم في الغالب حكماء بحيث يقومون بالشر». في الوقت نفسه، لا حاجة بنا إلى أن نقول إن البراعة والمعرفة المتراكمة لا غنى عنهما، لكنهما دائمًا وسيلة تؤدي إلى وسيلة الاقتراب، وليسا وسيلة اقتراب أبدًا. أما الأسوأ من ذلك، اعتبارهما غاية في حد ذاتهما. يقول القديس برنارد **Quid faceret eruditio sine dilectione? Inflaret Quid absque eruditione dilectio? Erraret**، ما الذي يمكن أن تفعله المعرفة دون حب؟ سوف تتسبب في الانتفاخ. وما الذي يمكن أن يفعله الحب دون معرفة؟ سوف يتسبب في الضلال.

«سوف يبدو الرب للبشر على الصورة التي هم عليها».

جون سميث، الأفلاطوني.

«تدرك عقول البشر العلل الثانية،

لكن الأنبياء فقط هم مَن يدركون فعل العلة الأولى».

جلال الدين الرومي.

تعتمد كمية المعرفة التي نكتسبها ونوعها في المقام الأول على الإرادة، وثانيًا على تركيبنا الجسماني النفساني والتغيرات التي تبذلها البيئة وخياراتنا الخاصة عليه. لذلك أوضح البروفيسور بوركيت أنه حيثما عنينا بأمر الاكتشاف التكنولوجي «كانت رغبات البشر هي العامل الهام. بمجرد أن يصبح شيئًا مرغوبًا بشكل مؤكد مرارًا وتكرارًا، يجري إنتاجه في وقت قصير للغاية... على العكس من ذلك، ما كان لشيء أن يُعَلِّم القبائل التي تعيش في أدغال جنوب أفريقيا الزراعة ورعي القطعان. لا رغبة لديهم للقيام بذلك». الأمر نفسه يسري على الاكتشافات الأخلاقية والروحية. كانت النصيحة التي أهداها رويسبرويك إلى طلاب العلم الذين جاءوا لزيارته: «أنت مُطهَّر بقدر ما ترغب. وعلى ذلك يمكنك أن تعرف عن الوجود القدر الذي ترغب في معرفته عنه» - إذ إن المعرفة عند العارف هي بحسب أسلوب العارف، وأسلوب العارف خاضع لتحكم العارف من كل النواحي ذات الأهمية القصوى. تأتي المعرفة المُحرِّرة بالرب إلى أصحاب القلب النقي والروح التي في عَوَز؛ وعلى الرغم من أنه من الصعب صعوبة هائلة تحقيق مثل هذا النقاء والعَوَز، إلا أنهما في إمكان الجميع.

وقالت علاوة على ذلك إنه إذا كان للمرء أن يصل إلى نقاء العقل، فمن الضروري أن يمتنع تمامًا عن إصدار أي حكم على أخيه وعن الكلام الفارغ حول تصرفاته. على الواحد أن يبحث دائمًا في المخلوقات عن إرادة الرب فقط. قالت بقوة عظيمة: «لا يوجد سبب -أيًا ما كان- يبرر إصدار حكم على أفعال المخلوقات أو دوافعها. علينا ألا نمرر أحكامًا على شيء حتى إذا رأينا فيه إثمًا فعليًا، بل علينا أن نتعاطف تعاطفًا ورعًا

ومخلصًا وأن نرفع الأمر إلى الرب في صلاة متواضعة ومكرسة».

من وصية القديسة كاترين من سيينا[١].

دونها توماسو دي بترا.

«هذا الامتناع الكامل عن الحكم على رفاق المرء هو أحد شروط النقاء الداخلي فقط. أما الشروط الأخرى فقد تعرضنا لها بالفعل في الفصل عن «إماتة الجسد».

«يقوم التعلم على الإضافة إلى مخزون المرء يومًا بعد يوم. تقوم ممارسة الطاو على الطرح يومًا بعد يوم؛ الطرح ومن ثم الطرح من جديد حتى يبلغ المرء الخمود».

لاو تسو.

«إنه خمود الإرادة الذاتية والبراعة المتمركزة حول الذات، ما يجعل فاعلية النفس النقية والخالية للهكذائية الأزلية ممكنة. وعندما يكون الأول معروفًا في الأعالي بالداخل، فهو معروف كذلك في كمال الخبرة، في العالم بالخارج.

«هل لمحت الأزل أبدًا في لحظة زمنية متعجلة؟ هل رأيت لا متناهيًا ساطعًا في رأسٍ ضيقٍ لجسم؟ إذَنْ فأنت تعرف ما الذي تعنيه الروح - القمة المستدقة، حيث تصعد كل الأشياء في تناغم، حيث تلتقي وتجلس راضية في عمقٍ للحياة، لا يُسبر غوره».

بيتر ستيري[٢].

---

(١) القديسة كاترين من سيينا (١٣٤٧ - ١٣٨٠): قديسة وكاتبة إيطالية كاثوليكية.

(٢) بيتر ستيري (١٦١٣ - ١٦٧٢): لاهوتي إنجليزي مستقل.

الفصل الثامن

الدين والطبع

ببلوغنا هذه النقطة، يبدو الأفضل أن نعود لوهلة من الأخلاق إلى السيكولوجيا، حيث تنتظرنا معضلة هامة جدًّا - معضلة أولى لها شراح الفلسفة الخالدة قدرًا عظيمًا من الانتباه. ما هي تحديدًا العلاقة القائمة بين تركيب الفرد وطبعه من جانب ونوع ودرجة المعرفة الروحية من الجانب الآخر؟ ما نحتاج إليه من أجل إجابة دقيقة شاملة لهذا السؤال غير متوفر - ربما مع استثناء ذلك النوع من العلوم غير القابلة للمشاركة، القائمة على الحدس والممارسة الطويلة، والموجودة في عقول «الموجهين الروحانيين» أصحاب الخبرة والتجربة. لكن الإجابة التي يمكن إعطاؤها ذات قيمة كبيرة، بالرغم من أنها غير كاملة. كل المعرفة -كما رأينا- هي دور الكائن. أو لكي نكتب الفكرة نفسها بالاصطلاحات السكولائية، الشيء المعروف هو في العارف بحسب أسلوب العارف. أشرنا في المقدمة إلى تأثير تحولات الكائن على المعرفة على طول ما يمكن أن نطلق عليه محوره الرأسي، في اتجاه التطهر أو في الاتجاه المعاكس. لكن هناك تبدلات كذلك على المحور الأفقي. يولد كل منا في موضع

معين على المحور الأفقي بتركيب جسماني نفساني خِلقِي. هي منطقة شاسعة، لم تُستكشف بشكل جيد بعد، قارة تمتد إلى مسافة طويلة، من الحماقة إلى النباهة ومن الضعف المنكمش إلى القوة العدوانية، ومن القسوة إلى لطف بيكويكي[١]، ومن الاجتماعية الكاشفة عن الذات إلى بغض البشر المتحفظ وحب الوحدة، ومن الشهوانية المسعورة نوعًا ما إلى كبح الشهوات غير المغري إلى حد كبير. يمكن للفرد أن يتحرك من أي نقطة على طول هذا المدى الواسع لطبائع البشر الممكنة بلا حد تقريبًا إلى الأعلى أو إلى الأسفل، نحو الاتحاد بالأصل الإلهي الخاص به وبكل الموجودات الأخرى، أو نحو الأطراف الأخيرة الجحيمية للانفصال والذاتية. لكن حيثما نُعنى بالحركة الأفقية تتناقص الحرية كثيرًا للغاية. من المستحيل أن يحول شكل ما من أشكال التراكيب الجسمانية نفسه إلى شكل آخر؛ والطبع الخاص المرتبط بتركيب جسماني معين يمكن أن يتغير ضمن حدود ضيقة فقط. كل ما يمكن للواحد أن يأمل فيه في وجود أفضل إرادة في العالم وأفضل بيئة اجتماعية أن يزين التركيب الجسماني النفساني بأفضل زينة؛ أما تعديل الأنماط الجوهرية للتركيب والطبع فهو ما يقع فيما وراء قدراته.

على مدار الثلاثين قرنًا الأخيرة أُجريت العديد من المحاولات من أجل ابتداع نظام للتصنيف من حيث الفروق بين البشر التي يمكن قياسها ووصفها. على سبيل المثال هناك وسيلة هندوسية قديمة لتصنيف الناس بحسب الفئات النفسانية الجسمانية الاجتماعية للطبقة. هناك التصنيف

(١) نسبة إلى بيكويك، بطل رواية تشارلز ديكنز (مذكرات بيكويك).

الطبي الأولي المرتبط باسم أبقراط[١]، التصنيف من حيث «السحنة» -سحنة الوهن وسحنة السكتة- أو تصنيف الأخلاط الأربعة (الدم والبلغم والمرة السوداء والمرة الصفراء) والخواص الأربعة (حار وبارد ورطب وجاف). وحديثًا أصبحت هناك أنظمة الفراسة الخاصة بالقرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر؛ التقسيم الثنائي غير الدقيق والنفساني بالكاد للانطواء والانبساط؛ والتصنيفات الجسمانية النفسانية الأكثر اكتمالًا، لكنها لا تزال غير ذات كفاءة، تلك التي طرحها كرتشمر وستوكارد وڤيولا وآخرون، وأخيرًا النظام الأشمل والأكثر كفاءة ومرونة بالنسبة إلى الحقائق المركبة مقارنة بكل تلك النظم السابقة، والذي أبدعه دكتور ويليام شيلدون[٢] ومعاونوه.

سوف ينصب اهتمامنا في الفصل الحالي على تصنيفات الاختلافات البشرية في علاقتها بمشكلات الحياة الروحية. سوف نصف ونشرح النظم التقليدية وسوف نقارن ما وجدته الفلسفة الخالدة بالاستنتاجات التي وصلت إليها أحدث الأبحاث العلمية.

يقوم التصنيف الكاثوليكي التقليدي للبشر في الغرب على قصة مرثا ومريم[٣] الإنجيلية. طريق مرثا هو الخلاص من خلال الفعل، أما طريق

---

(١) أبقراط (٤٦٠ ق.م. - ٣٧٠ ق.م): طبيب يوناني وأحد أبرز وأهم الأطباء في تاريخ الطب.

(٢) ويليام هربرت شيلدون (١٨٩٨ - ١٩٧٧): عالم نفس أمريكي.

(٣) تذهب القصة إلى أن يسوع نزل ضيفًا على الشقيقتين مريم ومرثا، اهتمت مرثا بترتيب البيت وإعداد الطعام وتهيئة كل شيء، في حين أرادت مريم صحبة يسوع، غضبت مرثا من مريم ولامتها على عدم مشاركتها العمل، فتدخل يسوع لصالح مريم مؤكدًا اختيارها قد كان الاختيار الأصلح، أما مرثا فهي تضطرب وتهتم لأجل أمور كثيرة ولكن الحاجة إلى واحد.

مريم فهو من خلال التأمل. جاء مفكرو الكاثوليكية من بعد أرسطو الذي كان في هذا الأمر وفي أمور أخرى عديدة متفقًا مع الفلسفة الخالدة، واعتبروا الاستغراق في التأمل (المصطلح الأرقى للمعرفة الاتحادية بالربوبية) الغاية النهائية للإنسان، وعلى ذلك تمسكوا دائمًا بأن طريق مريم هو فعليًّا الطريق الأفضل.

وعلى نحو مماثل جوهريًّا بصورة دالة كفاية، صنف دكتور رادين البشر وقيَّمهم ضمنيًّا من حيث كونهم فلاسفة ومكرسين دينيًّا. بالنسبة له ما من شك في أن أشكال التوحيد في الأديان البدائية قد ابتدعها (أم الأحرى بالواحد أن يقول مستعينًا بأفلاطون «اكتشفها»؟) ناس ينتمون إلى الفئة الأولى من بين فئتي البشر الكبيرتين للتصنيف النفساني الجسماني. يرجع إلى أولئك المنتمين إلى الفئة الأخرى -ناس الفعل- ابتداع أو اكتشاف أشكال الدين الأدنى، غير الفلسفية، متعددة الآلهة.

هذا التقسيم الثنائي البسيط هو تصنيف لاختلافات البشر صالح إلى أبعد مدى يمكن أن يمضي إليه. لكن مثله كمثل كل التقسيمات الثنائية المماثلة، سواء كانت جسمانية (مثل تقسيم أبقراط للبشر إلى أصحاب سحنة الوهن وسحنة السكتة)، أو نفسانية (مثل تصنيف يونج[1] من حيث الانطواء والانبساط)، فهذا التقسيم للمتدينين إلى أولئك الذين يفكرون وأولئك الذين يفعلون، أولئك الذين يتبعون طريق مرثا وأولئك الذين يتبعون طريق مريم، غير كفءٍ بالنسبة إلى حقائق الأمور. ولا يرضى بالطبع أي موجه للنفوس أو رئيس مؤسسة دينية أبدًا عن هذا النظام

(١) كارل يونج (١٨٧٥ - ١٩٦١): عالم نفس سويسري ومؤسس علم النفس التحليلي.

البسيط تمامًا عند الممارسة الفعلية. نستشعر وجود تصنيف ضمني وغير مصاغ للبشر أكثر اكتمالًا وأكثر واقعية مقارنة بالتقسيم الثنائي الواضح للفعل والتأمل، نستشعره فيما وراء أفضل الكتابات الكاثوليكية عن الصلاة وأفضل الممارسات الكاثوليكية فيما يتعلق بإدراك النداءات الباطنية والمهام الموكلة.

توجد إشارة واضحة في الفكر الهندوسي إلى أُطُر هذا التصنيف الأكمل والأكفأ. لا يوجد طريقان فقط يقودان إلى الاتحاد بالرب الذي يؤدي إلى الخلاص، بل ثلاثة طرق - طريق الأعمال وطريق المعرفة وطريق التكريس. في البهاجافاد جيتا يوجه «سري كريشنا» «أرجونا» نحو المسارات الثلاثة جميعها - التحرر من خلال الفعل دون تعلق؛ والتحرر من خلال معرفة الذات والأصل المطلق لكل الموجودات التي تتطابق معه؛ والتحرر من خلال التكريس الشديد للرب الشخصي أو التجسد الإلهي.

قم دون تعلق بالعمل الذي عليك القيام به؛ إذ إن الإنسان الذي يقوم بهذا الفعل دون تعلق يحصل على الهدف الأسمى، لا ريب. يحصل رجال مثل جاناكا على الكمال عن طريق الفعل فقط.

لكن هناك طريق ميري كذلك.

أصبح الكثيرون متحدين بوجودي عن طريق التحرر من الهوى والخوف والغضب، وعن طريق الفناء فيَّ، والاحتماء بي، والتطهر بلهب المعرفة.

ومرة أخرى،

أولئك الذين سيطروا على حواسهم تمامًا ويفكرون برزانة في ظل كل الظروف، وبالتالي يتأملون الخالد، غير القابل للوصف، غير المتعين، الموجود في كل مكان، الذي لا يُسبر غوره، الأزلي السرمدي - هم الذين يدركونني وحدي ولا شيء غيري، هم مكرسون من أجل صالح كل الموجودات.

لكن سبيل التأمل ليس سهلًا.

مهمة أولئك الذين انصبت عقولهم على غير المتعين هي الأصعب؛ إذ إن إدراك غير المتعين صعب بالنسبة إلى أولئك الذين هم في الأجساد. أما أولئك الذين كرسوا كل أفعالهم لي (بوصفه الرب الشخصي أو بوصفه التجسد الإلهي)، الذين يعتبرونني الهدف الأسمى، الذين يعبدونني، ويتدبرون فيَّ بعقول منصبة على هدف واحد - تفنى عقولهم فيَّ بذلك، أصبح مخلصهم من بحار فناء العالم في مستقبل قريب.

ترتبط هذه الطرق الثلاثة للخلاص بدقة بالفئات الثلاث التي ابتدعها شيلدون في تصنيفه، وهي بلا شك أفضل تصنيفات الاختلافات البشرية وأكثرها كفاءة. أوضح شيلدون أن البشر يتنوعون على امتداد الأبعاد المناسبة لنظام ثلاثي الأقطاب. ويمكن استنباط المقاييس الجسدية والنفسانية، بحيث يمكن تحديد موضع أي فرد بدقة بالنسبة إلى الإحداثيات الثلاثة. أو يمكننا عرض الأمر بصورة أخرى، ونقول إن كل فرد هو خليط بنسب متفاوتة من ثلاثة مكونات جسمانية وثلاثة مكونات نفسانية وثيقة الصلة. يمكن قياس قوة كل مكون وفق إجراءات محددة تجريبيًّا. أطلق شيلدون على المكونات الجسدية الثلاث أسماء: البنية الباطنية والبنية الوسطية والبنية الظاهرية. تغلب على الفرد الذي

هو على درجة كبيرة من البنية الباطنية الليونة والاستدارة ومن الممكن أن يصبح سمينًا بسهولة وبشكل واضح. أما صاحب الدرجة العالية من البنية الوسطية فهو جامد، عريض المنكبين وعضلاته قوية. وأما صاحب الدرجة العالية من البنية الظاهرية فهو نحيل وضئيل وعضلاته ليفية واهنة ومترهلة. لصاحب البنية الباطنية أمعاء ضخمة، أمعاء قد تكون أثقل من أمعاء صاحب البنية الظاهرية المتطرفة وأطول منها بأكثر من الضعف. جسده أو جسدها مبني حول القناة الهضمية بالفعل. من الجانب الآخر، تكمن الحقيقة المركزية الهامة المتعلقة بالجسد صاحب البنية الوسطية في هيكله العضلي القوي، وتلك الخاصة بصاحب البنية الظاهرية في جهازه العصبي ذي الحساسية المفرطة وغير المحمي نسبيًّا؛ (إذ إن النسبة بين سطح الجسد إلى الكتلة أكبر في أصحاب البنية الظاهرية منها في أي من النوعين الآخرين).

يرتبط تركيب ظاهري البنية بصورة وثيقة بنمط في الطباع، أطلق عليه شيلدون اسم المزاج الحشوي. يشيع بين المتصفين بالمزاج الحشوي بصورة واضحة حب الطعام، وخصوصًا تناوله بين الجموع؛ حب الراحة والرفاهية، حب الاحتفاليات؛ اللطف العفوي ومحبة الناس على ما هم عليه؛ الخوف من الوحدة والميل إلى الصحبة؛ التعبير غير المتحرج عن المشاعر؛ حب الطفولة في صورة حنين نحو الماضي الخاص بالواحد واستمتاع شديد بالحياة العائلية؛ الرغبة الشديدة في الدعم الوجداني والاجتماعي والاحتياج إلى الناس عند الوقوع في أزمة. يدعى الطبع المرتبط بالبنية الوسطية بالمزاج البدني. وصفاته المهيمنة هي حب النشاط العضلي والعدوانية واشتهاء القوة؛ اللا مبالاة تجاه الألم؛ الغلظة

تجاه مشاعر الآخرين؛ حب المعارك والتنافسية؛ درجة عالية من الشجاعة الجسمانية؛ الشعور بالحنين، لا إلى الطفولة، لكن إلى الشباب، الفترة التي كانت فيها القوى العضلية في أقصاها؛ الحاجة إلى القيام بنشاط عندما يكون في أزمة.

نرى من الأوصاف السابقة إلى أي درجة كان المفهوم اليونجي عن الانبساط بوصفه نقيضًا بسيطًا للانطواء غير كفءٍ. الانبساط ليس بسيطًا؛ إذ إن له نمطين مختلفين جذريًّا. هناك الانبساط الاجتماعي العاطفي لأصحاب البنية الباطنية والمزاج الحشوي - الشخص الذي يسعى إلى الصحبة دائمًا ويخبر الجميع بما يشعر به تمامًا. وهناك انبساط صاحب المزاج البدني والبنية العضلية الضخمة - الشخص الذي يراقب العالم في الخارج باعتباره مكانًا يمكن أن يمارس عليه سلطته، حيث يمكنه أن يخضع الناس لإرادته وأن يشكل الأشياء وفقًا لرغبات قلبه. أحدهما الانبساط الودود للبائع ولعضو نادي الروتاري الاجتماعي وللكاهن البروتستانتي الليبرالي. أما الآخر فانبساط المهندس الذي يتخلص من شهوته نحو السيطرة بالعمل على الآلات، وانبساط الرياضي وجندي المرتزقة الذي يضرب بيد من حديد، وانبساط رجل الأعمال والسياسي الطموح، وانبساط الديكتاتور سواء في المنزل أو على رأس الدولة.

أما مع المزاج العقلي الذي يرتبط بالجسد ذي البنية الباطنية، نترك عالم بيكويك اللطيف وعالم هوتسبير[1] التنافسي العنيف، ونعبر

---

(١) هوتسبير، هو السير هنري بيرسي (١٣٦٤ - ١٤٠٣): حارب ضد الاسكتلنديين وضد الفرنسيين، وتعني هوتسبير الرجل الناري؛ وهو لقب أطلقه عليه الاسكتلنديون نظرًا إلى سرعة هجومه وعنفه الشديد.

إلى العالم المختلف تمامًا وهو عالم مقلق نوعًا ما - عالم هاملت وإيفان كارامازوف. ذو المزاج العقلي المتطرف هو الانطوائي شديد الانتباه، شديد الحساسية، الذي يُعنى بما يجري وراء عينيه -بتراكيب التفكير والتخيل، بتنوعات المشاعر والوعي- أكثر من عنايته بالعالم الخارجي، ذلك العالم الذي يصب عليه ذوو المزاج الحشوي والمزاج البدني انتباههم واهتمامهم الأولي بطريقتين مختلفتين. لدى ذوي المزاج العقلي رغبة فاترة -أو ليست لديهم أي رغبة- نحو الهيمنة، ولا يشعرون بالحب العفوي الذي لذوي المزاج الحشوي نحو الناس بوصفهم ناس، على العكس من ذلك هم يريدون العيش وفق اختيارهم ويتركون بقية الناس كي يعيشوا كما يحبون، ورغبتهم في الخصوصية قوية للغاية. الحبس الانفرادي هو العقاب الأبشع الذي يمكن إنزاله بالشخص الودود المستدير اللين، أما بالنسبة إلى ذي المزاج العقلي فهو ليس بعقاب على الإطلاق. الرعب الأقصى بالنسبة له المدارس الداخلية والثكنات العسكرية. يكون ذوو المزاج العقلي عند الصحبة عصبيين وخجولين ويكبتون عواطفهم بشدة، كما يكونون مزاجيين بصورة غير متوقعة. (من الحقائق الدالة أنه لم يصبح أي صاحب مزاج عقلي متطرف ممثلًا، ولم تصبح أي صاحبة مزاج عقلي متطرف ممثلة). يكره ذوو المزاج العقلي صفق الأبواب ورفع الأصوات ويعانون معاناة حادة من خوار ذوي المزاج البدني وتعاملهم الفج بلا قيد. أسلوبهم مقيد، وعندما يكون عليهم التعبير عن مشاعرهم، يكونون متحفظين بشدة. يباغتهم الاندفاع العاطفي لذوي المزاج الحشوي ويعتبرونه سطحيًا كريهًا بل مرائيًا كذلك، كما أنهم لا يقدرون أبدًا على تحمل

احتفالية ذوي المزاج الحشوي وحبهم للرفاهية والفخامة. لا يستطيعون تكوين عادات بسهولة ويجدون من الصعب تكييف حيواتهم على الروتين الذي يأتي على نحو طبيعي جدًّا لذوي المزاج البدني. وبسبب حساسيتهم المفرطة يكون ذوو المزاج العقلي في الغالب جنسيين إلى أبعد الحدود وبجنون نوعًا ما، لكنهم لا يكادون يميلون أبدًا إلى اعتياد شرب الكحوليات، التي ترفع من العدوانية الطبيعية لذوي المزاج البدني وتزيد من اللطف غير المتكلف لذوي المزاج الحشوي، لكنها تجعل ذوي المزاج العقلي يشعرون بالمرض والكآبة. كل من ذوي المزاج الحشوي وذوي المزاج البدني متكيفون جيدًا مع العالم الذي يعيشون فيه، كل على طريقته؛ لكنَّ ذوي المزاج العقلي الانطوائيين غير متماشيين إلى حد ما مع الأشياء والناس والمؤسسات المحيطة بهم. وهو ما يؤدي إلى أن نسبة كبيرة بصورة ملحوظة من ذوي المزاج العقلي المتطرف يفشلون في إحراز نجاحات كما يفعل الناس الطبيعيون وركائز المجتمع العادية. لكن إذا كان العديد يفشلون، يصبح العديد منهم من ناحية أخرى شواذً كذلك لكن على الجانب الأعلى من المتوسط. سوف تكون نسبة ذوي المزاج العقلي المتحققين والموهوبين بصورة ظاهرة مرتفعة للغاية دائمًا في الجامعات والأديرة ومعامل الأبحاث – وفي أي مكان يكون بمثابة مأوى بالنسبة إلى أولئك الذين لا تسمح لهم أمعاؤهم الصغيرة وعضلاتهم الضعيفة بالأكل أو بشق طريقهم خلال خشونة العالم المعتاد وعثراته. وانطلاقًا من إدراك أهمية هذه الفئة من البشر المتطرفة والمتطورة بإفراط والحية بالكاد، عملت كل الحضارات بصورة أو أخرى على حمايتها.

يمكننا في ضوء هذه التوصيفات فهم تصنيف البهاجافاد جيتا لسبل الخلاص بصورة أوضح.

سبيل التكريس هو السبيل الذي يتبعه بشكل طبيعي مَن يدخل في تركيبه المزاج الحشوي بقدر كبير. من الممكن تهذيب وتقويم ميله الفطري لإبداء مشاعره التي يحس بها تلقائيًّا نحو الأشخاص، وبالتالي تتحول محبته للانضمام إلى قطيع ومودته نحو البشر إلى إحسان - يصبح مكرسًا للرب الشخصي ومشيئة الرب الكونية ومتعاطفًا مع كل الكائنات التي فيها حس.

أما سبيل الأعمال فمن أجل أولئك الذين يكون انبساطهم ذا مزاج بدني، أولئك الذين يشعرون في كل الظروف بحاجة إلى «القيام بشيء». ترتبط هذه الرغبة الشديدة في القيام بفعل والكامنة في أصحاب المزاج البدني الضالين دائمًا بالعدوانية والرغبة في تأكيد الذات واشتهاء السلطة. مهمة الكشاتريا[١] -كما أوضحها كريشنا لأرجونا- هي التخلص من تلك الأمور المهلكة المصاحبة لحب الفعل والعمل وذلك بالتوقف عن الاهتمام بثمار العمل، في حالة من الزهد الكامل وعدم التعلق بالذات. وهو الأمر المشابه بالطبع لكل شيء آخر، من السهل قوله ومن الصعب تنفيذه.

وأخيرًا، هناك سبيل المعرفة، عن طريق تعديل الوعي حتى يتوقف عن أن يكون متمركزًا حول الأنا ويصبح متمركزًا حول الأصل الإلهي ومتحدًا به. هذا هو الطريق الذي يتوجه إليه بشكل طبيعي ذوو المزاج

---

(١) الكشاتريا: هي واحدة من الفارنات (الطبقات الاجتماعية) للمجتمع الهندوسي، ويقصد بها طبقة المحاربين.

العقلي المتطرف. يكمن تدريبهم الخاص في إماتة ميلهم الفطري إلى الانطواء من أجل الانطواء، وإماتة ميلهم الفطري إلى الانطواء من أجل التفكير والتخيل وتحليل الذات باعتبارها غايات في حد ذاتها بدلًا من أن تكون وسائلَ تؤدي إلى التسامي الخاتم للخيال والتفكير المنطقي الاستطرادي في الفعل الخالد للبداهة الفكرية الخالصة.

سبق ورأينا أن التنوعات داخل التركيبة السكانية العامة ممتدة بشكل متصل على طول محاور التصنيف، وفي أغلب الناس توجد المكونات الثلاثة ممتزجة بصورة واضحة وبمقادير معتبرة. أما أولئك الذين يبدون هيمنة شديدة لأي مكون واحد نادرون نسبيًّا. ومع ذلك، وعلى الرغم من ندرتهم، فإن أنماط التفكير المميزة لأولئك الأفراد المتطرفين هي التي تهيمن بأي حال وبشكل أساسي على الجانب التنظيري للاهوت والأخلاق. وسبب ذلك بسيط. أي موقف متطرف هو واضح بلا هوادة وبالتالي يكون التعرف عليه وفهمه أسهل من التعرف على المواقف الوسطية وفهمها، هذه المواقف التي ترجع إلى أنماط التفكير الطبيعية عند الأشخاص الذين تتوازن فيهم مكونات تراكيبهم. تجب ملاحظة أن هذه المواقف الوسطية لا تحتوي المواقف المتطرفة ولا تتصالح معها بأي حال؛ هي مجرد أنماط تفكير أخرى، تضاف إلى قائمة التراكيب المحتملة. لا يمكن أبدًا لفرد واحد بمفرده أن يضطلع بمهمة تعيين مركبات نظام شامل للميتافيزيقا أو الأخلاق أو السيكولوجيا، وذلك لسبب وجيه، فهو فرد له نوع واحد من التراكيب والطباع، ولذلك هو قادر فقط على المعرفة وفق حالة الوجود التي هو عليها. وهنا تكمن

الفوائد المتأصلة فيما يمكن أن نطلق عليه المقاربة الأنطولوجية[1] للحقيقة.

لكلمة دارما السنسكريتية -أحد الكلمات الهامة في الصياغات الهندية للفلسفة الخالدة- معنيان رئيسان. أولًا وقبل كل شيء، فدارما الفرد هي طبيعته الجوهرية، القانون الداخلي الخاص بوجوده وتطوره. لكن دارما تدل كذلك على قانون الصلاح والتقوى. مقتضيات هذا المعنى المزدوج واضحة؛ واجبات المرء، كيف عليه أن يعيش، وما الذي عليه أن يؤمن به، وما الذي عليه فعله فيما يتعلق بمعتقداته - كلها أشياء مشروطة بطبيعته الجوهرية وتركيبه وطبعه. مضى الهنود لمسافة بعيدة في هذا الخصوص بالمقارنة بالكاثوليك ومذهب النداء الباطني الخاص بهم، اعترف الهنود بحق الأفراد أصحاب الدارما المختلفة بتبجيل جوانب مختلفة للإله أو مفاهيم مختلفة عنه. وهذا هو سبب الغياب الكامل تقريبًا لحروب الاضطهاد الديني الدموية واستعمارية التبشير عند الهندوس والبوذيين.

إلا أنه من اللازم الانتباه إلى أن الكاثوليكية قد كانت متسامحة -مثلها كمثل بوذية الماهايانا- داخل الجيب الكنسي. اسميًّا واحد، لكن كل دين من هذه الأديان يتكون في الحقيقة من عدد من الأديان المختلفة للغاية يغطي المدى الكامل للأفكار والسلوك، من الفيتيشية[2]، مرورًا بتعدد الآلهة، ومرورًا بالتوحيد النصوصي، ومرورًا بالتكريس لبشرية الإله المتجسد المقدسة، انتهاء إلى الإيمان بالفلسفة الخالدة وممارسة دين روحاني خالص، يسعى إلى معرفة اتحادية بالربوبية المطلقة. لا

(١) الأنطولوجيا: هو فرع من فروع الفلسفة معنيٌّ بدراسة الوجود.

(٢) الفيتيشية أو التوثينية: هي الاعتقاد أن شيئًا من صنع البشر، له أن ينفع أو يضر.

تعتبر هذه الأديان المجازة داخل الدين الواحد متكافئة من حيث القيمة أو الصحة بالطبع. قد يكون تبجيل آلهة متعددة هي الدارما الخاصة بأحدهم؛ مع ذلك تبقى الحقيقة أن الغاية الخاتمة هي المعرفة الاتحادية بالربوبية، وتتفق كل الصياغات التاريخية للفلسفة الخالدة على أن كل بشري يجب أن يحقق الغاية، وربما يقوم بذلك بالفعل بطريقة ما أو الأخرى. كتب الأب جاريجو لاجرانج[1]، «تستقبل كل النفوس نداءً بعيدًا عامًّا من أجل الحياة الصوفية؛ وإذا كان الجميع مخلصين في اجتناب، لا الرذائل المهلكة فقط، بل تلك العرضية أيضًا -وهو الأمر الواجب عليهم- وإذا كانوا متصالحين مع الروح القدس - كلٌّ بحسب أحواله، وإذا عاشوا حياة مديدة كفايةً، فسوف يأتي يوم يستقبلون فيه النداء المُقرِّب والفاعل من أجل الكمال السامي والحياة الصوفية». كان لاهوتيو الهندوسية والبوذية ليتفقون مع هذه العبارة على الأرجح، لكنهم كانوا ليضيفون أن كل نفس سوف تحصل في الحقيقة في النهاية على هذا «الكمال السامي». النداء للجميع، لكن المختارين قلة من أي جيل؛ لأن قلة هي مَن تختار نفسها. لكن سلاسل الوجود الواعي -المادي وغير المادي- طويلة إلى ما لا نهاية؛ ولذلك فهناك وقت وفرصة للجميع من أجل تعلم الدروس اللازمة. علاوة على ذلك، سوف يكون هناك دائمًا مَن يساعد. إذ إنه على فترات دورية تكون هناك «تنزلات» ربوبية في صورة مادية؛ ويكون هناك بوذات على أهبة الاستعداد طوال الوقت، على عتبة إعادة الاتحاد بالضوء الجلي، يتخلون عن نعمة التحرر الفوري من أجل الرجوع كمُخلِّصين ومعلمين مرة تلو الأخرى إلى عالم المعاناة

---

(١) جاريجو لاجرانج (١٨٧٧ - ١٩٦٤): لاهوتي كاثوليكي فرنسي.

والزمن والشر، حتى يحصل كل كائن فيه حس في النهاية على الخلاص في الأبدية.

التبعات العملية لهذا المذهب واضحة كفاية. لا يمكن القبول بصور الإيمان الدنيا باعتبارها نهائية، سواء طغت عليها العاطفة أو الفعل أو الفكر. صحيح أن كل منها يأتي بصورة طبيعية إلى أشخاص لهم نوع معين من التراكيب والطباع؛ لكن الدارما أو واجب أي فرد ألا يبقى ثابتًا راضيًا عن نفسه في تدين غير كامل، تصادف وكان مناسبًا له؛ فالأحرى التسامي به، لا عن طريق الإنكار المستحيل لأساليب التفكير والسلوك والشعور الطبيعية بالنسبة له، لكن عن طريق استغلالها، وبالتالي يمكنه العبور إلى ما وراء الطبيعة عن طريق وسائل الطبيعة. على ذلك يستخدم الانطوائي «التمييز» (بالمعنى الهندي)، وبالتالي يتعلم التفريق بين الأنشطة الذهنية للأنا والوعي الأساسي للذات، الذي يوافق أو يماثل الأصل الإلهي. يتعلم الانبساطي العاطفي أن «يبغض أباه وأمه»[1] (بمعنى آخر أن يهجر تعلقه الأناني بمباهج أن يَحب وأن يُحب عفويًّا)، وأن يركز إخلاصه على الجانب الشخصي أو الجانب المتجسد للرب، ويصل في النهاية إلى محبة الربوبية المطلقة، لا عن طريق فعل المشاعر، لكن عن طريق فعل الإرادة المستنيرة بالمعرفة. وأخيرًا هناك ذلك النوع الآخر من الانبساطيين، الذين لا تنصب عنايتهم على المباهج المرتبطة بتبادل المشاعر، لكن على إرضاء شهوتهم نحو التسلط على الأشياء والأحداث والأشخاص. لكي يستخدم طبيعته الخاصة به من أجل

---

(١) لوقا ١٤ : ٢٦.

السمو بها، عليه اتباع السبيل الذي أُرسي في البهاجافاد جيتا من أجل أرجوننا الحائر - سبيل العمل دون تعلق بثمار العمل، السبيل الذي أطلق عليه القديس فرنسيس دي ساليس «اللامبالاة المقدسة»، السبيل الذي يقود إلى اكتشاف الذات من خلال نسيان الذات.

على مر التاريخ، حدث كثيرًا وكان تناول البشر لدين ما غير كامل أو لدين آخر شديد الجدية خاطئًا إذ اعتبروه جيدًا وحقيقيًّا في حد ذاته، بدلًا من اعتباره وسيلة إلى الغاية النهائية لكل الأديان. لمثل هذه الأخطاء في الغالب تبعات كارثية. على سبيل المثال، أصرت العديد من الطوائف البروتستانتية على ضرورة تغيير المعتقد بالإكراه أو على الأقل على استحسان ذلك بشدة. لكن تغيير المعتقد بالإكراه -كما بين شيلدون- ظاهرة حصرية تقريبًا على الأشخاص ذوي الدرجة العالية من المزاج البدني. هؤلاء الأشخاص انبساطيون بشدة لدرجة عدم انتباههم التام لما يجري في المستويات الدنيا من عقولهم. لو حدث لأي سبب من الأسباب وتحول انتباههم نحو الداخل، فإن معرفتهم بالذات الناجمة عن ذلك التحول، وبسبب حداثتها وغرابتها، تكشف عن نفسها في صورة إلهام قوي، وبالتالي يكون تحولهم المزاجي أو تحول العقل مفاجئًا ومثيرًا. قد يكون هذا التبدل نحو الدين أو نحو أي شيء آخر - على سبيل المثال نحو التحليل النفسي. الإصرار على ضرورة تغيير المعتقد بالإكراه باعتباره الوسيلة الوحيدة للخلاص هو في نفس معقولية الإصرار على ضرورة امتلاك وجهٍ كبيرٍ أو عظامٍ ثقيلة أو عضلات قوية. المذهب الذي يجعل الخلاص قائمًا على تغيير المعتقد يمنح الرضى -المهلك تمامًا للنمو الروحي- إلى أولئك المعرضين بصورة طبيعية إلى هذا النوع من

التقلبات العاطفية، أما أولئك غير القادرين عليه فيمتلئون بخيبة أمل لا تقل إهلاكًا. من الممكن الإشارة بسهولة إلى أمثلة أخرى لدراسات لاهوتية غير ذات كفاءةٍ، قائمة على الجهل بالسيكولوجيا. يتذكر الواحد على سبيل المثال الحالة المحزنة لكالڤن، صاحب المزاج العقلي الذي تناول بناءه الفكري بجدية كبيرة حتى فقد كل إحساس بالحقيقتين الإنسانية والروحية كليهما. وبعدئذٍ لدينا البروتستانتية المتحررة، وهي هرطقة يهيمن عليها المزاج الحشوي، يبدو كأنها نسيت وجود الآب والروح واللوغوس وساوت المسيحية بتعلق عاطفي ببشرية المسيح أو «شخصية يسوع» (لو استخدمنا التعبير الشائع)، إذ يبجلونه في وثنية كأنه لم يكن هناك إله آخر. بل نسمع داخل الكاثوليكية الكاملة نفسها طوال الوقت شكاوى من الموجهين الجهلاء المتمركزين حول الذات، الذين يفرضون على النفوس تحت قيادتهم دارما دينية، لا تناسب طبيعتهم بتاتًا – وهو ما يؤدي إلى نتائج وصفها الكتاب على شاكلة القديس يوحنا الصليب بأنها فتاكة تمامًا. من ثم نرى أنه من الطبيعي بالنسبة لنا أن نفكر في الرب باعتباره يمتلك من الصفات ما يميل طبعنا إلى جعلنا ندركه؛ لكن لو لم تجد الطبيعة سبيلًا إلى السمو بنفسها بوسائل من عندها، فقد ضعنا. فيلو محق تمامًا فيما يتعلق بالتحليل الأخير عندما يقول إن أولئك هم الذين لا يتصورون الرب ببساطة وبشكل مجرد بوصفه الواحد المضام، ليس الرب بالتأكيد بل هم ورفاقهم إلى جانبهم.

يأتي سبيل المعرفة إلى الأشخاص ذوي الطبع الذي يهيمن عليه المزاج العقلي بصورة طبيعية تمامًا. ولا أعني بهذا أن تتبع هذا السبيل سهل على ذوي المزاج العقلي. إذ إن الخطايا المحدقة بصاحب المزاج

العقلي على وجه الخصوص مماثلة في صعوبة تخطيها للخطايا التي تحدق بصاحب المزاج البدني المحب للسلطة والتي تحدق بصاحب المزاج الحشوي المتطرف الشره للطعام والراحة والقبول الاجتماعي. ما أعنيه بالأحرى أن مثل هذا السبيل الموجود والممكن اتباعه يحدث تلقائيًّا لأصحاب المزاج العقلي (سواء كان ذلك عن طريق التمييز أو من خلال العمل عديم التعلق أو التكريس المنصب على أمر واحد). صاحب المزاج العقلي هو المُوَحِّد بطبيعته في كل مستويات الثقافة؛ وهذا الموحد بطبيعته -كما بينت أمثلة دكتور رادين للاهوت البدائي بوضوح- هو موحد في الغالب لذلك الذي هو أنت **tat tvam asi**، ينتمي إلى مدرسة النور الداخلي. أما الأشخاص الذين يدفعهم طبعهم إلى أحد نوعي الانبساط، فهم مؤمنون بعدة آلهة. لكنه من الممكن إقناع المؤمنين بتعدد الآلهة وفق طبيعتهم بالسمو النظري للتوحيد، دون صعوبة كبيرة.

للعقل الإنساني طبيعة تخلق فيه معقولية داخلية تجاه أي فرضية تسعى إلى تفسير التنوع من خلال الوحدة، أو تسعى إلى اختزال التعددية الظاهرة في تماثل جوهري. ويمكن للمؤمن بآلهة متعددة، نصف المهتدي أن يمضي من خلال هذه التوحيدية النظرية -إذا اختار ذلك- نحو الإدراك الفعلي للأصل الإلهي له ولكل المخلوقات الأخرى (وذلك من خلال الممارسات المناسبة لطبعه الخاص). أكرر، يمكنه ذلك، وأحيانًا يقوم بذلك بالفعل. لكنه في أغلب الأحيان لا يقوم بذلك. يوجد العديد من التوحيديين النظريين، تبرهن حيواتهم كاملة ويبرهن كل فعل يتخذونه على أنهم لا يزالون في الواقع على ما يميل بهم طبعهم

إليه - مؤمنين بتعدد الآلهة، مبجلين لا لله الواحد الذي يتحدثون عنه أحيانًا، لكن لآلهتهم العديدة، القومية والتكنولوجية، والمالية والعائلية، ولاؤهم لها جميعًا.

يمثل المُخلِّص دائمًا في هيئة ثابتة تقريبًا في الفن المسيحي في صورة النحيف، الضئيل، ذي العضلات غير المفتولة. يعتبر المسيحيون الأقوياء ضخام الجسد استثناءً صادمًا نوعًا ما لقاعدة عتيقة جدًّا. كتب ويليام بليك[١] عن لوحة الصلب لروبنس[٢] في ازدراء:

أفهم أن المسيح كان نجارًا

وليس خادمًا مختصًّا بصنع الجعة، سيدي الفاضل.

إجمالًا، يُنظر إلى يسوع التقليدي بوصفه رجلًا له جسد تهيمن عليه البنية الظاهرية، وبذلك فضمنيًّا له طبع يهيمن عليه المزاج العقلي. يؤكد لب المعتقد المسيحي البدائي على الصحة الجوهرية لتقليد رسم الأيقونات. دين الأناجيل هو ما ينبغي أن نتوقعه من مزاج عقلي - وليس من أي مزاج عقلي بالطبع، لكنه من واحد استخدم الخصائص النفسانية الجسمانية لطبيعته من أجل السمو بالطبيعة، واحد تتبع الدارما الخاصة به إلى هدفها الروحي. الإصرار على أن مملكة السماء في الداخل؛ وتجاهل الشعائري؛ والازدراء البسيط تجاه التقيد بحرفية الشرائع، وتجاه المناسك الروتينية للأديان المنظمة، وتجاه الأيام والأماكن المقدسة؛ والأمور الدنيوية الأخرى، والتشديد المبذول على كبح النفس، لا عن

---

(١) ويليام بليك (١٧٥٧ - ١٨٢٧): شاعر ورسام إنجليزي.

(٢) بيتر بول روبنس (١٥٧٧ - ١٦٤٠): رسام فلامنكي، تشيع في رسومه تقنيات عصر الباروك، ومن أشهر لوحاته (النزول من الصليب).

الأفعال الظاهرة فقط، لكن عن الرغبات والنوايا غير المعرب عنها؛ واللامبالاة تجاه زخرف الحضارة المدنية ومحبة الفقر بوصفه أحد أعظم السلع؛ والمعتقد الذاهب إلى أن عدم التعلق أمر واجب حتى في محيط العلاقات الأسرية، وحتى التكريس لصالح الأهداف العليا للمثاليات الإنسانية فقط، وحتى صلاح الكتبة[1] والفريسيين، قد تكون جميعًا مشتتات وثنية، تشتت عن حب الرب - كل هذه الأمور تحمل خواص تصورات المزاج العقلي، إذ إنها لا تحدث أبدًا بشكل تلقائي لمحب التسلط الانبساطي أو للانبساطي بذات القدر صاحب المزاج الحشوي.

لا تقل هيمنة المزاجية العقلية على البوذية البدائية عن المسيحية البدائية، كما تهيمن المزاجية العقلية كذلك على الفيدانتا، المذهب الميتافيزيقي الذي يقع في القلب من الهندوسية. أما الكونفوشية فعلى العكس من ذلك، إذ إنها نظام عائلي ونُسكي ودنيوي تمامًا، معنية بهذا العالم. ونجد في المحمدية نظامًا يدمج بشدة عناصر مزاجها بدني. وهو ما يفسر السجل الأسود لحروب الإسلام المقدسة والاضطهاد - سجل يشبه ذلك الخاص بالمسيحية المتأخرة، بعد أن تدهورت بسبب المزاج البدني الضال، بحيث صارت تطلق على تنظيمها الإكليريكي اسم «الكنيسة المجاهدة».

طالما كنا معنيين بتحقيق الغاية الخاتمة للبشر، يعتبر المزاج العقلي المتطرف معوقًا بذات قدر المزاج الحشوي المتطرف وذات قدر المزاج

(١) الكتبة: هم الكتبة في إسرائيل القديمة وهم رجال متعلمون، كانوا ينسخون العهد القديم وعملوا على حفظه، وكانوا ملتزمين بالتفسير الحرفي للنصوص.

البدني المتطرف، لكن في الوقت الذي لا يمكن فيه للمزاج العقلي والمزاج الحشوي أن يلحقا ضررًا كبيرًا بأي شيء سوى بنفسيهما وأولئك الذين في اتصال مباشر بهما، يبث المزاج البدني المتطرف الخراب في المجتمعات بكاملها بسبب عدوانيته الفطرية. من الممكن تعريف الحضارة من وجهة نظر البعض باعتبارها مركبًا من أدوات دينية وتشريعية وتعليمية من أجل منع ذوي المزاج العقلي المتطرف من التسبب في الكثير من الأذى، ومن أجل توجيه طاقاتهم متعذرة الكبح نحو القنوات المرغوبة اجتماعيًّا. سعت الكونفوشية والثقافة الصينية إلى تحقيق هذه الغاية عن طريق الدعوة إلى بر الوالدين والأخلاق الحميدة والإبيقورية[١] المحببة حشوية المزاج - وكل ذلك دُعِّم نوعًا ما بما هو متناقض، إذ دُعِّم بالروحانية عقلية المزاج وضبط نفس البوذية والطاوية الكلاسيكية. يمثل النظام الطبقي في الهند محاولة لإخضاع القوة العسكرية والسياسية والمالية للسلطان الروحي؛ ولا يزال التعليم الذي يُلقَّن لكل الفئات يلح بشدة على حقيقة أن الغاية النهائية للإنسان هي المعرفة الاتحادية بالرب، حتى أنه في الوقت الحالي وبالرغم من مرور قرابة مائتي عام من الفَرنَجَة التدريجية المتسارعة، لا يزال ذوو المزاج البدني الناجحون يهجرون في منتصف العمر الثروة والمكانة والسلطة من أجل أن ينهوا أيامهم، وهم يسعون متواضعين وراء التنوير. كانت هناك جهودًا في أوروبا -كما في الهند- من أجل إخضاع السلطة الزمنية للسلطان الروحي. لكن نظرًا إلى أن الكنيسة نفسها مارست السلطة الزمنية من خلال تفويض أحبار سياسيين ورجال أعمال ذوي

(١) مذهب فلسفي يوناني، يذهب إلى أن اللذة هي الخير الأسمى، والألم هو الشر الأسمى.

تيجان أسقفية، لم تنجح تلك الجهود إلا جزئيًّا. أما بعد الإصلاح فحتى الرغبة الورعة في الحد من السلطة الزمنية عن طريق السلطان الروحي كانت قد هُجِرت تمامًا. جعل هنري الثامن[1] من نفسه، وفق ما ذكره ستابس[2]، «البابا، بابا كامل، وما هو أكثر من البابا» وقد احتذى صنيعه أغلب رؤوس الدولة منذ ذلك الحين. لم يحد من السلطة إلا سلطات أخرى، لم يحد منها استحسان المبادئ الأولى كما فسرها أولئك المؤهلون أخلاقيًّا وروحيًّا بحيث يعرفون ما هم بصدد الحديث عنه. في الوقت ذاته، تضاءل الاهتمام بالدين في كل مكان، حتى بين المسيحيين المؤمنين استُبدلت بالفلسفة الخالدة ميتافيزيقا التطور المطرد لا محالة والرب المتغير، والاهتمام الشغوف، لا بالأبدية، لكن بالزمن في المستقبل. وفجأة إلى حد ما، في ربع القرن الأخير، اكتمل ما كان شيلدون قد دعاه «ثورة المزاج البدني»، ضد كل ما يتصف بالمزاجية العقلية في النظرية والممارسة الخاصين بالثقافة المسيحية التقليدية. وها هنا بعض المظاهر القليلة لهذه الثورة ذات المزاج البدني.

كان من المسلَّم به في المسيحية التقليدية -كما هو الحال في كل الصيغ الدينية الكبرى- أن الاستغراق في التأمل هو غاية وغرض الفعل. تعتبر الغالبية العظمى من المسيحيين اليوم -حتى المترهبنين منهم- أن الفعل (الموجه نحو التقدم المادي والاجتماعي) هو الغاية، وأن الفكر التحليلي هو وسيلة هذه الغاية (لم تعد هناك تساؤلات عن التفكير المتكامل أو التأمل).

---

(١) هنري الثامن (١٤٩١ - ١٥٤٧): ملك إنجلترا منذ ١٥٠٩.

(٢) ويليام ستابس (١٨٢٥ - ١٩٠١): مؤرخ وأسقف.

كان البحث عن سر السعادة والطريق إلى الخلاص في المسيحية التقليدية -كما هو الحال في كل صيغ الفلسفة الخالدة الأخرى- لا في المحيط الخارجي، لكن في حالة الفرد الذهنية بالنسبة إلى المحيط. لم تعد الحالة الذهنية هي الشيء كلي الأهمية اليوم، أصبحت حالة المحيط هي ذلك الشيء. صار الاعتقاد أن السعادة والتقدم الأخلاقي يعتمدان على أدوات أكبر وأفضل وعلى مستوى معيشة أعلى.

كان تركيز التعليم كله في المسيحية التقليدية منصبًّا على ضبط النفس؛ لكنه صار منصبًّا على الحركة و«التعبير عن الذات»، وذلك مع صعود «المدرسة التقدمية» مؤخرًا. تحظر السلوكيات الصالحة للمسيحي التقليدي كل تعبير عن بهجة تنتج عن إشباع شهوات الجسد. «قد تحب بومة تصرخ، لكن عليك ألا تحب الدجاج المحمر» - كانت هذه أنشودة يُربَّى عليها الأطفال في الحضانات منذ خمسين عامًا فقط. يعلن الصغار اليوم بلا توقف عن مدى «حبهم» الكبير و«عشقهم» لأنواع الطعام والشراب المختلفة؛ يتحدث المراهقون والناضجون اليوم عن «الرجفان» الذي ينتابهم نتيجة تحفيزهم جنسيًّا. لم تعد الفلسفة الشائعة للحياة قائمة على كلاسيكيات التكريس وقواعد التنشئة الصالحة الأرستقراطية، لقد قولب كتاب نسخ الإعلانات هذه التنشئة، كانت الفكرة المهيمنة عليهم هي إقناع كل فرد كي يكون انبساطيًّا وجشعًا دون تحرج، بقدر ما يستطيع، إذ إن محب التملك الذي لا يهدأ المشتت فقط هو مَن ينفق ماله بالطبع على الأشياء التي يرغب المعلنين في بيعها. التقدم التكنولوجي هو نتاج ثورة المزاج البدني جزئيًّا، وهو مُنتِج وداعم تلك الثورة جزئيًّا. يؤدي الاهتمام بالانبساطية إلى الاكتشافات التكنولوجية.

(ترتبط الدرجة العالية من التحضر المادي دائمًا بممارسات الإيمان في تعدد الآلهة واسعة الانتشار والمؤيدة رسميًا). بدورها أدت الاكتشافات التكنولوجية إلى الإنتاج الضخم؛ ومن الواضح أن الإنتاج الضخم غير قادر على المحافظة على المضي قدمًا باندفاعته الكاملة إلا عن طريق إقناع كل الناس بقبول الرؤية الكونية **Weltanschauung** للمزاج البدني والعمل وفقًا لذلك. الحرب الحديثة هي السبب المباشر والنتيجة المباشرة لثورة المزاج البدني - مثلها في ذلك كمثل التقدم التكنولوجي الذي ترتبط به بشكل وثيق. كان للتعليم النازي -والذي كان تعليمًا أُرسي خصيصًا من أجل الحرب- هدفان رئيسان: تشجيع مظاهر المزاجية البدينة في أولئك الأكثر امتلاء بمكون الشخصية ذلك، وجعل بقية السكان يشعرون بالخزي بسبب لطفهم غير المتكلف أو انطوائيتهم وحساسيتهم وميلهم إلى ضبط النفس والانشغال بالمثاليات. أُجبر أعداء النازية بالطبع خلال الحرب على الاستعارة من فلسفة التعليم النازي. كان تعليم الملايين من الشباب وحتى الشابات في كل أنحاء العالم منصبًّا بشكل ممنهج على أن يكونوا «غليظين» وعلى «الغلظة» كقيمة، تجُب كل الصفات الأخلاقية الأخرى. يرتبط هذا النظام الأخلاقي ذي المزاج البدني بلاهوت القومية الوثني، متعدد الآلهة - وهي ديانة كاذبة تدعو إلى الشر والتقسيم والخلاف، وهي أقوى بكثير من المسيحية أو أي ديانة توحيدية أخرى تدعو إلى الوحدة والصلاح. حاولت أغلب المجتمعات في الماضي بشكل ممنهج تثبيط المزاجية البدنية. كان هذا إجراء للدفاع عن النفس؛ لم يرغبوا في أن تُلحِق بهم عدوانية محبي السلطة -الأقلية الأكثر فعالية- دمارًا ماديًّا، ولم يرغبوا في أن يصبحوا

في عماء روحي نتيجة الانبساطية المفرطة. لقد تغير كل هذا خلال السنوات القليلة الأخيرة. قد نتساءل متوجسين: ما العواقب التي سوف تسفر عنها الردة الحالية التي تجتاح العالم إزاء سياسة اجتماعية عتيقة؟ سوف يكشف الزمن وحده عن ذلك.

* * *

الفصل التاسع

معرفة الذات

«الجهل بالذات هو طبيعة الأمور في كل المخلوقات الحية بخلاف الإنسان، أما في الإنسان فهو نقيصة».

بوثيوس[1].

يمكن تعريف النقيصة باعتبارها مسارًا للسلوك ترتضيه الإرادة، ويؤدي إلى نتائج وخيمة، في المقام الأول لأنها حاجبة للرب وثانيًا لأنها ضارة جسديًّا أو نفسيًّا لصاحب السلوك أو رفاقه. يوافق الجهل بالذات هذا الوصف. جذوره إرادية؛ إذ إننا قد نصل جميعًا عن طريق الاستبطان والإنصات إلى أحكام الآخرين على شخصيتنا -إذا ما أردنا- إلى فهم ثاقب لعيوبنا ونقاط ضعفنا والدوافع الحقيقية لأفعالنا – مقارنة بالمصرح به والمعلن. لو ظلت أغلبيتنا جاهلة بأنفسنا، فذلك يرجع إلى أن المعرفة بالذات مؤلمة ونحن نفضل مباهج الصور المضللة. تبعات مثل هذا الجهل وخيمة بكل مقياس، بداية من المقاييس النفعية وحتى

(١) بوثيوس (٤٨٠ - ٥٢٤): فيلسوف وسياسي روماني.

تلك السامية. وخيمة؛ لأن الجهل بالذات يقود إلى سلوك غير واقعي، وبالتالي يتسبب في كل أنواع الاضطرابات لكل متورط في الأمر؛ ووخيمة لأنه من دون معرفة الذات، لن يكون هناك تواضع حقيقي، وبالتالي لا إفناء فاعل للذات، وبالتالي لا معرفة اتحادية بالأصل الإلهي أساس الذات، الذي يحتجب في العادة بسببها.

لطالما ركز القديسون ولاهوتيو كل تقليد من التقاليد الدينية الكبرى على أهمية معرفة الذات وضرورتها التي لا غنى عنها. أكثر الأصوات ألفة فيما يتعلق بذلك بالنسبة لنا في الغرب هو سقراط. ولطالما ألح شراح الفلسفة الخالدة مرارًا وتكرارًا بشكل أكثر منهجية من سقراط على الأمر نفسه. على سبيل المثال، بوذا الذي يوضح خطابه عن «التأسيس لليقظة» (ونصوص بالي المقدسة التي تمتاز بتعنتها تعنتًا إيجابيًّا وشموليتها) فنون معرفة الذات بشكل كامل وفي كل النواحي – معرفة جسد الواحد وحواس الواحد ومشاعر الواحد وأفكار الواحد. يُمارَس فن معرفة الذات من أجل هدفين في مرمى البصر. هدف الاقتراب (من المعرفة الاتحادية)، ويأتي «في حالة معرفة الجسد في صورة الأخ الذي يواصل هكذا في تأمل الجسد، وبذلك يظل متوقدًا ومتزنًا ويقظًا، متجاوزًا كلًّا من اللهفة والكآبة اللذين يشيعان في العالم. والأمر نفسه فيما يتعلق بالمشاعر والأفكار والتصورات، يتأمل في كل منها وبذلك يبقى متوقدًا ومتزنًا ويقظًا، دون لهفة أو كآبة». تقع فيما وراء هذه الحالة النفسانية المرغوبة ومن خلالها الغاية النهائية للإنسان، معرفة ذلك الذي يقع فيما وراء الذات الفردانية. يعبر الكتاب المسيحيون عن التصورات نفسها في لغتهم.

«للإنسان أغلفة كثيرة داخل ذاته، تغطي أعماق قلبه. يعرف الإنسان أشياء كثيرة جدًّا؛ ولا يعرف نفسه؛ لأن هناك ثلاثين أو أربعين غلافًا أو طبقة من الجلد -مثل تلك التي لثور أو لدب- تغطي النفس. امضِ إلى أصلك وتعلم معرفة ذاتك هناك».

إكهرت.

«يعتبر الغافلون أنفسهم يقظين الآن - معرفتهم معرفة شخصية جدًّا. قد تكون مثل تلك التي لأمير أو لراعٍ، لكنها يقينية في غرور».

جوانغ زي.

يتكرر هذا المجاز الخاص بالاستيقاظ من الأحلام مرارًا وتكرارًا في شروح الفلسفة الخالدة. قد يُعرَّف التحرر في هذا السياق بوصفه عملية الاستيقاظ من الهراء والكوابيس والمباهج الخادعة لما يدعى في المعتاد حياة واقعية وصولًا إلى وعي الأبدية. «اليقين الحكيم لنعمة اليقظة» - أظن أن هذه الجملة الرائعة التي وصف فيها ميلتون الخبرة بالنوع الأنبل من الموسيقى تقترب من التنوير والخلاص، بالقدر الذي يمكن للكلمات به الاقتراب منهما.

«أنت (أيها الكائن البشري)، على الصورة التي ليست أنت. أنا ما أنا عليه. لو أدركت هذه الحقيقة في نفسك، لا يمكن للعدو أن يخدعك أبدًا؛ ولهربت من أحابيله».

القديسة كاترين من سيينا.

«تعلمنا المعرفة بأنفسنا من أين جئنا وأين نحن وإلى أين سوف نمضي. أتينا من الرب ونحن في غربة؛ وتلك الغربة ترجع إلى أن قابليتنا

للوجد تميل بنا إلى الرب، ولذلك فنحن واعون بهذه الحالة من الغربة».

رويسبرويك.

يكون النمو الروحي من خلال المعرفة المتنامية بالذات والنظر إليها باعتبارها لا شيء، وبالربوبية والنظر إليها باعتبارها الوجود الشامل لكل شيء. (لا قيمة لمثل هذه المعرفة بالطبع لو كانت معرفة نظرية فقط؛ يجب إدراكها باعتبارها خبرة مباشرة وبديهية والتصرف وفق ذلك كي تكون معرفة مؤثرة). كتب البروفيسور إتيان جيلسون[1] وهو واحد من خبراء الحياة الروحية العظماء: «يكمن تنسك القديس برنارد كله -بدايته وتطوره وتمامه- في إزاحة الخوف عن طريق الإحسان، عن طريق ممارسة التواضع والخضوع». يمثل الخوف والقلق والتوتر لب الذاتية الفردانية. لا يمكن التخلص من الخوف عن طريق الجهد الفردي، لكن عن طريق فناء الأنا فقط في شأن أعظم من اهتماماتها الخاصة بها. سوف يُخلِّص الفناء في أي شأن العقل من بعض مخاوفه؛ لكنه الفناء في محبة ومعرفة الأصل الإلهي فقط هو ما يمكن أن يُخلِّص من كل المخاوف. إذ إنه عندما يكون الشأن أقل من ذلك الأسمى ينتقل الإحساس بالخوف والتوتر من الذات إلى الشأن - إذ تكون عندها التضحية البطولية بالذات من أجل فرد محبوب أو مؤسسة محبوبة مصحوبة بالتوتر فيما يتعلق بذلك الذي بُذلت التضحية من أجله. بينما عندما تُبذل التضحية للرب وللآخرين من أجل الرب، فيستحيل أن يكون هناك خوف أو توتر مستمر، إذ إنه لا يمكن لشيء أن يهدد الأصل الإلهي وحتى الفشل والفواجع

(١) إتيان جيلسون (١٨٨٤ - ١٩٧٨): فيلسوف ومؤرخ للفلسفة الفرنسية.

من الممكن القبول بها باعتبارها متوافقة مع المشيئة الإلهية. قليل من الرجال والنساء هم من يكون فيهم حب الله من الشدة الكافية كي يلفظ هذا الخوف والتوتر نحو الأشخاص والمؤسسات التي يتعلق بها الفرد ويرعاها. ويمكن عزو سبب ذلك إلى أن قلة من الرجال والنساء فقط متواضعون بما يكفي كي يكونوا قادرين على الحب كما ينبغي. وأما افتقاد الغالبية إلى التواضع اللازم فيرجع إلى أنهم لم يصلوا إلى المعرفة المتحققة التامة ليدركوا أنهم لا شيء على المستوى الشخصي.

«لا يكمن التواضع في إخفاء مواهبنا وفضائلنا، أو في أن نظن أننا أسوأ وأكثر عادية مما نحن عليه، لكن في امتلاك معرفة واضحة بكل ما نفتقد إليه في أنفسنا، وكذلك في ألا نمجد أنفسنا بسبب ما نمتلك، نذهب إلى أن الرب قد منحنا ما نمتلك من دون حساب، وأننا لا نزال -مع كل عطاياه- قليلي القيمة بشكل غير متناهٍ».

لاكوردير[1].

«مع ازدياد النور، نرى أنفسنا أسوأ مما كنا نظن. نندهش من عمائنا السابق بينما نرى سربًا كاملًا من المشاعر المخزية ينبعث من قلوبنا، مثل زواحف قذرة تزحف من كهف مخفي. لكن علينا ألا نندهش وألا ننزعج. لسنا أسوأ مما كنا عليه؛ على العكس من ذلك، نحن أفضل مما كنا عليه. لكن في الوقت الذي تتضاءل فيه خطايانا، يزداد وهج النور الذي نراها به، ونمتلئ رعبًا. طالما لا توجد إشارة تدل على التداوي، فنحن غير منتبهين إلى عمق المرض؛ نحن في حالة من الغطرسة والحزم

(١) لاكوردير (١٨٠٢ - ١٨٦١): لاهوتي وصحفي وواعظ فرنسي.

الأعميين، فريسة ضلالات الذات. بينما نمضي مع التيار، لا ننتبه إلى مساره السريع؛ لكن عندما نبدأ في صده بقدر ضئيل للغاية، يجعل من نفسه محسوسًا».

فينيلون.

«يا ابنتي، ابني لنفسكِ صومعتين. الأولى صومعة فعلية، وبذلك لا تنشغلين كثيرًا ولا تثرثرين، إلا إذا كان ذلك ضروريًّا، أو يمكنك القيام بذلك بدافع حبكِ لإخوانكِ. وفيما يلي ذلك ابني لنفسكِ صومعة روحية، يمكنكِ أن تأخذيها معكِ دائمًا، وهذه هي صومعة المعرفة الحقيقية بالذات؛ سوف تجدين هناك معرفة بفضل الرب عليكِ. هنا توجد صومعتان في صومعة واحدة بالفعل، وإذا عشتِ في واحدة، فيجب عليكِ العيش في الأخرى أيضًا؛ وإلا سوف تحبطين النفس أو سوف تجعلينها تصبح متغطرسة. إذا ركنتِ إلى المعرفة بالذات فقط سوف تحبطين، وإذا ركنتِ إلى المعرفة بالرب فقط سوف تستدرجين إلى الغطرسة. يجب أن تسير كل واحدة من المعرفتين جنبًا إلى جنب مع الأخرى، وبذلك سوف تصلين إلى الكمال».

القديسة كاترين من سيينا.

* * *

الفصل العاشر

النعمة والإرادة الحرة

الخلاص يكون خروجًا من الزمن إلى الأبدية والأزل، ويتحقق عن طريق الطاعة والانصياع إلى الطبيعة الأزلية للأشياء. لقد وُهبنا الإرادة الحرة كي نرغب ربما في تلاشي إرادتنا الذاتية، وبذلك نصل إلى العيش باستمرار في «حالة من النعمة». يجب أن تُوَجَّه كل أفعالنا -وفق التحليل الأخير- نحو جعل أنفسنا سلبيين بالنسبة إلى فعالية الحقيقة الإلهية وجوهرها. نحن قيثارات أيولية[1] مُنحنا القدرة على تعريض أنفسنا إلى رياح الروح أو اجتنابها بالابتعاد عنها.

لا تموت روح الوادي أبدًا.

تُدعى بالأنثى الغامضة.

ومدخل الأنثى الغامضة،

هو القاعدة التي تنبعث منها السماء والأرض.

---

(١) قيثارات أيولية: هي قيثارة تعزفها الرياح، إذ إنها عبارة عن أوتار مشدودة طوليًّا، وعندما تهب عليها الرياح تصدر أصواتًا، وهي منسوبة إلى أيولوس، إله الرياح.

هي هناك في داخلنا طوال الوقت.

اركن إليها وعندما تفعل، هي لا تزوي أبدًا.

لاو تسو.

تُعتبر النفس البشرية أنثى في علاقتها بالربوبية -الإله الشخصي وحتى نظام الطبيعة- وذلك في كل شروح الفلسفة الخالدة. تكمن الهوبريس -التي هي الرذيلة الأصلية- في اعتبار الأنا الشخصية ذكرًا مكتفيًا ذاتيًّا في علاقته بالروح في الداخل والطبيعة في الخارج، والتصرف وفقًا لذلك.

رسم القديس بولس حدًّا فاصلًا مفيدًا وألقًا للتمييز بين النفسانية psyche والنيوما[1] pneuma. لكن الكلمة الأخيرة لم تحقق أي درجة من درجات الشعبية أبدًا، وأصبح المصطلح المبهم بشكل ميؤوس منه النفسانية psyche، يستخدم بلا تمييز للتعبير عن كل من الوعي الشخصي والروح. لماذا اختار الكتاب المكرسون في الكنيسة الغربية الحديث عن أنيما anima الإنسان (والتي تدل على النفس الحيوانية الدنيا بالنسبة إلى الرومان) بدلًا من استخدام الكلمة المحجوزة تقليديًّا من أجل النفس العاقلة، ألا وهي الأنيموس؟ الإجابة التي أفترضها أنهم قد كانوا مهمومين بالتشديد بكل الوسائل الممكنة لهم على أنثوية الروح البشرية في جوهرها، وذلك في علاقتها بالرب. شعروا أن أنيما ونفسانية psyche أنسب من نيوما وأنيموس لأن نيوما محايدة في اللغة وأنيموس مذكرة. فلتتفكر في هذا المثال الملموس؛ لو أن لديك بنية اليونانية واللاتينية، فسوف يكون من الصعب بالنسبة إلى متحدثي هاتين اللغتين

---

(١) النيوما: كلمة إغريقية تعني النَّفَس، ويقصد بها هنا الروح أو النَّفْس.

تشبيه أي شيء ببطلة نشيد الإنشاد[1] إلا إذا كانت نفسًا أنثى في اللغة - وبطلة نشيد الإنشاد هي شخصية مجازية لعبت في الفكر والوجدان المسيحي لقرون طويلة الدور نفسه الذي لعبته عذارى جوبي[2] في لاهوت وتكريس الهندوسية.

«سَجِّل هذه الحقيقة الجوهرية. كل شيء يعمل في الطبيعة والخلق -باستثناء الخطيئة- هو من عمل الرب في الطبيعة والخلق. لا طاقة للمخلوق على شيء إلا الاستعمال الحر لإرادته، وإرادته الحرة لا تملك إلا أن توافق أو تقاوم عمل الرب في الطبيعة. لا يمكن للمخلوق مستعينًا بإرادته الحرة أن يجلب شيئًا إلى الوجود أو أن يقوم بأي تغيير في عمل الطبيعة؛ يمكنه فقط تغيير حاله أو مكانه داخل عمل الطبيعة، وبذلك يشعر بشيءٍ في حاله ذلك لم يشعر به من قبل، أو يجد شيئًا لم يجده من قبل».

ويليام لو.

النعمة -مُعرَّفةً بالاصطلاحات النفسانية- هي شيء مختلف عن ذاتنا الشخصية الواعية بذاتها، وهي في عوننا. لقد اختبرنا ثلاثة أنواع من مثل هذا العون - النعمة الحيوانية والنعمة الإنسانية والنعمة الروحية. تأتينا النعمة الحيوانية عندما نعيش في توافق تام مع طبيعتنا الخاصة

(١) نشيد الإنشاد: هو أحد أسفار العهد القديم، وهو قائم على حوار بين امرأة ورجل، يتغزل كل منهما في الآخر، ثم ينتقلان إلى الحديث عن إتمام الزواج، ويعتقد البعض أنه يعكس العلاقة بين الرب وبني إسرائيل أو المسيحيين أو بين الرب والمسيح أو الروح.

(٢) عذارى جوبي: هن فتيات راعيات لقطعان الأبقار، اشتهرن بتكريسهن أنفسهن للإله كريشنا.

على المستوى البيولوجي - لا نسيء استعمال أجسادنا بتجاوز الحدود والإسراف، لا نتدخل في عمل النباهة الحيوانية الساكنة فينا عن طريق الرغبة والنفور الواعيان، لكن علينا أن نعيش في انضباط وأن نجعل أنفسنا منفتحين «لآية الشمس وروح الهواء». يُكافأ مَن يعيش هكذا في تناغم مع الطاو أو اللوغوس في مناحيهما الجسدية والفسيولوجية بشعور بالرفاهة وإدراك الحياة بوصفها جيدة، لا لأي سبب إلا لأنها الحياة. لا يوجد شك أننا عندما نكون في حال النعمة الحيوانية، نكون في حال فيه (ندمر الأسباب كي نعيش من أجل الحياة) **propter vitam vivendi perdere causas**؛ إذ إنه في هذا الحال، لا تمييز بين أسباب الحياة والحياة نفسها. من ثم فالحياة مثلها كمثل الفضيلة هي نفسها مكافأة. لكن كمال النعمة الحيوانية محجوز للحيوانات بالطبع. طبيعة الإنسان تحتم عليه أن يعيش حياة واعية بالذات في الزمن، على تخوم الخير والشر، لا في أبدية هانئة غير معقولة. ينتج عن ذلك أنه يحظى بالنعيم الحيواني بشكل متقطع في استراحات عرضية من الوعي بالذات، أو رفقة أحوال أخرى، ليست الحياة مكافأة في حد ذاتها، لكن يجب أن تُعاش من أجل سبب خارجها.

تأتينا النعمة الإنسانية إما من أشخاص أو من مجموعات اجتماعية، أو من آمالنا وأمنياتنا وتصوراتنا الناتئة عنا والموجودة بصورة ما في الوسط النفساني في حالة يمكن تسميتها الموضوعية غير المباشرة. لدينا جميعًا خبرات بأنواع مختلفة من النعمة الإنسانية. على سبيل المثال، توجد النعمة التي تأتينا من الأم أو الأب أو المربية أو المعلم المحبوب أثناء الطفولة. وفي مرحلة تالية نختبر نعمة الأصدقاء؛ نعمة الرجال والنساء

الأفضل أخلاقيًّا منا والأحكم منا، نعمة المرشد أو الموجه الروحي. ثم هناك النعمة التي تأتينا بسبب تعلقنا بالبلد أو الحزب أو الكنيسة أو أي منظمة اجتماعية أخرى - وهي نعمة ساعدت الأفراد الأضعف والأكثر إحجامًا من تحقيق ما كان ليصبح مستحيلًا من دونها. وأخيرًا هناك النعمة التي نستقيها من مُثُلنا، سواء كانت سامية أو بسيطة، سواء كانت في صور مجردة أو متجسدة في شخصيات خيالية. ينتمي إلى هذا النوع الأخير من النعم كثير من النعم التي يختبرها الملتزمون بالتقوى من مختلف الديانات. قد نخمن أن المساعدة التي يستقبلها أولئك الذين يعبدون الله أو قديسًا شخصيًّا ما أو إلهًا أو تجسدًا للرب في تفانٍ أو يقدسونهم، ليست نعمة روحية أصيلة، لكنها نعمة إنسانية، ترتد إلى العابد من مجال القوة النفسانية الذي نشأ عن الطقوس الإيمانية المتكررة (الخاصة به وببقية الناس) وعن اللهفة والخيال.

لا يمكن استقبال النعمة الروحية بشكل مستمر أو في كمالها إلا عن طريق أولئك الذين سلَّموا إرادتهم الذاتية وبلغوا حالة من الوجود، يقدرون على أن يقولوا بصدق معها: «لست أنا، بل الله فيَّ». مع ذلك، توجد قلة من الناس تحكم على نفسها بصورة غير قابلة للعلاج بالحبس داخل شخصيتها بحيث لا تقدر أبدًا على استقبال النعم التي تقدم إلى كل نفس بين الفينة والأخرى. يدبر أغلبنا أمر نسيان انشغالنا بأنا ولي وملكي ولو جزئيًّا عن طريق التكيف واستهلال السعي نحو ذلك، وهكذا نصبح قادرين على استقبال النعم التي تقدم لنا في تلك اللحظة، ولو جزئيًّا.

تنبع النعمة الروحية من الأصل الإلهي لكل المخلوقات، وهي تُمنح بغية مساعدة الإنسان لتحقيق غايته الخاتمة، وهي العودة بالخروج من

الزمن والذاتية إلى ذلك الأصل. هي تشبه النعمة الحيوانية من حيث إنها مستقاة من مصدر آخر، غير وعينا الذاتي وأنفسنا البشرية؛ هي في الحقيقة مماثلة للنعمة الحيوانية، لكنها تظهر نفسها في مستوى أعلى للولب صاعد، يقود من المادة إلى الربوبية. في أي مثال مضروب، قد تكون النعمة الإنسانية صالحة تمامًا، طالما تساعد مستقبِلها في مهمة تحقيق المعرفة الاتحادية بالرب، لكن بسبب منشأها في الذات الفردانية، هي دائمًا مشكوك فيها قليلًا، وبالطبع في عديد من الحالات تكون المساعدة التي تقدمها نحو تحقيق غايات مختلفة جدًّا عن غاية وجودنا الحقيقية.

«كل صلاحنا قرض، والرب هو المالك. الرب يفعل وفعله هو الرب».

القديس يوحنا الصليب.

«الإلهام المستمر لازم لحياة الصلاح والقداسة والسعادة، كما هو التنفس لازم لحياة الحيوان».

ويليام لو.

والعكس بالعكس بالتأكيد، حياة الصلاح والقداسة والهناء شرط لازم من أجل الإلهام المستمر. العلاقة بين الفعل والتأمل والأخلاق والروحانية علاقة دائرية وتبادلية. كل منها سبب ونتيجة في الوقت نفسه.

«عندما انحدر السبيل العظيم، علا اللطف والأخلاقية البشريان».

لاو تسو.

الأفعال الصينية لا زمن لها. تشير هذه العبارة التي هي حدث افتراضي تاريخي إلى الحاضر والمستقبل في الوقت نفسه. تعني ببساطة التالي: أنه مع صعود الوعي بالذات، لا تعود النعمة الحيوانية كافية لممارسة

الحياة، ويجب دعمها باختيارات واعية وإرادية بين الخير والشر - اختيارات يجب القيام بها في ضوء قانون أخلاقي مصاغ بوضوح. لكن القيام باختيارات واعية وإرادية تجاه القوانين من خلال الإرادة السطحية يأتي في المقام الثاني من حيث الأفضلية، وهو الأمر الذي لا يسأم حكماء الطاو من تكراره أبدًا. يجب استعمال الإرادة الفردانية والنباهة السطحية من أجل استعادة العلاقة الحيوانية القديمة بالطاو، لكن على مستوى أسمى، روحي. الهدف إلهام مستمر من مصادر فيما وراء الذات الشخصية؛ والوسيلة «اللطف والأخلاقية الإنسانية» التي تقود إلى الإحسان، والذي هو معرفة اتحادية بالطاو، باعتباره الأصل واللوغوس في الوقت نفسه.

«يا إلهي، لقد وهبتني وجودي بطبيعة، تستطيع أن تجعل نفسها باستمرار أقدر على استقبال نعمتك وفضلك. أما تلك القوة التي حظيت بها منك، وعن طريقها أحظى بصورة حية من قدرتك عز جلالك فهي الإرادة الحرة. ومن خلالها يمكنني إما أن أوسع من استيعابي لنعمتك، وإما أن أحدَّ منها».

نيقولاس الكوزاني.

قال شون سائلًا تشنج: «هل يمكن للواحد الحصول على الطاو بحيث يحظى به لنفسه؟».

رد تشنج: «جسدك لا يخصك، فما بال الطاو؟».

قال شون: «إذا كان جسدي لا يخصني، أتوسل إليك لمن يكون؟».

رد تشنج: «هو صورة ممثلة للرب، حياتك ليست لك. هي التناغم

الممثل للرب. فردانيتك ليست لك. هي القدرة على التكيف الممثلة للرب. نسلك ليس لك. هو سلخات ممثلة للرب. تتحرك، لكنك لا تعرف كيف. أنت ساكن، لكنك لا تعرف لماذا. تتذوق، لكنك لا تعرف السبب. هذه عمليات قوانين الرب. من ثم كيف لك أن تحصل على الطاو بحيث تحظى به لنفسك؟».

جوانغ زي.

«في قدرتي، إما أن أخدم الرب، وإما أن لا أخدمه. بخدمته أضيف إلى خيري وخير العالم بأكمله. بعدم خدمته، أخسر الخير، وأحرم العالم من ذلك الخير، الذي كان في قدرتي خلقه».

ليو تولستوي.

«لا يحرمك الرب من مجريات حبه، لكنك أنت مَن تحرمه من تعاونك. ما كان الرب ليرفضك أبدًا، إذا لم ترفض أنت حبه. يا إلهي الكريم، أنت لا تهجر، ما لم تُهجر، أنت لا تُبعد عطاياك أبدًا، حتى نُبعد نحن قلوبنا».

القديس فرنسيس دي ساليس.

كان تشينج كبير النجارين، يصنع من الخشب حاملًا لآلة موسيقية. عندما انتهى، بدا العمل للذين رأوه كأنه بتنفيذ خارق للطبيعة، وسأله أمير «لو»، قائلًا: «ما السر الموجود في فنك؟»

رد تشينج: «لا وجود لسر، يا مولاي، ومع ذلك هناك شيء ما. عندما أكون على وشك صناعة مثل هذا الحامل، أجاهد ضد أي نقص في قواي الحيوية. في البداية أخضع عقلي لسكون مطلق. وبعد ثلاثة أيام في هذا الحال، أصبح غافلًا عن أي مكسب يمكن إحرازه. بعد خمسة أيام،

أصبح غافلًا عن أي شهرة، يمكن اكتسابها. بعد سبعة أيام، أصبح غير واعٍ بأطرافي الأربعة وإطاري المادي. من ثم تصبح موهبتي مركزة، لا أفكار صادرة عن المحكمة المنعقدة في رأسي، كما تلاشت كل العناصر المزعجة في الخارج. أدخل إلى غابة جبلية ما، أبحث عن شجرة مناسبة. تحتوي على الشكل المطلوب، والذي يمتلئ بالتفاصيل فيما بعد. أرى الحامل بعيني عقلي، ومن ثم أنطلق إلى العمل. فيما وراء ذلك لا شيء هناك. أجلب جدارتي الفطرية وأضعها في علاقة مع تلك التي للخشب. ما ظنوا أنه تنفيذ خارق للطبيعة في عملي، لم يكن إلا بسبب هذا فقط».

جوانغ زي.

قد يكون إلهام الفنان إما نعمة إنسانية أو روحية، وإما مزيجًا بين الاثنتين. الإنجاز الفني الراقي مستحيل من دون صور الإماتة الفكرية والعاطفية والمادية المناسبة لنوع الفن الذي يُمارس. يضاف إلى هذا الاتجاه ويعلو عليه ما يمكن أن ندعوه إماتة احترافية، مارس بعض الفنانين نوعًا من فناء الذات، والذي هو شرط مسبق لا غنى عنه للمعرفة الاتحادية بالأصل الإلهي. على سبيل المثال جهز فرا أنجيليكو[١] نفسه لأجل عمله عن طريق الصلاة والتأمل، ونرى من خلال المقتطف السابق لجوانغ زي، كيف كانت مقاربة الحرفي المؤمن بالطاوية لفنه دينية في جوهرها (وليست احترافية فقط).

يمكننا أن نلاحظ هنا في خضم حديثنا أن الآلية لا تتوافق مع الإلهام. من المحتمل أن يقوم الصنائعي بعمل رديء تمامًا وغالبًا ما يفعل. لكنه

(١) فرا أنجيليكو (١٣٩٥ - ١٤٥٥): رسام إيطالي من عصر النهضة.

لو جعل نفسه منصاعًا للإلهام -مثل تشينج كبير النجارين- يمكنه القيام بعمل جيد جدًّا وهو ما يفعله أحيانًا، سوف يبدو ذلك العمل «كأنه بتنفيذ خارق للطبيعة». أحد الفوائد العديد والضخمة للميكنة الأوتوماتيكية الفعالة: أنها منيعة ضد الخطأ. لكن لكل مكسب ثمنه: الآلة الأوتوماتيكية منيعة ضد الخطأ؛ لكن لأنها منيعة ضد الخطأ هي منيعة ضد النعمة كذلك. الإنسان الذي يتعهد مثل هذه الآلة منغلق أمام كل أشكال الإلهام الجمالي، سواء كان ذلك الإلهام من أصل بشري أو من أصل روحي حقيقي. «الصناعة دون فن بهيمية». لكن راسكن[1] يقذف فعليًّا البهائم. عندما يعمل الطائر المثابر أو تعمل الحشرة الدؤوب، تلهمهما نعمة البديهة الحيوانية المعصومة - الطاو كما يُظهِر نفسه في المستوى الأعلى مباشرة من المستوى الفسيولوجي. أما عامل الصناعة في حضرة آلته المنيعة ضد الخطأ والمنيعة ضد النعمة يؤدي عمله في كونٍ من آلات منضبطة من صنع البشر - كون يقع بكامله بعيدًا عن نطاق الطاو على أي مستوى، بهيمي أو إنساني أو روحي.

ربما نأتي في هذا السياق على ذكر تلك الحوادث المفاجئة الخاصة بالظهور الإلهي والتي تُوهب للأطفال أحيانًا وللناضجين أحيانًا، الذين قد يكونون شعراء أو أجلافًا، متعلمين أو سذجًا، لكن المشترك أنهم لم يقوموا بشيء إطلاقًا من أجل التجهيز لما حدث. هذه النعم التي لا مسوغ لها ألهمت الكثير من فنون الأدب والتصوير، بعضها رائع، والبعض الآخر رديء بشكل مثير للشفقة (إذ لم تَدعم الموهبة الفطرية

(١) جون راسكن (١٨١٩ - ١٩٠٠): ناقد فني بارز من العصر الفيكتوري.

الإلهام فيها). يبدو أن هذه النعم في العموم تنتمي إلى فئة من بين فئتين رئيستين – إدراك مفاجئ ومؤثر بصورة عميقة للحقيقة النهائية بوصفها حبًّا ونورًا وبركة، وإدراكًا لا يقل تأثيرًا لها بوصفها قوة خفية ومهيبة ومبهمة. سجل ووردزوورث خبرته الخاصة لهذين الملمحين للأصل الإلهي كليهما في صور لا تنسى:

هناك وقت بدت فيه المروج والأيك والجداول،
والأرض وكل مشهد مألوف،
بالنسبة لي
مكتسية بنور سماوي.
وهكذا. لكن هذه الرؤية لم تكن الوحيدة.
بنشوة
غمست مجدافيَّ في البحيرة الساكنة،
وبينما أرفع المجداف، انطلق قاربي
مندفعًا عبر الماء مثل بجعة؛
باتجاه الأفق، ومن وراء المنحدر الوعر،
رفعت قمة ضخمة –كانت سوداء وضخمة– رأسها،
كما لو كانت مفعمة بإرادة حرة.
صعقت وصعقت مرة أخرى،
لا تزال قامة الشكل المروع تنمو،
ارتفع بيني وبين النجوم...
لكن بعدما رأيت

ذلك المشهد ولأيام عديدة شغل
عقلي إحساس خافت وغير جازم
بأشكال وجود غير معروفة؛ وعلى رأس أفكاري
عَلَقَ غموض، أدعوه انفصالًا أو هجرانًا مشوشًا.

يدل المقطع بدرجة كافية على الملمح الثاني للحقيقة الذي يبدو أن العقول البدائية أكثر قبولًا له. الرب الجبار الذي اعترف به أيوب في النهاية والذي هو «شكل وجود غير معروف»، مخلوقاته المميزة على شاكلة بهيموث ولوياثان[1]. هو رب من النوع الذي يدعو إلى «تعليق غائي للأخلاق» -وفق عبارة كيركجارد- ذلك التعليق للأخلاق الذي يأتي في الأساس في صورة أضاحٍ دموية بل وأضاحٍ بشرية. الربة الهندوسية كالي[2] في أكثر ملامحها إثارة للرعب هي تجلٍّ لشكل الوجود غير المعروف نفسه. وبالنسبة إلى العديد من البدائيين المعاصرين فالأصل الكامن يُفهم ويُعقل لاهوتيًّا بوصفه قوة مطلقة بكامل عنفوانها، يجب تبجيلها من أجل استرضائها، وتعديل وجهتها -إذا كان ذلك ممكنًا- من أجل الاستفادة بها عن طريق السحر الاستحواذي.

يصل العقل البشري العادي غير المهتدي بصورة طبيعية تمامًا إلى فهم للرب بوصفه قوة مجردة فقط، لا بوصفه قوة وحب وحكمة كذلك وفي الوقت نفسه. يسمح وضع المنكرين للذات تمامًا لهم فقط بمعرفة

(١) بهيموث ولوياثان: مخلوقان أسطوريان، ورد ذكرهما في سفر أيوب من أجل الإشارة إلى أنه من غير الممكن فهم عمل الرب وهما مخلوقان فوضويان وقد أُبيدا عند الخلق.

(٢) الربة كالي: ربة صيرورة الزمن والموت، فالموت هو عقوبة الولادة، وكان التقرب إليها بتقديم قرابين بشرية، فالموت لازم لاستمرار الحياة.

أنه على الرغم من كل شيء، «سوف تكون كل الأمور جيدة» وهي جيدة بالفعل بطريقة ما، يعرفون ذلك عن طريق التجربة. يقول الرومي: «الفيلسوف الذي ينكر العناية الإلهية غريب عن إدراك القديسين». من يمتلكون إدراك القديسين فقط في إمكانهم معرفة أن الحقيقة الإلهية تُظهر نفسه بوصفها قوة محبة ومتعاطفة وحكيمة، يعرفون ذلك طوال الوقت وعن طريق الخبرة المباشرة. أما بقيتنا فليسوا في موضع روحاني يمكنهم بعد من القيام بما هو أكثر من قبول ما وجدوه عن الإيمان. لولا التسجيلات التي خلَّفوها وراءهم، لكنا أكثر ميلًا إلى الموافقة على رأي البدائيين في أعمال الرب.

«يكبحنا الإلهام، وحتى قبل أن نفكر في أنه قد يجعل نفسه محسوسًا لنا؛ لكن بعد أن شعرنا به فالأمر راجع لنا، إما أن نوافق عليه، بحيث نتتبع ونتعقب عوامل جذبه، وإما أن نخالفه ونرفضه. يجعل نفسه محسوسًا من دوننا، لكنه لا يجعلنا نقبل به من دوننا».

القديس فرنسيس دي ساليس.

«يمكن لإرادتنا الحرة أن تعيق مسار الإلهام، وعندما تنفخ رياح نعمة الرب المواتية أشرعة أنفسنا، فضمن سلطاننا أن نرفض الموافقة، وبذلك نعيق تأثير الرياح المواتية؛ لكن عندما تبحر روحنا على طول المسار وتجعل رحلتها زاخرة، فلسنا نحن من أطلقنا هَبَّة رياح الإلهام من أجلنا، ولسنا نحن من جعلنا أشرعتنا تنتفخ بها، ولسنا نحن من حرك سفينة قلوبنا؛ لكننا استقبلنا ببساطة الرياح، ووافقنا على حركتها وتركنا سفينتنا تبحر طوعًا لها، ولم نُعقها بمقاومتنا لها».

القديس فرنسيس دي ساليس.

«النعمة لازمة لأجل الخلاص، والإرادة الحرة لازمة بالمثل كذلك – لكن النعمة لازمة لأنها التي تمنح الخلاص، والإرادة الحرة لازمة لأنها التي تستقبله. لذلك علينا ألا نعزو جزءًا من العمل الطيب للنعمة وجزءًا للإرادة الحرة؛ فهو يتحقق في صورته الكاملة عن طريق الفعل المشترك غير القابل للفصل لكليهما؛ يتحقق كاملًا بفعل النعمة، وكاملًا بفعل الإرادة الحرة، لكنه ينبع من الأولى إلى الثانية».

القديس برنارد.

يميز القديس برنارد بين الإرادة المشتركة **voluntas communis** والإرادة الخاصة **voluntas propria**. الإرادة المشتركة مشتركة بمعنيين؛ هي إرادة المشاركة، وهي الإرادة المشتركة للإنسان والرب. هي مكافِئة للإحسان عمليًّا. الإرادة الخاصة **voluntas propria** هي إرادة الكسب من أجل الذات والإمساك لأجلها، وهي جذر كل خطيئة. الإرادة الخاصة **voluntas propria** مماثلة للإحساس الخاص **sensum proprium** من الناحية الإدراكية، وهو رأي الواحد الخاص به، يكون عزيزًا لدى المرء لأنه خاص به، ولذلك هو خاطئ أخلاقيًّا دائمًا، حتى لو كانت صحته محتملة نظريًّا.

جاء طالبان من جامعة باريس لزيارة رويسبرويك وسألاه أن يمدهما بعبارة قصيرة أو قول مأثور، يكون لهما بمثابة قاعدة في الحياة.

أجابهما رويسبرويك، «**vos estis tam sancti** أنتما مقدسان بقدر ما تريدان أن تكونا».

«ألزم الرب نفسه بفعل، هو أن يصب نفسه فيك بمجرد أن يجدك جاهزًا».

إكهرت.

«الإرادة كلية القدرة؛ هي التي تصنع الفردوس وتصنع الجحيم؛ إذ إنه لا وجود لجحيم إلا حيثما تحولت إرادة المخلوق عن الرب، ولا وجود لفردوس إلا حيثما عملت إرادة المخلوق مع الرب».

ويليام لو.

«يا أيها الإنسان، انظر إلى نفسك! تقف أنت هنا في خضم الصراع المستمر المحتدم بين الخير والشر؛ تعمل الطبيعة كلها بصورة مستمرة من أجل استجلاب الفداء العظيم؛ يكدح الخلق بكامله في ألم ومشقة ويعمل من أجل الخلاص من هباء الزمن؛ فهل تنوي أن تكون غافلًا؟ كل شيء تسمعه أنت أو تراه لا يقول شيئًا لك ولا يظهر لك شيئًا باستثناء ما حمله النور الأبدي أو الظلمة الأبدية؛ إذ إنه كما يقسم النهار والليل وقتنا كله، تقسم الفردوس والجحيم كذلك كل أفكارنا وكلماتنا وأفعالنا. حرك الطريق الذي تريده أنت، قم بما تريده أنت أو خطط له، عليك أن تكون وكيلًا لأحدهما أو الآخر. ليس لك أن تقف ساكنًا، لأنك أنت تحيا في الأعمال الدائبة للطبيعة الزمنية والأبدية؛ إذا لم تعمل أنت الخير، فإن الشر في الطبيعة سوف يكيد لك. لك أنت ارتفاع وعمق الأبدية فيك ولذلك بفعلك ما تريده أنت، سواء في الخلوة أو الحقل أو المتجر أو الكنيسة، فأنت تبذر ما سوف ينمو وسوف تحصده بالتأكيد في الأبدية».

ويليام لو.

«يتوقع الرب شيئًا واحدًا منك، وهو أن عليك الخروج من ذاتك ما دمت كائنًا مخلوقًا، ودع الرب ليكون الرب فيك».

إكهرت.

بالنسبة إلى أولئك الذين يتلذذون بالتكهنات القائمة على نصوص الكتب المقدسة والافتراضات الدوجمائية، هناك آلاف الصفحات من الخلاف الكاثوليكي البروتستانتي فيما يتعلق بالنعمة والأعمال والإيمان والمبررات. وبالنسبة إلى طلاب مقارنة الأديان هناك تعليقات بحثية على البهاجافاد جيتا وأعمال رامنوغا[1] وأولئك الفيشنويين المتأخرين، الذين يحمل معتقدهم عن النعمة تشابهًا مدهشًا مع لوثر؛ هناك تآريخ للبوذية تتتبع بصورة وافية تطور تلك الديانة من المذهب الهينایاني الذي يشير إلى أن الخلاص هو ثمرة الجهد الذاتي الشاق إلى المذهب الماهاياني الذي يشير إلى أنه لا يمكن تحقيق الخلاص من دون نعمة بوذا الأول، الذي يشكل وعيه الداخلي و«قلبه المتعاطف العظيم» الهكذائية الأزلية للأشياء. أما بالنسبة إلى بقيتنا، فإن الاقتباسات السابقة من كتاب ينتمون إلى التقليد المسيحي والتقليد الطاوي المبكر توفر -فيما يبدو لي- شرحًا وافيًا للحقائق الجديرة بالملاحظة عن النعمة والإلهام، وعلاقتهما بالحقائق الجديرة بالملاحظة عن الإرادة الحرة.

* * *

(١) رامنوغا (١٠١٧ - ١١٣٧): لاهوتي وفيلسوف وكاهن وهو المفسر الرئيس للفيششتادفايتا، أحد التفسيرات الأساسية لمذهب فيدانتا.

الفصل الحادي عشر

الخير والشر

الرغبة هي أولى معطيات وعينا؛ نولد ميالين ورافضين، آملين ومريدين. نُقيِّم بلا وعي في البداية ثم بوعي: «هذا جيد، وذلك سيئ». وبعد ذلك بقليل نكتشف الإلزام. «هذا يجب أن نقوم به لأنه جيد، وذلك لا يجب أن نقوم به لأنه سيئ».

ليست كل التقييمات صالحة بذات القدر. نُستدعى كي نمرر حكمًا على ما تشدد رغبتنا ونفورنا على أنه جيد أو سيئ. نكتشف في أغلب الأحيان أن حكم المحكمة العليا يعارض القرار الذي نصل إليه بسرعة شديدة ورعونة في محكمة أول درجة. نكتشف في ضوء ما نعرفه عن أنفسنا ورفاقنا المقربين والعالم العريض أن ما بدا جيدًا في البداية، قد يكون سيئًا على المدى الطويل أو في سياق أعرض؛ وأن ما بدا سيئًا في البداية قد يكون أمرًا جيدًا، نشعر بأننا ملزمون بالقيام به.

عندما نقول إن إنسانًا يمتلك تبصرًا أخلاقيًّا نافذًا، نعني أن حكمه مضبوط فيما يتعلق بتقدير القيمة؛ إذ إنه يعرف ما يكفي كي يكون قادرًا على أن يقول ما الجيد على المدى الأطول والسياق الأعرض. عندما

نقول إن إنسانًا يمتلك شخصية قوية أخلاقيًا، نعني أنه جاهز كي يعمل وفق ما يكشف عنه تبصره، حتى عندما تكون هذه الاكتشافات غير باعثة على البهجة أو حتى مناقضة بشكل مؤلم لتقديره التلقائي الأول.

التبصر الأخلاقي ليس أمرًا شخصيًا تمامًا أبدًا في أرض الواقع. يتولى القاضي إدارة نظام قانوني ويوجهه أسلافه. بمعنى آخر، كل مواطن هو عضو في مجتمع، له دستور أخلاقي قائم على الاكتشافات السابقة لما كان جيدًا بالفعل على المدى الأطول والسياق الأعرض. يسمح أعضاء أي مجتمع في أغلب الأحيان لأنفسهم أن توجههم الدساتير الأخلاقية الأكثر قبولًا في العموم؛ ترفض قلة الدستور، سواء في مجمله أو في جزء منه؛ وتختار قلة العيش وفق دستور آخر، دستور أرقى وأكثر انضباطًا. بعبارات مسيحية، توجد قلة تصر في عناد على العيش في خطيئة مهلكة ورفض وتمرد على القانون في عداء للمجتمع؛ وتوجد أكثرية تطيع القوانين وتسترشد بالمبادئ الأخلاقية، تتوب عن الخطيئة المهلكة حال ارتكابها، لكنهم لا يبذلون جهدًا كبيرًا من أجل اجتناب اللمم؛ وأخيرًا هناك القلة الذين يمكن أن يُقال لهم «يزيد برُّكم على الكتبة والفريسيين»[1]، أولئك الذين توجههم توصيات الكمال ويملكون من التبصر ما يجعلهم يدركون اللمم وحتى النقائص، ومن الشخصية ما يجعلهم يجتنبونها.

سعى الفلاسفة واللاهوتيون إلى تأسيس قاعدة نظرية للدستور الأخلاقي الموجود، يمكن أن تساعد الرجال والنساء فرادى كي يحكموا

---

(١) إنجيل متى ٥ : ٢٠.

على تقييماتهم التلقائية. من موسى إلى بنثام[1]، ومن إبيقور إلى كالفن، من فلاسفة الحب الكوني للمسيحية والبوذية إلى المذاهب المعتوهة للقومية والتفوق العرقي - القائمة طويلة ومدى الأفكار عريض بشكل هائل. لكن لحسن الحظ لا حاجة بنا إلى تأمل هذه النظريات المتنوعة. ينصب اهتمامنا فقط على الفلسفة الخالدة وعلى نظام المبادئ الأخلاقية التي استخدمها أولئك المؤمنون بالفلسفة، عندما يحكمون على تقييماتهم الخاصة بهم وتلك الخاصة بالآخرين. الأسئلة التي علينا أن نسألها في هذا الخصوص بسيطة، وكذلك الإجابات عنها بسيطة أيضًا. تبدأ الصعوبات فقط -كالمعتاد- عندما ننتقل من النظرية إلى الممارسة، من المبدأ الأخلاقي إلى التطبيق الخاص.

إذا سلمنا أن أصل النفس الفردية مشابه أو مماثل للأصل الإلهي للوجود كله، وسلمنا أن هذا الأصل الإلهي ربٌّ أجلُّ من أن يوصف، يُظهِر نفسه في صورة رب شخصي أو حتى في صورة لوغوس متجسد، فما الطبيعة النهائية للخير والشر؟ وما الغرض الحقيقي والغاية الأخيرة للحياة البشرية؟

سوف نجيب عن هذه الأسئلة بدرجة كبيرة بكلمات من أكثر ما أنتجته قريحة الإنجليزي من القرن الثامن عشر ويليام لو إدهاشا. «كم هو شاذ نظامنا التعليمي! طلاب الأدب الإنجليزي مجبرون على قراءة

(١) جيريمي بنثام (١٧٤٨ - ١٨٣٢): فيلسوف ومصلح وقانوني إنجليزي، ومن أشهر الدعاة إلى مبدأ النفعية.

الصحافة الممتعة لستيل[1] وأديسون[2]، ويُتوقَع منهم أن يعرفوا كل شيء عن الروايات الثانوية لديفو[3] والروائع الصغيرة لماثيو برايور[4]. لكن في إمكانهم أن يجتازوا امتحاناتهم كلها بامتياز مع مرتبة الشرف **summa cum laude** من دون أن يفحصوا بشكل كافٍ كتابات رجل، لم يكن خبيرا في النثر الإنجليزي فقط ، لكنه كذلك أحد أهم المفكرين في حقبته الزمنية وأحد أكثر الشخصيات المحببة ذات القداسة في تاريخ التقليد الأنجليكي كله). إهمالنا الحالي للقانون هو دليل آخر ضمن دلائل عديدة على أن معلمي القرن العشرين قد توقفوا عن الانشغال بأسئلة الحقيقة النهائية أو المعنى (باستثناء ما يتعلق منها بالتدريب المهني)، ويهتمون فقط بنشر ثقافة بلا جذور وغير ذات صلة، وتعزيز حماقات نمطية لدراسة من أجل الدراسة.

«لا شيء يحترق في الجحيم باستثناء الذات».

اللاهوت الجرماني.

«العقل مشتعل، الأفكار مشتعلة. وكذلك وعي العقل والانطباعات التي يستقبلها العقل والأحاسيس التي تنبع من الانطباعات التي يستقبلها العقل كلها مشتعلة.

«وبماذا تشتعل؟ بنار الطمع ونار الاستياء ونار الافتتان؛ بالميلاد

---

(١) ريتشارد ستيل (١٦٧٢ - ١٧٢٩): صحفي وكاتب وسياسي أيرلندي.

(٢) جوزيف أديسون (١٦٧٢ - ١٧١٩): صحفي وكاتب وشاعر ومسرحي إنجليزي.

(٣) دانييل ديفو (١٦٦٠ - ١٧٣١): كاتب وصحفي وروائي إنجليزي ومن أشهر أعماله (روبنسون كروزو).

(٤) ماثيو برايور (١٦٦٤ - ١٧٢١): أحد أشهر الشعراء الإنجليز في تلك الفترة.

وكبر السن والموت، بالحزن والفواجع، بالبؤس والأسى والإحباط، هي مشتعلة بها».

من موعظة النار لبوذا.

«إذا لم تكن رأيت الشيطان، انظر في ذاتك».

جلال الدين الرومي

«ذاتك هي قابيلك الذي يقتل هابيلك. إذ إن لكل أفعال الذات وحركاتها روح المسيخ الدجال عدو المسيح، وهي تقتل الحياة الإلهية بداخلك».

ويليام لو.

«يدفع حب الرب مدينة الرب إلى ازدراء الذات؛ يدفع حب الذات المدينة الدنيوية إلى ازدراء الرب».

القديس أوغسطينوس.

«لا يكمن الفارق بين الرجل الصالح والرجل الطالح في أن الأول يرغب فيما هو صالح والثاني لا يفعل، لكنه كامن فقط في أن الأول يوافق روح الرب الملهمة الحية بداخله، والآخر يقاومها، ويمكن شحنه بالشر فقط لأنه يقاومها».

ويليام لو.

«ينبغي على الناس أن تفكر أقل فيما عليهم أن يفعلوا وأكثر فيما عليهم أن يكونوا عليه. لو أن كينونتهم صالحة فقط، فإن أعمالهم سوف تتألق متلألئة. لا تتصور أنك قد تؤسس خلاصك على أفعالك؛ خلاصك يجب أن ينهض على كينونتك أنت. الأساس الذي تقوم عليه الشخصية

الصالحة هو الأساس نفسه تمامًا الذي يستقي منه عمل الإنسان قيمته، ألا وهو عقل متحول بكامله نحو الرب. لا ريب في أنك قد تطأ حجرًا ويكون ذلك عملًا أكثر ورعًا من استقبالك جسد الرب ورغبتك في الوصول إلى عدم التعلق الروحي، إذا كنت مشغولًا للغاية بالرب وأنت تطأ الحجر بينما تستقبل جسد الرب ببساطة من أجل مكسب شخصي».

إكهرت.

«الإنسان يصنعه اعتقاده. هو على صورة ما يؤمن به».

بهاجافاد جيتا.

«العقل هو ما يمنح الأشياء صفتها وأسسها وكينونتها. أيًّا كان من يتحدث أو يعمل بعقل دنس، يتبعه الغم كما تتبع العجلة خطوات الثور الذي يجر العربة».

دهامابادا.

تحدد الطبيعة التي عليها كينونة الإنسان طبيعة أفعاله؛ وتتجلى طبيعة كينونته أول ما تتجلى وقبل كل شيء في العقل. ما يرغب فيه وما يعتقد فيه، ما يؤمن به ويشعر به -هذا هو اللوغوس -إذا جاز التعبير- عن طريق وساطته تؤدي الشخصية الجوهرية للفرد أفعالها الخلاقة. سوف تكون هذه الأفعال جميلة وطيبة أخلاقيًّا لو كان الكائن متمركزًا حول الرب، وسوف تكون باطلة وقبيحة لو كان متمركزًا في ذاته الشخصية. يقول إكهرت: «يؤدي الحجر عمله بلا انقطاع، ليل نهار». إذ إنه عندما لا يكون في حالة سقوط فعلي، يكون له وزن. كينونة الإنسان هي طاقته الكامنة موجهة نحو الرب أو بعيدًا عنه؛ وعن طريق هذه الطاقة الكامنة

سوف يُحكَم على الإنسان بوصفه خيِّرًا أم شريرًا – إذ إنه من المحتمل -وفق لغة الإنجيل- أن يرتكب الزنا والقتل في القلب، بينما يظل طاهرًا غير ملوم في الفعل.

«الشهوة والحسد والكبر والغيظ هي عناصر الذات أو الطبيعة أو الجحيم الأربعة، كل منها لا تنفصل عنها. والسبب وراء لماذا يجب أن تكون الأمور على هذه الصورة، ويستحيل أن تكون على صورة أخرى هو أن الحياة الطبيعية للمخلوق تُستجلب من أجل مشاركة بعض الخير السامي الخارق للعادة في الخالق. لكنها قد لا تمتلك اللياقة أو القدرة على استقبال مثل هذا الخير، إلا إذا كانت في حد ذاتها في أقصى درجات الإرادة وأقصى درجات الرغبة نحو بعض الخير السامي. لذلك عندما تكون هذه الحياة الطبيعية محرومة من الرب أو ساقطة بعيدًا عنه، فلا يمكن أن تكون في حد ذاتها إلا في أقصى درجات الإرادة التي ترغب باستمرار وأقصى درجات الرغبة التي تريد باستمرار. وبسبب أن الأمور على هذه الصورة، فلا يمكن لحياته في المجمل أن تكون إلا وبال الشهوة والحسد والكبر والغيظ وعذابها، وكل منها هو طبيعة أو ذات أو جحيم. أما الآن، فإن الشهوة والكبر والحسد ليست ثلاثة أشياء مختلفة، وإنما أسماء ثلاثة مختلفة لأعمال الإرادة أو الرغبة، واللتين هما الشيء نفسه. أما الغيظ فهو مولود رابع من هذه الثلاثة، قد لا يكون له وجود حتى تكون هناك معارضة لواحدة من هذه الثلاثة أو لها جميعًا أو يحدث شيء لها مخالف لإرادتها. تُوَلِّد هذه الصفات الأربع عذابها الخاص بها. لا وجود لسبب خارجي لها، ولا أي قدرة داخلية على تغيير نفسها. ولذلك فكل ذات أو طبيعة تكون في هذا الحال بالتأكيد حتى يلج إليها خير ما خارق

للعادة، أو يولد فيها. بينما يعيش الإنسان بالفعل في تفاهات الزمن، قد تكون شهوته وحسده وكبره وغيظه في حالة يمكن تحملها، تدفعه نحو مزيج من السلام والمتاعب؛ قد يكون لها مسراتها أحيانًا وعذاباتها في أحيان أخرى. لكن عندما يضع الموت نهاية لتفاهة كل الخدع الدنيوية، فإن النفس التي لم تولد من جديد من كلمة الرب وروحه الخارقة للعادة، تجد نفسها بالتأكيد مُفترَسة وخرساء لا محالة في شهوتها وحسدها وكبرها وغيظها النهم الذي لا يتغير والمُعذِب ذاتيًّا».

ويليام لو.

«من الصحيح أنك لا تستطيع بشكل سليم التعبير عن درجة إثمك؛ لكن هذا يرجع إلى أنه من المستحيل أن تمثل الآثام في كامل قبحها في هذه الحياة؛ ولا يمكننا أبدًا معرفتها على صورتها الفعلية إلا في نور الرب. يمنح الرب بعض النفوس انطباعًا بضخامة الإثم، وبواسطة ذلك الانطباع يجعلهم يشعرون أن الإثم أعظم بصورة لا تُضاهى مما يبدو عليه. على مثل هذه النفوس أن تتصور الآثام كما يظهرها الإيمان (كما هي في حد ذاتها)، لكن عليهم أن يرضوا بوصفها بالكلمات البشرية، بما تستطيع أفواههم التصريح به».

شارل دي كوندرين[١].

«عندما انتصب لوسيفر (الشيطان) قائمًا في سمت النبل الطبيعي -كما خلقه الرب- كان مخلوقًا نبيلًا نقيًّا. لكنه عندما انكمش في ذاته، عندما حاز نفسه ونبالته الطبيعية بوصفهما مِلكية، سقط وأصبح شيطانًا

---

(١) شارل دي كوندرين (١٥٨٨ - ١٦٤١): طبيب وصوفي فرنسي.

بدلًا من الملاك الذي كان عليه. ينطبق الأمر نفسه على الإنسان. لو بقي في ذاته. وحاز لذاته نبالته الطبيعية بوصفها مِلكية، سقط وأصبح شيطانًا، بدلًا من الإنسان الذي كانه».

التأسي بالمسيح[1].

«لو كان لثمرة لذيذة فواحة القدرة على فصل نفسها عن الروح الغنية والطعم الطيب والرائحة واللون التي تستقبلها من فضل الهواء وروح الشمس، أو إذا كان لها في بداية نموها أن تتحول بعيدًا عن الشمس ولا تستقبل أي فضل منها، فمن ثم سوف تقف على أول ميلاد فيها للغيظ والحموضة والمرارة واللذوعة، تمامًا مثلما يحدث للشياطين الذين تحولوا عائدين إلى جذورهم المظلمة ورفضوا نور وروح الرب. وعلى ذلك فالطبيعة الجحيمية للشيطان ليست سوى أشكال الحياة الأولى الخاصة به وقد سُحِبت بعيدًا عن النور والحب السماويين أو فُصِلت عنهما؛ كما هي حموضة ومرارة ولذوعة الفاكهة تمامًا، ما هي إلا الشكل الأول لحياة الخضراوات، قبل أن تصل إلى فضل الشمس وروح الهواء. إذا كان لهذه الثمرة قدرة على الإحساس بنفسها، لكانت امتلأت بالعذاب بمجرد حبسها في الأشكال الأولى لحياتها، في لذوعتها وحموضتها ومرارتها الشديدة، وبالمثل الملائكة، عندما يتحولون عائدين إلى هذه الأشكال الأولى نفسها لحياتهم، وينقطعون عن النور السماوي وحب الرب، يصبحون هم جحيمهم. لا جحيم خُلِق لأجلهم، لا صفات جديدة ولجت إليهم، لا انتقام أو آلام أنزلها بهم رب المحبة؛ هم مقيمون فقط

(١) التأسي بالمسيح: كتاب من تأليف توما الكمبيسي (١٣٨٠ - ١٤٧١): وهو راهب ألماني.

في حالة الفرقة والانفصال تلك، فرقة وانفصال عن ابن الرب وروحه القدس، فرقة وانفصال خلقوها لأنفسهم عن طريق حركتهم. ليس لديهم في داخلهم سوى ما نالوه من الرب، الأشكال الأولى للحياة السماوية؛ لكنهم يحظون بها في حالة من العذاب الذاتي؛ لأنهم فصلوها عن ميلاد الحب والنور».

ويليام لو.

«يستحيل أن تُوجد إلا سعادة واحدة وبؤس واحد من بين كل احتمالات الأشياء. البؤس الواحد هو طبيعة ومخلوق تُرك لذاته، السعادة الواحدة هي الحياة والنور وروح الرب متجلية في طبيعة ومخلوق. هذا هو المعنى الصحيح لكلمات ربنا: ليس أحدٌ صالحًا إلا واحد وهو الله[١]».

ويليام لو.

«البشر ليسوا في الجحيم لأن الرب غاضب منهم؛ هم في غيظ وظلمة لأنهم فعلوا بالنور الذي يتدفق بلا نهاية من الرب، ما فعله ذلك الإنسان الذي أطفأ عينيه بنور الشمس».

ويليام لو.

على الرغم من أن نور العالم الخارجي وراحته تحفظ حتى أكثر البشر سوءًا من أي إحساس قوي ثابت بتلك الطبيعة المغتاظة والمشتعلة والمظلمة والمُعذِّبة لذاتها، تلك الطبيعة التي هي جوهر كل نفس ضالة ساقطة، إلا أن كل إنسان في العالم تجيئه تلميحات قوية متكررة نوعًا ما، تعلمه أن هكذا هو حاله في أعمق أصل لنفسه. كم عدد الابتكارات

---

(١) إنجيل مرقس ١٠ : ١٨.

التي يُجبر بعض الناس على اللوذ بها من أجل تحاشي قلق داخلي معين، يخافون منه ولا يعرفون متى يأتي؟ وكذلك يرجع الأمر إلى وجود روح ساقطة، نار مظلمة موجعة بداخلهم، لم تحظَ أبدًا بالتلطيف المناسب، وتحاول استكشاف نفسها واستدعاء المساعدة لدى كل توقف للبهجة الدنيوية».

ويليام لو.

السقوط في التقليد العبراني - المسيحي رديف للخلق وناتج حصريًّا عن الاستخدام المتمركز حول الأنا للإرادة الحرة، تلك الإرادة يجب أن تبقى متمركزة في الأصل الإلهي، لا في الذاتية المنفصلة. تجسد أسطورة الخلق حقيقة نفسانية هامة جدًّا، لكنها تفشل في بلوغ الرمزية المرضية تمامًا؛ لأنها تفشل في الإتيان على ذكر حقيقة الشر والمعاناة في العالم غير البشري، وتفشل أكثر بكثير في شرحها. كان من اللازم تعديل الأسطورة من ناحيتين كي تكون مناسبة لخبرتنا. في المقام الأول، كان عليها توضيح أن الخلق -العبور غير المفهوم من الواحد الأحد غير المتجلي إلى تعددية الطبيعة المتجلية، من الأزل والأبدية إلى الزمن- ليس بالكاد مقدمة وشرطًا أساسيًّا للسقوط؛ بل هو السقوط نفسه إلى حد ما. وفي المقام الثاني، كان عليها الإشارة إلى أن شيئًا ما مشابهًا للإرادة الحرة قد يُوجد في مستوى أدني من المستوى البشري.

نُصَّ بوضوح في ترجمات الفلسفة الخالدة البوذية والهندوسية على أن العبور من وحدة الروحاني إلى تشعب الوجود الزمني هو جزء أساسي في السقوط. لا يمكن فصل الألم والشر عن الوجود الفردي في عالم الزمن؛ وبالنسبة للمخلوقات البشرية فإن هناك زيادة في حدة هذا

الألم والشر المحتومين عندما تتحول الرغبة نحو الذات والعديد، بدلًا من تحولها نحو الأصل الإلهي. ربما نضيف افتراضًا إلى هذا الرأي، يذهب إلى أن الوجود دون البشري ربما وُهِب (على المستويين الفردي والجماعي كليهما، على اعتبار أنها أنواع وفصائل) شيءٌ يشبه القدرة على الاختيار. توجد حقيقة استثنائية مفادها أن «الإنسان يقف بمفرده»[١] – إذ إنه بقدر طاقتنا على الحكم، فإن كل الأنواع الأخرى هي أحافير حية، غير قادرة إلا على الاضمحلال والانقراض، لا على التقدم التطوري إلى الأمام. وبحسب تعابير الأرسطية السكولائية، فإن المادة تمتلك شهية نحو تشكيل صور – ليس بالضرورة نحو تشكيل الصورة الأفضل، لكن نحو تشكيل الصورة في حد ذاتها. عندما ننظر حولنا في عالم الأشياء الحية، نلاحظ (في تعجب مبتهج، ويجب الاعتراف أن هذا التعجب مشوب أحيانًا بانزعاج متسائل) الصور التي لا تعد ولا تحصى، الجميلة دائمًا، والغريبة بدرجة مهولة غالبًا، والشريرة أحيانًا، وقد وجدت فيها شهية المادة –التي لا تشبع– رضاها. من بين كل المادة الحية، فقط تلك التي انتظمت في هيئة البشر هي التي نجحت في العثور على صورة قادرة على المزيد من التطور، بأي حال على الجانب الذهني. أما البقية جميعها فمحبوسة الآن في صور، يمكن أن تبقى على ما هي عليه فقط، أو إذا تغيرت فإنها تتغير إلى الأسوأ فقط. يبدو الأمر كما لو أن المادة الحية كلها باستثناء البشر قد استسلمت إلى إغراء اتخاذ الصورة المربحة أكثر في التو، لا الصورة الأفضل في النهاية، وذلك في اختبار الذكاء الكوني الذي تعرضت له في وقت ما أو الآخر خلال مسيرتها البيولوجية. لقد

---

(١) عنوان كتاب لجوليان هكسلي، صدر عام ١٩٤١.

اختارت كل الفصائل باستثناء البشر، عن طريق شيء أشبه بالإرادة الحرة، العودة السريعة إلى التخصص، إلى الانشقاق الحالي لكينونةٍ مثالية، لكنها مثالية على مستوى أدنى من الكينونة. وكانت النتيجة أنها جميعًا وقفت عند نهاية أزقة بيولوجية سد. لقد أضافت إلى السقوط الكوني الأول للخلق -التجلي المحتشد في الزمن- المعادل البيولوجي لسقوط الإنسان الإرادي. لقد اختارت -كأنواع- الإرضاء الفوري للذات عوضًا عن القدرة على إعادة الاتحاد بالأصل الإلهي. وبسبب هذا الاختيار الخاطئ فإن صور الحياة غير البشرية تُعاقب سلبيًّا، عن طريق حرمانها من إدراك الخير الأسمى، الذي تقدر عليه فقط الصورة البشرية غير المتخصصة وبالتالي الأكثر حرية والأعلى وعيًا. لكن علينا ألا ننسى بالطبع أن القدرة على الخير الأسمى تتحقق فقط على حساب امتلاك القدرة على الشر المتطرف كذلك. لا تعاني الحيوانات من وجوهٍ كثيرة جدًّا، وفي مستطاعنا أن نكون أكيدين كذلك إلى حد كبير من أنها لا تعاني بالدرجة نفسها التي يعاني بها الرجال والنساء. علاوة على ذلك، هي بريئة تمامًا من الشرور الشيطانية التي تعد إحدى العلامات المميزة للنوع البشري إلى جانب الورع.

من ثم نرى أن الخير بالنسبة إلى الفلسفة الخالدة هو توافق الذات المنفصلة مع الأصل الإلهي الذي يمنحها كينونتها، وفناؤها النهائي فيه؛ أما الشر -متمثل في زيادة حدة الانفصال- فهو رفض معرفة أن هذا الأصل موجود. يتفق هذا المعتقد تمامًا بالتأكيد مع صياغات المبادئ الأخلاقية، على اعتبار سلسلة من الأوامر السماوية الناهية والجازمة، أو حتى من حيث كونها ذات جدوى اجتماعية. تنبع الجرائم الممنوعة في

كل مكان من حالات عقلية مدانة في كل مكان بوصفها خاطئة؛ وهذه الحالات العقلية الخاطئة لا تتوافق مطلقًا مع المعرفة الاتحادية بالرب وهي حقيقة تجريبية في واقع الأمر، هذه المعرفة الاتحادية بالرب هي الخير الأسمى بحسب الفلسفة الخالدة.

* * *

الفصل الثاني عشر

الزمن والأزل

الكون عبارة عن تتابع دائم للأحداث؛ لكن أصله بحسب الفلسفة الخالدة هو الآن السرمدي للروح الإلهي. يمكننا العثور على عرض كلاسيكي للعلاقة بين الزمن والأزل في الفصول الأخيرة من كتاب «عزاءات الفلسفة» **Consolations of Philosophy** [١]، وفيه يلخص بوثيوس مفاهيم أسلافه، والتي ترجع إلى أفلوطين بشكل واضح.

من الجلي أن البقاء عبر حياة بلا نهاية -والأهم من ذلك- احتضان وجود الحياة التي بلا نهاية بأكمله، هما خاصيتان تعودان إلى العقل الإلهي.

يبدو العالم الزمني كأنه يحاكي جزئيًّا، ما لا يقدر على إحرازه أو التعبير عنه بالكامل، رابطًا نفسه بالحضور الموجود هناك في هذه اللحظة الضئيلة العابرة - وهو حضور يحمل صورة معينة للوجود الدائم وبذلك يمنح كل ما قد يتداخل معه صفة الوجود فيما يبدو. لكن

---

(١) كتاب لبوثيوس، كتبه في حدود عام ٥٢٤ م.

لأن العالم الزمني لا يستطيع البقاء ثابتًا، يضطلع برحلة زمنية لا نهائية؛ وبذلك يحدث وأن يحرز ما لم يستطع استيعابه عن طريق البقاء ثابتًا، إذ يحرزه عن طريق المضي قدمًا، مواصلًا تلك الحياة المتحركة».

بوثيوس.

«ولأن للرب وجود أزلي وحاضر دائمًا، فإن معارفه تتجاوز مفاهيم الزمن، وتبقى في بساطة حضوره، وتعتبر كل الأشياء كأنها قد تمت بالفعل، إذ تشمل معارفه ما كان في الماضي وما هو قادم».

بوثيوس.

«لا تُحدَّد المعرفة بما يجري الآن الحدث. ما يسمى عادة بمعرفة الرب المسبقة هي في الواقع معرفة آنية لا زمن لها، متوافقة مع حرية إرادة المخلوق البشري في الزمن.

يتخذ العالم المتجلي وكل ما يتحرك من أي نوع أسبابه ونظامه وصوره من ثبات العقل الإلهي. حدد هذا طرقًا متعددة لحدوث الأشياء؛ تُسمى الطرق التي يُنظر في أمرها ضمن صفاء الفهم الإلهي بالعناية الإلهية؛ لكن عند الإشارة إلى هذه الأشياء التي تحركها وترتبها فإنها تُدعى القدر... العناية الإلهية هي العقل الإلهي نفسه، الذي يدبر كل شيء. لكن القدر هو ترتيب مجبول في الأشياء المتغيرة، وعن طريقه تربط العناية الإلهية بين كل الأشياء في نظامها المضبوط. تضم العناية الإلهية كل الأشياء معًا على حد سواء، على الرغم من تنوعها وعلى الرغم من أنها بلا حدود؛ لكن القدر يضع كل الأشياء الموزعة بحسب

الأماكن والصور والأزمان موضع التنفيذ؛ وعلى ذلك فالعناية الإلهية هي هذا التشعب للترتيب الزمني، متحدًا في تبصر العقل الإلهي، وهذا الاتحاد نفسه، موزعًا ومتشعبًا في الزمن يدعى بالقدر... مثلما يتدبر العامل صورة أي شيء في عقله ثم يهتم بأمر ما كان قد دبَّره ببساطة في لحظة واحدة وينفذه من خلال تراتيب الزمن، يدبر الرب على ذلك عن طريق عنايته الإلهية ما يجب أن يحدث ببساطة وثبات، وعن طريق القدر يؤثر بطرق متشعبة على تلك الأشياء التي سبق ودبرها وذلك في تيار تراتيب الزمن... كل ما يقع تحت طائلة القدر عرضة للعناية الإلهية كذلك. لكن بعض الأشياء تحت طائلة العناية الإلهية تعلو على مسار القدر. إذ إن تلك الأشياء الثابتة بفضل قربها من مقام الربوبية، تتجاوز تراتيب حركة القدر».

بوثيوس.

«يضم مفهوم الساعة (ساعة الحائط) كل تتابع في الزمن. في ذلك المفهوم لا تكون الساعة السادسة سابقة على السابعة أو الثامنة، ومع ذلك احفظ أن الساعة لا تطرق أبدًا الوقت[١] عندما يعلن المفهوم عن نفسه».

نيقولاس الكوزاني.

---

(١) في الأصل strike the hour، وهي تعني تدق الساعة، لكن العبارة تلعب على المجاز ولذا آثرت ترجمتها على «تطرق الوقت»؛ وذلك لأن المقصود كما أن مفهوم الساعة لا تسبق فيه ساعة الأخرى، فالساعة كذلك «لا تطرق / تضرب» strike الوقت وإن كانت تدق بالفعل بالمعنى المجازي للعبارة.

من هوبز[1] فصاعدًا، أنكر أعداء الفلسفة الخالدة وجود آنٍ أزلي. ووفق هؤلاء المفكرين، فإن الزمن والتغيير جوهريان، لا وجود لحقيقة أخرى. علاوة على ذلك، فأحداث المستقبل غير محددة البتة، وحتى الرب لا يمكن أن يعرف بها. وبناءً على ذلك فإنه من غير الممكن وصف الرب باعتباره البداية والنهاية (ألفا وأوميجا) - إذ إن ألفا ولامبدا أو أيًا من الحروف الوسيطة الأخرى للأبجدية الزمنية هي بالكاد في خضم عملية تحرير. لكن الأدلة المتناقلة التي جمعها المجتمع فيما يخص البحث النفساني والأدلة الإحصائية المتراكمة على مدى عدة آلاف من الاختبارات المعملية فيما يخص الإدراك الخارج عن الحواس تشير بصورة لا مفر منها إلى استنتاج مفاده أن حتى العقول البشرية قادرة على المعرفة المسبقة. ولو أن وعيًا محدودًا يستطيع أن يعرف ما سوف تسفر عنه البطاقة عند قلبها بعد ثلاث ثوانٍ من الآن، وأن يعرف أي سفينة سوف تتحطم بعد أسبوع من الآن، فمن ثم لا شيء مستحيل، أو حتى غير محتمل جوهريًا في تصور وعي بلا حدود، يستطيع أن يعرف الآن أحداثًا بعيدة إلى ما لا نهاية فيما هو بالنسبة لنا مستقبل. «الحاضر المزيف» الذي يعيش فيه البشر قد يكون شيئًا أكثر من مجرد مقطع مجرد للانتقال من ماضٍ معروف إلى مستقبل غير معروف، بل هو ربما أكثر من ذلك دائمًا. نعتبره بسبب وضوح الذاكرة اللحظة التي ندعوها «الآن»، قد تحتوي جزءًا من المستقبل القريب أو حتى البعيد نسبيًا، بل تحتوي ربما على هذا الجزء دائمًا. قد يكون «المستقبل المزيف» بالنسبة إلى الرب «حيازة فورية كاملة للحياة اللانهائية» **interminabilis vitae tota**

---

(١) توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩): فيلسوف إنجليزي وعالم رياضيات.

simul et perfecta possessio تلك التي يتحدث عنها بوثيوس.

أحيانًا ما يُنكر وجود الآن الأزلي على أساس أن نظام زمني لا يمكن أن يتواجد في الوقت نفسه مع نظام آخر خارج حدود الزمن، ويستحيل على جوهر متغير الاتحاد بجوهر غير متغير. من الجلي أن هذا الاعتراض كان ليصبح صالحًا لو كان النظام خارج حدود الزمن ذا طبيعة ميكانيكية أو لو أن الجوهر غير المتغير امتلك خواصَّ مكانية ومادية. لكن الآن الأزلي بحسب الفلسفة الخالدة هو وعي؛ الأصل الإلهي هو روح، وجود البراهمان هو تشيت أو معرفة. على ذلك فالعالم الزمني المعروف والمستدام والمبدع بصورة دائمة من قِبل وعي أزلي هو تصور لا يحتوي على أي شيء متناقض ذاتيًا.

وأخيرًا نصل إلى الحجج الموجهة ضد أولئك الذين يشددون على أن الأصل الأزلي يمكن أن تعرفه العقول البشرية اتحادًا. يعد هذا ادعاءً سخيفًا لأنه يتضمن الزعم الذي مفاده، «في وقت ما أنا أزلي، وفي وقت آخر أنا في الزمن». لكن هذه الجملة عبثية فقط إذا كان الإنسان مخلوقًا ذا طبيعة مزدوجة، قادرًا على العيش في مستوى واحد فقط لكن لو أن الإنسان ليس جسدًا ونفسانية مجردين، لكنه روح كذلك، وإذا كان يستطيع بإرادته أن يعيش في النطاق البشري فقط أو أن يعيش في تناغم بل في اتحاد مع الأصل الإلهي لوجوده، فمن ثم يصبح للعبارة معنى حسن تمامًا. الجسد في الزمن دائمًا، الروح بلا زمن دائمًا، أما النفسانية فكائن ثنائي الطبيعة، تدفعها قوانين الوجود البشري إلى أن تربط نفسها بدرجة ما بجسدها، لكنها قادرة إذا ما رغبت على أن تختبر روحها وأن تُعرَّف بها، ومن خلال الروح يمكنها اختبار الأصل الإلهي وأن تُعرَّف

به. تبقى الروح دائمًا على ما هي عليه في جوهرها؛ لكن الإنسان مركب بالشكل الذي لا يمكن به لنفسانيته أن تبقى دائمًا مميزة بالروح. كلمة «أنا» في عبارة «في وقت ما أنا أزلي، وفي وقت آخر أنا في الزمن» ترمز إلى النفسانية التي تعبر من الزمن إلى الأزل عندما تُميَّز بالروح وتعبر مرة أخرى من الأزل إلى الزمن، عندما تختار تمييز نفسها بالجسد أو عندما تكون مدفوعة إلى ذلك، إما إراديًا وإما عن طريق الضرورة اللا إرادية.

يقول جلال الدين الرومي: «الصوفي ابن وقته». التقدم الروحي تقدم لولبي. نبدأ أطفالًا في الأزل الحيواني للحياة في هذه اللحظة، دون قلق من المستقبل أو ندم على الماضي؛ نكبر ونصير تحديدًا في ذلك الظرف الإنساني لأولئك الذين ينظرون إلى ما خلَّفوه وراءهم وإلى ما هو قادم، الذين يعيشون بدرجة كبيرة، لا في الحاضر، لكن في الذكرى والمتوقع، لا يعيشون عفو الخاطر، لكن وفق العرف، في حذر وحسرة وخوف وأمل؛ ويمكننا أن نواصل إذا ما رغبنا ونمضي إلى ردة كاسحة نحو نقطة مقابلة لمكان بدئنا في الحيوانية، لكنه أعلى منه ولا يقاس به. ومرة أخرى بمجرد أن تعاش الحياة في اللحظة الآنية - فإنها ليست لمخلوق دون البشر، لكنها تعود لمخلوق أطاح الإحسان فيه بالخوف، واتخذت الرؤية فيه مكان الأمل، ووضع إنكار الذات حدًّا للتمركز حول الذات، سواء ذلك الإيجابي المتمثل في ذكرى الرضى عن الذات أو السلبي المتمثل في تبكيت الذات. اللحظة الحاضرة هي المنفذ الوحيد الذي يمكن للنفس أن تخرج عبره من الزمن إلى الأزل، ويمكن للنعمة أن تخرج عبره من الأزل إلى النفس، ويمكن للإحسان المرور عبره من نفس في الزمن إلى نفس أخرى في الزمن. هذا هو السبب وراء أن الصوفي هو

ابن الوقت أو يحاول أن يكون كذلك، ومعه على الدرب كل ممارس لما ورد في شروح الفلسفة الخالدة.

الماضي والمستقبل كلاهما يحجبان الله عنك،

فلتضرم النار في كليهما. إلى متى

سوف تبقى مجزأ بهذه المقاطع، مثل قصبة مزمار؟

طالما كانت القصبة مجزأة، هي ليست قرينة للأسرار،

ولا تصدر عنها أصوات في استجابة لمس الشفاه والنفخ».

جلال الدين الرومي.

«هذا الإفراغ للذاكرة ليس عظيمًا للغاية على الرغم من فوائده، وذلك إذا ما قُورنت هذه الفوائد بتلك الناجمة عن حال الاتحاد، مع ذلك فهو في واقع الأمر خير عظيم لمجرد أنه يخلص النفوس من الكثير من الأسى والغم والحزن، إلى جانب العيوب والآثام».

القديس يوحنا الصليب.

تلعب الذاكرة في كونيات المُثُل لبوذية الماهايانا دور الديميورغوس[١] الخبيث. «عندما يتقصى البوداسَف أحوال العالم الثلاثي، يدرك أن وجوده راجع للذاكرة التي تراكمت منذ الماضي السحيق الذي لا بداية له، لكنها تُؤَوَّلُ بشكل خاطئ». (لانكافاترا سوترا). الكلمة المترجمة هنا إلى «ذاكرة» تعني حرفيًّا «التعطير». يحمل الجسد - العقل معه الرائحة التي لا يمكن التخلص منها لكل ما فُكِر فيه وفُعِل، ورُغِب فيه وشُعِر

(١) الديميورغوس: هو خالق الكون المادي.

به، على طول ماضيه العرقي والشخصي. يترجم الصينيون المصطلح السنسكريتي باستخدام رمزين، يدلان على «طاقة - العادة». العالم (في أعيننا) على ما هو عليه، بسبب كل العادات التي نتذكرها بوعيٍ ودون وعيٍ وفسيولوجيًا والتي شكلها أسلافنا أو شكلناها نحن، سواء في حياتنا الحاضرة أو في وجود سابق لنا. تتسبب هذه العادات السيئة التي نتذكرها في جعلنا نعتقد أن التعدد هو الوجود الوحيد وأن تصور «أنا» «لي» «ملكي» يمثل الحقيقة النهائية. تكمن النيرفانا في «النظر في مقام الحقيقة كما هي»، لا الحقيقة كما تبدو لنا **quoad nos**. ومن الواضح أنه من غير الممكن تحقيق هذا، طالما كانت هناك «نا» قد تكون الحقيقة نسبية وفق منظورها. ولذلك كانت الحاجة إلى إماتة الجسد وإفناء الذات، وهو الأمر الذي أكد عليه كل شراح الفلسفة الخالدة. وهذه الإماتة لا يجب أن تكون للشهوات والمشاعر والإرادة فقط، بل كذلك لقوى التعقل والوعي نفسه وما يجعل وعينا ما هو عليه - ذاكرتنا الشخصية وطاقات - العادة الموروثة. التحول عن الخطيئة ليس كافيًا لأجل تحقيق خلاص كامل؛ يجب أن يكون هناك تحول للعقل أيضًا، أو بارافريتي كما يطلق عليه معتنقو الماهايانا، أو انقلاب في أعمق أعماق الوعي. ونتيجة لهذا الانقلاب، تُدمر طاقات - العادة الخاصة بالذاكرة المتراكمة، ومعها يُدمر الإحساس بالأنا المنفصلة. وهكذا لا تعود الحقيقة مدركة بالنسبة لنا **quoad nos**، لكنها مدركة كما هي في ذاتها (والسبب وراء ذلك أنه لم تعد هناك «نا» **nos** كي تدركها). يقول بليك: «لو نُظِّفت أبواب الإدراك جيدًا، سوف يُرى كل شيء على ما هو عليه، غير محدود». يختبر أولئك الأنقياء في القلب والفقراء إلى الروح

السامسارا والنيرفانا، المظهر والحقيقة، الزمن والأزل باعتبارها واحدًا والشيء نفسه.

«الزمن هو ما يمنع النور من الوصول إلينا. لا وجود لعائق أمام الوصول إلى الرب أعظم من الزمن. وليس الزمن فقط بل المؤقتات كذلك، لا الأشياء المؤقتة فقط بل المشاعر المؤقتة أيضًا، وليست المشاعر المؤقتة فقط بل عفن ورائحة الزمن».

إكهرت.

«يقول القديس بولس: افرحوا في الرب طوال الوقت. مَن يفرح طوال الوقت هو مَن يفرح متعاليًا على الزمن ومتحررًا من الزمن. تمنع ثلاثة أشياء إنسانًا من معرفة الرب. الأول هو الزمن، والثاني هو الحسية، والثالث هو التعدد. إذا دخل الرب، يجب أن تخرج هذه الأشياء - إلا إذا كان لديك بطريقة أسمى وأفضل: تعدد مجمل في واحد فيك.

إكهرت.

عندما يُنظر إلى الرب باعتباره موجودًا بالكامل في الزمن، يكون هناك ميل إلى اعتباره «جليلًا جبارًا» بدلًا من أن يكون «كيانًا أخلاقيًا»، إلهًا ذا قوى باطشة مجردة بدلًا من أن يكون إلهًا ذا قوى وحكمة وحب، ملكًا غامضًا وخطيرًا، يُسترضى بالأضاحي، لا روحًا تُبجل في الروح. لا يكون كل هذا طبيعيًا إلا بالنسبة إلى زمن هو فناء متواصل ورب هو في الزمن بالكامل، وهو رب يدمر بالسرعة نفسها التي يخلق بها. الطبيعة مروعة بصورة غير مفهومة وبالمثل هي محببة وجوادة. لو لم يتسامَ الإلهي على الترتيب الزمني الذي يتجلى فيه، ولو لم تتسامَ الروح

الإنسانية على نفسها المكبلة بالزمن، فمن ثم لا وجود لأي احتمال «لتبرير طرق الرب أمام الإنسان». الرب في تجليه في الكون هو الكيان الذي تستحيل مقاومته، الذي يتحدث إلى أيوب عن العاصفة، والذي إشاراته الرمزية هي بهيموث ولوياثان وفرس الرب والعقاب. إنه ذلك الكيان نفسه الموصوف في الفصل الحادي عشر الكاشف من البهاجافاد جيتا. يقول أرجونا مقدمًا نفسه إلى كريشنا وقد صار أرجونا يعرف الآن أنه تجسد الربوبية: «يا أيها الروح الأسمى، أتوق إلى رؤية صورة إسفار الخاصة بك» – بمعنى، صورته كإله للعالم والطبيعة والترتيب الزمني. أجابه كريشنا: «عليك أن تعاين الكون بأكمله، بكل ما فيه من أشياء حية وغير حية، داخل جسدي الخاص بي». كان تجاوب أرجونا مع هذا الكشف مفعما بالدهشة والخوف.

يا إلهي، أرى كل الأرباب داخل جسدك؛
كلًّا في درجته؛ أرى حشود المخلوقات؛
أرى الإله براهما جالسًا على اللوتس الخاصة به،
أرى كل الحكماء والثعابين المقدسة.
يا أيتها الصورة الكونية، أراكِ بلا حدود،
أعين وأذرع وأفواه وبطون غير متناهية –
انظر ولن تجد نهاية أو وسط أو بداية.

يتبع ذلك مقطع طويل، يوسع فيه من قدرات الرب المطلقة وإحاطته الكلية في صورة إسفار الخاصة به. ثم تتغير صفة الرؤية، ويدرك أرجونا في خوف وارتجاف أن رب الكون هو إله تدمير مثلما هو إله خلق.

الآن لك أنياب مرعبة وأفواه تَصِّر،

تتوهج مثل نيران صبيحة يوم القيامة –

يبدو الشمال والجنوب والشرق والغرب جميعًا وقد تبلبلت –

يا إله الديفات ومعقل العالم، كن رحيمًا!

حركهم مثل أنهار عديدة تتدفق نحو المحيط،

ادفع الأبطال إلى حلاقيمك النارية،

مثل حشرات تلتقي بشعلة دمارها.

يقتحمونك في طيش ويفنون.

أخبرني مَن أنت ومَن كنت من البداية،

إحدى هيئاتك جهمة. يا رب الأرباب، كن رحيمًا.

تقبل إجلالي، يا سيدي. طرقك محجوبة عني.

«أخبرني مَن أنت». الإجابة واضحة، لا لبس فيها.

آتي في صورة الزمن، مُضيِّع الناس،

جاهزًا للساعة التي تُنضجهم لأجل دمارهم.

لكن الرب الذي يأتي بصورة مرعبة للغاية بوصفه الزمن، يوجد أيضًا سرمديًّا في هيئة الربوبية. مثل براهمان الذي جوهره الوجود والوعي والنعمة– سات وتشيت وأناندا؛ وبداخل نفسانية الإنسان المعذبة بالزمن وفيما وراءها الروح، تلك التي قال عنها إكهرت: «ما لم تُخلَق ولا تُخلَق»، هي الأتمان المشابه للبراهمان بل هو مماثل له. تبرر الجيتا مثلها كمثل كل صياغات الفلسفة الخالدة طرق الرب أمام الإنسان عن

طريق التأكيد -والتأكيد مبني على الملاحظة والخبرة المباشرة- على أن الإنسان يستطيع إفناء ذاته الزمنية المنفصلة إذا رغب، وبذلك يصل إلى الاتحاد بالروح السرمدية. تؤكد أيضًا على أن الأفاتار يصبح متجسدًا من أجل مساعدة البشر على تحقيق هذا الاتحاد. يفعل ذلك بثلاث طرق - عن طريق تعليم المعتقد الصحيح في عالم أصابه الجهل الإرادي نتيجة العمى؛ وعن طريق دعوة النفوس إلى «حب جسدي» (مادي) لبشريته، لا باعتباره غاية في حد ذاته بالطبع، لكن باعتباره وسيلة إلى معرفة الحب الروحية بالروح؛ وأخيرًا عن طريق العمل كقناة للنعمة.

الرب الذي هو روح لا تمكن عبادته إلا في الروح ولأجله فقط؛ لكن من الممكن عبادة الرب في الزمن عادة عن طريق وسائل مادية بمنظور يعمد إلى تحقيق غايات زمنية مؤقتة. من الجلي أن الرب في الزمن هو المدمر كما هو الخالق. وبسبب أن الأمر على هذه الصورة، يبدو من المناسب عبادته بمناهج مرعبة مثلها كمثل الدمار الذي ينزله هو نفسه. وهو ما يفسر الأضاحي الدموية المقدمة إلى كالي في الهند، في هيئتها في صورة الطبيعة المدمرة؛ ويفسر كذلك تقديم الأطفال إلى «مولوخ»، وهو العمل الذي استنكره أنبياء العبرانيين؛ ويفسر الأضاحي البشرية التي مارسها -على سبيل المثال- الفينيقيون والقرطاجيون والدرويد[١] وشعوب الآزتك[٢]. كانت الألوهة التي يقصدون إليها في كل هذه الحالات ربًّا في الزمن، أو تشخيصًا (تجسيدًا) للطبيعة، وهي طبيعة تفترس نسلها، وهي الزمن نفسه، ولا شيء آخر؛ أما هدف الشعيرة في

---

(١) الدرويد: كهنة الشعوب الكلتية.

(٢) الآزتك: حضارة ازدهرت في أمريكا الوسطى في الفترة من عام ١٣٠٠ إلى عام ١٥٢١.

كل هذه الحالات فهو الحصول على منفعة مستقبلية أو اجتناب أحد الشرور الضخمة التي يحتفظ بها الزمن والطبيعة في خزائنهما دائمًا. لذلك ظنوا أن من المفيد دفع ثمن باهظ بعملة المعاناة، تلك العملة التي يُقدِّرها المدمر على نحو واضح للغاية. بررت أهمية الغاية الزمنية المؤقتة استخدام وسائل مرعبة في جوهرها؛ لأنها في جوهرها مشابهة للزمن. لا يزال من الممكن العثور على آثار مهذبة لأنماط التفكير والسلوك العتيقة هذه في نظريات معينة للكفارات، وفي مفهوم القداس بوصفه تضحية متكررة دائمة للمسيح.

أما في العالم الحديث، فإن الأرباب الذين يقدم لهم البشر الأضاحي هم تشخيصات (تجسيدات)، لا للطبيعة، وإنما للمثل السياسية المحلية صنيعة الإنسان. تشير جميعها بالتأكيد إلى أحداث في الزمن - أحداث فعلية في الماضي أو الحاضر، أو أحداث متخيلة في المستقبل. وعلينا أن نسجل هنا أن الفلسفة التي تشدد على وجود الأزل وإمكانية إدراكه المباشرة مرتبطة بأحد أشكال النظرية والممارسة السياسية؛ أما الفلسفة التي تشدد على أن ما يجري في الزمن هو الحقيقة الوحيدة، فقد أدت إلى شكل مختلف من النظريات وبررت شكلًا مختلفًا تمامًا للممارسة السياسية. أدرك هذا بوضوح الكتاب الماركسيون[1]، الذين بينوا أنه عندما تكون المسيحية مشغولة في الأساس بالأحداث في الزمن، فهي «ديانة ثورية»، وعندما تشدد تحت تأثيرات صوفية على الإنجيل الأزلي والذي فيه الأحداث التاريخية والتاريخية الزائفة المسجلة في النصوص

(١) على سبيل المثال، انظر كتاب جون بوردون ساندرسون هولدين، فلسفة الماركسية والعلم. (المؤلف).

المقدسة ليست إلا رموزًا، فإنها تصبح «ثابتة» و«رجعية» سياسيًّا.

هذا التقدير الماركسي للأمر مبسط بصورة كبيرة. إذ ليس من الصحيح تمامًا أن نقول إن الإلهيات كلها والفلسفات كلها التي تهتم في الأساس بالزمن بدلًا من الأزل ثورية بالضرورة. تهدف كل الثورات إلى جعل المستقبل مختلفًا جذريًّا عن الماضي وأفضل منه. لكن بعض الفلسفات المهووسة بالزمن تُعنى في الأساس بالماضي، لا المستقبل، وسياساتها تتجه بالكامل نحو حفظ الوضع الراهن **status quo** بالكامل أو استعادته والعودة إلى الأيام الخوالي الجيدة. لكن لمبجلي الزمن الفائت شيء واحد مشترك مع المكرسين الثوريين من أجل مستقبل أعرض وأفضل؛ هم جميعًا جاهزون لاستخدام عنف بلا حدود لتحقيق غاياتهم. نحن هنا بصدد استكشاف الفارق الجوهري بين سياسات فلاسفة الأزل وسياسات فلاسفة الزمن. بالنسبة إلى الأخيرين، يمكن العثور على الخير الأقصى في العالم الزمني - في المستقبل، حيث يكون الجميع سعداء؛ لأن كلًّا منهم سوف يقوم أو يفكر بشيء ما جديد تمامًا وغير مسبوق أبدًا، أو شيء ما عتيق وتقليدي ومقدس بدلًا من ذلك. ونظرًا إلى أن الخير الأقصى يقع في الزمن، يشعرون أنه من المبرر استخدام أي وسيلة زمنية من أجل تحقيقه. تحرق محاكم التفتيش وتعذب من أجل الحفاظ على العقيدة، اعتبرت المؤسسات الشعائرية والإكليريكية السياسية المالية ضرورية من أجل الخلاص الأبدي للإنسان. حارب مبجلو الإنجيل البروتستانتيون طويلًا وبوحشية من أجل جعل العالم آمنًا لما يتصورون بولع أنها المسيحية العتيقة الأصيلة من الأزمان الرسولية.

اليعاقبة[1] والبلاشفة[2] جاهزون للتضحية بملايين الأرواح البشرية من أجل مستقبل سياسي واقتصادي بهي، مغاير للحاضر. والآن تلزم التضحية بأوروبا بأكملها ومعظم آسيا لصالح رؤية كرؤى العرافين، تعد برخاء مشترك دائم ورايخ الألف عام[3]. يبدو مما سجله التاريخ بشكل واضح جدًّا وغزير للغاية أن أغلب الديانات والفلسفات التي تأخذ الزمن بجدية شديدة ترتبط بنظريات سياسية تأصل لاستخدام العنف واسع النطاق وتبرر ذلك. يتمثل الاستثناء الوحيد لذلك في تلك المعتقدات الأبيقورية البسيطة، تتلخص استجابتها الوحيدة الموجهة بالكامل نحو الوقت الحالي في «كل واشرب وتزوج، إذ نموت في الغد». ليس هذا نبيلًا جدًّا، بل إنه لا يكاد يكون حتى نوعًا من الأخلاقية شديدة الواقعية. لكنه رغم ذلك يبدو وأن له معنى ومنطقًا بدرجة أكبر من الأخلاق الثورية: «مت (واقتل)، إذ إنه سوف يأكل واحد آخر ويشرب ويتزوج غدًا». وعند الممارسة كذلك يكون الأمل في هناء مستقبل واحد آخر أمر غير ثابت تمامًا بالتأكيد. إذ إن عملية الموت والقتل بالجملة تخلق ظروفًا مادية واجتماعية ونفسانية تضمن عمليًّا الثورة ضد منجزات غاياتها المفيدة.

أما أولئك الذين لا تدفعهم فلسفتهم إلى أخذ الزمن بجدية مفرطة، لا يسعون إلى البحث عن الخير الأقصى في رؤيا اجتماعية تقدمية خاصة بالثوار، ولا في ماضٍ خالد ومتجدد خاص بالرجعيين، لكنهم يبحثون

---

(١) اليعاقبة: حركة سياسية في بريطانيا، كانت تهدف إلى إعادة الملك الكاثوليكي جيمس الثاني إلى العرش.

(٢) البلاشفة: حركة ثورية روسية، أسست الجيش الأحمر وشكلت فيما بعد الحزب الشيوعي.

(٣) رايخ الألف عام: اسم أطلق على ألمانيا النازية، إذ ذهب هتلر إلى أنها سوف تبقى ألف عام.

عنه في الآن الإلهي الأزلي، والذي يدركه أولئك الذين يرغبون في هذا الخير بشكل كافٍ باعتباره حقيقة للخبرة المباشرة. لا يعتبر فعل الموت المجرد في حد ذاته جواز مرور إلى الأبدية؛ ولا يمكن للقتل بالجملة أن يؤدي أي دور يتعلق باستجلاب الخلاص سواء للذابح أو المذبوح أو نسلهما. السلام الذي يتجاوز الفهم هو ثمرة التحرر في الأبدية؛ لكن السلام في شكله اليومي المعتاد هو أصل التحرر كذلك. حيثما كان هناك شغف بالعنف ومشتتات قهرية، فإنه من المستحيل بلوغ هذا الخير الأقصى أبدًا. وهذا أحد الأسباب وراء أن السياسة المرتبطة بفلسفات الأبدية متسامحة وغير عنيفة. يتمثل السبب الآخر في أن الأبدية -التي يعتبر إدراكها الخير الأقصى- هي مملكة السماء بالداخل. ذلك الذي هو أنت؛ وعلى الرغم من أن ذلك لا يموت ولا ينفعل، إلا أن قتل وتعذيب «أنتم» الفردية مسألة لها أهميتها الكونية، طالما كانت متداخلة مع العلاقة الطبيعية والعادية بين الأنفس الفردية والأصل الإلهي الأزلي لكل المخلوقات. كل عنف هو تمرد مدنس ضد النظام الإلهي يفوق ويعلو على أي شيء آخر.

وإذا ما تجاوزنا النظرية إلى الحقيقة التاريخية، نجد أن الدين -ذا اللاهوت الأقل انشغالًا بالأحداث في الزمن والمعني بصورة أكبر بالأزل- كان الأقل عنفًا باستمرار والأكثر إنسانية لدى الممارسة السياسية. على خلاف اليهودية والمسيحية والمحمدية المبكرة (كانت جميعها مهووسة بالزمن)، لم تضطهد الهندوسية والبوذية أي معتقدات أبدًا، ولم تشن حروبًا تبشيرية مقدسة تقريبًا، وامتنعت عن الاستعمارية الدينية الهادفة إلى نشر الدين، والتي سارت يدًا بيد مع قمع الشعوب

الملونة سياسيًا واقتصاديًّا. طوال أربعمائة عام، منذ بداية القرن السادس عشر حتى بداية القرن العشرين، أنفقت أمم أوروبا المسيحية جزءًا كبيرًا من وقتها وطاقتها في الهجوم على إخوانهم غير المسيحيين في القارات الأخرى وقهرهم واستغلالهم. بذل العديد من رجال الكنيسة خلال هذه القرون قصارى جهودهم من أجل التخفيف من تبعات مثل هذه الآثام؛ غير أنه لم تدنها رسميًا أي كنيسة من الكنائس الكبرى. كان أول احتجاج جمعي ضد نظام العبودية -الذي أدخله الإنجليز والإسبان إلى العالم الجديد- في عام ١٦٨٨ من خلال الاجتماع الكويكري (نسبة إلى الكويكرز) في جيرمانتاون[١]. هذه الحقيقة دالة للغاية. من بين كل الطوائف المسيحية في القرن السابع عشر كان الكويكرز هم الأقل هوسًا بالتاريخ، والأقل شغفًا بوثنية الأشياء في الزمن. يؤمنون في أن النور الداخلي في جميع البشر، وأن الخلاص يأتي إلى أولئك الذين يعيشون في توافق مع النور ولا يعتمدون على الإعلان عن إيمانهم من خلال أحداث تاريخية أو أحداث زائفة، ولا على ممارسة شعائر معينة، ولا على دعم منظمات إكليريكية خاصة. علاوة على ذلك، تحفظهم فلسفة الأزل الخاصة بهم من الزمانية[٢] المادية لتبجيل التقدم الذي برر في الأزمنة الأخيرة كل شكل من أشكال الجور بداية من الحرب والثورة حتى تشغيل العمالة في ظروف سيئة والعبودية واستغلال البدائيين والأطفال - بررها على أساس أن الخير الأكبر في المستقبل وأن أي وسيلة زمنية من الممكن استخدامها من أجل تحقيق ذلك الخير، مهما

---

(١) جيرمانتاون: مدينة في ولاية بنسلفانيا.

(٢) الزمانية: الاعتقاد الديني في أنه ستكون هناك نهاية للعالم.

كانت مرعبة في جوهرها. رفضت النظرية السياسية الكويكرية الحرب والاضطهاد كوسيلة من أجل الغايات المثالية، ونددت بالعبودية ونادت بالمساواة العرقية؛ وذلك لأن اللاهوت الكويكري يعد شكلًا من أشكال فلسفة الأبدية. قام أعضاء من جماعات أخرى بعمل جيد من أجل ضحايا ضراوة الرجل الأبيض الأفارقة. يأتي على ذهن الواحد كمثال القديس بيتر كليفر[١] من قرطاجنة[٢]. لكن «عبد العبيد» -هذا الخَيِّر في بطولة- لم يرفع صوته أبدًا ضد نظام العبودية أو ضد التجارة الإجرامية التي تُبقي عليه، ولم يحاول أبدًا -بحسب ما تكشف الوثائق الموجودة- أن يفعل مثلما فعل جون وولمان[٣]، وأن يقنع ملاك العبيد بتحرير أملاكهم البشرية. ربما كان السبب أن كليفر يسوعي تعهد بالطاعة التامة وأجبره لاهوته على اعتباره تنظيمًا سياسيًّا وإكليريكيًّا معينًا بمثابة جسد المسيح السري. لم يصدر عن رؤوس هذا التنظيم إعلانًا ضد العبودية أو تجارة العبيد. مَن هو بيدرو[٤] كليفر كي ينطق بفكرة لم يجزها رسميًّا من يعلونه؟

تتمثل أحد النتائج العملية المباشرة الأخرى لفلسفات الأزل التاريخية الكبرى -مثل الهندوسية والبوذية- في نظام أخلاقي يغرس اللطف تجاه الحيوانات. تُعلِّم اليهودية والمسيحية التقليدية أن الحيوانات قد تُستخدم كأشياء، من أجل تحقيق غايات الإنسان الزمنية. حتى سلوك

---

(١) بيتر كليفر (١٥٨٠ - ١٦٥٤): رجل دين ومبشر إسباني.

(٢) قرطاجنة: مدينة إسبانية.

(٣) جون وولمان (١٧٢٠ - ١٧٧٢): صحفي ومبشر أمريكي، انتمى للكويكرز ودعا إلى إلغاء العبودية.

(٤) اسمه بالإسبانية.

القديس فرنسيس[1] نحو المخلوقات البهيمية لم يكن واضحًا تمامًا. صحيح أنه ساعد ذئبًا كي يهتدي وتوجه بخطبة وعظية إلى طيور؛ لكن عندما قطع الأخ جونبير[2] أقدام خنزير حي من أجل إرضاء رغبة رجل مريض نحو كوارع مقلية، لام بالكاد حماسة تابعه العاطفية التي قادته إلى إلحاق الضرر بجزء من ملكية خاصة ثمينة. لم تبدأ الفكرة الذاهبة إلى أنه قد يكون من الصلاح التصرف تجاه الحيوانات بإنسانية في إحراز تقدم إلا بحلول القرن التاسع عشر، عندما فقدت المسيحية التقليدية الكثير من سلطانها على العقول الأوروبية. ارتبط هذا النظام الأخلاقي الجديد بالاهتمام الجديد بالطبيعة، والذي استحثه الشعراء الرومانسيون ورجال العلم. ونظرًا إلى أن ذلك لم يؤسَس على فلسفة أزل –معتقد يذهب إلى أن الربوبية تسكن كل المخلوقات الحية- كانت الحركة الحديثة باتجاه اللطف نحو الحيوانات متماشية تمامًا مع عدم التسامح تجاه البشر وتجاه اضطهادهم وممارسة القسوة المنظمة ضدهم. يتعلم الشباب النازي أن يكونوا ودودين نحو الكلاب والقطط، وألا يثقوا باليهود. وذلك لأن النازية فلسفة زمن نموذجية فيما يتعلق باعتبارها الخير الأقصى موجودًا، لا في الأزل، بل في المستقبل. اليهود –بحسب الفرضية- عوائق في طريق تحقيق الخير الأسمى؛ أما الكلاب والقطط فلا. والبقية تأتي منطقيًّا.

الأنانية والتحيز صفتان غير إنسانيتين ودنيئتان حتى في أشياء هذا العالم؛ لكنهما في مذاهب الدين من طبيعة أدنى. الآن، هذا هو الشر

---

(١) القديس فرنسيس الأسيزي (١١٨١ - ١٢٢٦): قديس كاثوليكي إيطالي.

(٢) الأخ جونيبر (١١٩٠ - ١٢٥٨): راهب من مريدي القديس فرنسيس الأسيزي.

الأعظم الذي استجلبه انقسام الكنيسة، لقد أيقظت في كل طائفة تشددًا أنانيًا وتحيزًا، يتمثل في الدفاع بشراسة عن كل ما عندها، وإدانة كل ما ليس عندها. وهكذا يدرب كل مناصر على الدفاع عن الحقيقة الخاصة بأنصار طائفته، والتعليم الخاص بهم والكنيسة الخاصة بهم، وذلك الذي يحب كل شيء فيما بين أنصار طائفته ويدافع عن كل شيء فيما بينهم ولا يترك شيئًا عند الطوائف الأخرى دون أن يقمعه يحظى بأفضل المزايا وأكبر الشرف. الآن، كيف يمكن تقويض الحقيقة والصلاح والاتحاد والدين بصورة أكبر مما يفعله مثل هؤلاء المدافعين عنها؟ إذا تساءلت لماذا كتب أسقف مو[1] الكثير جدًّا من الكتب المعرفية ضد كل أحزاب الإصلاح، فإن ذلك يرجع إلى ميلاده في فرنسا ونشأته في أحضان الكنيسة الأم. لو كان مولودًا في إنجلترا، وكانت أكسفورد أو كامبريدج هي مدرسته الأم **Alma Mater**، لربما كان قد نافس أسقفنا العظيم ستيلينجفليت[2]، ولكان قد كتب الكثير من الأوراق المعرفية ضد كنيسة روما مثلما فعل. ومع ذلك أجرؤ على أن أقول: لو أن كل كنيسة أخرجت رجلًا واحدًا بمفرده، لديه تقوى حواري، وحب منزه كالذي للمسيحيين الأوائل في الكنيسة الأولى في أورشليم، فإن البروتستانتي والبابوي (الكاثوليكي) لن يحتاجا إلى نصف صفحة كي تحتوي على مقالهما بخصوص الوحدة ولا إلى نصف الساعة قبل أن يكونا من دين واحد. لذلك إذا كان لزامًا أن يقال إن الكنائس مقسمة، ومنفصلة وغير ودودة فيما بين الواحدة والأخرى بسبب تعليم ومنطق وتاريخ ونقد بين براثن

---

(١) مو: مدينة فرنسية.

(٢) ستيلينجفليت (١٦٣٥ - ١٦٩٩): عالم لاهوت وكاهن وكاتب إنجليزي.

التحيز، كان ليقال في أي منحى على وجه التحديد برهنت كل كنيسة كثيرًا للغاية على أنها على صواب. فلتسأل لماذا يخجل حتى الأفضل جدًّا من بين الكاثوليك من الاعتراف بسلامة نظم كنيستنا؛ لأنهم يخشون من إزالة أي مقت موجه للإصلاح. اسأل لماذا لم يتطرق البروتستانتيون في أي مكان إلى فائدة التبتل وضرورته في أولئك الذين انفصلوا عن الأعمال الدنيوية من أجل التبشير بالإنجيل؛ لأن ذلك سوف يبدو كأنما يخفف من الخطأ الروماني المتعلق بعدم السماح لرجال الدين بالزواج. اسأل لماذا يخشى حتى الأكثر استحقاقًا والأتقى من بين رجال الدين في الكنيسة الرسمية من التأكيد على كفاية النور الإلهي، وضرورة السعي وراء توجيه ووحي الروح القدس فقط؛ لأن الكويكرز -الذين انفصلوا عن الكنيسة- جعلوا من هذا المذهب حجر الأساس الخاص بهم. إذا أحببنا الحقيقة كما هي، إذا سعينا وراءها من أجلها هي، لو أحببنا إخواننا كحبنا لأنفسنا، إذا لم نرغب في شيء من وراء ديننا سوى أن يرضى عنا الرب، إذا رغبنا في خلاص كل الناس على حد سواء، إذا خشينا الخطأ بسبب طبيعته المؤذية لنا وللمخلوقات برفقتنا، لا لسبب آخر، فمن ثم لن يكون فينا أثر من هذه الروح.

«وبذلك تصبح هناك روحٌ كاثوليكية، طائفة من القديسين في محبة الله وكل صلاح، وهو ما لا يمكن لأحدهم أن يتعلمه مما يطلقون عليه طريقًا مستقيمًا في كنائس معينة، لكن يمكن الحصول عليه فقط عن طريق الإماتة الكاملة لكل التبصرات الدنيوية، والحب الخالص للرب، والحماسة الروحية من السماء، إذ تُخلِّص العقل من كل أنانية وتجعله يحب الحقيقة والصلاح، وهي درجة التأثير نفسها التي تبذلها على كل

إنسان، سواء كان مسيحيًّا أو يهوديًّا أو جنتايل (غير يهودي وثني). مَن ذا الذي يقدر على الحصول على هذه الروح الإلهية بينما هذا هو حال الكاثوليكية مقسمة وفوضوية. يجب أن يحظى مَن يقدر على العيش في جزء منقسم من الكنيسة دون المشاركة في ذلك الانقسام على حقائق ثلاث راسخة بعمق في عقله. أولًا- الحب الكوني العام -ذلك الذي يوقف قوة القلب بأكملها على الرب، ويجعلنا نحب كل إنسان كما نحب أنفسنا- وهو أنبل أحوال النفس وأكثرها سماوية ومشابهة للرب، وهو الكمال الأقصى الذي يمكن أن يرفعنا إليه أكمل الأديان؛ ولا يقدم أي دين لأي فرد أي خير إلا بقدر جلبه لكمال الحب فيه. سوف ترينا هذه الحقيقة أن الطريق المستقيم الحقيقي لا يمكن العثور عليه إلا في حب خالص، خالٍ من الغرض للرب وإخواننا. ثانيًا- أن الحقيقة نفسها مجزأة وممزقة إربًا في هذا الوضع الحالي للكنيسة المنقسمة على نفسها؛ ولذلك فالوحيد الذي يستطيع أن يكون كاثوليكيًّا حقيقيًّا من لديه المزيد من الحقيقة والقليل من الخطأ بالمقارنة بأي حقيقة محدودة لأي قسم منفصل. سوف تمكننا هذه الحقيقة من العيش في أي قسم منفصل دون أن يؤذينا انفصاله، ويحافظ علينا في حرية حقيقية وقدرة على الاستنارة والاستعانة بكل ما هو جيد في كل ما نسمعه أو نراه في أي قسم آخر من الكنيسة... ثالثًا- عليه أن يحتفظ دائمًا في ذهنه بهذه الحقيقة العظيمة أن عظمة العدل الإلهي في عدم إكبار الأحزاب أو الأشخاص، بل في التعرض لما هو صواب وخطأ في اليهودية كما في الجنتايل، دون تفريق. لذلك مَن سوف يحب كما يحب الرب، ويُدين كما يدين الرب، عليه ألا يمتلك عينيَّ أيًّا من البابوي أو البروتستانتي؛ عليه ألا يحب حقيقةً ما

أقل القليل؛ لأن إغناطيوس دي لويولا أو جون بنيان[١] كانا متعصبين لها، وألا يكون أقل نفورًا من أي خطأ، لأن دكتور تراب[٢] أو جورج فوكس[٣] قد جاءا به».

ويليام لو.

دكتور تراب هو مؤلف ورقة دينية بعنوان «حول طبيعة وحماقة ورذيلة وخطأ أن تكون على جادة الصواب بصورة مفرطة». يعد أحد الأقوال المأثورة المثيرة للجدل المنسوبة إلى لو ردًّا على هذا العمل.

«بنارس[٤] إلى الشرق ومكة إلى الغرب؛ لكن فلتستكشف قلبك، إذ إن هناك كلًّا من راما[٥] والله».

كبير.

«مثلما تجمع النحلة العسل من زهور مختلفة، يقبل الإنسان الحكيم جوهر الكتابات المقدسة المختلفة ويرى الصالح فقط في كل الأديان».

من سريماد بهاجافاتا.

«جلالته الملك المقدس وَقَّر البشر من الطوائف كافة، سواء من الزهاد أو أرباب المنازل، وذلك عن طريق العطايا أو أشكال التبجيل المختلفة. مع ذلك، فإن جلالته المقدس لم يهتم كثيرًا بأن العطايا وتوقير

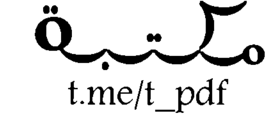
(١) جون بنيان (١٦٢٨ - ١٦٨٨): كاتب وواعظ انضم إلى واحدة من حركات الإصلاح التي هدفت إلى تطهير الكنيسة الإنجليزية من أي آثار كاثوليكية باقية.

(٢) دكتور تراب (١٦٧٩ - ١٧٤٧): رجل دين وشاعر مسيحي.

(٣) جورج فوكس (١٦٢٤ - ١٦٩١): لاهوتي إنجليزي.

(٤) بنارس: مدينة هندية.

(٥) إله هندوسي.



الظاهر، يجب أن يصاحبه نمو جوهري للأمر في كل الطوائف. يتخذ النمو في جوهر الأمر صورًا متنوعة، لكن الأصل فيها ضبط الخطاب والفهم، يتوجب على الإنسان ألا يوقر طائفته أو أن ينتقص من طائفة الآخر بلا سبب. ينبغي أن يكون الانتقاص من الآخر لأسباب محددة فقط؛ إذ إن طوائف الآخرين جميعها تستحق التقدير لسبب ما أو آخر... مَن يوقر طائفته بينما ينتقص من طوائف الآخرين التي لا تجمعها صلة بطائفته بتاتا، وذلك مع نية إلى تعزيز مجد طائفته، يلحق بهذا السلوك أشد الأذى بطائفته. لذلك فالوئام والفهم جديران بالتقدير والثناء، وكذلك الإنصات والإنصات عن طيب خاطر لقانون التقوى، كما يقبل به الآخرون».

مراسيم أشوكا[١].

سوف يكون من الصعب -بكل أسف- العثور على أي مرسوم لملك مسيحي يشابه ذلك الخاص بأشوكا. كانت القاعدة العتيقة المستحسنة والخطة البسيطة تمجيد طائفة الواحد والانتقاص من كل الآخرين بل اضطهادهم. إلا أن الحكومات غيرت مؤخرًا من سياساتها. احتفظت الأديان السياسية الزائفة على غرار الشيوعية والفاشية والقومية بحماس التبشير والاضطهاد؛ ولو لم يُظن أن تجليات الفلسفة الخالدة تقف عائقًا في سبيل التقدم نحو الغايات الزمنية التي تزعمها مثل هذه الديانات الزائفة، لعوملت بلا مبالاة متسامحة مستخفة.

---

(١) مراسيم أشوكا: مجموعة تزيد عن الثلاثين نقشًا على الأعمدة والصخور وجدران الكهوف وهي تعود إلى الإمبراطور أشوكا (٢٦٨ ق. م. - ٢٣٢ ق. م.).

«عيال الرب يستحقون الإكبار، لكنهم غريبو الأطوار، لطفاء للغاية لكنهم محدودو الأفق جدًّا».

سادهو ساندر سنغ[1].

كان هذا هو استنتاج أغلب الهنود المتحولين إلى المسيحية بعد سنوات من مجالسة رفاقهم من المسيحيين. هناك استثناءات عديدة لها احترامها بالطبع، لكن القاعدة العامة أنه حتى بين البروتستانتيين والكاثوليك العارفين ينتشر ضيق أفق متغطرس في مداهنة وهو ما يُعتبر هزلًا صاخبًا، إن لم يكن يمثل اعتداءً مهلكًا على الإحسان والحقيقة. لم يكن هناك ما يعرف بالكاد عن السنسكريتية أو البالي أو الصينية منذ مائة عام. كان جهل الدارسين الأوروبيين سببًا كافيًا وراء ضيق الأفق. أما اليوم بعدما أصبحت الترجمات الوافية نوعًا ما متاحة بكثرة، فلم يعد هناك أي سبب يبرر ذلك، ولا عذر لأحد. ومع ذلك إلى الآن يكتب أغلب المؤلفين الأوروبيين والأمريكيين كتبًا عن الأديان والميتافيزيقا، وكأن أحدًا لم يفكر أبدًا في هذه المواضيع، باستثناء اليهود والإغريق ومسيحيي حوض البحر المتوسط وأوروبا الغربية. وهو ما يعرض -ما يعد في القرن العشرين- جهلًا متعمدًا عن إرادة تامة، وهو أمر ليس مخزيًا وعبثيًّا فقط؛ بل هو أمر خطير اجتماعيًّا كذلك. الاستعمارية الدينية مثلها كمثل أي شكل آخر من أشكال الاستعمارية، تهدد السلام العالمي الدائم. لن تنتهي هيمنة العنف حتى يتحقق التالي، أولًا- يقبل أغلب البشر بفلسفة الحياة الصحيحة نفسها؛ ثانيًا- تُعتبر هذه الفلسفة الخالدة

---

(١) سادهو ساندر سنغ (١٨٨٩ - ١٩٢٩): مبشر مسيحي هندي.

العامل المشترك الأسمى بين كل ديانات العالم؛ ثالثًا- يتنكر معتنقو كل ديانة للفلسفات الزمنية الوثنية الموجودة في معتقداتهم الإيمانية الخاصة، إذ غطت عليها فلسفة الأزل الخالدة؛ رابعا- يكون هناك رفض عالمي لكل الديانات السياسية الزائفة، والتي تضع خير الإنسان الأسمى في المستقبل وبذلك تبرر ارتكاب كل أنواع الآثام الحالية وتثني عليها؛ إذ تعتبرها وسيلة إلى تلك الغاية. لو لم تُستوفَ هذه الشروط، فلا يمكن لأي حجم من التخطيط السياسي أو برامج العمل الاقتصادية -مهما كانت مرسومة بعبقرية- أن تمنع تصاعد وتيرة الحرب والثورة.

*　　*　　*

الفصل الثالث عشر

الخلاص والانعتاق والتنوير

الخلاص - لكن من ماذا؟ الانعتاق - خروجًا من أي وضع خاص ومن أجل بلوغ أي وضع آخر؟ لقد أجاب البشر عن هذين السؤالين إجابات عديدة، الإجابات كثيرة وغير متوافقة؛ لأن أمزجة البشر متنوعة ومختلفة بصورة كبيرة، ولأن الأوضاع الاجتماعية متنوعة جدًّا كذلك، وأنماط التفكير والشعور مُلزِمة ما دامت موجودة.

في المقام الأول وقبل كل شيء هناك الخلاص المادي. وهو يتمثل في صورته الأبسط في إرادة الحياة فقط، تلك الإرادة التي تعبر عن نفسها في صورة رغبة متبلورة للهروب من الأوضاع التي تهدد الحياة. يعتمد التحقيق الفعال لمثل هذا الرجاء في أرض الواقع على شيئين: إعمال النباهة في مشكلات اقتصادية وسياسية معينة، وخلق محيط من النية الحسنة والحفاظ عليه، بحيث يمكن للنباهة العمل مع إحراز الفائدة القصوى. لكن البشر لا يرضون عن أن يكونوا لطفاء وبارعين داخل حدود وضع ملموس فقط. يطمحون إلى ربط أفعالهم وأفكارهم ومشاعرهم التي

تصاحب تلك الأفعال بمبادئ وفلسفات عامة، على النطاق الكوني. عندما لا تكون هذه الفلسفات المُوجِّهة والمُفسِّرة هي الفلسفة الخالدة أو إحدى الديانات التاريخية المرتبطة نوعًا ما بالفلسفة الخالدة، فإنها تتخذ شكل الدين الزائف، تتخذ سمت وثنيةٍ منظمة. يصدر الرجاء في ألا نهلك من الجوع عن قناعة خالصة، إذ إنه من العسير جدًّا أن يكون أحدهم صالحًا أو حكيمًا أو سعيدًا، عندما يكون قانطًا من شدة الجوع. هكذا تصبح هذه الرغبة البسيطة متشعبة ومعقدة تحت تأثير ميتافيزيقا التقدم الحتمي وتتحول إلى يوتوبيا تنبؤية. يفسر الاعتقاد في ثورة رؤيوية الرغبة في الهرب من القمع والاستغلال كما يوجه ذلك الاعتقاد تلك الرغبة، تُدمج هذه الثورة مع تبجيل مولوخ الأمة، على اعتبار أنه الخير الأسمى، وذلك ليس على المستوى النظري فقط، بل عند الممارسة دائمًا. يعتبر الخلاص انعتاقًا في كل هذه الحالات، خروجًا من البؤس والشرور المرتبطة بالظروف المادية إلى مجموعة ظروف مادية مستقبلية أخرى، أفضل كثيرًا من تلك الموجودة في الحاضر، وذلك عن طريق أدوات سياسية واقتصادية متنوعة، وهو ما سيؤدي بطريقة ما أو الأخرى إلى جعل الجميع سعداء وحكماء وفضلاء تمامًا. وهذا أمر معلن رسميًّا في الدول الشمولية جميعها، سواء كانت يمينية أو يسارية، أما في عالم الديمقراطيات الرأسمالية المسيحي اسميًّا فإن هذا الاعتراف بذلك الإيمان لا يزال شبه رسمي فقط؛ إذ إنه يذاع مرارًا وتكرارًا على العقل الشعبي، لا من قِبل ممثلي الدولة أو الكنيسة، لكن من قِبل أولئك الفلاسفة والأخلاقيين الأكثر تأثيرًا، وكذلك كتَّاب النسخ الإعلانية (المؤلفون الوحيدون على طول تاريخ الأدب الذين يقرأ أعمالهم كل فرد في المجتمع كل يوم).

يُعتبر الخلاص في عقائد الديانات المتنوعة بمثابة انعتاق كذلك، خروجًا من الحماقة والشر والبؤس، وصولًا إلى السعادة والصلاح والحكمة. لكن ينظر إلى الوسائل السياسية والاقتصادية على أنها أمور ثانوية مقارنةً برعاية القداسة الشخصية، من أجل اكتساب الاستحقاق الشخصي ومن أجل الحفاظ على الإيمان الشخصي في مبدأ إلهي ما أو في شخص يملك القدرة على مسامحة النفس الفردية أو تطهيرها بطريقة ما أو أخرى. علاوة على ذلك، لا تعتبر الغاية التي يراد تحقيقها موجودة في مستقبل يوتوبي ما، يبدأ -فلنقل- في القرن الثاني والعشرين أو ربما قبل ذلك بقليل، وذلك لو بقي السياسيون المفضلون لدينا على رأس السلطة وشرَّعوا القوانين الصحيحة؛ توجد الغاية «في الفردوس». لهذه الجملة الأخيرة معنيان مختلفان للغاية. إذ إنها تدل لدى غالبية أولئك الذين يعترفون بديانات تاريخية كبرى على حال سعيد بعد الموت لخلود شخصي أبدي، ويتصورونها على أنها مكافأة على العمل الصالح والإيمان السليم وتعويض عن المآسي الملازمة للحياة في الجسد. لكنها بالنسبة إلى أولئك الذين قبلوا بالفلسفة الخالدة داخل التقاليد الدينية المتنوعة كنظرية وقد بذلوا أفضل ما عندهم كي يعيشوها في أرض الواقع والممارسة، «فالفردوس» شيء آخر. يطمحون إلى الانعتاق من الذاتية المنفصلة في الزمن وبلوغ الأبدية التي يدركونها باعتبارها المعرفة الاتحادية بالأصل الإلهي. وبما أنه من الممكن معرفة الأصل اتحادًا في الحياة الحالية بل ينبغي ذلك (والغاية النهائية والغرض من الحياة الحالية ليست إلا هذه المعرفة)، «فالفردوس» ليس حالًا حصريًّا على ما بعد الموت. لا «ينجو» تمامًا إلا مَن يُعتق هنا والآن فقط. أما

الوسائل التي تؤدي إلى الخلاص، فهي أخلاقية وفكرية وروحية متزامنة، وقد جُمعت بوضوح واقتصاد مثيرين للإعجاب في مسار بوذا الثماني. الانعتاق النهائي مشروط بالتالي: أولًا- الاعتقاد السليم في الحقيقة الواضحة تمامًا للعيان والذاهبة إلى أن سبب الألم والشر كامن في الميل إلى الوجود الانفصالي والمتمركز حول الأنا، والنتيجة المترتبة على ذلك استحالة أن يكون هناك انعتاق من الشر -سواء كان شخصيًّا أو جمعيًّا- إلا عن طريق التخلص من مثل هذا الميل والهوس بـ «أنا» و«لي» و«ملكي»؛ ثانيًا- الإرادة السليمة، إرادة انعتاق الواحد والآخرين؛ ثالثًا- الخطاب السليم، الذي يتوجه إلى كل المخلوقات التي فيها حس عن طريق التعاطف والإحسان؛ رابعًا- الفعل السليم، بغية خلق السلام والنية الحسنة وحفظهما؛ خامسًا- وسائل المعاش السليمة، أو اختيار المهن غير الضارة بالبشر أو بأي كائن حي -إذا كان ذلك ممكنًا- عند ممارستها،؛ سادسًا- الجهد السليم تجاه السيطرة على النفس؛ سابعًا- الانتباه السليم أو الاستغراق، وأن يُمارس في جميع أحوال الحياة، وبذلك قد لا نفعل الشر أبدًا عن طريق عدم التفكير فقط، لأننا «لا نعرف ما نفعل»؛ وثامنًا- التأمل السليم، المعرفة الاتحادية بالأصل، والتي ييسر السبيل إليها الاستغراق وفناء الذات الأخلاقي الموصوف في الأفرع الستة الأولى من المسار. ومن ثم فهذه هي الوسائل التي تقع ضمن نطاق استطاعة البشر ويقدرون على توظيفها من أجل تحقيق الغاية الخاتمة للإنسان، ولكي «ينجوا». يرفض بوذا الموجود في نصوص بالي المقدسة (وهو معلم لا يقل كرهه «للأسئلة الحمقاء التي بلا أساس» حدة عن أكثر فيزيائيي القرن العشرين صرامة) الحديث عن الوسائل

التي وظفها الأصل الإلهي من أجل مساعدة البشر على بلوغ هدفهم. كل ما هو مستعد للإجابة عنه «الأسى وإنهاء الأسى» - الحقيقة الضخمة الوحشية للألم والشر والحقيقة الأخرى التي لا تقل عنها تجريبية، والتي تشير إلى أن هناك منهجًا يمكن من خلاله للفرد تحرير نفسه من الشر والقيام بشيء من أجل تقليل مجموع الشر في العالم من حوله. لا نجد إلا في بوذية الماهايانا فقط نقاشًا لأسرار النعمة يشبه من حيث كمال معالجته للموضوع تبصرات الهندوسية -ويشبه بشكل خاص- اللاهوت المسيحي. تعاليم الهينايانا البدائية عن الخلاص هي ببساطة توسعة لآخر ما سجله بوذا من كلمات: «الفناء مجبول في كل الأشياء والمكونات. حقق خلاصك بكد واجتهاد». وكما في المقطع الشهير المقتبس فيما يلي، التركيز كله على المجهود الشخصي.

ولذلك يا أناندا، كونوا مصابيحكم بداخل نفوسكم، كونوا ملاذكم لأنفسكم. لا تأخذوا أنفسكم إلى أي ملاذ خارجي. تمسكوا بالحقيقة كما المصباح؛ تمسكوا بالحقيقة كما الملاذ. لا تبحثوا عن ملاذ في أي أحد إلى جانبكم. وأولئك -يا أناندا- الذين سوف يكونون مصابيح بداخل أنفسهم -سواء الآن أو بعد موتي- والذين لن يأخذوا أنفسهم إلى أي مكان خارجي، لكنهم يتمسكون بالحقيقة كما مصابيحهم ويتمسكون بالحقيقة كما ملاذهم، ولن يبحثوا عن ملاذ في أي أحد إلى جانبهم - هم مَن سيبلغون الارتفاع الأقصى، لكن عليهم أن يكونوا متلهفين للتعلم.

أما ما يلي فهو مقطع تُرجم بتصرف من تشاندوجيا أوبنشاد. الحقيقة التي تعمد هذه الأسطورة الصغيرة إلى توضيحها أن هناك مفاهيم عديدة

للخلاص بقدر وجود درجات من المعرفة الروحية، وأن نوع التحرر (أو الاستعباد) الذي تحرزه فعليًا أي نفس فردية يعتمد على اختيار تلك النفس للقدر الذي تبدد به جهلها الإرادي بالضرورة.

تلك الذات الخالية من الشوائب، من الشيخوخة والموت، من الحزن والعطش والجوع، صاحبة الرغبة السديدة والتي تتحقق رغباتها – يجب السعي وراء هذه الذات، والتحري عنها، تلك الذات يجب إدراكها.

سَمِعت الديفات (الآلهة والملائكة) والأسورات (الشياطين أو الجبابرة) كلاهما بهذه الحقيقة. فكروا: «دعونا نسعى وراء هذه الذات وندركها ، وبذلك يمكننا الحصول على العوالم كلها وتحقيق كل الرغبات».

وبناء على ذلك اقترب إندرا –وهو من الديفات– وفيروخانا –وهو من الأسورات– من المعلم الشهير براجاباتي. عاشا معه باعتبارهما تلميذين لاثنين وثلاثين عامًا. ومن ثم سألهما براجاباتي: «لأي سبب عشتما كلاكما هنا طوال هذا الوقت؟».

أجابا: «لقد سمعنا أن مَن يدرك الذات يحصل على العوالم كلها وعلى رغباته كلها. لقد عشنا هنا لأننا نريد أن نعرف الذات».

قال براجاباتي لهما: «الشخص الذي يُرى في العين – ذلك هو الذات. ذلك خالد، ذلك لا يعرف الخوف وذلك هو براهمان».

تساءل المريدان: «يا سيدي، مَن الذي يُرى منعكسًا في الماء أو في مرآة؟».

كانت الإجابة: «إنه الأتمان، يُرى بالفعل في كليهما»، ثم أضاف

براجاباتي: «انظرا إلى ذاتيكما في الماء وما لا تفهمانه -أيًّا كان- تعاليا وأخبراني به».

تأمل إندرا وفيروخانا انعكاساتهما في الماء وعندما سألهما عما رأياه من الذات، أجابا: «يا سيدي، نرى الذات؛ بل نرى حتى الشعر والأظافر».

عندئذ أمرهما براجاباتي أن يرتديا أخف ملابسهما وأن ينظرا من جديد إلى «ذاتيهما» في الماء. فعلًا ذلك وعندما سألهما من جديد ماذا رأيا، أجابا: «رأينا الذات، مثل ذاتينا تمامًا، مهندمة ومتزينة جيدًا وفي أخف الملابس».

من ثم قال براجاباتي: «ما يُرى بالفعل فيها هو الذات. ما يرى، ذلك خالد، ذلك لا يعرف الخوف وذلك هو براهمان». ثم مضت حدقتا العينين بعيدًا، مفعمة بالسعادة.

نظر براجاباتي إليهما بينما يذهبان ورثى لهما: «كلاهما غادر دون أن يحلل الذات الحقيقية أو يميزها أو يفهمها. مَن يتبع هذا المعتقد الزائف عن الذات بالتأكيد سوف يهلك».

عاد فيروخانا إلى الأسورات راضيًا؛ لأنه عثر على الذات وبدأ تعليمهم أن الذات الجسدية فقط هي التي يجب أن تُبجل، وأن الجسد وحده ما يجب أن يُخدم، وأن ذلك الذي يبجل الأنا ويخدم الجسد يفوز بالعالمين كليهما، هذا العالم والتالي له. وأصبح هذا في الواقع مذهب الأسورات.

لكن إندرا، بينما كان في طريق العودة إلى الديفات، أدرك عدم نفع هذه المعرفة. تفكر: «إذا كانت هذه الذات تبدو مزينة عندما يكون الجسد مزينًا، وفي حلة بهية عندما يكون الجسد في حلة بهية، إذَنْ سوف

تكون عمياء كذلك إذا كان الجسد أعمى، وعرجاء إذا كان الجسد أعرج، ومشوهة إذا كان الجسد مشوهًا. بل أكثر من ذلك، هذه الذات نفسها سوف تموت عندما يموت الجسد. لا أرى أي نفع في مثل هذه المعرفة». لذلك عاد إندرا إلى براجاباتي من أجل مزيدٍ من التوجيهات. أجبره براجاباتي على العيش معه لفترة امتدت إلى اثنين وثلاثين عامًا أخرى، ومن ثم بدأ في توجيهه خطوة بخطوة.

قال براجاباتي: «ذلك الذي يتجول في الأحلام، مستمتعًا ومرحبًا – هو الذات. ذلك خالد، ذلك لا يعرف الخوف وذلك هو براهمان».

غادر إندرا من جديد مبتهجًا في قرارة نفسه. لكنه قبل أن يلتحق بالمخلوقات الملائكية الأخرى من جديد، أدرك عدم نفع هذه المعرفة أيضًا. تفكر في داخل نفسه: «صحيح أن هذه الذات الجديدة ليست عمياء إذا كان الجسد أعمى، وليست عرجاء ولا مجروحة، إذا كان الجسد أعرجَ أو مجروحًا. لكن الذات حتى في الأحلام واعية بالكثير من المعاناة. لذلك لا أرى أي نفع في هذه التعاليم».

وبناء على ذلك، عاد إلى براجاباتي من أجل المزيد من التوجيهات، وجعله براجاباتي يعيش معه لاثنين وثلاثين عامًا أخرى. وبنهاية ذلك الوقت علَّمه براجاباتي التالي: «عندما يكون شخصٌ نائمًا، مستريحًا في طمأنينة تامة، لا يحلم بأي حلم، من ثم يدرك الذات. ذلك خالد، ذلك لا يعرف الخوف وذلك هو براهمان».

مضى إندرا بعيدًا وهو راضٍ. لكنه قبل أن يصل البيت، أدرك عدم نفع هذه المعرفة أيضًا. فكر: «عندما يكون المرء نائمًا، فإنه لا يعرف ذاته،

باعتبارها «هذه أنا». في الحقيقة لا يكون المرء واعيًا بأي وجود. ذلك الحال أقرب إلى الفناء. لا أرى أي نفع في هذه المعرفة أيضًا».

لذلك مضى إندرا عائدًا من جديد كي يتعلم. جعله براجاباتي يقيم معه لخمس سنوات إضافية. وبنهاية ذلك الوقت علمه براجاباتي حقيقة الذات الأسمى.

قال: «هذا الجسد هالك، في قبضة الموت إلى الأبد. لكن في داخله تقيم الذات، خالدة، وبلا شكل. عندما ترتبط تلك الذات بالجسد في الوعي تصبح معرضة للبهجة والألم؛ وطالما كان هذه الارتباط مستمرًّا، لا يمكن لأحد أن يجد سبيل الحرية من الآلام والمباهج. لكن عندما ينتهي هذه الارتباط، ينتهي الألم وتنتهي البهجة كذلك. بالارتقاء فوق الوعي المادي، ومعرفة الذات بوصفها متمايزة عن أعضاء - الحس والعقل، وبمعرفتها في نورها الحقيقي، يمتلئ الواحد بالحبور ويتحرر».

من تشاندوجيا أوبنشاد.

«يصبح الإنسان منكرًا للذات، عندما يدرك ذاته بوصفها الذات في حقيقتها الأسمى؛ وبفضل إنكار الذات، يُدرَك بوصفه مطلقًا. هذا هو السر الأسمى، الدال على التحرر؛ من خلال إنكار الذات لا يشارك في البهجة أو الألم، بل يبلغ الحقيقة، «المطلق».

مايترايانا أوبانيشاد.

«علينا أن ننتبه ونعرف عن حقيقة هامة أن كل سمتٍ للفضيلة والصلاح وحتى سمت الخير الأزلي -والذي هو الرب نفسه- لا يمكن أن يجعل إنسانًا فاضلًا أو صالحًا أو سعيدًا أبدًا طالما كان خارج النفس،

طالما كان الإنسان مستمسكا بالشد والجذب مع الأشياء الخارجية عبر حواسه وعقله، ولا ينسحب إلى داخل نفسه ويتعلم فهم حياته، من هو وما ماهيته».

اللاهوت الجرماني.

«في الواقع، لم يأتِ بوذا في عظاته على ذكر الحقيقة المنجية أبدًا، رأى أنه على الواحد إدراكها داخل نفسه».

سوترا لامكارا.

«فيمَ يكمن الخلاص؟ ليس في أي معتقد تاريخي أو في أي معرفة بأي شيء غائب أو بعيد، ليس في أي ضرب من ضروب قواعد كبح النفس ومناهج ممارسة الفضيلة، ولا في أي نسق للآراء حول الإيمان والأعمال والتوبة وغفران الخطايا أو التبرير والقداسة، ليس في أي حقيقة أو صلاح يمكنك الحصول عليها من نفسك أو من أفضل الناس والكتب، لكنه يكمن في الحقيقة والصلاح اللذين يمكن أن تحصل عليهما من حياة الرب أو مسيح الرب فقط وبالكامل، وقد فُعِّلت ووُلِدتْ من جديد فيك، بمعنى آخر في استعادة الحياة المزدوجة[1] الأولى في البشرية ووحدتها الكاملة».

ويليام لو.

يستخدم لو هنا عبارات بوهمه و«المصلحين الروحيين» الآخرين، الذين اتفق البروتستانت التقليديون واللوثريون والكالفينيون والإنجيليون على تجاهلهم أو اضطهادهم (وهي واحدة من النقاط القليلة للغاية التي

(١) الحياة المزدوجة: العنصر السماوي والعنصر الأرضي.

كانوا قادرين على الاتفاق عليها). لكن من الواضح أن ما يطلقون عليه الميلاد الجديد للرب داخل الروح هو بالضرورة حقيقة الخبرة نفسها التي أدركها الهندوس قبل ألفي عام وأكثر، تلك الموصوفة باعتبارها إدراك الذات في نورها الحقيقي بالداخل والمختلفة في تساميها عن الأنا الفردية.

«لا يمكن أن يصل الكسول والأحمق -غير المتبصر- إلى النيرفانا، والتي هي حل كل العقد».

إيتيفوتاكا[١].

«يبدو هذا بديهيًّا تمامًا. لكن أغلبنا يستمتع بكونه كسولًا، لا يزعج نفسه بأن يكون منغمسًا في التأمل دائمًا ورغم ذلك يرغب في النجاة بحماس من نتائج الكسل والغفلة. يترتب على ذلك أنه قد كان هناك رجاء واسع في المُخَلِّصين وإيمان فيهم، أولئك المُخَلِّصون الذين سوف يدخلون إلى حيواتنا، في ساعة خاتمتنا بالأساس، ويقومون مثل الإسكندر بحل العقد الغوردية[٢]، التي كنا كسالى للغاية ولم نحلها. لكن الرب لا يُخدع. طبيعة الأشياء هي المعرفة الاتحادية بالأصل وهي مشروطة بتحقيق إنكار كامل للذات، ويستحيل أن يدركها بأي حال أولئك الذين لم يصلوا إلى إنكار الذات بعد، حتى مع تلقيهم

(١) إيتيفوتاكا: كتاب مقدس بوذي.

(٢) عقدة غوردية: هي عقدة قيل إن مَن يحلها سوف يكون سيد آسيا وسوف يحكم العالم، وقد حاول العديدون حل العقدة لكنهم فشلوا لأنها كانت بلا طرفين، إلا أن الإسكندر الأكبر حلها عن طريق ضربها بالسيف وشاءت الأقدار أن يحكم آسيا فيما بعد. يشار بالعقدة الغوردية إلى المشكلات الصعبة التي تحتاج إلى تدخل حاسم.

لمساعدة خارجية. الخلاص الذي نحصل عليه عن طريق الاعتقاد في القوى المنجية -فلنقل- لأميدا[1] أو ليسوع ليس هو الانعتاق الكامل الموصوف في الأوبانيشاد والنصوص البوذية المقدسة وكتابات صوفية المسيحية. هو شيء مختلف، لا في الدرجة فقط بل في النوع كذلك.

فلتتحدث فلسفةً بقدر ما يسعدك، فلتبجل آلهةً بقدر ما تحب، فلتشهد كل الأعياد، فلتغنِ مدائح مكرسة لأي عدد من الأرباب - لا يأتِ التحرر أبدًا، ولو في نهاية مئات الدهور، من دون إدراك واحدية الذات».

شانكارا.

«لا يمكن إدراك هذه الذات في نور الحقيقة عن طريق الدراسة أو حتى النباهة والتعلم. تكشف الذات في نور الحقيقة عن جوهرها لذلك الذي يُوَفِّق نفسه عليها. لا يمكن لذلك الذي لم يهجر سبل الرذيلة، الذي لا يستطيع التحكم في نفسه، الذي يحظى بسلام في الداخل، صاحب العقل المشتت إدراك الذات في نور الحقيقة، وذلك بالرغم من الامتلاء بكل التعليم في العالم».

كاثا أوبانيشاد.

«توجد النيرفانا حيث لا ميلاد ولا فناء؛ هي اكتشاف حال الهكذائية، تسمو سموًّا مطلقًا على كل الأجناس التي ينشئها العقل؛ إذ إنها الوعي الداخلي لتاتاجاتا».

لانكافاترا سوترا.

الخلاص الزائف -أو المعيب في أحسن الأحوال- الموصوف

---

(١) أميدا: هو بوذا سماوي بحسب بوذية الماهايانا.

في تشاندوجيا أوبانيشاد له ثلاثة أنواع. أولًا- هناك الخلاص الزائف المرتبط بالاعتقاد الذاهب إلى أن المادة هي الحقيقة النهائية. يجد فيروخانا -الكائن الشيطاني والنموذج الأمثل لحب القوة والمزاج البدني الانبساطي- أن من الطبيعي تمامًا أن يُعرِّف نفسه من خلال جسده، ومضى عائدًا إلى بقية الجبابرة كي يسعى وراء خلاص مادي تمامًا. إذا ما تجسد فيروخانا في القرن الحالي، كان ليصبح شيوعيًّا أو فاشيًّا أو قوميًّا متحمسًا. أدرك إندرا حقيقة أمر الخلاص المادي، ومن ثم قُدِّم له خلاص الحلم، الانعتاق خروجًا من الوجود الجسدي إلى عالم وسطي بين المادة والروح - ذلك الكون النفساني الغريب والمثير بصورة مدهشة، منه تقتحم المعجزات والرؤى و«اتصالات الأرواح» وإدراكات ما وراء الحس الحياة العادية بشكل مذهل. لكن هذا النوع من الوجود الفرداني الأكثر حرية لا يزال شخصيًّا ومتمركزًا حول الأنا بشكل مفرط كي يرضي وعي النفس بنقصها وحماسها إلى الكمال. ومن ثم واصل إندارا مع الأمر، وأُغري بالقبول بالوعي غير المتمايز للنوم العميق، للسمادهي (التأمل) الزائف، والنشوة السكينية، باعتباره الانعتاق النهائي. لكنه رفض -بحسب براهماناندا[1]- أن يخطئ تاماس ويظنها ساتفاس، أن يخطئ الكسل وما دون الوعي ويظنهما اتزانًا ووعيًا فائقًا. وهكذا وصل عن طريق التمييز إلى إدراك الذات في نور الحقيقة، وهو تنوير للظلام الذي هو الجهل، وانعتاق من التبعات المهلكة للجهل. أما الخلاص الخادع الذي حُذرنا منه في المقتطفات الأخرى فهو من نوع مختلف. التشديد هنا على الوثنية والخرافات - أولًا وقبل

(١) براهماناندا ساراسواتي (١٨٦٨ - ١٩٥٣): رجل دين هندوسي.

كل شيء التبجيل الوثني للعقل التحليلي ومفاهيمه، والاعتقاد الخرافي في الطقوس والعقائد الدوجمائية واعترافات الإيمان[1]، واعتبارها ذاتًا تأثير سحري في حد ذاتها بطريقة ما. كان كثير من المسيحيين مذنبين بممارسة هذه الوثنيات والخرافات حسبما يقتضي القانون. بالنسبة لهم الانعتاق الكامل عبر الاتحاد بالأصل الإلهي مستحيل، سواء في هذا العالم أو بعد الموت. أفضل ما يمكن أن يأملوا فيه حياة في الجسد جديرة بالاستحقاق -لكنها لا تزال متمركزة حول الأنا- ونوع ما من «طول الأمد» السعيد بعد الموت، كما يطلق عليه الصينيون، وشكل ما من أشكال البقاء، وهو بقاء فردوسي ربما، لكنه لا يزال متورطًا في الزمن والانفصال والتعدد.

الطوباوية التي تنعتق إليها النفس المستنيرة هي شيء مختلف تمامًا عن المتعة. ما طبيعتها إذَنْ؟ تمدنا الاقتباسات اللاحقة بإجابة جزئية على الأقل. يقوم النعيم على عدم التعلق وإنكار الذات، وبذلك يمكن الاستمتاع به دون شبع ودون اشمئزاز، وهي مشاركة في الأزل، وبذلك تبقى بلا نقصان أو اضطراب.

«من الآن فصاعدًا تصبح (الروح المتحررة) مُكمَّلة ومختلفة، في براهمان الفعلي. ثمرتها حل الارتباطات. تبلغ البركة الأزلية التي لا يمكن قياسها، من دون رغبات، وتبقى فيها هناك».

مايترايانا أوبانيشاد.

«يجب الاستمتاع بالرب، تُستخدم المخلوقات بوصفها وسيلة فقط

---

(١) اعترافات الإيمان: هي صيغ اعترافات تلخص قواعد الإيمان.

إلى ذلك الذي يجب الاستمتاع به».

القديس أوغسطينوس.

«هناك اختلاف بين المتع الروحية والجسدية، تُوَلِّد تلك الجسدية الرغبة قبل أن نحصل عليها، وبعد أن نحصل عليها تبعث الاشمئزاز؛ لكن المتع الروحية على العكس من ذلك، لا نحرص عليها عندما لا تكون بحوزتنا، لكننا نرغب فيها عندما ننالها».

القديس جريجوري العظيم.

«عندما يكون إنسان في أحد هذين الحالين (طوباوية النفس أو الليل المظلم للنفس)، فإنه لا يشعر بأي سوء، وهو آمن في الجحيم كما في النعيم. وطالما كان الإنسان على الأرض، فمن المحتمل بالنسبة له أن يمر من أحد الحالين إلى الآخر مرات عدة – بل خلال نهار وليل ودون أن يفعل شيئًا من ناحيته. لكن عندما لا يكون الإنسان في أي من هذين الحالين، يتحاور مع المخلوقات ويميل هنا وهناك ولا يعرف أي خصلة للبشر هو عليها».

اللاهوت الجرماني.

أغلب أدب الصوفية شعري، هذا الشِّعر متكلف ومسرف أحيانًا، وجميل مع مسحة بساطة وضاءة أحيانًا، مبهم في إلغاز بصورة مزعجة نوعًا أحيانًا. تنتمي أقاويل النفري المصري[1]، شيخ القرن العاشر المسلم إلى هذه الفئة الأخيرة. هذا هو ما كتبه عن موضوع الخلاص.

أوقفني في البحر فرأيت المراكب تغرق والألواح تسلم. ثم غرقت

---

(١) محمد بن عبد الجبار بن حسن النفري: أحد أعلام الصوفية، ولد في العراق وتوفي في مصر عام ٩٦٥ م.

الألواح، وقال لي: «لا يسلم مَن ركب». وقال لي: «خاطر مَن ألقى نفسه ولم يركب، وهلك من ركب وما خاطر». وقال لي: «المخاطرة جزء من النجاة». وجاء الموج ورفع ما تحته وساح على الساحل. وقال لي: «ظاهر البحر ضوء لا يبلغ، وقعره ظلمة لا تمكن، وبينهما حيتان لا تستأمن».

الحكاية الرمزية واضحة تمامًا. المراكب التي تحمل المسافرين الفرادى عبر بحر الحياة هي الطوائف والكنائس، مجموعة من الاعتقادات الدوجمائية والمنظمات الدينية. الألواح التي تغرق في النهاية كذلك هي الأعمال الصالحة جميعها والتي لا تبلغ أبدًا استسلام الذات الكامل، وهي كل إيمان أقل في جوهره من المعرفة الاتحادية بالرب. التحرر في الأزل يأتي إلى من «ألقى بنفسه ولم يركب»، أو كما أشار الإنجيل، على الواحد أن يهلك حياته كي ينقذها. لكن في إلقاء الواحد بنفسه في البحر مخاطرة - ليست بالتأكيد بذات قدر المخاطرة عند السفر في كوين ماري[1] الضخمة، والمجهزة بأحدث وسائل الراحة الدوجمائية والديكورات الشعائرية الطقوسية، والمربوطة إما إلى خزانة ديفي جونز[2] وإما إلى الميناء الخاطئ -في أفضل الأحوال- لكنها لا

---

(١) كوين ماري: دُشنت عام ١٩٣٤ وعملت في نقل الجنود عبر المحيط الأطلنطي، كما عملت بعد ذلك في الرحلات البحرية حتى عام ١٩٦٧ قبل أن ترسو إلى الأبد وتتحول إلى فندق ومركز مؤتمرات في كاليفورنيا.

(٢) خزانة ديفي جونز: هناك أساطير كثيرة تحاك حول شخص ديفي جونز، منها أنه كان بحارًا باع روحه للشيطان، يقتل البحارة كي يهدي أرواحهم إليه. وقيل عنه إنه الهولندي الطائر الذي واجهته بعض المشاكل فقال إن الله هو الشيطان وإنه سوف يبحر حتى لو بقي يبحر إلى الأبد وعندها أرعدت السماء وأصابته اللعنة وصار يبحر إلى الأبد. أما خزانة ديفي جونز، فيقال إنه بعد أن رَوَّع البحارة، قُتل على يد قبطان شجاع وأُلقي به في البحر، كما يقال إن أي قرصان شرير سوف يكون مصيره الهلاك والذهاب إلى خزينة ديفي جونز، وهي ترمز إلى أعماق البحر بالنسبة إلى البحارة.

تزال خطيرة بشكل كافٍ تمامًا. أما سطح البحر (الأصل الإلهي كما يتجلى في عالم الزمن والتعدد) فيبرق بأشعة منعكسة، لا يمكن القبض عليها كما لا يمكن القبض على صورة الجمال في المرآة؛ بينما يبدو القاع (الأصل باعتباره أزليًّا في ذاته) مظلمًا بالنسبة إلى العقل التحليلي عندما يمعن النظر في الأعماق بالأسفل؛ وعندما يقرر العقل التحليلي في آخر مقاومة للغرق اللحاق بإرادة إفناء الذات، عليه أن يتعامل مع هجمات وضربات الخلاص الزائف المهلك بينما يغرق، ذلك الخلاص الزائف الموصوف في تشاندوجيا أوبنشاد - خلاص الحلم في ذلك العالم النفساني المدهش، حيث لا تزال الأنا باقية حية، لكنها حياة من نوع أسعد وأقل تقييدًا، أو خلاص النوم للسمادهي الزائف، إذ إن الاتحاد فيه يكون فيما دون الوعي بدلًا من أن يكون اتحادًا في وعي فائق.

لا تميل حسابات النفري لفرص أي فرد في تحقيق الغاية النهائية للإنسان إلى جانب التفاؤل المفرط. إذ لم يكن هناك أبدًا أي قديس أو مؤسس لديانة أو شارح للفلسفة الخالدة متفائل أبدًا. «لأن كثيرين يدعون، وقليلين ينتخبون»[١]. أولئك الذين لا يَختارون أن يكونوا مختارين منتخبين لا يمكن أن يأملوا فيما هو أفضل من صورة ما من صور الخلاص الجزئي، في ظل ظروف سوف تسمح لهم بالتقدم نحو الانعتاق الكامل.

* * *

(١) إنجيل متى ٢٢ : ١٤.

الفصل الرابع عشر

الخلود والبقاء

«الخلود هو مشاركة في الآن الأزلي للأصل الإلهي؛ البقاء هو الاستمرار في أحد أشكال الزمن. الخلود هو نتيجة للانعتاق الكامل. البقاء هو حصة أولئك الذين انعتقوا جزئيًا في فردوس ما، أو حصة أولئك الذين لم ينعتقوا على الإطلاق، لكنهم وجدوا أنفسهم مدفوعين تحت وطأة قانون طبيعتهم غير المتسامية إلى اختيار عبودية متجسدة أو عبودية مطهر ما، أكثر إيلامًا من تلك التي فاتوها للتو.

تجعل الربوبية والفضيلة الناس يعرفون خلودهم ويحبونه، يؤمنون فيه ويبتهجون به. عندما تتطهر النفس وتستنير عن طريق ورع حقيقي، تصبح أكثر جدارة بذلك الإشعاع الإلهي، وتشعر بنفسها من خلاله مقترنة بالرب. تعرف أن حبه عز وجل -الذي تحيا به- أقوى من الموت. تعرف أن الرب لن يضيِّع حياته أبدًا التي بثها في النفس. تلك الأنفاس وذلك اللهاث يعد مشاركة أزلية من لدنه، ليست إلا طاقة نَفَسه في داخلنا».

جون سميث، الأفلاطوني.

«لقد استبقيت هذا سابقًا ولا أزال أستبقيه، إذ إنني أمتلك كل ما وُهِب إليَّ في الأزل. الرب في كمال ربوبيته يسكن أزليًّا في صورته- النفس».

إكهرت.

«الماء هو دائمًا ماء، سواء كان مضطربًا أو ساكنًا. ما الفارق الذي يمكن أن يحدثه الوجود في جسد أو التجرد منه للمُتَحرِر؟ لا يعاني المحيط من أي تغيير، سواء كان هادئًا أو عاصفًا».

يوجا فاسيستا[١].

أجاب يعقوب بوهمه على السؤال «إلى أين تذهب النفس، عندما يموت الجسد؟» بهذه الإجابة: «لا ضرورة هناك للذهاب إلى أي مكان».

«كلمة تاتاجاتا (أحد أسماء بوذا) تدل على ذلك الذي لا يذهب إلى أي مكان ولا يأتي من أي مكان؛ ولذلك يُدعى تاتاجاتا (هكذا - ذهب) والمقدس والمستنير تمامًا».

السوترا الماسية.

«عند رؤيته وحده، يتسامى المرء على الموت، ما من سبيل آخر».

شفيتاشفاتارا أوباناشيد.

«تنتصب حياتنا الأبدية في المعرفة بالرب».

كتاب الصلاة المشتركة[٢].

مُتُّ حجرًا، ثم أصبحت نباتًا.

---

(١) يوجا فاسيستا: نص فلسفي في صورة خطاب موجه من حكيم فاسيستا إلى الأمير راما.

(٢) كتاب الصلاة المشتركة: هو كتاب الصلاة الرسمية لكنيسة إنجلترا والكنائس الإنجيلية.

مُتُّ نباتًا، ثم نهضت حيوانًا.
مُتُّ حيوانًا، وصرت إنسيًّا.
لماذا عليَّ أن أخاف؟ متى نزلت إلى مرتبة أدنى بالموت؟
إلا أنني سوف أموت مرة أخرى وأنا رجل، كي أحلق.
مع الملائكة المباركين، لكن حتى من الملائكية
عليَّ المضي قدمًا. الكل يفنى ولا يبقى إلا وجه الله.
عندما أضحي بنفسي الملاك،
سوف أصبح ما لا يدركه عقل أبدًا.
يا إلهي، فلتجعلني عدمًا! إذ يهتف العدم،
«إليه سوف نعود».

جلال الدين الرومي.

هناك اتفاق عام في المشرق والمغرب على أن الحياة في الجسد توفر فرصًا مواتية بشكل فريد من أجل تحقيق الخلاص والانعتاق. يتشابه المعتقد الكاثوليكي ومعتقد بوذية الماهايانا من حيث التشديد على أن النفس عندما لا تكون متجردة من الجسد بعد الموت لا يمكن أن تكتسب حسنات، بل تعاني في المطهر فقط من تبعات أفعالها في الماضي. لكن بينما تعلن الكاثوليكية التقليدية عن استحالة التقدم في العالم التالي وأن درجة هناء النفس قد تحددت بما فعلته وفكرت فيه أثناء حياتها الدنيوية فقط، يؤكد علماء أخرويات المشرق على وجود ظروف معينة بعد الموت يمكن للنفوس الجديرة بالاستحقاق فيها أن

تتقدم من فردوس البقاء الشخصي السعيد إلى الخلود الحقيقي بالاتحاد مع الربوبية الأزلية خارج الزمن. وبالتأكيد هناك احتمال آخر أيضًا (وهو الاحتمال الأساسي في الحقيقة بالنسبة إلى أغلب الأفراد)، ألا وهو احتمال العودة إلى صورة ما من صور الحياة المتجسدة، وفيها تمكن مواصلة التقدم نحو القداسة والطوباوية الكاملة أو الانعتاق من خلال التنوير. وفي الوقت نفسه، يقول شانكارا: إن ميلاد الواحد في جسد بشري هو أحد الأشياء التي على الواحد أن يحمد الرب عليها يوميًّا.

«يحتاج المخلوق الروحاني الذي نحن على صورته إلى جسد؛ إذ لا يمكنه مطلقًا من دونه بلوغ تلك المعرفة التي يحصل عليها، والتي تعتبر الاقتراب الوحيد من تلك الأشياء التي يصبح مباركًا عن طريقها».

القديس برنارد.

«عقب الفوز بالميلاد في صورة البشر -التجسد المبارك والنادر- على الحكيم أن يترك التفاهات جميعها للتافهين، وأن يكافح من أجل معرفة الرب، والرب وحده، قبل أن تنتهي الحياة إلى الموت».

سريماد بهاجافاتا.

«الصالحون يحولون أجسادهم إلى أرواح؛ والطالحون يحولون نفوسهم إلى أجساد».

بنجامين ويتشكوت[١].

على نحو أدق، فإن الصالحين يحولون الجسد - العقل إلى روح؛ والطالحين يحولون أرواحهم إلى أجساد وعقول. الجسد - العقل الذي

(١) بنجامين ويتشكوت (١٦٠٩ - ١٦٨٣): فيلسوف بريطاني وكبير أفلاطونيي كامبريدج.

جُعل روحانيًّا تمامًا هو التاتاجاتا، الذي لا يذهب إلى أي مكان عندما يموت، وذلك بسبب وجيه، إذ إنه بالفعل -في الحقيقة وبوعي- حيث كان الجميع دون أن يعرفوا. الشخص الذي لم يدخل في هذه الحياة إلى الهكذائية، إلى المبدأ الأزلي لكل حالات الوجود، يدخل عند الموت إلى حالة خاصة ما، إما المطهر أو الفردوس. يمكن تمييز أنواع مختلفة عديدة للخلاص في النصوص المقدسة الهندوسية والتعليقات عليها. نالت هذه النفس التي «هكذا - ذهبت» خلاصًا كاملًا بالاتحاد الكامل بالأصل الإلهي؛ إلا أن من الممكن كذلك الحصول على أنواع أخرى من الموكتي أو التحرر، بينما تحتفظ النفس بشكل من أشكال الوعي - الأنا المُطهَّرة. تعتمد طبيعة انعتاق أي فرد بعد الموت على ثلاثة عوامل: درجة القداسة التي حققها بينما كان في الجسد، وجانب الحقيقة الإلهية الخاص الذي امتثل له في الأساس، والمسار الخاص الذي اختار اتباعه. بالمثل نجد في الكوميديا الإلهية أن للجنة حلقاتها المتعددة؛ لكن بينما يمكن للنفس في علوم الأخرويات الشرقية الخروج من الفردانية المتسامية، الخروج من البقاء حتى لو كان في آخرة سماوية من نوع ما، نحو انعتاق كامل لبلوغ السرمد، نجد أن نفوس دانتي تبقى إلى الأبد في مكان يجدون أنفسهم فيه في جسد نتيجةً للتجسد المفرد (وذلك بعد المرور عبر آلام مذلة للمطهر). لا تقبل المسيحية التقليدية بإمكانية أي نمو أبعد نحو الكمال النهائي للاتحاد الكامل بالربوبية، سواء في حياة بعد الموت أو في تجسد ما آخر. لكن في النسخ الهندوسية والبوذية للفلسفة الخالدة نجد أن الحِلم الإلهي يواكب الرحمة الإلهية: كلاهما بلا حدود. لا وجود لإدانةٍ أبدية عند اللاهوتيين الشرقيين؛ هناك عمليات

تطهيرية فقط وبعدها سلسلة لا نهائية من الفرص الثانية من أجل المضي قدمًا صوب الغاية الخاتمة، لا للإنسان وحده، بل للمخلوقات كلها - اتحاد كامل بأصل كل الموجودات.

الانشغال بانعتاق ما بعد الموت ليس وسيلة إلى مثل هذا الانعتاق، بل من الممكن بالفعل أن يصبح بسهولة عائقًا في سبيل التقدم نحوه. لا يوجد أدنى سبب لافتراض أن احتمالية نجاة الروحانيين المتحمسين أكبر من أولئك الذين لم يحضروا جلسة تحضير أرواح أبدًا أو لم يُعوِّدوا أنفسهم على المؤلفات في هذا السياق، سواء التخميني منها أو المبرهن عليه. لم ينعقد عزمي على أن أضيف هنا إلى تلك المؤلفات بل بالأحرى أنوي تلخيص ما كُتِب عن موضوع البقاء داخل التقاليد الدينية المتنوعة في صورة بسيطة.

في النقاشات الشرقية حول الموضوع، ما يبقى بعد الموت ليست الشخصية. قَبِل بوذا بمذهب إعادة التجسد؛ لكنها ليست النفس التي تواصل الانتقال، إنها الخصائص. ما اخترناه كي يشكل تركيبنا الذهني والبدني في مسار حياتنا الدنيوية يؤثر على الوسط النفساني الذي تلعب العقول الفردية بداخله دورًا فيما يتعلق بوجودها المزدوج على الأقل، يؤدي هذا التبدل في الوسط إلى بدء وجود جديد بعد موت الجسد، سواء في الفردوس أو المطهر أو في جسد آخر.

يوجد في الكون الخاص بالفيدانتا علاوة على الأتمان أو الذات الروحية -المماثلة للأصل الإلهي- وفوقها شيءٌ في ذات طبيعة النفس

وهو الذي يواصل العودة في صورة جسد ظاهر أو جسد خفي[1] أو يُظهر نفسه في حالة ما غير مادية. هذه النفس ليست شخصية الميت، لكنها بدلًا من ذلك وعي الأنا المحدد الذي تنبعث منه الشخصية.

أحد مفهومي البقاء هذين متسق ذاتيًا على نحو منطقي، ويمكن ترتيبه كي «يحفظ منطق الأشياء» - بمعنى آخر، من الممكن توفيق الحقائق الغريبة والغامضة الخاصة بالبحث النفساني معه. الشخصيات الوحيدة التي نحن على اطلاع مباشر عليها هي الموجودات المتجسدة، التي تتركب من جسد و«س» ما غير معروف. لكن إذا كان «س» جمعًا جسديًا يساوي شخصية، فمن ثم من الواضح أنه من المستحيل لـ«س» طرح جسد أن تساوي الشيء نفسه. الذوات الشخصية ظاهريًا التي يبدو كأن البحث النفساني يكتشفها أحيانًا يمكن اعتبارها شخصيات زائفة مؤقتة فقط، تتكون من «س» ووسط الجسد.

هذان المفهومان ليسا متعارضين فيما بينهما، وقد يكون البقاء هو الناتج المشترك للوعي المستديم والتبدل في الوسط النفساني. لو أن الأمر هكذا، فمن الممكن لكائن بشري أن يبقى في أكثر من صورة بعد الموت. قد تواصل «نفسه» -الأصل غير الشخصي ومبدأ شخصيات الماضي والمستقبل- مضيها في نمط له كينونة واحدة، بينما قد تصبح البقايا المتخلفة عن أفكاره وإرادته في الوسط النفساني أصل وجود متفرد جديد، له كينونة ذات نمط مختلف.

(١) الجسد الخفي: هو العقل والقوى الحيوية الذي يحافظ على الجسد المادي حيًا.

الفصل الخامس عشر

الصمت

«نطق الآب بكلمة واحدة؛ هذه الكلمة هي ابنه، وقد نطق بها باستمرار في صمت أبدي؛ وعلى الروح أن تنصت إليها في صمت».

القديس يوحنا الصليب.

«ما الحياة الروحية إلا عمل روح الرب بداخلنا ولا شيء آخر، ولذلك يجب أن يكون صمتنا جزءًا كبيرًا من إعدادنا لها، ولن يكون اللغو الكثير فيها أو البهجة المفرطة عائقًا بسيطًا بأي حال أمام ذلك الخير الذي يمكن لنا أن نحظى به فقط عن طريق الإنصات بداخلنا إلى ما تتحدث به الروح وإلى صوت الرب... اللغة الجزلة والبلاغية عن الأشياء المتعلقة بالروح ثرثرة تافهة وهي أتفه من الثرثرة عن أمور أخرى؛ ومَن يظن أنه يمضي قدمًا في طريق الفضل الحقيقي عن طريق الإنصات إلى الكلمات الملتهبة والتعابير اللافتة أو الحديث بها -كما هو الحال غالبًا في هذا العالم- قد يمتلك قدرًا كبيرًا من الحديث، لكنه سوف يحظى بالقليل من حواره في الفردوس».

ويليام لو.

«مَن يعرف لا يتحدث؛
ومَن يتحدث لا يعرف».

لاو تسو.

الحديث الذي لا يعرف ضبط النفس والتمييز هو عمل خبيث أخلاقيًّا وخطير روحيًّا. «ولكن أقول لكم: إن كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حسابًا يوم الدين»[1]. تبدو المقولة قاسية. ومع ذلك إذا ما مررنا أمامنا الكلمات التي ننفس بها عن أنفسنا خلال يوم عادي وراجعناها، سوف نجد أن عددا كبيرًا منها قد يصنف تحت ثلاثة رؤوس مواضيع أساسية: الكلمات التي يوحي بها إضمار الأذى والإساءة تجاه الإخوة؛ الكلمات التي يوحي بها الجشع والخشية وحب الذات؛ والكلمات التي توحي بها البلاهة والحديث من دون منطق أو سبب لكنه من أجل إحداث ضوضاء ملهية فقط. هذه هي الكلمات البطالة؛ وسوف نجد إذا ما نظرنا في الأمر أنها تميل إلى أن تفوق الكلمات التي تُملى بدافع العقل والإحسان والضرورة عددًا. وإذا ما عددنا كلمات الحوارات الداخلية الحمقاء التي بلا نهاية والتي تجري في عقولنا، سوف نجد أن الغلبة فيها لصالح الكلمات البطالة وبصورة ضخمة مذهلة.

تمثل كل هذه الكلمات البطالة عوائق في سبيل المعرفة الاتحادية بالأصل الإلهي، الأبله منها ليس بأقل وطأة من تلك المعنية بالذات وتلك المسيئة. تشبه ذرات غبار أو ذبابًا متراقصًا، يحجب النور الداخلي والخارجي. لا يعد حفظ اللسان (وهو بالتأكيد حفظ للعقل كذلك)

---

(١) إنجيل متى ١٢ : ٣٦.

الأصعب من بين كل إماتات الجسد في إحرازه وتقصيه، بل هو الأكثر إثمارًا كذلك.

«عندما باضت الدجاجة، لابد أنها احتاجت أن تنِقّ. وما الذي نالته من ذلك؟ جاء الغراب مباشرة وسرق بيضها منها، وافترس كل ما كان ليصبح طيورها الحية. ومثلما فعل هذا الغراب الخبيث، يفعل الشيطان تمامًا، تنبهه نقنقة المتنسكات ليحمل بعيدًا كل بضاعتهن التي استحضروها ويبتلعها، وتلك البضاعة الطيبة مثلها كمثل الطيور، كانت لتحملهن عاليا نحو الفردوس، فقط لو لم يكن قد نقنقن[١]».

مُحدَّثة عن أنكرين ريول[٢].

«لا يمكنك أن تمارس صيامًا صارمًا للغاية عن سحر الحديث الدنيوي».

فينيلون.

«ما حاجتنا إلى الكثير من الأنباء من الخارج، إذا كان كل ما يهم -سواء كان بخصوص الحياة أو الموت- يجري كله وقيد العمل في داخلنا؟».

ويليام لو.

«أمي العزيزة، انتبهي جيدًا إلى تعاليم القديسين، الذي نبّهوا أولئك الذين يريدون أن يصبحوا مباركين، أن عليهم الحديث أقل القليل عن أنفسهم وعن أعمالهم».

القديس فرنسيس دي ساليس.

(في خطاب إلى القديسة جين دي شانتال[٣]).

---

(١) تنِقّ: أي تصدر صوتًا عند وضع البيض.

(٢) أنكرين ريول: دليل للمتنسكات، مجهول المؤلف، كتب في أوائل القرن الثالث عشر.

(٣) جين دي شانتال: قديسة كاثوليكية (١٥٧٢ - ١٦٤١).

«لا يعتبر الكلب كلبًا جيدًا لأنه ينبح جيدًا. لا يعتبر الإنسان إنسانًا جيدًا لأنه يتحدث جيدًا».

جوانغ زي.

«الكلاب تنبح؛ والقافلة تسير».

مثل عربي.

«لم يكن امتناعي عن الكتابة لك فعلًا متعمدًا، إذ إنني أرجو لك في الحقيقة كل الخير؛ لكن بدا لي أنه قد قيل ما يكفي بالفعل لإنفاذ كل ما هو ضروري، وكل ما يتطلبه الأمر (إذا كان هناك بالفعل أي شيء يتطلبه الأمر) ليس الكتابة أو الحديث -إذ إن هناك ما يكفي ويزيد منهما- بل الصمت والعمل. إذ إنه في الوقت الذي يلهي فيه الحديث ويشتت، يجمع الصمت والعمل الأفكار ويقوي الروح. لذلك بمجرد أن يفهم الشخص ما قيل له لأجل صالحه، فلا مزيد من الحاجة إلى الاستماع أو المناقشة؛ ليست به حاجة إلا إلى الاجتهاد في ممارسة ما تعلمه عن طريق الصمت والانتباه فيما يتعلق بالتواضع والإحسان وتحقير الذات».

القديس يوحنا الصليب.

ميز مولينوس ثلاث درجات من الصمت (وبلا شك لم يكن هو أول مَن استخدم هذا التصنيف) - صمت اللسان وصمت العقل وصمت الإرادة. الامتناع عن الكلام البطال صعب؛ التوقف عن ثرثرة الذاكرة والخيال أصعب؛ أما الأصعب فيما بينها جميعًا إخماد أصوات الرغبة والنفور داخل الإرادة.

القرن العشرون هو قرن الضوضاء، وذلك إلى جانب أشياء أخرى

عديدة. الضوضاء المادية والضوضاء الذهنية وضوضاء الرغبة – ونحن لدينا تسجيلات تاريخية لكل منها. ولا عجب أن كل أدوات تقنياتنا الإعجازية تقريبًا قد زُجَّ بها في الانتهاك الحالي للصمت. إذ إن الراديو -الأكثر شهرة وتأثيرًا من بين كل الاختراعات الحديثة- ليس إلا قنطرة، يمكن من خلالها لصخب سبق صنعه أن يتدفق إلى بيوتنا. وهذا الصخب يمضي نحو ما هو أعمق بالطبع من طبلة الأذن. إنه يخترق العقل ويملؤه بوابل من المشتتات المبلبلة -مواد إخبارية وشذرات من معلومات لا تتصل ببعضها وموسيقى صاخبة تقرع في مجون أو موسيقى عاطفية وجرعات متكررة باستمرار من الدراما، لا تجلب أي تطهير بل تخلق ميلًا يوميًّا أو ربما على رأس كل ساعة نحو التفريغ العاطفي. وحيثما تدعم محطات الإذاعة نفسها عن طريق بيع الوقت للمعلنين -وهو ما يحدث في أغلب دول العالم- فإن الضوضاء تنتقل من الآذان من خلال عوالم الخيال والمعرفة والشعور إلى نواة الأنا المركزية للرجاء والرغبة. ليس للنسخ الإعلانية كلها -المسموعة أو المطبوعة، المذاعة عبر الأثير أو على الأوراق المصنوعة من لحاء الأشجار- إلا هدف واحد، ألا وهو منع الإرادة من بلوغ الصمت دائمًا أبدًا. انعدام الرغبة هو شرط الانعتاق والتنوير. أما شرط نظام الإنتاج الضخم المتوسع والمتقدم تقنيًّا هو الرغبة العالمية والميل. تمثل الإعلانات الجهد المنظم لزيادة وتقوية الرغبة – أي زيادة وتقوية أعمال تلك القوة التي هي (كما أخبرنا كل قديسي ومعلمي الديانات السامية دائمًا) السبب الرئيس للمعاناة والأفعال الخاطئة والعائق الأعظم الذي يقف بين النفس البشرية وأصلها الإلهي.

الفصل السادس عشر

التضرع

تنطبق كلمة «التضرع» على أربعة أفعال مختلفة على الأقل - التوسل والتشفع والمناجاة والتدبر. التوسل: أن نطلب شيئًا لأنفسنا. الشفاعة: أن نطلب شيئًا لناس آخرين. المناجاة: أن نستعمل فكرنا ومشاعرنا وإرادتنا وخيالنا في تكريس موجه مباشرة نحو الرب في جانبه الشخصي أو في صورته البشرية المتجسدة. أما التدبر فهو حالة من الاستلاب اليقظ، وفيها تنفتح النفوس على الأصل الإلهي بالداخل والخارج، الربوبية المتجلية والمتسامية.

من المستحيل نفسانيًّا وبشكل مطلق أن يمارس كائن بشري التدبر من دون التجهيز له عن طريق نوع ما من المناجاة ومن دون الشعور بحاجة إلى التحول نحو فترات -تتكرر كثيرًا أو قليلًا- من التشفع وشيء ما من التوسل على الأقل. على الجانب الآخر، من الممكن واليسير تمامًا ممارسة التوسل من دون تدبر، وليس ذلك فقط بل من دون تكريس كذلك وفي حالات نادرة مصحوبًا بأنانية مفرطة وفجة من دون حتى الشفاعة. قد يستعمل تضرع التوسل والشفاعة ولا يكون مصحوبًا إلا بأكثر الإشارات

للرب -في أي من جوانبه- سطحية ورتابة، وهو ما يحدث تمامًا بل والأكثر من ذلك أن يعتبر ذلك في المعتاد نجاحًا. لا يحتاج المرء إلى أن يعرف الرب أو أن يحبه أو حتى أن يعرف صورة الرب في مخيلته أو أن يحب تلك الصورة لكي يحصل على ملكة استجابة التوسلات. كل ما يتطلبه الأمر أن يبدد إحساسه بأهمية الأنا الخاصة به ورغباتها، ويصاحب ذلك يقين صارم في وجود أحد ما -بخلافه هو نفسه- هناك في الكون، يمكن التزلف إليه ودفعه إلى تحقيق تلك الرغبات. إذا رددت عبارة «ما أريده سوف يتحقق» مصحوبة بدرجة الإيمان والإصرار الضرورية، فإن المقادير سوف تجري على النحو التالي، سوف أحصل على ما أريد، بطريقة ما أو أخرى، عاجلًا أم آجلًا. لا أستطيع أن أجيب مسبقًا عن أسئلة على شاكلة، عما إذا كانت إرادتي موافقة لإرادة الرب، عما إذا كان في حصولي على ما أريد خيرٌ روحيٌّ أو أخلاقيٌّ أو حتى ماديٌّ لي. هذا ما سوف يكشف عنه الزمن والأزل فقط. في الوقت ذاته قد نمتلئ بتوصيات من أجل الانتباه إلى تحذيرات الفلكلور. يعرف أولئك الكتاب العمليون غير المعروفين الذين كتبوا قصص العالم الخرافية قدرًا كبيرًا عن الأماني وتحققها. يعرفون في المقام الأول أن التوسلات تُستجاب فعليًّا في ظل ظروف معينة؛ لكنهم يعرفون كذلك أن الرب ليس هو المجيب الوحيد، وأن الواحد إذا سأل شيئًا بروح خاطئة، فقد يحصل عليه بالفعل - لكنه يحصل عليه انتقامًا، وليس من قِبَل واهب سماوي. يعتبر حصول المرء على ما يريده عن طريق التوسل المعني بالذات شكلًا من أشكال الهوبريس الذي يستدعي نيميسيز المناسبة له والمقترنة به. لذلك يمتلئ فلكلور هنود أمريكا الشمالية بقصص عن

ناس صاموا وصلوا وهم متمركزون حول الأنا، من أجل الحصول على أكثر مما ينبغي أن يحصل عليه إنسان عاقل، وقد نالوا ما طلبوه، ما تسبب في تداعيهم. تأتي من الجانب الآخر من العالم قصص كثيرة عن رجال ونساء استغلوا نوعًا ما من السحر كي تستجاب توسلاتهم - وهو ما كان مصحوبًا دائمًا بتداعيات هزلية أو كارثية. نادرًا ما تؤدي الأمنيات الثلاث في تراث الخرافات التقليدي إلى أي شيء بخلاف النهاية السيئة لمن أُجيبت أمنياته.

«تخيل الرب وهو يقول لك، «يا بني، لماذا تنهض يومًا بعد يوم وتدعو وتركع بل تسجد وتحك جبهتك بالأرض، ليس ذلك فقط، بل تنهمر دموعك أحيانًا بينما تقول لي: «يا أبانا، يا إلهي، امنحني ثروة!» وإذا ما منحتها لك، تظن في نفسك بعض الأهمية، تتوهم أنك قد ربحت شيئًا عظيمًا للغاية. لقد حصلت عليها، لأنك طلبتها. لكن فلتنتبه، من أجل أن تحسن استغلالها. قبل أن تحصل عليها، كنت متواضعًا؛ الآن بدأت تصبح غنيًّا، تزدري الفقراء. ما هو ذلك الخير الذي يجعلك في حال أسوأ؟ أسوأ لأنك قد كنت سيئًا بالفعل. ولم تكن تعرف أن ذلك سوف يجعلك أسوأ؛ لذلك طلبته مني. لقد أعطيتك ما سألت وأقمت الحجة عليك، وقد اختَبرت الأمر - واختُبرت! اطلب مني أمورًا أفضل من ذلك، وأعظم من ذلك. اطلب مني أمورًا روحية. اطلب مني ذاتي».

القديس أوغسطينوس.

فقير، أسألك، يا سيدي

أكثر مما قد يسأل ألف ملك.

يريد كل منهم شيئًا، يسألك إياه.

وقد جئت أسألك أن تعطيني ذاتك.

الأنصاري الهروي.

«بحسب ما قاله الأكويني، من المشروع لنا أن ندعو طلبًا لأي أمر، من المشروع لنا أن نرغب فيه. توجد أمور لا يحق لأحد أن يرغب فيها - مثل ثمار الجريمة والأفعال الآثمة. توجد أمور أخرى قد يكون من المشروع أن يرغب فيها أناس على أحد مستويات التطور الروحي، لكن لا ينبغي أن يرغب فيها أناس آخرون على مستوى أسمى (في الحقيقة لقد توقفوا عن أن يرغبوا فيها). هكذا، بلغ القديس فرنسيس دي ساليس نقطة، يمكنه أن يقول عندها: «ليست لديَّ بالكاد أي رغبات باستثناء رغبتي في أنني لو ولدت من جديد، لا تكون لي أي رغبات على الإطلاق. علينا ألا نطلب شيئًا وألا نرفض شيئًا، علينا أن نترك أنفسنا بين يدي العناية الإلهية، من دون إهدار الوقت في أي رغبات، باستثناء أن نريد ما يريده الرب لنا». لكن في الوقت نفسه، يكرر الملايين البند الثالث[1] للصلاة لله يوميًا، من دون أدنى نية للسماح لأي إرادة بالعمل سوى إرادتهم هم.

خلَّصني مذاق التجول في محيط الخلود من كل مطالبي؛

فكما تكمن الشجرة في البذرة، كذلك تكمن الأمراض جميعها في هذه المطالب».

كابير.

(١) بنود الصلاة لله أربعة، قف في محل المخلوق في الصلاة؛ صلِّ لله بإخلاص وأمانة؛ صلِّ أن تفعل مشيئة الله؛ صلِّ لله بنفسٍ طويلٍ وعزم - لا تيأس.

«يا إلهي، لا أعرف ماذا أطلب منك. تعرف وحدك ما أحتاج إليه. تحبني أفضل من معرفتي كيف أحب نفسي. يا أَبْتِ، أعطِ طفلك ما لا يعرف هو نفسه كيف يطلبه. فلتؤذِني أو تعفُ عني، فلتخسف بي أو ترفعني: أصبو إلى كل ما تقضي به من دون أن أعرفه. أنا صامت؛ أُهديك نفسي قربانًا، أُسلِّم نفسي إليك؛ ما من رغبة لي إلا في إتمام إرادتك. علِّمني التضرع. ادعُ بنفسك فيَّ».

فينيلون.

(أغوى الشيطان درويشًا بالتوقف عن مناجاة الله، على أساس أن الله لم يجب أبدًا ويقول، «ها أنا ذا». ظهر له نبي الله الخضر عليه السلام في رؤيا حاملًا رسالة من الله:

ألم أكن أنا مَن دعوتك إلى طاعتي؟

ألم أكن أنا مَن شغلتك بذكر اسمي؟

تناجيني «اللهم!» ويجيئك ردي، «ها أنا ذا».

جلال الدين الرومي.

«نسأل الله العظيم أن يجعلنا ممن آثره واجتباه، وأرشده إلى الحق وهداه، وألهمه ذكره حتى لا ينساه، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد إلا إياه».

الغزالي.

يكتب ويليام لو عن الشفاعة -كما يكتب عن الكثير للغاية من المواضيع الأخرى- بأكثر الأشكال وضوحًا وبساطة وفي صميم الموضوع.

«لو اعتبرت نفسك مترافعًا عن إخوانك ومعارفك عند الرب، لن تجد العيش في سلام معهم صعبًا أبدًا. سوف يكون من السهل عليك أن تتحمل وتعفو عن أولئك الذين ناشدت الرحمة الإلهية بشكل خاص من أجلهم ومن أجل العفو عنهم».

ويليام لو.

«الشفاعة هي أفضل حَكَم يقضي في الاختلافات كلها، أفضل محفز للصداقة الحقيقية، أفضل علاج للأمزجة العاصفة كلها، ولكل الغضب والعواطف المتغطرسة».

ويليام لو.

«من غير المحتمل أن تصاب بأي مزاج سيئ أو أن تبدي أي سلوك فظ تجاه رجل تهتم بصالحه كثيرًا للغاية، إذ تترافع عنه أمام الله في السر. من غير المحتمل بالنسبة لك أن تزدري رجلًا أو تسخر منه تزكي دعواتك السرية له محبة الرب وفضله».

ويليام لو.

من ثم فالشفاعة هي الوسيلة الفورية لحب الواحد لأخيه، وهي المعبرة عن ذلك الحب. وبالطريقة نفسها فإن المناجاة هي وسيلة حب الرب والمعبرة عنه - وهو حب يتحقق بالمعرفة الاتحادية بالربوبية والتي هي ثمرة التدبر. يشير مؤلفو الاقتباسات اللاحقة إلى هذه الصور الأسمى من العلاقات الحميمية بالرب عندما يستعملون كلمة «تضرع».

«هدف الصلاة وغايتها تبجيل الله الملك جل جلاله وإدراكه ومناجاته، من خلال ما هو عليه في ذاته، لا ما هو عليه في تصورنا، وحب

كرمه عن طريق حب ذلك الكرم في حد ذاته، لا ما يرسله لنا».

بوروينج[١].

«لم يتوقف (شارل دي كوندرين) في دعائه عند حدود معرفته واستدلاله. ناجى الرب وأسراره كما هي في حد ذاتها، لا كما فهمها».

أميلوت[٢].

«ما الرب عليه في ذاته»، «الرب وأسراره كما هي في حد ذاتها» - في العبارتين حلقة كانطية. لكن لو كان كانط محقًّا وكان من غير الممكن معرفة الشيء في ذاته، فإن بوروينج وكوندرين وكل معلمي الحياة الروحية الآخرين قد كانوا منخرطين في رحلة بحث بلا معنى. لكن كانط محقًّا فقط فيما يتعلق بالعقول التي لم تصل بعد إلى التنوير والانعتاق. تقدم الحقيقة -سواء كانت مادية أو نفسانية أو روحانية- نفسها إلى مثل هذه العقول باعتبارها حالكة ومشوبة ومحرفة بفعل الوسط الخاص بطبائع تلك العقول الفردية. لكن بالنسبة إلى أولئك الأنقياء في القلب والفقراء إلى الروح، فلا وجود لأي تشويه للحقيقة؛ لأنه لا وجود لذات منفصلة تحجب أو تحرف، لا وجود لفانوس شرائح العرض الشفافة المطلية للمعتقدات الفكرية والتمثلات المقدسة كي يضفي على «شعاع الأزل الأبيض»[٣] صبغة شخصية وتاريخية. ترى هذه العقول الأمر على النحو الذي يقول به أولير[٤]: «حتى تصورات القديسين والعذراء

---

(١) جان فرانسوا دي بوروينج (١٧٤٨ - ١٨١١): كاتب ودبلوماسي فرنسي.

(٢) دينيس أميلوت (١٦٠٩ - ١٦٧٨): كاتب وباحث في الكتاب المقدس، فرنسي الجنسية.

(٣) من كتاب أدونيس لبيرسي بيس شيللي.

(٤) جان جاك أولير (١٦٠٨ - ١٦٥٧): قس كاثوليكي فرنسي.

المباركة (مريم العذراء) ومنظور يسوع في بشريته عوائق في سبيل رؤية الرب في خلوصه». يمكن فقط لشخص هو في نفسه (لا-شيء) إدراك الشيء في ذاته.

لا أستسيغ أن التضرع هو توسل ورجاء يُمارس في الأساس -حسب مذاهب المدارس- بفهم يذهب إلى أنه دلالة على ما يرغب الشخص في تلقيه من الرب. لكن ما يعنيه التضرع هنا بشكل خاص هو تقديم أيًا ما قد يطلبه الرب منا بالحق وإعطائه إياه.

«الآن من الممكن أن نُعرِّف التضرع -بمفهومه العام- أنه ارتقاء بالعقل إلى الرب، أو أنه -بتعريف أوسع وأكثر قدرة على التعبير- تحريك نفسٍ عقلانية نحو الرب، معبرة عن اعتماد كلي عليه -أو على الأقل مفترضة ذلك- لأنه منشئ كل الخير وينبوعه، أنه إرادة تقتضي تقديم ما يليق به إليه واستعداد لذلك، وما يليق به لا يقل عن الحب كله والطاعة كلها والمناجاة والتمجيد والعبادة، وذلك عن طريق التواضع وإفناء الذات وكل المخلوقات في وجوده؛ وأخيرًا الرغبة في التوق إلى اتحاد الروح به والعزم على ذلك.

«ومن ثم يتضح أن التضرع هو أكثر الأفعال التي تقدر عليها النفس كمالًا وسماوية. هو الأكثر ضرورة ولا يمكن الاستغناء عنه من بين كل الأفعال والواجبات».

أوغسطين بيكر.

«يا إلهي، علمني التحري عنك واكشف عن نفسك لي عندما أتحرى عنك. إذ إنني لا أستطيع التحري عنك إلا إذا علمتني، ولا أستطيع العثور

عليك إلا إذا كشفت لي عن نفسك. دعني أتحرى عنك في شوق، دعني أشتاق إليك في التحري: دعني أجدك في الحب وأحبك في الإيجاد. يا إلهي، أُقِرُّ بفضلك وأحمدك، إذ خلقتني على صورتك، من أجل أن أقدر ربما على إدراكك، وأقدر ربما على تصورك وحبك: لكن هذه الصورة استهلكتها الرذائل وبددتها، وحجبها دخان الأفعال الآثمة، لذلك لا يمكنها تحقيق ما خُلقت لأجله، إلا إذا بعثتها وخلقتها من جديد. هل تعتم عين النفس بسبب ضعفها وتلمع بسبب مجدك؟ بالتأكيد، تعتم في ذاتها وتلمع بك. يا إلهي، هذا هو النور الذي لا يمكن الاقتراب منه والذي تسكن فيه. لا أراه لأنه براق للغاية بالنسبة لي؛ ومع ذلك فأيًّا كان ما أراه، أراه من خلاله، كما ترى العين الضعيفة ما تراه من خلال نور الشمس، بينما لا تستطيع النظر مباشرة إلى الشمس نفسها. أيها النور الفائق الذي لا يمكن بلوغه، أيتها الحقيقة المقدسة والمباركة، إلى أي حد تبعد عني، أنا القريب جدًّا منك، إلى أي حد أُبعدت عن بصري، على الرغم من أنني قريب جدًّا منك! أنت موجود كاملًا في كل مكان، ولا أراك. أتحرك فيك وفيك أحظى بوجودي، ولا أستطيع الوصول إليك، أنت بداخلي ومن حولي، ولا أشعر بك».

القديس أنسلم.

«يا إلهي، لا تضع أي ثقة فيَّ؛ لأنني بالتأكيد سوف أفشل إذا لم تعضدني».

القديس فيليب نيري.

«ادعاء الورع دون تواضع جم وتخلٍّ عن كل النزعات الدنيوية هو

ادعاء المستحيلات. مَن يريد التقوى عليه أن يتواضع في المقام الأول، وأن ينتبه بشكل كامل إلى شقائه ومطالبه وتفاهة العالم، ومن ثم تمتلئ نفسه بالرغبة في الرب. قد يستعمل إنسان متكبرٌ أو أجوف أو معنيٌّ بالدنيا دليلًا للأدعية والصلوات، لكنه لا يستطيع أن يصبح ورعًا، لأن الورع هو انصراف قلب متواضع نحو الرب، إذ إنه هو سعادته الوحيدة».

ويليام لو.

«من أجل أن تكون الروح فاعلة، يجب التخلص من الصور الحسية كلها، الطيبة والخبيثة. يستهل المبتدئ في طريق الروحانية باستعمال الصور الحسية الطيبة، ومن المستحيل البدء في طريق الروحانية الطيب بممارسات الروح... يجب أن تلزم تلك النفوس التي ليس لديها نزوعٌ نحو الجوهر الباطني الممارسات التي تُستعمل فيها الصور الحسية، وسوف تجد هذه النفوس الممارسات الحسية مفيدة جدًّا لها وللآخرين ومرضية للرب وهذا هو السبيل إلى الحياة العملية. لكن يوجد آخرون، لديهم نزوع إلى الجوهر الداخلي، لا يبقون دائمًا في ممارسات الحس، إذ إنه بعد فترة تُستبدل بها ممارسات الروح المستقلة عن الحس والخيال، وتكمن ببساطة في رفع إرادة النفس العقلانية إلى الرب... ترفع النفس إرادتها نحو الرب، المدرك عن طريق فهمه باعتباره روحًا، لا باعتباره شيئًا متخيلًا، تطمح الروح البشرية بهذه الطريقة إلى الاتحاد بالروح الإلهي».

أوغسطين بيكر.

«تخبرني أنك لا تفعل شيئًا في الصلاة والتضرع. لكن ما الذي تريد فعله في الصلاة والتضرع غير ما تفعله، عرض تفاهتك وبؤسك أمام

الرب وإبرازهما؟ عندما يكشف المتسولون عن قرحهم وحاجاتهم أمام أعيننا، فإن هذا هو أفضل استعطاف يستطيعون القيام به. لكن مما تخبرني به، فإنك لا تفعل شيئًا من هذا في بعض الأحيان، بل تستلقي هناك مثل ظل أو تمثال. يضعون التماثيل ببساطة في القصور من أجل إرضاء عيني الأمير. ابتهج عندما تكون على هذه الهيئة في حضرة الرب: سوف يبث الحياة في التمثال عندما يرضى».

القديس فرنسيس دي ساليس.

«لقد تبين لي أنني لا أقصر عقلي كفايةً ببساطة على الصلاة والتضرع، إذ إنني أرغب دائمًا في القيام بشيء بنفسي فيهما، وما أفعله فيهما خاطئ جدًّا... أرغب أكثر ما أرغب في الانقطاع وفصل عقلي عن كل ذلك، وذلك كي أُلزِمه بكل قواي وبقدر ما أستطيع بالاعتبار الوحيد والاتحاد الصرف. أفسد كل شيء بالسماح لخوفي من العجز عن ذلك بالتسلل إلى حالة الصلاة والتضرع، وبالرغبة في تحقيق شيء بنفسي».

القديسة جين دي شانتال.

«طالما كنت تسعى إلى البوذية، باذلًا الجهد لأجلها تحديدًا، فلا بلوغ لك».

يونج تشيا تا شيه.

«كيف لإنسان أن يضع نفسه في تناغم مع الطاو؟»، «أنا فعليًّا نتاج التناغم».

شيه تو[١].

(١) راهب بوذي من القرن الثامن.

«كيف سأقبض عليه؟ لا تقبض عليه. ما يبقى بعد أن ينتهي القبض على كل شيء هو الذات العلية».

بانشاداسي[١].

«آمرك أن تبقى ببساطة إما في الرب وإما قريبًا من الرب، دون أن تحاول فعل أي شيء هناك، ودون أن تسأل شيئًا منه، ما لم يحثك عليه».

القديس فرنسيس دي ساليس.

تعتبر المناجاة عملًا من أعمال الحب، لكنها لا تزال تمثل فردانية منفصلة. أما التدبر فهو حالة اتحاد مع الأصل الإلهي للمخلوقات كلها. أسمى الأدعية والصلوات هي أكثرها سلبية. كلما كان هناك القليل من الذات، كان هناك المزيد من الرب، وهو أمر محتوم. وذلك هو السبب وراء أن الطريق إلى التدبر السلبي أو المستغرق صعب للغاية وبالنسبة إلى الكثيرين مؤلم - طريق يمر بليالٍ مظلمة[٢] متتابعة ومتزامنة، يجب أن يتنكر الحاج فيها لحياة الحس باعتبارها غاية في ذاتها، يتنكر لحياة الخصوصية، بل يتنكر كذلك للتفكير والإيمان المكرسين التقليديين، ويتنكر أخيرًا لحياة الإرادة الفردانية المنفصلة، المصدر عميق الغور لكل الجهل والشر.

---

(١) دليل بسيط وشامل لمذهب أدفايتا المتفرع عن الفيدانتا، وقد كُتب في القرن الرابع عشر.

(٢) الليالي المظلمة: يقصد بها في الروحانية الكاثوليكية المحن التي يتعرض لها السائر في درب الاتحاد بالرب.

الفصل السابع عشر

المعاناة

لا مشاعر في مقام الربوبية؛ إذ إنه حيثما يكون الكمال والاتحاد، من المستحيل أن تكون هناك معاناة. تظهر إمكانية المعاناة حيثما لا يكون هناك كمال واتحاد وحيثما يكون هناك انفصال عن الكلية المُطوِّقة؛ وتتحقق هذه الإمكانية بالقدر الذي يكون به عدم الكمال وعدم الاتحاد والانفصال مصحوبًا بدافعية نحو تعزيز هذه الأحوال المرتبطة بالمخلوقات الدنيوية. يصل الفرد الذي يحقق الوحدة داخل كيانه الحي والاتحاد بالأصل الإلهي إلى نهاية المعاناة. هدف الخلق هو عودة كل المخلوقات التي تحس إلى كلية الحقيقة الأزلية من خلال المعرفة الاتحادية، وذلك خروجًا من الانفصال وفتنة الدافعية التي تؤدي إلى المعاناة، إلى كلية الحقيقة الأزلية وذلك عن طريق المعرفة الاتحادية.

تستدعي العناصر التي تشكل الإنسان إمكانية الألم.

سبب الألم الميل إلى الحياة الفردية.

الخلاص من الميل يذهب الألم.

السبيل إلى الخلاص هو المسار الثماني.

الحقائق النبيلة الأربعة للبوذية[١].

---

(١) الحقائق النبيلة الأربع: أحد التعاليم الأساسية للبوذية وهي تُعنى بالمعاناة وتشخيصها والسبيل إلى إيقافها.

تُظهر الدافعية إلى الانفصال -أو الميل إلى الوجود الفرداني والمستقل- نفسها على كل مستويات الحياة، بداية من تلك الخلوية والفسيولوجية وعبر تلك الغريزية وانتهاء بتلك الواعية تمامًا. قد تكون في ميل الكائن الحي بكامله إلى تعزيز انفصاليته عن المحيط والأصل الإلهي. أو قد تكون في دافعية جزء بداخل كائن حي إلى تعزيز حياته الجزئية باعتباره متمايزًا عن حياة الكائن الحي بكامله (وبالتالي فهو تعزيز على حساب هذه الحياة). نتحدث في الحالة الأولى عن الدافع، الشغف، الرغبة، الإرادة الذاتية، الخطيئة؛ ونصف في الحالة الثانية ما يحدث على شاكلة المرض والإصابة والخلل الوظيفي أو العضوي. يؤدي الميل إلى الانفصال في الحالتين كلتيهما إلى المعاناة، ليست لمن يتوق إلى الانفصال فقط، بل للمحيط الحساس الخاص به كذلك - الكائنات الحية الأخرى في العالم الخارجي، أو أعضاء أخرى بداخل الكائن الحي. من جهة قد تكون المعاناة حالة خاصة بصاحبها تمامًا؛ ومن جهة أخرى قد تكون قابلة للانتشار بصورة مهلكة. من غير الممكن لمخلوق حي أن يختبر معاناة مخلوق آخر. لكن النزوع إلى الانفصال يؤدي عاجلًا أم آجلًا، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إلى شكل من أشكال المعاناة الخاصة بذلك الذي ينزع إلى الانفصال وهي معاناة لا يتشاركها مع أحد، وتؤدي كذلك عاجلًا أم آجلًا، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، إلى معاناة الآخرين (وهي معاناة خاصة بصاحبها ولا يتشاركها معه أحد كذلك). للمعاناة والشر الأخلاقي المصدر نفسه - ألا وهو الميل إلى تعزيز الانفصال وهو الحقيقة الأساسية فيما يتعلق بالخلق.

سوف يكون من الجيد كذلك لو أوضحنا هذه التعميمات عن طريق القليل من الأمثلة. دعنا نهتم أولًا بالمعاناة التي تبذلها الكائنات الحية على نفسها وعلى الكائنات الحية الأخرى خلال العملية المجردة للبقاء على قيد الحياة. السبب وراء مثل هذه المعاناة هو الميل إلى الوجود الفردي، والذي يعبر عن نفسه تحديدًا في صورة الجوع. الجوع مسألة طبيعية تمامًا - جزء من الدارما الخاصة بكل المخلوقات. المعاناة التي يسببها للجوعى ولأولئك الذين يشبعون جوعهم على حد سواء لا تنفصل عن وجود المخلوقات التي تحس. لوجود المخلوقات التي تحس هدف وغرض، هو الخير الأسمى الأقصى لكل مخلوق فيها. لكن في الوقت نفسه تبقى معاناة الكائنات حقيقة وهي جزء جوهري في عملية الخلق. طالما كان هذا هو الحال، فإن الخلق هو بداية السقوط. يحدث تمام السقوط عندما تسعى المخلوقات نحو تعزيز انفصالها فيما وراء الحدود التي يصفها قانون وجودها. يبدو السقوط على المستوى البيولوجي كأنما قد تحقق مرات كثيرة متكررة للغاية على طول مسار التاريخ التطوري. اختارت الأنواع جميعها -باستثناء الإنسان- نجاحًا لحظيًّا، قصير المدى عن طريق وسائل التخصص. لكن التخصص يؤدي دائمًا إلى زقاق سد. يمكن للكائن الحي عن طريق البقاء في حالة من العمومية غير المستقرة فقط أن يتقدم نحو الذكاء العقلاني والذي يُعَدُّ تعويضًا عن عدم امتلاك جسد وغرائز متكيفة تمامًا على نوع معين من الحياة في نوع معين من البيئات المحيطة. يجعل الذكاء العقلي النجاح الدنيوي الذي لا مثيل له أمرًا ممكنًا من جهة، ومن جهة أخرى يجعل

التقدم نحو الروحانية والعودة إلى الأصل الإلهي عن طريق المعرفة الاتحادية أمرًا ممكنًا.

يمتلك البشر الآن قوة الاختيار عظيمة الشأن، إما أن يختاروا إنكار الذات والاتحاد بالرب، وإما أن يختاروا تعزيز الذاتية المنفصلة بطرق وبدرجة هي بالكامل فيما وراء تمييز الحيوانات الأدنى. ويرجع سبب امتلاك البشر للاختيار إلى أن الأنواع البشرية ممنوعة من تحقيق السقوط على المستوى البيولوجي. قدرتهم على فعل الخير بلا حدود، إذ إنهم يستطيعون -لو أرادوا- تخصيص مساحة بداخل أنفسهم للحقيقة الإلهية. لكن في الوقت ذاته قدرتهم على ارتكاب الشر، ليست في الحقيقة بلا حدود (لأن الشر مدمر لنفسه في النهاية ولذلك هو مؤقت) لكنها عظيمة بصورة فريدة. الجحيم هو الانفصال الكامل عن الرب، والشيطان هو إرادة ذلك الانفصال. الكائنات البشرية قادرة على أن تكون شيطانية لأنها عقلانية وحرة. ذلك هو العمل الذي لا يستطيع أي حيوان تكراره، إذ لا وجود لحيوان بارع كفاية، وعاقد العزم كفاية، وذي إرادة قوية كفاية أو يملك حسًّا أخلاقيًّا كفاية لكي يصبح شيطانًا. (علينا ملاحظة أنه كي يكون المرء شيطانيًّا على نطاق واسع، عليه أن يظهر درجة رفيعة من كل القيم الأخلاقية، باستثناء الإحسان والحكمة فقط، مثله في ذلك كمثل شيطان ميلتون).

لا تؤدي قابلية الإنسان إلى الميل بشدة أكبر من أي حيوان آخر إلى تعزيز انفصاله إلى الشر الأخلاقي والمعاناة التي يسببها الشر الأخلاقي -بطريقة ما أو أخرى- على ضحايا الشر ومقترفيه فقط، لكنها تؤدي إلى اضطرابات جسدية خاصة بالبشر كذلك. تعاني الحيوانات في الأساس من

الأمراض المعدية، والتي تفترض نسبًا وبائية، وذلك عندما تجتمع الدافعية للتكاثر مع ظروف مواتية بصور استثنائية ما يؤدي إلى التزاحم، كما تعاني الحيوانات من الأمراض الناجمة عن الإصابة بالطفيليات. (هذه الأخيرة هي ببساطة حالة خاصة من المعاناة يجب أن تبزغ بشكل حتمي عندما تتواجد أنواع عديدة من المخلوقات معًا بحيث يمكنها البقاء فقط على حساب بعضها). أما الإنسان المتحضر فقد كان ناجحًا تمامًا في حماية نفسه من هذه الأوبئة والطواعين، لكنه استنفر مكانها أمراضًا تنكسية، من النادر أن تعرفها الحيوانات الأدنى. ترجع أغلب هذه الأمراض التنكسية إلى أن البشر المتحضرين لا يعيشون -على أي مستوى من مستويات وجودهم- في تناغم مع الطاو أو الطبيعة الإلهية للأشياء. يحبون تعزيز ذاتيتهم من خلال الشراهة، وبذلك يأكلون الطعام الخاطئ ويفرطون في تناوله؛ يتسببون لأنفسهم في الكثير من القلق المزمن بخصوص المال، كما يتسببون لأنفسهم في انفعال مفرط مزمن لأنهم يميلون إلى الإثارة؛ يعانون خلال ساعات العمل من الملل والإحباط المزمنين اللذين يفرضهما نوع الأعمال التي عليهم القيام بها، من أجل إشباع الحاجة المستثارة اصطناعيًّا إلى ثمار الإنتاج الضخم المميكن بالكامل. من بين تداعيات هذه الاستعمالات الخاطئة للنظام الجسدي النفساني للكائن الحي تغيرات تنكسية في أعضاء معينة، مثل القلب والكلى والبنكرياس والأمعاء والشرايين. تتسبب الأعضاء التي تنتكس في معاناتها هي نفسها ومعاناة محيطها الفسيولوجي، وذلك نتيجة لتأكيدها على ذاتيتها الجزئية من خلال شكل من أشكال التصريح بالاستقلال عن الكائن الحي بأكمله. يشدد الفرد البشري بالطريقة نفسها على ذاتيته الجزئية وانفصاله عن

إخوانه، عن الطبيعة، عن الرب - وهو ما يصاحبه تبعات كارثية تصيبه وعائلته وأصدقاءه والمجتمع في العموم. وبالمثل تمامًا، يدفع المجتمع المضطرب أو مجموعة العمل أو العائلة التي تعيش وفق فلسفة خاطئة أعضاءها إلى تأكيد ذاتيتهم الفردية وانفصالهم، تمامًا مثلما يدفع الفرد ذو المعيشة الخاطئة والتفكير الخاطئ أعضاء جسده نحو تأكيد ذاتيتها الجزئية على حساب الكائن الحي الكامل، وذلك عن طريق الإفراط في أداء وظائفها أو أدائها بشكل معيب.

قد تكون تأثيرات المعاناة سيئة أو محايدة أو جيدة أخلاقيًّا أو روحيًّا، وذلك بحسب كيفية الصمود أمام المعاناة والاستجابة لها. بمعنى آخر، قد تحث في صاحب المعاناة توقًا واعيًا أو غير واعٍ نحو تعزيز انفصاله؛ أو قد تترك التوق مثلما كان قبل المعاناة، أو قد تخفف من التوق ومن ثم تصبح وسيلة للتقدم صوب التخلي عن الذاتية وحب الرب والمعرفة به. تعتمد إجابة سؤال أي من هذه البدائل الثلاثة سوف يتحقق على اختيار صاحب المعاناة وذلك وفق التحليل الأخير. يبدو هذا صحيحًا حتى على المستوى دون البشري. يبدو أن الحيوانات العليا تذعن للألم والمرض والموت بنوع من القبول الهادئ لما أقرته الطبيعة الإلهية للأشياء في خصوصهم. لكن في حالات أخرى يكون هناك خوف مرعب وصراع ومقاومة مسعورة في مواجهة هذه المقادير. على الأقل تبدو ذات الحيوانات المتجسدة حرة نوعًا ما وهي في مواجهة المعاناة ويمكنها أن تختار بين هجر الذاتية أو تأكيد الذاتية. أما بالنسبة لذوات البشر المتجسدة فلا مجال للتشكيك في حرية الاختيار الخاصة بها. اختيار هجر الذاتية عند المعاناة يجعل من الممكن إدراك النعمة - نعمة على المستوى الروحي، في شكل وصول إلى حب الرب والمعرفة به،

ونعمة على المستويين الذهني والفسيولوجي، في شكل تقليل الخوف والانشغال بالذات، بل تقليل الألم كذلك.

«عندما ندرك حب المعاناة، نفقد قدرة الحواس على الإحساس، لا نستجيب في لا مبالاة، نعيش في تلك الروضة في لا مبالاة».

القديسة كاترين من سيينا.

«من يعاني من أجل الحب لا يعاني، إذ ينسى كل المعاناة».

إكهرت.

«لا وجود للمطهر في هذه الحياة، بل فردوس وجحيم فقط؛ إذ إنها لمَن يتحمل المحن في صبر فردوس، ولمن لا يفعل جحيم».

القديس فيليب نيري.

«كثير من المعاناة هي نتيجة مباشرة للشر الأخلاقي، ومن المستحيل أن يكون لها أي تأثيرات جيد على صاحب المعاناة، طالما لم يجتث أسباب كربه.

«تستجلب كل خطيئة معاناة روحية خاصة. تشبه المعاناة التي من ذلك النوع تلك التي للجحيم، إذ إنه كلما ازدادت معاناتك، أصبحت أسوأ. يحدث هذا للخطائين؛ كلما ازدادت معاناتهم بسبب خطاياهم، ازدادوا خبثًا؛ وسقطوا باستمرار أكثر وأكثر في خطاياهم بغية التحرر من معاناتهم».

اتباع المسيح[1].

---

(١) اتباع المسيح: كتاب من تأليف يوهانس تاولر (١٣٠٠ - ١٣٦١): وهو لاهوتي ومتصوف ألماني.

صيغت فكرة المعاناة بالنيابة كثيرًا للغاية باصطلاحات قانونية وسوقية. ارتكب أ فعلًا مسيئًا، يقر القانون لهذا الفعل عقابًا معينًا؛ ينفذ (ب) العقاب طواعية؛ وهو ما يرضي كرامة العدالة ومشرعي القوانين؛ ويؤدي ذلك إلى أن (أ) قد يمضي حرًّا، أو عوضًا عن ذلك قد يكون الأمر كله عبارة عن ديون وتسديدها. يدين (أ) لـ (ج) بمبلغ من المال، لا يستطيع سداده؛ يقتحم (ب) الموقف ومعه سيولة نقدية ومن ثم يمنع (ج) من الحجز على الممتلكات بصك الدين. هذه المفاهيم ليست مستنيرة ولا مهذبة للنفس وذلك عند الحكم عليها وفق حقائق معاناة الواحد وعلاقاته بالأصل الإلهي. يعزو المعتقد التقليدي للكفارة[١] صفات مخزية للرب، بل مخزية لحكام من البشر، ولا يعتبر نموذج العالم الخاص به نتاج تبصر روحي، يسوغه تفكير فلسفي، لكنه بالأحرى ناجم عن توهمات محامٍ. لكن على الرغم من عدم الدقة المؤسفة في هذه الصياغات، تقوم فكرة المعاناة بالنيابة -المرتبطة بشكل وثيق بفكرة إمكانية نقل الاستحقاق- على حقائق صميمة للخبرة. يمكن للشخص المنكر للذات والممتلئ بالرب أن يصبح بمثابة قناة، يمكن للنعمة أن تمر عبرها إلى الكائن سيئ الحظ الذي جعل نفسه ممانعة أمام ما هو إلهي بسبب الميل المعتاد إلى معززات انفصاله وذاتيته. بسبب هذا، يستطيع القديسون ممارسة سلطانٍ على البشر المحيطين بهم، بل أكثر من ذلك يكون سلطانهم بلا إرغام. يقومون «بنقل الاستحقاق» إلى أولئك الذين هم في حاجة إليه؛ لكن ما يحول ضحايا إرادة الذات إلى الإيمان ويضعهم على طريق التحرر ليس استحقاق القديس الفرد بل

(١) يذهب الاعتقاد في الكفارة إلى أن يسوع المسيح قد افتدى بموته البشر مكفرًا عن خطاياهم.

الشحنة الإلهية التي يحملها، الحقيقة الأزلية التي أصبح معبرها. أما الاستحقاق فيكمن في أنه جعل نفسه قادرًا على الحقيقة الأزلية -كما يقدر الأنبوب على الماء- عن طريق تطهير نفسه. ويسري الأمر نفسه على المعاناة بالنيابة، فليست الآلام الفعلية التي يختبرها القديس هي المكفرة - إذ إن الإيمان بهذا يعني أن الرب غاضب بسبب الخطيئة ولن يُسترضى إلا بعد تقديم مقدارًا معينًا من الألم وهو تجديف ضد الطبيعة الإلهية. لا، بل يأتي الإنقاذ في صورة هبة قادمة مما هو فيما وراء النظام الزمني، يجلبها هؤلاء الأشخاص المنكرون للذات والممتلئون بالرب إلى أولئك المسجونين في الذاتية. هؤلاء الأشخاص المنكرون للذات والممتلئون بالرب جاهزون لقبول المعاناة، من أجل مساعدة رفاقهم. نذر البوداسَف هو وعد بالتخلي عن الثمار الآنية للتنوير والقبول بإعادة الميلاد مرة تلو مرة وما يصاحب ذلك من ألم وموت حتميين، حتى يأتي الوقت الذي تصل فيه الموجودات كلها إلى خلاص كامل ونهائي، وهو الأمر الذي سوف يحدث بفضل أعماله والنعم التي يكون بمثابة القناة لها نتيجة إنكاره للذات.

«رأيت كتلة من مادة لونها قاتم باهت بين الشمال والشرق، وقع في قلبي أن هذه الكتلة هي مخلوقات بشرية، وأنها تعيش في أشد درجات البؤس؛ وهكذا مُزِجت بهم ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، عليَّ ألا أعتبر نفسي مخلوقًا متمايزًا أو منفصلًا».

جون وولمان[1].

(١) جون وولمان (١٧٢٠ - ١٧٧٢): تاجر ومبشر وصحفي.

لماذا على الصالح والبريء أن يتحمل معاناة لا يستحقها؟ بالنسبة إلى شخص يتصور أفراد البشر كما تصور هيوم الأحداث والأشياء، باعتبارها «متفرقة ومنفصلة» لن تكون هناك إجابة مقبولة على السؤال. لكن أفراد البشر ليسوا متفرقين ومنفصلين، والسبب الوحيد وراء اعتقادنا في ذلك هو مصلحتنا الذاتية التي تُؤوَّل على نحو خاطئ. نرغب في «القيام بما نحب بكل العزم»، في أن نحظى «بوقت جيد» وألا تقع على عاتقنا أي مسؤوليات. يترتب على هذا أن تقودنا نقائص اللغة بسهولة نحو فهمٍ خاطئ وأن نعتقد (ليس دائمًا لكن كلما ناسبنا ذلك) أن الأشياء والأشخاص والأحداث متمايزة ومنفصلة تمامًا عن أحدها الآخر مثلما هي الكلمات متمايزة ومنفصلة وفق الوسائل التي نفكر فيها بها. إلا أن الحقيقة بالتأكيد هي أننا جميعًا متصلون عضويًّا بالرب والطبيعة ورفاقنا من البشر. لو كان كل كائن بشري في علاقة سليمة ثابتة وواعية بمحيطاته الإلهية والطبيعية والاجتماعية، فسوف تكون هناك حدود للمعاناة، إذ إن عملية الخلق تجعل من هذه المعاناة أمرًا حتميًّا. لكن أغلب البشر فعليًّا وبصورة مزمنة في علاقة غير سليمة مع الرب والطبيعة وبعض رفاقهم من البشر على الأقل. تتجلى نتائج هذه العلاقات الخاطئة على المستوى الاجتماعي في صورة حروب وثورات واستغلال وفوضى؛ وعلى المستوى الطبيعي في صورة هدر واستهلاك للموارد غير المتجددة؛ وعلى المستوى البيولوجي في صورة أمراض تنكسية وتدهور للمجموعات العرقية؛ وعلى المستوى الأخلاقي في صورة غطرسة صلفة؛ وعلى المستوى الروحي في صورة عماء عن الحقيقة الإلهية وجهل كامل بسبب وجود الإنسان والغرض منه. سوف

يكون من الشاذ ألا يعاني البريء والصالح في ظل هذه الظروف - تمامًا مثلما سوف يكون من الشاذ لو لم تعانِ الكلى البريئة والقلب الصالح بسبب خطايا الحلق الفاسق أو المعدة المتخمة، قد نضيف الخطايا التي تفرضها على الأعضاء إرادة الفرد الشَّرِه صاحب تلك الاعضاء، إذ إنه هو نفسه ينتمي إلى مجتمع بناه أفراد آخرون -من معاصريه وأسلافه- في تجسيد ضخم ومستمر للفوضى، يلحق ذلك المجتمع الأذى بأعضائه ويصيبهم بجهالته وخبثه. يمكن للبشر الصالحين الهروب من المعاناة عن طريق القبول بها وتجاوزها فقط؛ ويمكنهم تحقيق ذلك عن طريق التحول من الصلاح إلى إنكار الذات الكامل والتمركز حول الرب، عن طريق التوقف عن أن يكونوا مجرد فريسيين، أو مواطنين صالحين وأن يصبحوا «كاملين كما أبوكم الذي في السماوات كامل»[١]. الصعوبات في سبيل مثل هذا التبدل الروحي هائلة كما هو واضح. لكن مِن بين هاتين الفئتين مَن الذي «يُعلِّم كمن له سلطان»[٢]، الذي قال إن الطريق للخلاص سهل أم «ما أضيق الباب وأكرب الطريق»[٣]؟

* * *

(١) إنجيل متى ٥ : ٤٨.

(٢) إنجيل متى ٧ : ٢٩ والآية في الأساس كانت عن يسوع المسيح.

(٣) إنجيل متى ٧ : ١٤.. تقول الآيتان ١٣ و١٤ في الأساس: اُدْخُلُوا مِنَ الْبَابِ الضَّيِّقِ؛ لأَنَّهُ وَاسِعٌ الْبَابُ وَرَحْبٌ الطَّرِيقُ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْهَلاَكِ وَكَثِيرُونَ هُمُ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ مِنْهُ مَا أَضْيَقَ الْبَابَ وَأَكْرَبَ الطَّرِيقَ الَّذِي يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ، وَقَلِيلُونَ هُمُ الَّذِينَ يَجِدُونَه!

الفصل الثامن عشر

الإيمان

لكلمة «إيمان» معانٍ عديدة، ومن المهم أن نميز بينها. تُستخدم في بعض السياقات باعتبارها مرادفًا «للثقة»، كأن نقول عندنا إيمان في مهارات دكتور س التشخيصية أو في نزاهة المحامي ص. يماثل هذا «إيماننا» في السلطة - الاعتقاد في أن ما يقوله أشخاص معينون عن أشياء معينة راجح الصحة، بسبب امتلاكهم مؤهلات خاصة تسمح لهم بذلك. يرمز «الإيمان» في ظروف أخرى إلى الاعتقاد في فرضيات لم نحظَ بفرصة التحقق منها بأنفسنا، لكن نعرف أننا نستطيع التحقق منها إذا امتلكنا الرغبة والفرصة والإمكانات الضرورية. وفق هذا المعنى للكلمة، فإن لدينا «إيمانًا» في وجود مخلوق مثل خلد الماء، حتى لو لم نكن قد ذهبنا أبدًا إلى أستراليا؛ لدينا «إيمان» في النظرية الذرية، حتى لو لم نكن قد قمنا بالتجارب التي تقوم عليها النظرية أبدًا، ولم نكن قادرين على فهم الرياضيات التي تستند إليها. وأخيرًا، يوجد «الإيمان»، الذي هو اعتقاد في فرضيات، نعرف أننا لا نستطيع التحقق منها، حتى لو رغبنا

في القيام بذلك - فرضيات على شاكلة العقيدة الأثناسية[١]، أو تلك التي تشكل مذهب الحبل بلا دنس[٢]. يُعرِّف السكولائيون هذا النوع من «الإيمان» باعتباره فعلًا للبصيرة، تنتقل به الإرادة إلى القبول.

يلعب الإيمان وفق المعاني الثلاث الأولى للكلمة دورًا هامًّا للغاية، لا فيما يتعلق بأنشطة الحياة اليومية فقط، لكن فيما يتعلق حتى بالعلوم البحتة والتطبيقية. أنا أؤمن وهكذا يمكنني الفهم **credo ut intelligam**، وعلينا أن نضيف كذلك «هم يفعلون» **ut agam** ونضيف كذلك «لكي يعيشوا» **ut vivam**. الإيمان هو شرط مسبق لكل المعرفة النظامية ولكل الأفعال الهادفة ولكل العيش القويم. تتماسك المجتمعات، لا بسبب خوف الكثرة من القوة القاهرة للقلة في الأساس، لكن بسبب الإيمان واسع الانتشار في حسن أخلاق الآخر. يميل هذا الإيمان إلى خلق غايته، بينما يخلق التخوين المتبادل نتيجة الحروب أو الشقاقات المحلية غاية التخوين. ولو تحولنا عن الصعيد الأخلاقي نحو الصعيد الفكري، نجد أن الإيمان يقبع في جذور التفكير المنظم كله. ما كان للعلم والتقنية أن يوجدا ما لم نؤمن بمصداقية الكون - ما لم نؤمن بصورة واضحة أن كتاب الطبيعة هو بالفعل كتاب وليس مجلة، عمل فني متماسك، وليس مزيجًا من فتات لا صلة بينها وبين إحداها الأخرى، وذلك وفق كلمات

---

(١) العقيدة الأثناسية: هي عقيدة تتعلق بطبيعة الرب في المسيحية، وتذهب إلى أن الرب واحد وثالوث.

(٢) مذهب الحبل بلا دنس: يرى أن مريم العذراء لم ترث الخطيئة الأولى (خطيئة آدم عليه السلام)، وذلك بفضل استحقاق ابنها يسوع المسيح.

كليرك ماكسويل[1]. على الباحث عن الحقيقة أن يضيف نوعين من الإيمان الخاص إلى هذا الإيمان العام في منطقية العالم واستحقاقه للثقة - ألا وهما الثقة في سلطان الخبراء المؤهلين، ما يسمح له بالاعتقاد فيما يقولونه بخصوص أمور، لم يتحقق منها بنفسه؛ والإيمان في فرضياته الخاصة بعمله، ما يدفعه إلى اختبار اعتقاداته المبدئية بوسائل العمل المناسبة. قد يؤدي هذا العمل إلى تأكيد الاعتقاد الذي ألهمه. أو بدلًا من ذلك، قد يبرهن على أن الفرضية الأصلية لا تقوم على أسس سليمة، وفي هذه الحالة يجب تعديلها حتى تصبح متسقة في سلاسة مع الحقائق، ومن ثم تنتقل من عالم الإيمان إلى عالم المعرفة.

أما النوع الرابع من الإيمان فهو ما اعتدنا أن نطلق عليه «الإيمان الديني». وهو استعمال للألفاظ له ما يبرره، ليس بسبب أن الأنواع الأخرى من الإيمان ليست جوهرية في الدين كما هي جوهرية في الأمور الدنيوية، لكن بسبب أنه أُريد له أن يتفق مع فرضيات لا يمكن التحقق منها وهي فرضيات موجودة في الدين وفي الدين فقط، هذا النوع بمثابة إضافة مميزة للإيمان بوصفه ثقة، وهو إيمان في السلطان وإيمان في افتراضات لم يتم التحقق منها لكنها قابلة للتحقق منها. هذا هو نوع الإيمان الذي يبرر ويُخَلِّص بحسب اللاهوتيين المسيحيين. يمكن لمثل هذا المعتقد في صورته المتطرفة والمتصلبة أن يكون خطيرًا جدًّا. على سبيل المثال ها هنا مقتطف من إحدى رسائل لوثر. **Esto peccator, et pecca fortiter; sed fortius crede et gaude in Christo, qui**

---

(١) جيمس كليرك ماكسويل (١٨٣١ - ١٨٧٩): عالم فيزياء أسكتلندي شهير، وصاحب إحدى أهم النظريات حول الكهرومغناطيسية.

victor est peccati, mortis et mundi. Peccandum est quam diu sic sumus; vita haec non est habitatio justitiae. («كن آثمًا، وارتكب الآثام بشدة؛ لكن رغم ذلك آمن بشدة أكبر في المسيح وابتهج فيه، هو قاهر الإثم والموت والدنيا. طالما نحن على ما نحن عليه، يجب أن يوجد الإثم ؛ فهذه الحياة ليست مكان سكنى الصلاح»).

علينا إضافة خطر آخر إلى هذا الخطر المتعلق بالإيمان في معتقد التبرير، والذي من المحتمل أن يكون الإيمان فيه بمثابة عذر لارتكاب الخطايا بل داعيًا له. يكمن هذا الخطر في أن الإيمان الذي من المفترض أن يُخلِّص قد يكون إيمانًا في فرضيات ليست غير قابلة للتحقق منها فقط، لكنها، بغيضة بالنسبة إلى العقل والحس الأخلاقي، وتتعارض تمامًا مع ما تكشف لأولئك الذين وفُّوا بشروط التبصر الروحاني في طبيعة الأشياء. يقول لوثر في كتابه «عبودية الإرادة» **De Servo Arbitrio**: «ذروة الإيمان أن تؤمن في أن الرب الذي يُخلِّص القلة القليلة جدًّا ويدين الكثرة الكثيرة جدًّا رحيم؛ أنه هو مَن جعلنا بالضرورة محكومًا علينا باللعن من أجل مرضاته، ومن ثم يبدو كأنه يجد في عذاب البائسين بهجة وأنه يستحق الكراهية، لا الحب. لو كان لي أن أتصور -بعد بذل جهد عقلي مهما كان- الكيفية التي يكون بها الرب الذي يظهر الغضب والقسوة كثيرًا جدًّا رحيمًا وعادلًا، فما من حاجة إلى الإيمان». (الوحي الحقيقي هو ببساطة تسجيل للخبرة المباشرة الخاصة بأولئك الأنقياء في القلب والفقراء إلى الروح بالدرجة الكافية التي تسمح لهم برؤية الرب).

لا يقول الوحي شيئًا على الإطلاق عن تلك المعتقدات الشنيعة، التي تسعى الإرادة إلى إجبار التفكير الطبيعي تمامًا والنافر بحق على القبول

بها. لا تصدر مثل هذه المفاهيم عن تبصر القديسين بل عن التوهم النشط للفقهاء، البعيدين للغاية عن إنكار الذات المتسامي، كما تصدر عن انحيازات المعرفة، إذ إن لدى أولئك الفقهاء من الحماقة والغرور ما يجعلهم يُؤولون الكون وفق القانون اليهودي والروماني، الذي يألفونه. يقول المسيح: «ويلٌ لكم أيها الناموسيون»[1]. الاتهام اتهام نبوي ويسري على طول الزمن.

نواة الديانات المبجلة كلها والقلب الروحي لها الفلسفة الخالدة؛ من الممكن القبول بالفلسفة الخالدة والتصرف وفق تعاليمها من دون اللجوء إلى ذلك النوع من الإيمان الذي كتب عنه لوثر في المقطع السابق. من اللازم بالطبع أن يكون هناك إيمان بوصفه ثقة - إذ إن التصديق في رفاق المرء هو بداية الإحسان نحو البشر، أما بداية الإحسان في العلاقة بالرب أو معرفة الحب في العلاقة به ففي التصديق لا في المادة فقط، بل في الموثوقية الأخلاقية والروحية للكون. يجب أن يكون هناك إيمان في السلطان كذلك - سلطان أولئك الذين أهلهم إنكارهم للذات إلى معرفة الأصل الروحي لكل المخلوقات عن طريق الاطلاع المباشر وكذلك عن طريق النقل. وأخيرًا يجب أن يكون هناك إيمان في مثل تلك الافتراضات عن الحقيقة كما يعلن عنها الفلاسفة في ضوء الوحي الحقيقي - وهي افتراضات يعرف المؤمن بها أنه يستطيع التحقق منها بنفسه، إذا كان جاهزًا لاستيفاء الشروط اللازمة لذلك. لكن طالما كانت الفلسفة الخالدة مقبولة في بساطتها الجوهرية، فلا حاجة إلى العناد

(١) إنجيل لوقا ١١ : ٥٢.

وقبول افتراضات معروف بصورة مسبقة أنه من غير الممكن التحقق منها. من الضروري أن نضيف هنا أن مثل هذه الافتراضات التي لا يمكن التحقق منها قد يصبح من الممكن التحقق منها وذلك بقدر تأثير الإيمان الشديد على القوام النفساني وهو ما يؤدي به إلى أن يخلق وجودًا، موضوعيته المستقاة قد تُسكتشف فعليًّا «بالخارج هناك». مع ذلك فلنتذكر أن الوجود الذي يستقي موضوعيته من النشاط الذهني لأولئك الذين يؤمنون بشدة فيه، يستحيل أن يكون الأصل الروحي للعالم، وأن العقل المنخرط بفعالية في النشاط الإرادي والفكري -الذي هو «الإيمان الديني»- يستحيل أن يكون في حالة من إنكار الذات والسلبية المنتبهة، التي هي الشرط الجوهري للمعرفة الاتحادية بالرب. ذلك هو السبب وراء تأكيد البوذيين على أن «حب الإيمان يؤدي إلى الفردوس؛ لكن طاعة الدارما يؤدي إلى النيرفانا». الإيمان في وجود أي كيان خارق للطبيعة وفي قدرته وإن لم يَرْقَ إلى الحقيقة الروحية النهائية، وكذلك الإيمان في أي شكل من أشكال العبادة التي لم تبلغ إفناء الذات، سوف يؤدي بالتأكيد -إذا كان موضوع الإيمان خَيِّرًا- إلى تعديل السلوك وربما إلى بقاء بعد الموت للشخصية المعدلة في محيط فردوسي. لكن هذا البقاء الشخصي داخل ما لا يزال النظام الزمني ليس الحياة الأبدية للاتحاد الخالد بالروح. هذه الحياة الأبدية «تقع في المعرفة» بالربوبية، لا في الإيمان بأي شيء أقل من الربوبية.

«الخلود الذي يحصل عليه أحدهم عن طريق اكتساب أي حال مادي عرضة للانتهاء (على سبيل المثال الحال الموهوب نتيجة الانغماس في فعل موجه نحو المعبود - وهو الحال المستحق نتيجة القيام بأعمالٍ

خيِّرة، مستلهمة من حب ذلك الذي هو أقل من الربوبية الأسمى والإيمان به)؛ إذ أشارت النصوص المقدسة بوضوح إلى أن الكارما ليست هي سبب التحرر أبدًا».

شانكارا.

الكارما هي التسلسل السببي في الزمن، والتي من الممكن الخلاص منها فقط عن طريق «إفناء» الذات الزمنية والتحول إلى الاتحاد بالأزل، الذي هو فيما وراء الزمن والسبب. (وبحسب كلمات اللاهوتي والفيلسوف البارز د. فردريك روبرت تينانت) «بالنسبة إلى مفهوم السبب الأول أو **Causa Sui**، علينا أن نأخذ بعين الاعتبار من ناحية أننا نقع في مغالطة عندما نحاول التأسيس له عن طريق التوسع في تطبيق التسلسل السببي، إذ إن السببية متناقضة ذاتيًّا عند تعميمها؛ ومن ناحية أخرى علينا تذكر أن الأصل النهائي «كائنٌ» ببساطة». فقط عندما يصبح الفرد «كائنًا ببساطة»، عن طريق اتحاده بالأصل من خلال معرفة الحب، فما من شك في التحرر الكامل والأبدي.



❋ ❋ ❋

الفصل التاسع عشر

الرب لا يُخدع

لماذا قلت: «لقد أذنبت كثيرًا،

والله برحمته لم يعاقبني على ذنوبي»؟

كم مرة ضربتك ولم تعرف!

أنت مقيد بأغلالي من رأسك إلى أخمص قدمك.

على قلبك صدأ فوق صدأ،

ولذلك عميت عن أسرار الله.

عندما يكون الإنسان عنيدًا ويتبع خطوات الشيطان،

يُلقى بالغبار في أعين بصيرته.

ويروح عنه الندم والتضرع؛

ويستقر على مرآته غبار بسماكة خمس طبقات،

تبدأ بقع الصدأ في نخر حديده،

ويخبو لون جوهره قليلًا قليلًا.

جلال الدين الرومي.

لو أن هناك حرية (وحتى المؤمنون بالحتمية يتصرفون دائمًا كما لو أنهم في يقين منها) ولو أن هناك حقيقة روحية (كل من أهَّل نفسه للحديث عن الموضوع كان على اقتناع بها)، وكانت تلك الحقيقة هي الغاية النهائية وكان غرض الوعي أن يعرفها؛ إذَنْ فالحياة كلها بمثابة اختبار للنباهة، وكلما ارتفع مستوى انتباه المخلوق وارتفعت إمكاناته، كلما أصبحت الأسئلة المطروحة أصعب وتحتاج إلى تمعن. وكما قال باجوت[1]: «لا نستطيع أن نصبح على الصورة التي ينبغي أن نكون عليها، إذا عشنا في الكون الذي كنا لنتوقعه... لا تعد العناية الإلهية المستترة والحياة المضطربة والعالم المادي الملغز والوجود الذي يبتر فجأةً في منتصف الطريق صعوبات فعلية، لكنها مساعدات حقيقية؛ لأنها والأشياء المشابهة لها شروط ضرورية للحياة الأخلاقية في وجودٍ أدنى. ولأننا أحرار، من الممكن لنا أن نجيب عن أسئلة الحياة، سواء جاءت الإجابات جيدة أو سيئة. لو جاءت إجاباتنا سيئة فسوف نجلب على أنفسنا تجهيل الذات. يتخذ تجهيل الذات هذا في الغالب صورًا غير واضحة ولا يمكن ملاحظتها في الحال، مثلما يحدث عندما يتسبب فشلنا في الإجابة بشكل سليم في أن يصبح من المستحيل علينا إدراك الإمكانات الأعلى لوجودنا، إلا أن العكس قد يحدث أحيانًا، إذ قد يتجلى تجهيل الذات على المستوى المادي، وقد لا يتضمن الأفراد فقط كأفراد، بل المجتمعات بأكملها، والتي قد تنخسف في كارثة أو تغرق ببطء في الاضمحلال. أما إعطاء الإجابات الصحيحة فيُكافأ أولًا بالنمو الروحي

---

(١) والتر باجوت (١٨٢٦ - ١٨٧٧): صحفي ورجل أعمال وكاتب مقالات بريطاني، غزير الإنتاج.

والإدراك التدريجي للإمكانات الكامنة، وثانيًا (عندما تسمح الأحوال) بإضافة كل الباقي إلى مملكة الرب المدركة. الكارما موجودة، لكن ما يناظرها في الفعل والمكافأة ليس واضحًا وماديًا دائمًا، وهو الأمر الذي تصوره الكتاب البوذيون واليهود في براعة، إذ ذهبوا إلى أن الأمر لا بد أن يكون على هذا الحال. الرجل الخبيث المُنَعَّم قد يكفهر ويبلى ويصدأ من الداخل -دون أدنى معرفة من قِبَله- بينما الرجل الصالح المبتلى قد يكون في خضم مكافأته بالنمو الروحي. لا، الرب لا يُخدع. لكن دعنا نتذكر دائمًا أنه غير مفهوم أيضًا.

Però nella giustizia sempiterna

,la vista che riceve vostro mondo

com'occhio per lo mar, dentro s'interna,

chè, benchè dalla proda veggia il fondo,

in pelago nol vede, e non di meno

è li, ma cela lui l'esser profondo

(وعلى هذا، فإن النظر الذي يتلقاه عالمكم، يتغلغل في العدالة الأبدية تغلغل العين في مياه البحر؛ وهو إن كان يرى القاع عند الشاطئ، فإنه لا يراه في عرض البحر، وعلى رغم ذلك فالقاع موجود، ولكنه مُختفٍ في الأعماق)[١].

(١) الأبيات مقتبسة من الكوميديا الإلهية، الجزء الخاص بالفردوس، المقطع التاسع عشر، والترجمة لدكتور حسن عثمان.

الحب هو مطمار[1] وكذلك إسطرلاب[2] الأسرار الربانية، يستطيع نقي القلب والسريرة أن يرى بعيدًا في أعماق العدل الإلهي، كي يقبض على لمحة، لا على تفاصيل العملية الكونية بالطبع، لكن على مبدئها وطبيعتها على الأقل. تسمح له هذه التبصرات أن يقول -مع جوليانا من نورويتش[3]- إن كل شيء سوف يكون جيدًا، فبصرف النظر عن الزمن كل شيء جيد، ولمشكلة الشر حلها في الأبدية، يستطيع البشر اختبار ذلك -إذا رغبوا- لكنهم لا يستطيعون وصف تلك الخبرة أبدًا.

«لكنك تذهب إلى أن البشر لو أذنبوا بسبب جوهر طبيعتهم، فإنهم معذورون؛ إلا أنك لا تشرح ما الذي تستدل عليه من هذه الحقيقة. هل من المحتمل أن يمنع ذلك الرب من الغضب منهم؟ أو عوضًا عن ذلك هل يستحقون البركة الكامنة في معرفة الرب وحبه؟ إذا كنت تقصد الأمر الأول، فأنا أتفق معك تمامًا فالله لا يغضب وكل شيء يحدث بقضائه وأمره. لكنني أنكر -لهذا السبب- أن البشر جميعهم سوف يكونون سعداء. بالتأكيد قد يكون البشر معذورين ومع ذلك يضيعون السعادة ويُعذَّبون بطرق عديدة. الحصان معذور بالنسبة لكونه حصانًا وليس إنسانًا؛ لكن مع ذلك يجب أن يتصرف باعتباره حصانًا، لا إنسانًا. المرء الذي يجن من عضة كلب معذور؛ لكن لا يزال من الصحيح أنه سوف يموت من الاختناق. وكذلك بالمثل مَن لا يستطيع التحكم في رغباته،

---

(١) أداة عبارة عن خيط يتصل بثقل لتحديد عمودية الأشياء مثل ذلك المستخدم للبناء.

(٢) أداة فلكية.

(٣) جوليانا من نورويتش (١٣٤٢ - ١٤١٦): متصوفة شهيرة من مدينة نورويتش بالمملكة المتحدة.

أو أن يسيطر عليها بدافع احترام القانون، قد يكون معذورًا بسبب ضعفه، لكنه في الوقت ذاته لا يقدر على الاستمتاع بالانسجام مع الروح ومعرفة الرب ومحبته؛ وهو ضائع لا محالة».

سبينوزا.

يختلف البشر بشدة أحدهم عن الآخر على كافة الأصعدة، في الصفات الجسدية والطباع وكذلك في القدرات الفطرية والصلاح الغريزي، فلماذا؟ من أجل أي غاية ولأي أسباب في الماضي؟ «يا معلم من أخطأ: هذا أم أبواه؟ حتى وُلِد أعمى»[1]. أجاب يسوع: «لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه»[2]. على العكس من ذلك، سوف يقول رجل العلم إن المسؤولية تقع على عاتق والديه، اللذين تسببا في عمى ابنهما إما عن طريق امتلاكهما لنوع الجينات الخاطئ أو عن طريق الإصابة بمرض ما، تمكن الوقاية منه. أما الهندوسيون والبوذيون المؤمنون بإعادة التجسد (التناسخ) وفق قوانين الكارما (القدر الذي يفرضه الأفراد وجماعات الأفراد على أنفسهم وعلى أحدهم الآخر وعلى نسلهم عن طريق أفعالهم) فسوف يجيبون بإجابة أخرى، ويقولون: بسبب ما فعله في حيوات سابقة، فقد قدَّر الرجل الأعمى من قبل أي نوع من الآباء عليه أن يختار، كي يرث منهما العمى.

لا تتعارض هذه الإجابات الثلاث مع إحداها الأخرى. الوالدان مسؤولان عن جعل ابنهما ما أصبح عليه عن طريق الوراثة والتنشئة.

---

(١) إنجيل يوحنا ٩ : ٢.

(٢) إنجيل يوحنا ٩ : ٣.

كانت النفس أو الخصائص المتجسدة في الطفل على هذه الطبيعة، بسبب سلوكيات الماضي، ما جعلها مجبرة على اختيار هذين الأبوين على وجه التحديد. ويشترك مع الأسباب المادية والفعالة سبب أخير، ألا وهو السحب الغائي من الأمام. هذا السحب الغائي هو جذب من قِبَل الأصل الإلهي للأشياء، يعمل على ذلك الجزء من الآن الأبدي، والذي ينظر إليه العقل المحدود باعتباره مستقبلًا. يذنب البشر ويذنب آباؤهم وأمهاتهم؛ لكن من اللازم أن تظهر أعمال الله في كل المخلوقات التي تحس (سواء كان ذلك بطرق استثنائية، كما هو الحال مع الشفاء الخارق للطبيعة، أو عن طريق المسار العادي للأحداث) - يجب أن تظهر أعمال الله مرارًا وتكرارًا -مع كل الصبر اللانهائي للأبدية- حتى يجعل المخلوق من نفسه أخيرًا مناسبًا لتجلٍّ كامل وتام للمعرفة الاتحادية، مناسبا لحال، «لست أنا، بل الله فيَّ».

الكارما بحسب الهندوس: «لا تبدد الجهل أبدًا، إذ إنها ضمن الفئة نفسها معه. تبدد المعرفة وحدها الجهل، مثلما يبدد الضوء وحده الظلام، ولا شيء غيره».

بمعنى آخر، تحدث العملية السببية داخل الزمن ومن غير الممكن أن تؤدي إلى الخلاص من الزمن. يمكن تحقيق مثل هذا الخلاص فقط نتيجة لتدخل الأزل في النطاق الزمني؛ ولا يمكن للأزل أن يتدخل ما لم يقم الفرد بفعل خلاق لإنكار الذات، وهو ما يؤدي إلى تكوين فراغ يمكن للأزل أن يتدفق منه. يشبه افتراض أن العملية السببية في الزمن يمكنها من نفسها أن تَخلُص من الزمن، افتراض أن الماء سوف يصعد إلى مكان لم يُفرَّغ الهواء منه مسبقًا.

«ليست العلاقة السليمة بين الصلاة والسلوك أن السلوك فائق الأهمية والصلاة قد تساعده، لكن أن الصلاة فائقة الأهمية والسلوك يختبرها».

المطران تيمبل[1].

هدف وغرض حياة الإنسان المعرفة الاتحادية بالرب. من بين الوسائل التي لا غنى عنها من أجل تحقيق تلك الغاية السلوك القويم، ويمكن تقدير درجة المعرفة التحريرية وتقييم خصائصها عن طريق درجة ونوع الفضيلة التي أحرزها الفرد. باختصار، تُعرف الشجرة من ثمارها؛ الرب لا يُخدع.

ليست المعتقدات والممارسات الدينية وحدها العوامل الوحيدة المحددة لسلوك مجتمع ما. لكنها بالتأكيد من بين العوامل الهامة المحددة. يعتبر السلوك الجمعي لأمة ما اختبارًا لهيمنة الدين بداخلها بدرجة ما على الأقل، يعتبر خاصية يمكننا من خلالها الحكم بحق على صلاحية مذاهب ذلك الدين وكفاءته العملية فيما يخص مساعدته للأفراد على التقدم نحو هدف الوجود البشري.

اضطهدت أمم العالم المسيحي في الماضي باسم إيمانها، خاضت حروبًا دينية واضطلعت بحملات صليبية ضد الكفار والمهرطقين؛ أما اليوم فقد توقفوا عن أن يكونوا مسيحيين من أي جانب باستثناء الاسم، والدين الوحيد الذي يعترفون به هو أحد صنوف الوثنية المحلية، مثل القومية وتبجيل الدولة وتبجيل الرئيس والثورية. ما الاستدلال الذي يمكننا الحصول عليه عن طبيعة هذه الشجرة، استنادًا إلى فحص ما

---

(١) ويليام تيمبل (١٨٨١ - ١٩٤٤): قس إنجليزي.

أثمرته المسيحية التقليدية من ثمار، ذكرنا بعضها؟ لقد طُرحت الإجابة بالفعل في فصل «الزمن والأزل». لو اعتاد المسيحيون الاضطهاد ولم يعودوا مسيحيين الآن، فالسبب راجع إلى أن المعتقدات الخاطئة قد غشيت الفلسفة الخالدة المضمنة في دينهم، وهو ما قادهم لا محالة إلى الأفعال الخاطئة؛ لأن الرب لا يُخدع أبدًا. هناك عنصر واحد مشترك بين هذه المعتقدات الخاطئة - ألا وهو، الإعلاء من قدر الأحداث في الزمن والتقليل من قدر حقيقة الأزل الأبدية الخالدة. على ذلك، فالاعتقاد في أهمية فائقة للأحداث الزمنية البعيدة من أجل الخلاص يؤدي إلى نزاعات دموية حول تأويل المحفوظات غير الوافية كثيرًا والمتناقضة في الغالب. نمت التنظيمات الكنسية السياسية المالية عقب سقوط الإمبراطورية الرومانية، ولا يضيف الاعتقاد في قداسة تلك التنظيمات -بل في ألوهيتها الفعلية- مرارة فقط إلى الصراعات البشرية تمامًا من أجل الهيمنة، بل عملت على تسويغ وتبرير أسوأ تجاوزات أولئك الذين يقاتلون من أجل المكانة والثروة والسلطة داخل الكنيسة ومن خلالها. لكن هذه ليست هي القصة بأكملها. قاد نفس الإعلاء من قدر الأحداث في الزمن -الذي تسبب من قبل في جعل المسيحيين يضطهدون ويقاتلون في حروب دينية- في النهاية إلى لا مبالاة واسعة النطاق تجاه دين، لا يزال -رغم كل شيء- مسكونًا في جزء منه بالأزل. لكن الطبيعة تنفر من الفراغ، لذا تدفق عبر الخواء المنفغر لهذه اللا مبالاة مد الوثنية السياسية. وكانت التبعات العملية لمثل هذه الوثنية الحروب الشاملة والثورات والطغيان - كما نرى الآن.

في الوقت نفسه نجد على الجانب الدائن من حساب الميزانية بنودًا على شاكلة ما يلي: زيادة ضخمة في الكفاءة التقنية والحكومية وزيادة ضخمة في المعرفة العلمية - وكلاهما نتيجة التحول العام لانتباه الإنسان الغربي مبتعدًا عما هو أزلي ومتجها نحو الترتيب الزمني داخل محيط المسيحية في البداية، ثم خارجها لا محالة.

* * *

الفصل العشرون

كان الدين قادرًا على دفع الرجال إلى قمم الشر تلك[1]

TANTUM RELIGIO POTUIT SUADERE MALORUM

«هل تعلم متى ظهرت الأرواح الزائفة الكثيرة للغاية في العالم؟ تلك التي خدعت نفسها والآخرين بالنار الزائفة والضوء الزائف، تدَّعي امتلاك المعرفة والتنوير والمنافذ المؤدية إلى الحياة الربانية، كما تدَّعي بشكل خاص فعل العجائب بناء على نداءات فوق العادة من الرب؟ هذه هي الإجابة: لقد تحولوا نحو الرب من دون التحول عن أنفسهم، يريدون الحياة مع الرب قبل أن يُفنوا طبيعتهم الخاصة. عندئذ يعمل الدين الذي تتحكم فيه الذات أو الطبيعة الفاسدة على استجلاء الرذائل فقط، وهي رذائل من نوع أسوأ مما يقع في الطبيعة تلقائيًا. ومن هنا جاءت كل أهواء رجال الدين المخلة بالنظام، وهي الأهواء التي تشعل لهبًا أسوأ من ذلك الذي تشعله الأهواء التي تدور حول أمور دنيوية فقط؛ سوف

---

(١) اقتباس من لوكريتيوس (٩٩ ق. م. - ٥٥ ق. م.): فيلسوف وشاعر روماني.

يضفي استتار الكبر وتجهيل الذات والكراهية والاضطهاد تحت عباءة الحمية الدينية قداسة على أفعال، كانت لتسبب الخزي لفاعلها، لو تركت لحالها».

ويليام لو.

«لقد تحولوا نحو الرب من دون التحول عن أنفسهم» - المعادلة بسيطة بشكل مذهل، ورغم بساطتها إلا أنها تفسر كل الحماقات والمظالم المرتكبة باسم الدين. ينجذب أولئك الذين يتحولون إلى الرب من دون التحول عن أنفسهم إلى الشر عبر سبل عديدة مميزة ويسهل التعرف عليها. ينجذبون في المقام الأول إلى ممارسة شعائر سحرية عبر وسائل يأملون في أن تدفع الرب إلى إجابة توسلاتهم، وذلك في العموم من أجل خدمة غاياتهم الخاصة أو الجمعية. كل أعمال الفداء والتجسد وما قال بشأنه يسوع «لا تكرروا الكلام باطلًا» هو نتاج تلك الرغبة في التعامل مع الرب باعتباره وسيلة لتعظيم الذات بصورة لا حدود لها، بدلًا من أن يكون غاية يجب الوصول إليها من خلال إنكار الذات الكامل. وبعد ذلك، ينجذبون إلى استخدام اسم الرب من أجل تبرير ما يقترفونه في سعيهم نحو المكانة والسلطة والثروة. وبسبب تصديقهم لأنفسهم وبسبب حيازتهم لمبررات لأفعالهم، يواصلون ارتكاب الأفعال المقيتة بضمائر مستريحة، تلك الأفعال التي «كانت لتسبب الخزي لفاعلها، لو تركت لحالها». عبر التاريخ المسجل ارتكب المثاليون الطامحون كمية لا تصدق من الأذى بعد أن انخدعوا ذاتيًّا بكلامهم المسهب وشهوتهم للسلطة واقتنعوا أنهم يعملون من أجل الخير الأسمى لرفاقهم. كان تبرير مثل هذه الآثام في الماضي هو «الرب» أو «الكنيسة» أو «الإيمان

الصحيح»؛ أما اليوم يقتل المثاليون ويعذبون ويستغلون باسم «الثورة» أو «النظام الجديد» أو «عالم الرجل العادي (رجل الشارع)» أو ببساطة «المستقبل». أخيرًا، هناك الفتن التي تظهر عندما يبدأ رجل التدين الزائف في اكتساب القوى التي جاءته كثمرة ممارساته الورعة والسحرية. ليكن معلومًا أن الفداء والتجسد وتكرار الكلام باطلًا لا يطرح ثمارًا فعليًا، خاصة عندما تمارس دون اتصال بزهد مادي. الرجال الذين تحولوا نحو الرب من دون التحول عن أنفسهم لا يبلغون الرب بالتأكيد؛ لكنهم لو كرسوا أنفسهم للدين الزائف في اجتهاد كافٍ، فسوف يجنون نتائج. ما من شك في أن بعض هذه النتائج سوف يكون بفعل الإيحاء الذاتي. (وصل كيو[1] بمرضاه إلى علاج أنفسهم من أمراضهم عن طريق «تكرار الكلام باطلًا»). ومن الواضح أن البعض الآخر يرجع إلى شيء ما في الوسط النفساني وليس نحن - ذلك الشيء الذي قد لا يقصد بالضرورة إلى الصلاح لكنه يقصد دائمًا إلى القوة. سواء كان هذا الشيء جزءًا من موضوعية غير مباشرة، أُسقطت على الوسط بواسطة العابد الفرد ورفاقه وأسلافه؛ أو كانت جزءًا من موضوعية مباشرة، مقابلة على المستوى النفساني لمعطيات العالم المادي؛ أو كانت مزيجًا من هذين الأمرين، فمن المستحيل أن نحدد. كل ما نحتاج إلى أن نقوله في هذا الموضع إن الذين يتحولون نحو الرب من دون أن يتحولوا عن أنفسهم، يبدون

---

(١) إميل كيو (١٨٥٧ - ١٩٢٦): عالم نفسي وصيدلي فرنسي، يقوم نهجه على دفع مرضاه إلى أن يكرروا كل يوم صباحا ومساء عشرين مرة عبارة (كل يوم أصبح أفضل وأفضل من النواحي جميعها)، وقد لاحظ أن هذا قد يفيدهم بالفعل حتى قال: «لم أعالج أحدًا أبدًا في حياتي، كل ما أفعله أن أبين للناس كيف يعالجون أنفسهم».

كأنهم يكتسبون ملكة تجعل تضرعهم وتوسلهم مستجابًا ويطورون أحيانًا قدرات ملحوظة خارقة للطبيعة، مثل الشفاء النفساني والإدراك المجاوز للحس. لكن قد يسأل البعض: هل القدرة على جعل التضرع والتوسل مستجابًا وفق ما يريده المرء هو أمر جيد بالضرورة؟ وإلى أي مدى من النافع روحيًا امتلاك مثل هذه القوى «الإعجازية»؟ لقد اهتممنا بأمر هذين السؤالين في الفصل الخاص «بالتضرع»، وسوف نعود إلى مناقشتهما في الفصل الخاص «بالمعجزات».

«اقترب العراف العظيم في ثوبه الاحتفالي من المذبح وتوجه بالحديث إلى الخنازير: «كيف تسنى لكم الاعتراض على الموت؟ سوف أسمَّنكم لثلاثة شهور. سوف أهذب من نفسي لعشرة أيام وأصوم لثلاثة. سوف أنثر أعشابًا خضراء نضرة على طبق أضاحيَّ منقوش وأضعكم فوقه. ألا يرضيكم هذا؟

«ثم واصل متحدثًا من منظور الخنازير: «ربما لا يزال الأفضل في النهاية العيش على النخالة والهرب من المذبح».

«لكنه أضاف بعد ذلك متحدثًا من منظوره الخاص: «كي ينال الواحد التشريف حيًّا، عليه الموت طوعًا قرير العين في دروع الحرب أو في قفص جلاد».

«على ذلك فقد رفض منظور الخنازير وتبنى وجهة نظره هو. إذَنْ، فمن أي جهة كان مختلفًا عن الخنازير؟».

جوانغ زي.

كل مَن يضحي بأي شيء باستثناء شخصه هو أو رغباته هو على

ذات قدر خنازير جوانغ زي تمامًا. تبحث هذه الخنازير عن مصلحتها الخاصة طالما كانت تفضل الحياة والنخالة عن التشريف والمذبح؛ أما المضحون فيبحثون عن مصالحهم الخاصة طالما كانوا يفضلون موت الخنازير السحري والملزم للرب عن موت نزعاتهم وإرادات ذواتهم. وما ينطبق على الأضحية ينطبق على التجسد والشعائر والتكرار باطلًا عندما تستعمل باعتبارها نوعًا من أنواع السحر القهري. للشعائر والتكرارات مكانها المشروع في الدين، فهي بمثابة عوامل مساعدة للاستغراق في التأمل وكمذكرات بالحقيقة التي قد تُنسى لحظيًّا في خضم اضطراب المشتتات الدنيوية. أما عندما ينطق بها أو تستعمل باعتبارها نوعًا من أنواع السحر فإنها إما تستخدم استخدامًا عبثيًّا وإما قد يكون لها نتائج محفزة للأنا (وهو الأمر الأسوأ)، وبالطبع لا تسهم هذه النتائج بأي حال في بلوغ الإنسان لغايته الخاتمة.

«تتنوع أردية إيزيس لكي تمثل الكون؛ ذلك الذي لأوزوريس أبيض، يرمز إلى النور الجلي فيما وراء الكون».

بلوتارخ[١].

طالما بقي الرمز في عقل العابد مرتبطًا بما يرمز إليه بصورة صارمة ويستخدم باعتباره أداة تفضي إلى ما يرمز إليه، فإن استخدام أمورٍ على شاكلة الأبيض والأردية المتنوعة لا يمكن أن يضر. لكن لو تهلهل ارتباط الرمز -كما يحدث- وأصبح غاية في حد ذاته، تحول في أفضل الأحوال إلى حركة جمالية وعاطفية غير ذات جدوى، وفي

(١) بلوتارخ (٤٦ - ١١٩): فيلسوف ومؤرخ يوناني.

أسوأ الأحوال إلى شكل من أشكال السحر النفساني.

«يجب أن يفضي كل ما هو بالخارج إلى الحب؛ لأنه موجود من أجل الحب وليس الحب هو الموجود من أجله».

هانز دنك.

«ليست الطقوس خطيئة في حد ذاتها؛ لكن من يفترض أنه قد يبلغ الحياة سواء عن طريق المعمودية أو عن طريق تناول الخبز[1] لا يزال قابعًا في الخرافة».

هانز دنك.

«إذا كان تعاملك مع حَرفية الكلمة دائمًا بأن تتشدق بها وتلوكها، فما الشيء العظيم الذي تقوم به؟ لا معجزات في ذلك، أنت معدم».

جون إفرارد.

عندما كان القانون الصحيح لا يزال سائدًا، كان هناك عدد لا يحصى من المؤمنين الذين سبروا أغوار الدارما من خلال الاستماع إلى نصف مقطع من تعاليم بوذا أو حتى عبارة واحدة فقط. لكن عندما بلغنا عصر التقليد والمحاكاة والأيام الأخيرة للبوذية أصبحنا بالفعل بعيدين جدًّا عن الحكمة.

يجد الناس أنفسهم غارقين في بحر من الرسائل والكلمات؛ لا يعرفون كيف يبلغون الجوهر الواحد الذي هو وحده الحقيقة. هذا هو ما تسبب في ظهور الآباء (آباء بوذية الزن) الذين أشاروا مباشرة نحو العقل

---

(١) يقصد الطقس الخاص بسر التناول، وهو أحد أسرار الكنيسة، وفيه يتناول الشخص قطعة خبز رقيقة ترمز إلى جسد المسيح، وأحيانًا تُغمس في الخمر الذي يرمز إلى دمه.

البشري، وأخبرونا أن نرى هنا الأصل المطلق لكل الأشياء، وبذلك نبلغ البوذوية. يُعرف هذا باعتباره انتقالًا خاصًا إلى خارج تعاليم النصوص المقدسة. لو وُهِب أحدهم قدرات سامية أو حدة خاصة في العقل، فإن إيماءة أو كلمة سوف تكفي لكي تمنح الواحد معرفة مباشرة بالحقيقة. ولذلك تعامل يون من[١] مع البوذية (التاريخية) بأقصى درجات الاستهتار، ومنع أوكوياما[٢] تابعيه من قراءة نصوص السوترا.

«أُطلق على هذا الفرع من البوذية -الذي يحافظ على نفسه بعيدًا عن بوذا- اسم الزن. يطلق عليه كذلك الفرع الصوفي؛ لأنه لا يلتزم بالمعنى الحرفي لنصوص السوترا. وهذا هو السبب وراء أن أولئك الذين يتبعون خطوات بوذا دون تبصر من المؤكد أن يستهزئوا بالزن، بينما أولئك الذين لا تروق لهم الحَرفية يميلون طبيعيًا إلى المقاربة الصوفية. يجيد تابعو المدرستين هز الرؤوس استنكارًا في وجه بعضهم، لكنهم يفشلون في إدراك أنهم في النهاية يكملون بعضهم. أليست الزن واحدة من فضائل الكمال الست؟ إذا كانت كذلك، فأنى لها أن تتعارض مع تعاليم بوذا؟ في ظني، أن الزن هي نتاج تعاليم بوذا، وأن الأمور الصوفية تأتي من النصوص. ما من سبب هناك يبرر تحاشي أحدهم للزن بدعوى تعاليم بوذا؛ ولا حاجة بنا إلى الاستخفاف بالنصوص بسبب التعاليم الصوفية للزن... يخاطر دارسو البوذية النصوصية بأن يصبحوا متمسكين بشكليات النصوص المقدسة، ما يعني فعليًا أنهم فشلوا في الفهم. لا يمكن لمثل هؤلاء الرجال أن يقبضوا على الحقيقة المطلقة

---

(١) يون من وين يان (٨٦٢ - ٩٤٩): أحد معلمي بوذية الزن.

(٢) واي أوكوياما وي (٧٤٥ - ٨٢٧): أحد معلمي بوذية الزن.

أبدًا، وبالنسبة لهم تعني الزن الخلاص. بينما أولئك الذين يدرسون الزن عرضة للخوض في نقاشات فارغة واعتياد ممارسة السفسطة. يفشلون في فهم دلالة النصوص. ومن الأفضل لهم أن يدرسوا نصوص البوذية من أجل خلاصهم. عندما يُصحَّح هذين المنظوران الأحاديان ويتبادلان المفاهيم فيما بينهما، تصبح مقاربة تعاليم بوذا كاملة ومثالية».

شيانغ تشي تشي[١].

من الصعب أن نجد ملخصًا للاستنتاجات -التي كان ينبغي أن يصل إليها عاجلًا أم آجلًا أي عقل واقعي على المستويين الروحاني والنفساني- أفضل من الفقرات السابقة التي كتبها أحد معلمي بوذية الزن في القرن الحادي عشر.

أما الاقتباس اللاحق فهو احتجاج محفز ضد الجرائم والحماقات التي ارتكبها باسم الدين مصلحو القرن السادس عشر، الذين تحولوا نحو الرب من دون التحول بعيدًا عن أنفسهم وبذلك كانوا أكثر اهتمامًا في حرص شديد بالجوانب الزمنية للمسيحية التاريخية -التنظيم الكنسي، الجدل مع إساءة استعمال المنطق، الحَرفية النصوصية- من اهتمامهم بالروح التي يجب تبجيلها في الروح، ومن اهتمامهم بالحقيقة الأزلية في المعرفة المنكرة للذات، تلك المعرفة بمن تقوم عليه حياة الإنسان الأبدية. مؤلف الاقتباس سيباستيان كاستيليو، الذي كان في وقت من الأوقات المريد المفضل لكالفن، لكنه اختلف مع معلمه حينما

---

(١) شيانغ تشي تشي: أحد معلمي بوذية الزن من القرن الحادي عشر.

حرق الأخير سيرفيت[1] نظرًا إلى أنه قد هرطق هرطقة تخالف هرطقة كالفن. لحسن الحظ كان كاستيليو يعيش في بازل عندما خرج بدعوته إلى الإحسان والأخلاق العامة؛ لو حدث وصاغها في جنيف لأورثته التعذيب والموت.

«لو أنك سيدي الأمير المعظم (كانت الكلمات موجهة إلى دوق فورتمبيرج) أبلغت رعاياك أنك عازم على زيارتهم في وقت غير محدد وطلبت منهم أن يتجهزوا لاستقبالك في لباس أبيض، ماذا سوف تفعل إذا وجدتهم عند وصولك بدلًا من أن يرتدوا الأبيض، أمضوا وقتهم في جدل عنيف حول شخصكم - يصر البعض على أنك كنت في إسبانيا والبعض الآخر على أنك كنت في فرنسا؛ يعلن البعض أنك سوف تأتي على صهوة جواد، والبعض الآخر أنك سوف تأتي راكبًا عربة؛ يتمسك البعض بأنك سوف تأتي في موكب ضخم وأبهة والبعض الآخر أنك لن تأتي في قافلة أو مع أتباع؟ وما الذي سوف تقوله خصيصًا إذا وجدت أن جدالهم لم يكن بالكلمات فقط، بل امتد إلى اللطم واللكم وضربات السيوف، وأن البعض نجح في قتل وتدمير البعض الآخر الذين يختلفون معهم؟ «سوف يأتي على صهوة جواد». «لا، لن يفعل؛ سوف يأتي راكبًا عربة». «أنت تكذب». «لا، بل أنت الكذاب». «خذ هذه» - لكمة بقبضة اليد. «خذ تلك» - طعنة بالسيف تعبر الجسد. أيها الأمير، ما الذي سوف تظنه بشأن مثل هؤلاء المواطنين؟ طلب منا المسيح ارتداء ثياب الحياة النقية والطاهرة البيضاء؛ لكن ما الذي يشغل تفكيرنا؟ لا نتنازع حول

---

(1) ميجيل سيرفيت (١٥١١ - ١٥٥٣): فيزيائي وطبيب ولاهوتي إسباني، اتهم بالهرطقة لإنكاره الثالوث ومعمودية الطفل، وعُوقب بالإعدام حرقًا.

السبيل إلى المسيح فقط، بل حول علاقته بالرب الآب وحول الثالوث والقدر والإرادة الحرة وطبيعة الرب والملائكة ووضع الروح بعد الموت - حول كثير للغاية من الأمور غير الجوهرية بالنسبة إلى الخلاص؛ وعلاوة على ذلك هي أمور يستحيل أن نلم بها قبل أن تصبح قلوبنا نقية؛ إذ إنها أشياء ينبغي إدراكها روحيًا».

سيباستيان كاستيليو.

يحصل الناس دائمًا على ما يطلبونه؛ الأزمة الوحيدة أنهم لا يعرفون أبدًا ما الذي طلبوه بالفعل إلى أن ينالوه. لذلك، ربما كان البروتستانتيون ليتبعوا توجيهات كاستيليو ودنك إذا رغبوا في ذلك، لكنهم فضلوا كالفن ولوثر - فضلوهما لأن معتقداتهما حول التبرير بالإيمان والقدر كانت أكثر إثارة من تلك التي للفلسفة الخالدة. وليست أكثر إثارة فقط بل أقل صرامة كذلك؛ إذ إنها لو كانت صحيحة، فلا حاجة بالشخص كي يحصل على الخلاص إلى المضي عبر عملية إفناء الذات المنفرة، والتي تعد شرطًا مسبقًا للخلاص نحو المعرفة بالحقيقة الأزلية. وهي ليست أقل صرامة فقط بل أكثر إرضاء للشهية الفكرية أيضًا، إذ تضع صياغات قاطعة وبراهين قياسية لتوضيح الحقائق المجردة. انتظار الرب (آياته وبراهينه) مضجر، لكن ما المتعة في الجدل، في النيل من الخصوم، في أن تثور ثائرة الواحد وتسمية ذلك «سخطًا صالحًا»، وفي النهاية الوصول بالنزاع إلى اللطمات، من الكلمات إلى ما وصفه القديس أوغسطينوس في عذوبة شديدة «بالقسوة الحميدة» للاضطهاد والعقاب.

حصلت أوروبا البروتستانتية على نوع اللاهوت الذي تحبذه باختيارها لوثر وكالفن بدلًا من المصلحين الروحيين الذين كانوا معاصرين لهما.

لكنها حصلت كذلك على حرب الثلاثين عامًا والرأسمالية والأسس الأولى لألمانيا الحديثة، والتي كانت بمثابة نتائج ثانوية غير متوقعة. كتب العميد إنج[1] مؤخرًا: «إذا ما رغبنا في العثور على كبش فداء قد نضع على عاتقه المآسي التي جلبتها ألمانيا على العالم... فأنا مقتنع للغاية ويزداد اقتناعي أكثر وأكثر أن أسوأ عباقرة تلك الدولة الأشرار ليس هتلر أو بسمارك[2] أو فريدريش العظيم[3]، لكنه مارتن لوثر... تعبد (اللوثرية) ربًّا ليس عادلًا ولا رحيمًا... يُشبِّه لوثر قانون الطبيعة -الذي ينبغي أن يكون محكمة الاستئناف ضد السلطة الغاشمة- بنظام المجتمع القائم، الذي يجب تقديم فروض الطاعة له». وهكذا دواليك. الاعتقاد السليم هو الفرع الأول من فروع المسار الثماني الذي يقود إلى الخلاص؛ أصل العبودية (عبودية الخطيئة) وسببها الأساسي الاعتقاد الخاطئ أو الجهل - وهو ليس جهلًا منيعًا تمامًا أبدًا، بل المسألة مسألة إرادة وفق التحليل الأخير، دعنا نتذكر هذا. لو أننا لا نعرف، فذلك راجع إلى أننا وجدنا أنه من المريح ألا نعرف. الجهل الأصلي مثله كمثل الخطيئة الأصلية، هما الشيء نفسه.

❊ ❊ ❊

(١) وليم رالف إنج (١٨٦٠ - ١٩٥٤): كاهن وكاتب وعميد كاتدرائية القديس بولس.

(٢) أوتو إدوارد ليوبولد فون بسمارك (١٨١٥ - ١٨٩٨): سياسي بروسي ألماني، وحَّد الولايات الألمانية وأشرف على تأسيس الإمبراطورية الألمانية، وقد استخدم العنف في سبيله إلى ذلك.

(٣) فريدريش العظيم (١٧١٢ - ١٧٨٦): ملك بروسيا وقائد عسكري داهية، وقد عظَّمت النازية من شأنه، ما جعله مكروهًا عقب هزيمتها.

الفصل الحادي والعشرون

الوثنية

لم تعد الوثنية في شكلها البدائي جذابة للمتعلمين. إذ وجدوا أن من السهل مقاومة إغراء الاعتقاد في أن أشياء طبيعية معينة هي آلهة أو أن رموزًا وأشكالًا ما هي صور الكيانات الإلهية، ويجب أن تُعبد كما هي وتُسترضى. صحيح أن كثيرًا من الخرافات الفيتيشية لا تزال باقية حتى اليوم. لكن على الرغم من بقائها، إلا أنها لا تُعتبر محل تبجيل. مثلها في ذلك كمثل السُّكْر والدعارة، إذ إن هناك تسامحًا حيال أشكال الوثنية البدائية، إلا أنها لا تُقَرّ. موضعها بين الأدنى في هرم القيم المعترف بها.

لكن كم يختلف الحال بالنسبة إلى أشكال الوثنية المتطورة والأكثر حداثة؟ لم تحرز تلك الأشكال المتطورة والأكثر حداثة نجاحًا في البقاء فقط، لكنها حصدت أعلى درجات الإجلال. يوصي بها رجال العلم باعتبارها بديلًا للدين العتيق، كما يساوي بينها وبين عبادة الرب العديد من المعلمين المتدينين المهنيين. قد يبعث ذلك كله على الأسى، لكنه ليس بالأمر المفاجئ أبدًا. يستخف تعليمنا بأشكال الوثنية الأكثر بدائية، لكنه في الوقت نفسه يستخف بالفلسفة الخالدة وممارسة الروحانية، أو في أفضل الأحوال يتجاهلهما. لقد أقام في مكان «أشتاتًا أشتوت»

(الطقوس السحرية) في القاع والربوبية المتجلية والمتسامية في القمة -باعتبارهما أهدافًا للتقدير والإيمان والعبادة- بانثيون[1] لتصورات ومثاليات بشرية حصرًا. هناك قلة من الفيتشيين وقلة من المتأملين الورعين في الدوائر الأكاديمية وبين أولئك الذي حظوا بتعليمٍ راقٍ؛ إلا أن المتعصبين المتحمسين لبعض أشكال الوثنية السياسية أو الاجتماعية منتشرين كانتشار ثمار العليق. لقد لاحظتُ أمرًا دالًّا بما يكفي عندما كنت أرتاد المكتبات الجامعية، وجدت أن خروج الكتب التي تدور حول الدين الروحي من فوق الأرفف أقل كثيرًا مقارنة بما عليه الحال في المكتبات العامة، وقد تبنى هذه الفعل في الأساس رجال ونساء لم يستمتعوا بمزايا التعليم الأكاديمي الطويل أو عانوا تحت وطأة معوقاته.

يمكن تصنيف العديد من أنواع الوثنية الأرفع شأنًا تحت ثلاثة رؤوس أساسية: تقنية وسياسية وأخلاقية. الوثنية التقنية هي الأكثر حذقًا وبدائية من بين الثلاثة؛ إذ إن المتعصبين لها -مثلهم كمثل أولئك الذين يعتنقون الوثنية في أدنى صورها- يؤمنون أن خلاصهم وتحررهم يعتمد على أشياء مادية، هي الآلات والأدوات في هذه الحالة. الوثنية التقنية هي الدين الذي تذاع معتقداته بشكل صريح أو ضمني، في صفحات الإعلانات في صحفنا ومجلاتنا، يمكننا أن نضيف جملة اعتراضية، ألا وهي أن الصحف والمجلات هي المصدر الذي يستقي منه ملايين الرجال والنساء والأطفال في الدول الرأسمالية فلسفتهم العاملة في الحياة. وفي روسيا السوفيتية كذلك، بُشِّر بشدة بالوثنية التقنية،

---

(١) البانثيون: معبد تاريخي أقامه الرومان عام ٢٧ ق. م. وهو معبد كل الآلهة.

وأصبحت خلال سنوات تحول البلد الصناعي نوعًا من أنواع دين الدولة. الإيمان الحديث في الأوثان التقنية يملأ كل القلب (على الرغم من كل أعمال الحروب المميكنة) لدرجة أنه من المستحيل العثور في العقل الجمعي الشعبي لزماننا على أي أثر للمذهب العتيق والواقعي جدًّا للهوبريس والنيميسيز التي لا مفر منها. يوجد إيمان عام للغاية أنه حيثما كانت الأدوات والآلات موضع عنايتنا، يمكننا الحصول على شيء ما بلا مقابل - يمكننا الاستمتاع بكل مزايا التقنية الدقيقة وغير المتوازنة والمتقدمة باستمرار من دون أن يتوجب علينا الدفع لأجلها، أي من دون أن تلحق بنا أضرارًا مكافئة.

أما الوثنيون السياسيون فهم أقل إبداعًا بقليل فقط. إذ استبدلوا بتبجيل الأدوات والآلات المخلِّصة تبجيل التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية المخلِّصة. كل ما عليك أن تفعله هو فرض النوع الصحيح من التنظيمات على البشر وسوف تختفي مشاكلهم كلها تلقائيًّا، بداية من الخطيئة وعدم السعادة حتى القومية والحرب. أغلب الوثنيين السياسيين وثنيون تقنيون - وذلك على الرغم من الحقيقة التي مفادها أن الديانتين الزائفتين غير متوافقتين في النهاية، إذ إن التقدم التقني بمعدله الحالي يجعل من أي مخطط سياسي هراءً، لا معنى له، مهما كان مرسومًا بعبقرية، وذلك خلال فترة لن تمتد إلى أجيال بل أقصاها عدة سنوات وأحيانًا شهور قليلة. علاوة على ذلك، فالبشر لسوء الحظ مخلوقات وُهِبت الإرادة الحرة؛ وإذا لم يختر الأفراد إنجاح المخطط لأي سبب، فإن أفضل التنظيمات لن تفلح في تحقيق النتائج التي عُقدت النية على تحقيقها.

الوثنيون الأخلاقيون واقعيون طالما كانوا يرون أن الأدوات والآلات والتنظيمات لا تكفي لضمان انتصار الفضيلة وتزايد السعادة، وأن الأفراد الذين يشكلون المجتمع ويستعملون الماكينات هم أصحاب الشأن، من يحددون في النهاية إذا ما كانت الآداب لتسود في العلاقات الشخصية، وكذلك النظام أو الفوضى في المجتمع. لا يمكن الاستغناء عن الأدوات المادية والتنظيمية، والأداة الجيدة مفضلة عن تلك السيئة. لكن أدق الأدوات سوف تكون بلا فائدة أو وسيلة للشر إذا كانت بين أيادٍ بليدة أو خبيثة.

يتوقف الأخلاقيون عن أن يكونوا واقعيين ويقترفون الوثنية عندما يتوقفون عن تبجيل الرب، وبدلًا من ذلك يبجلون مثالياتهم الأخلاقية، إذ يعاملون الفضيلة باعتبارها غاية في حد ذاتها، لا باعتبارها شرطًا ضروريًا لمعرفة الرب وحبه - ومن دون معرفة الرب وحبه لن تكون هذه الفضيلة كاملة أو حتى فاعلة مجتمعيًا.

فيما يلي اقتباس من خطاب لافت كتبه توماس أرنولد[١] عام ١٨٣٦ لتلميذه القديم وكاتب السير المستقبلي آرثر بنرهين ستانلي[٢]: «التعصب وثنية؛ ويكمن فيه الشر الأخلاقي للوثنية؛ إذ إنه تبجيل لشيء من خلق رغبات تخص المتعصب، ولذلك فتكريس الذات من أجل دعم ذلك الشيء الذي يتعصب له، مجرد تكريس للذات في الظاهر؛ إذ إنه في الحقيقة يشكل أجزاء طبيعته أو عقله - تلك الأجزاء التي يقدرها أقل تقدير تبذل التضحيات من أجل ذلك الشيء الذي يقدره أكبر تقدير.

---

(١) توماس أرنولد (١٧٩٥ - ١٨٤٢): مدرس وكاتب ولاهوتي بريطاني.

(٢) آرثر بنرهين ستانلي (١٨١٥ - ١٨٨١): كاهن أنجليكاني إنجليزي.

يبدو لي أن الخطأ الأخلاقي ها هنا هو الوثنية - التأسيس لتصور ما هو الأقرب لعقولنا، ووضعه في مكان المسيح، الذي يستحيل أن يتحول إلى وثن ويستحيل أن يلهم الوثنية؛ لأنه يجمع كل تصورات الكمال ويظهرها في تناغم واجتماع تام. الآن في عقلي وبسبب ميله الطبيعي -على اعتبار أنني أتعامل معه وهو في أفضل أحواله- سوف تكون الحقيقة والعدالة هما الوثنين اللذين عليَّ اتباعهما؛ وسوف يكونان وثنين لأنهما لن يمدا بكل الغذاء الذي يحتاجه العقل، وبينما أمضي في تبجيلهما، من المحتمل جدًّا أن أنسى التقديس والتواضع والعطف. لكن المسيح نفسه يتضمن الحقيقة والعدل وكل هذه الخواص معًا... يميل أصحاب العقول ضيقة المنظور إلى الخبيث إلى أن تلك العقول لا توسع من مداركها لتلم بكل جزء من أجزاء طبيعتنا الأخلاقية، والإهمال يعزز الشر في تلك الأجزاء المهملة».

هذا مقطع مثير للإعجاب بوصفه تحليلًا نفسانيًّا. يتمثل عيبه الوحيد في السهو عن شيء واحد؛ إذ أهمل أن يأخذ في الحسبان هذه التدفقات التي تأتي بالنظام الأزلي إلى ذلك الزمني، والتي يُطلق عليها اسم نعمة أو إلهام. تُوهب النعمة والإلهام عندما يهجر الإنسان الإرادة الذاتية ويتخلى عن ذاته ويسلِّم الأمر إلى إرادة الرب، وهي توهب بقدر ذلك الهجر والتخلي، أما الهجر والتخلي فيكون من خلال الاستغراق الدائم في التأمل وعدم التعلق وذلك على مدار الساعة. وكما أن هناك نعمًا حيوانية وروحية -مصدرها الطبيعة الإلهية للأشياء- هناك نعم بشرية زائفة، على سبيل المثال، الوصول إلى القوة والفضيلة عقب تكريس الذات من أجل صورة ما من صور الوثنية السياسية. تمييز النعم الحقيقية

عن تلك الزائفة أمر عسير في الغالب؛ لكن الزمن والوقائع كفيلان بكشف المدى الكامل لتداعياتها على النفس، وحينها يصبح التمييز ممكنًا، يستطيعه حتى أولئك الناظرون الذين لا يمتلكون هبات تبصر خاصة. عندما تكون النعمة «خارقة للطبيعة» بحق، لا يصاحب التحسن في أحد جوانب الشخصية الكلية ضمورًا أو تدهورًا في مكان آخر، كثمنٍ لذلك. تختلف الفضيلة المصاحبة لحب الرب ومعرفته -والتي تكتمل بهما- عن «بر الكتبة والفريسيين» تمامًا، ذلك البر الذي كان من بين أسوأ الشرور الأخلاقية من منظور المسيح. القسوة والتعصب وعدم التسامح والتباهي بالسمو الروحي - هي النتائج الثانوية المعتادة لانتهاج سبيل تحسين الذات الرواقي عن طريق مجهود شخصي غير مدعوم، وإذا كان مدعومًا فهو مدعوم بنعمٍ زائفة فقط، يحصل عليها الفرد عندما يكرس نفسه لتحقيق غاية، ليست هي غايته الحقيقية، عندما لا يكون هدفه الرب، لكن إسقاط مكبر لتصوراته أو قيمه الأخلاقية المفضلة الخاصة فقط. يحبط التبجيل الوثني للقيم الأخلاقية في حد ذاتها أو من أجل ذاتها هدفه - ولا يحبط هدفه بسبب ما ألح عليه أرنولد، أن هناك افتقارًا إلى التطور في كل الجوانب معًا فقط، لكن بسبب أن حتى أسمى صور الوثنية الأخلاقية تحجب الرب كذلك، وبالتالي تمنع الوثني من التنوير، كما تمنعه من المعرفة بالحقيقة، تلك المعرفة المُحرِّرة، وهذا هو السبب الأهم.

* * *

الفصل الثاني والعشرون

العاطفية

لقد أمضيت حياتك كلها معتقدًا أنك مكرس بالكامل من أجل الآخرين، ولم تسعَ أبدًا من أجل مصالح ذاتك. لا شيء يغذي هذا الإعجاب بالذات مثل هذا النوع من الشهادات الداخلية، أن الواحد خالٍ تمامًا من حب الذات وأنه مكرس في سخاء من أجل إخوانه. لكن هذا التكريس كله الذي يبدو موجهًا للآخرين هو في الحقيقة موجه لك أنت. يبلغ حبك لذاتك مرحلة من الاحتفاء الدائم بخلوها من ذلك الحب؛ حساسيتك هذه كلها بسبب خشيتك من ألا ترضى بالكامل عن نفسك؛ وهذا هو أصل كل وساوسك. إنها «أنا» التي تجعلك حريصًا وحساسًا للغاية. تريد دائمًا أن يرضى عنك الرب وكذلك الإنسان، وتريد أن ترضى عن نفسك في تعاملاتك كلها مع الله.

«إلى جانب ذلك، لست معتادًا على أن ترضى بإرادة طيبة بسيطة – يرغب حبك لذاتك في عواطف حية ومباهج مطمئنة ونوع ما من الجمال الساحر والإثارة. لقد اعتدت كثيرًا جدًّا على أن يوجهك خيالك وعلى افتراض أن عقلك وإرادتك خاملان ما لم تكن واعيًا بأعمالهما. وبذلك

فأنت معتمد على نوع من الإثارة مماثل لذلك الذي تستثيره النشوات أو التمثيل المسرحي. بمحاولاتك التهذيب بالقوة سقطت في أقصى الطَّرَف المقابل - جلافة الخيال الفعلية. لا شيء يمكنه اعتراض السبيل إلى حياة الإيمان والحكمة الحقيقية أكثر من هذا. لا وجود لتوهمات أخطر من الخيالات التي يحاول بها الناس اجتناب التوهمات. إنه الخيال الذي يقودنا إلى الضلال؛ واليقين الذي نسعى إليه عن طريق الخيال والمشاعر والتذوق هو أخطر مصدر ينبعث منه التعصب. إنها هاوية الباطل والفساد التي إذا كان الرب ليجعلك تكتشفها في قلبك؛ عليك أن تنظر إليها بعين الهدوء والبساطة المنتميين إلى التواضع الحقيقي. لا يقتصر الأمر على أنه لا عزاء لحب الذات عند النظر إلى عيوب الواحد؛ لكن على الواحد الوقوف أمامها وجهًا لوجه، لا يطريها ولا يتسامح حيالها، يسعى إلى تصحيح نفسه دون تبرم - إنها الرغبة فيما هو طيب لأجل ما هو طيب في حد ذاته ولأجل الله».

فينيلون.

خطاب من رئيس أساقفة كامبريه[1] - يا له من حدث، يا له من شرف رفيع! ومع ذلك لا بد أنه كان مصحوبًا ببعض الخشية؛ إذ إن على الواحد أن يفض ختمًا مزركشًا. طلب النصيحة والرأي الصادق في الواحد من رجل يجمع بين سمت القديس وملكات مارسيل بروست، هو بمثابة طلب أقصى أنواع الصدمات الموجهة نحو الثقة في الذات. وسوف يكون تلقي الصدمة المصاغة في نثر متقن رقراق عن استحقاق - إلا

---

(١) كامبريه: مدينة فرنسية.

أن الصدمة تأتي مصحوبة بالترياق الروحي لتبعاتها الموجعة. لم يتردد فينيلون أبدًا في تحطيم الأنا الراضية عن نفسها لأحد الذين يراسلونه، غير أنه كان يقوم بذلك دائمًا من منظور يهدف إلى إعادة الدمج في مستوى أسمى غير متمركز حول الأنا.

لا يعد هذا الخطاب تحديدًا مقطعًا مثيرًا للإعجاب لتحليل السمات فقط؛ إذ يحتوي كذلك على بعض الإشارات المثيرة حول موضوع الإثارة العاطفية في علاقتها مع حياة الروح كذلك.

لعبارة «دين الخبرة» معنيان متمايزان ولا يتفقان معًا. هناك «الخبرة» التي تعالجها الفلسفة الخالدة – الإدراك الكامل المباشر للأصل الإلهي بفعل الحدس، ذلك الإدراك الممكن فقط لأنقياء القلب المنكرين للذات. وهناك «الخبرة» التي تستحثها مواعظ الإحيائيين[1] أو الطقوس المحركة للمشاعر أو الجهود العمدية لخيال الواحد الخاص. هذه الخبرة هي حالة إثارة عاطفية – إثارة قد تكون معتدلة وثابتة أو موجزة وعنيفة في تشنج، أحيانًا تكون ذات نبرة مبهجة للغاية وأحيانًا تكون محبطة، تعبر عن نفسها في أغنية ورقصة هنا أو في بكاء غير منضبط هناك. لكن الإثارة العاطفية هي دائمًا إثارة للذات الفردانية بغض النظر عن سببها وبغض النظر عن طبيعتها، وينبغي على مَن يطمح إلى العيش من أجل الحقيقة الإلهية إفناؤها. «الخبرة» بوصفها مشاعر تدور حول الرب (أسمى أشكال هذا النوع من الخبرة) لا تتوافق مع «الخبرة» بوصفها وعيًا تلقائيًّا بالرب، وهي الخبرة التي لا يحرزها إلا قلب نقي، قد أمات حتى أسمى المشاعر.

(١) رجال الأكليروس الذين يرتحلون من أجل الوعظ وإعادة إحياء الدين.

ذلك هو السبب وراء إلحاح فينيلون في المقطع السابق على الحاجة إلى «الهدوء والبساطة»، والسبب وراء أن القديس فرنسيس دي ساليس لم يملَّ من الحث على الطمأنينة التي مارسها هو نفسه مداوما عليها، والسبب وراء أن النصوص المقدسة للبوذيين جميعها تواصل التأكيد على سكينة العقل باعتبارها شرطًا ضروريًّا للخلاص. السلام المجاوز لكل الفهم هو أحد ثمار الروح. لكن هناك كذلك السلام الذي لا يجاوز الفهم، السلام المتواضع للسيطرة العاطفية على الذات وإنكار الذات؛ وهو سلام لا يعد ثمرة للروح، لكنه عوضًا عن ذلك أحد جذورها التي لا غنى عنها.

«يخرب غير المُتقِن التكريس الصحيح؛ لأنه يسعى إلى حلاوة حسية في الصلاة».

القديس يوحنا الصليب.

«الذبابة التي تلمس العسل لا يمكنها استخدام جناحيها؛ كذلك النفس التي تتشبث بالحلاوة الروحية تخرب حريتها وتعيق التأمل».

القديس يوحنا الصليب.

وما هو صحيح بالنسبة إلى العواطف الحلوة صحيح بالنسبة إلى العواطف المرة بذات القدر. إذ كما يهنأ بعض الناس بالصحة السيئة، يهنأ آخرون بوعي سيئ. التوبة هي ميتانويا أو «تغير في العقل»، ومن دونها يستحيل أن يكون هناك ولو إرهاص بحياة روحية – إذ إن حياة الروح لا تتوافق مع حياة «الإنسان العتيق»، الذي تعد أفعاله وأفكاره ووجوده شرورًا معرقلة، تجب التوبة عنها. من الطبيعي أن يصاحب هذا التغير الضروري في العقل حزنٌ واشمئزازٌ من الذات. لكن من اللازم

ألا تستمر هذه المشاعر وألا يُسمح لها أبدًا أن تصبح عادة مستقرة للعض على أصابع الندم. لكن لو قاربنا المعنى حرفيًّا، فمَن يعض مَن؟ تمدنا الملاحظة وتحليل الذات بالإجابة: تعض جوانب الذات الجديرة بالتقدير الجوانب المخزية، وهي نفسها تُعضُّ، تُثخن بجراح تتقيح بخزي وإحباط لا علاج لهما. لكن وفق كلمات فينيلون: «لا يقتصر الأمر على أنه لا عزاء لحب الذات عند النظر إلى عيوب الواحد». لوم الذات مؤلم؛ لكن الألم الشديد في الاستدلال المطمئن على أن الذات لا تزال سوية؛ طالما كانت بؤرة الانتباه على الأنا المذنبة، يستحيل أن تكون على الرب ويستحيل أن تفنى الأنا في النور الإلهي (فالأنا تعيش على الانتباه وتموت فقط عند منعه عنها).

«تحاشَ الالتفات إلى ذاتك وإلى إساءاتك كما تتحاشى الجحيم. لا ينبغي على أحدهم التفكير في هذه الأمور أبدًا إلا لكي يحط من قدر ذاته ويحب الله. من الكافي أن تعتبر نفسك في العموم مذنبًا، حتى لو كانت الفردوس تستضيف العديد من القديسين الذين كان حالهم كحالك».

شارل دي كوندرين.

«سوف تتحول الخطايا إلى حسنات شريطة أن نستعملها من أجل أن نتواضع، دون أن نتوانى عن بذل جهودنا من أجل تصحيح أنفسنا. لا يخدم تثبيط العزيمة أي هدف ممكن؛ إنه ببساطة يأس حب الذات المثخن بالجراح. يكمن سبيل الاستفادة من خزي الواحد من خطاياه حقيقة في مواجهتها في صورتها البشعة الفعلية، دون توقف عن الأمل في الله، بينما لا نأمل شيئًا من الذات».

فينيلون.

«نزلت (مريم المجدلية) من علياء رغبتها في الرب إلى أعماق حياتها الآثمة، وبحثت في مستنقع النفس النتن البغيض وكومة روثها؟ كلا، لم تفعل ذلك بالتأكيد. ولماذا؟ لأن الرب سمح لها بنعمته في نفسها أن تعرف أنه من الواجب ألا تفعل ذلك أبدًا. إذ إنها سرعان ما قد تعلي في نفسها بذلك مقدرة على ارتكاب الذنب بدلًا من أن تشتري لنفسها بذلك مغفرة صريحة من كل خطاياها».

غمامة الجهل.

في ضوء ما قيل سابقًا، يمكننا فهم المخاطر الروحية التي تكتنف تحديدًا كل أنواع التدين الذي تهيمن عليه العاطفة. إيمان الجحيم الذي يستعمل أساليب الإحيائيين المسرحية من أجل الحث على عض أصابع الندم والتسبب في ضائقة تدفع إلى هداية مفاجئة؛ إنه اعتقاد في مُخلِّص، يتسبب هذا الاعتقاد في تهييج المشاعر، ما أسماه القديس برنارد «حب لحم وجسد» **amor carnalis** الأفاتار أو الرب الشخصي؛ إنه اعتقاد في ديانة أسرار شعائرية تُوَلِّد مشاعر جارفة، مشاعر خوف وندم ونشوة جمالية من خلال الأسرار المقدسة والطقوس، وموسيقاها وعبق بخورها، وظلام الخشوع والأنوار المقدسة - يخاطر كل منها -بطريقته الخاصة- بأن يصبح صورة من صور الوثنية النفسانية، يُظن فيها أن الرب هو سلوك الأنا العاطفي نحو الرب، وفي النهاية تصبح المشاعر غاية في حد ذاتها، إذ يسعى إليها الواحد بشغف ويبجلها، مثلما يقضي المدمنون حياتهم سعيًا وراء فردوسهم الاصطناعي. ذلك كله واضح تمامًا. ولا يقل عنه وضوحًا أن الديانات التي لا تستدر العواطف لا تعتنقها إلا قلة

قليلة. علاوة على ذلك، عندما تعلن الديانات الزائفة التي تستدر المشاعر بشدة عن نفسها، تفوز في التو بملايين المتحمسين المخلصين من بين الجموع الذين توقفت الديانات الفعلية عن أن تكون ذات معنى أو مصدر راحة بالنسبة لهم. لكن في الوقت الذي يستحيل فيه على معتنق الديانة الزائفة التي على شاكلة إحدى وثنياتنا السياسية الحالية (والتي تتشكل من القومية والثورية) أن يمضي قدمًا في طريق الروحانية الحقة، يبقى مثل هذا الطريق مفتوحًا أمام معتنقي حتى أكثر أنواع الديانات الأصيلة التي تستدر العواطف الجارفة. يشكل أولئك الذين اتبعوا مثل هذا السبيل إلى نهايته نحو معرفة اتحادية بالأصل الإلهي قلة قليلة للغاية من المجموع. النداء موجه للكثيرين، لكنَّ المختارين قلة؛ لأن قلة هم مَن يختارون أن يكونوا من المختارين. يكسب الباقون لأنفسهم -كما يقول الشراح الشرقيون للفلسفة الخالدة- فرصة أخرى من أجل خوض اختبار العقل الكوني، في ظروف أكثر أو أقل ملاءمة بحسب مساراتهم المقفرة. إذا حظوا «بالخلاص» فإن خلاصهم غير الكامل وغير النهائي يتمثل في وضع فردوسي ما لوجود شخصي أكثر حرية، قد يمضون منه قدمًا صوب الإفلات النهائي نحو الأبدية (سواء كان ذلك مباشرة أو عبر تجسدات أخرى). أما إذا «ضلوا» فإن «جهنم» هي وضع مؤقت وزائل لظلمة أثقل ولعبودية لإرادة الذات أكثر قهرًا، تلك العبودية التي تعد أصل ومبدأ الشرور جميعها.

من ثم نرى أن المداومة على سلوك طريق التدين العاطفي قد يقود حقًّا إلى خير عظيم لكنه لا يقود إلى أعظم الخير. لكن الطريق العاطفي ينفتح على طريق المعرفة الاتحادية بالرب، وأولئك الحريصون على

المضي في هذا الطريق الآخر معدون جيدًا من أجل مهمتهم، إذا ما استخدموا المقاربة العاطفية من دون الخضوع للإغراءات التي تكتنف الطريق. يمكن لمنكري الذات إنكارًا كاملًا والمستنيرين فقط أن يقوموا بعمل جيد من دون أن يكون في مقابله -بطريقة ما أو أخرى- سوء فعلي أو كامن محتمل. لقد أنشأ النظم الدينية الدنيوية في الأساس رجال ونساء، لم يكونوا منكرين تمامًا للذات أو مستنيرين تمامًا. لذلك، فلكل الديانات جوانبها المظلمة والمروعة، ونادرًا ما يكون الخير الذي تقوم به بلا مقابل، لكن من الأكيد أن هناك ثمنًا مدفوعًا في المقابل وهو الأمر الغالب في معظم الحالات، سواء كان دفعًا فوريًّا أو على أقساط. لا تستثنِ من تلك القاعدة المعتقدات والممارسات المثيرة للمشاعر التي تلعب دورًا هامًّا في كل ديانات العالم العضوية. إذ تقوم تلك المعتقدات والممارسات بعمل جيد، لكنه ليس من دون مقابل. يختلف الثمن المدفوع بحسب طبيعة الفرد أو العابد. يختار البعض الاستغراق في العاطفية ويصبحون وثنيين تجاه المشاعر، يدفعون في مقابل الخير في دينهم شرًّا روحيًّا قد يفوق بالفعل الخير. يقاوم آخرون إغراء تعزيز الذات ويمضون قدمًا صوب إماتة الذات، بما في ذلك إماتة الجانب العاطفي من الذات، ويمضون صوب تبجيل الرب بدلًا من تبجيل مشاعرهم تجاه الرب وتوهماتهم عنه. وكلما مضوا قدمًا في هذا الاتجاه، كلما كان الثمن المدفوع في مقابل الخير الذي تستجلبه النزعة العاطفية أقل، وهو الخير الذي ما كانوا ليحصلون عليه أبدًا لولا هذه العاطفية.

❊ ❊ ❊

الفصل الثالث والعشرون

المعجزات

«التجليات والرؤى هي شذوذ الإيمان؛ هي لهو يفسد بساطة العلاقة بالله. تُحيِّر النفس وتجعلها تنحرف عن الاستقامة في علاقتها بالله. تشتت النفس وتشغلها بأشياء أخرى بدلًا من الله. الاستنارات وسماع الوحي والنبوءات بشأن أمور خاصة وما يماثلها هي علامات ضعف في روح، لا تقدر على صد هجمات الفتن أو القلق حيال المستقبل وتدابير الرب بخصوصه. النبوءات كذلك دلالة على فضول في النفس يكتنف المخلوقات إزاء أسئلة على شاكلة، حيال مَن يتسامح الرب ومَن يمنحهم القليل من الحلوى من أجل إشباع شهيتهم، كما يفعل الأب مع أطفاله اللحوحين.

جان جاك أولييه.

«أقل درجات النعمة المُقدِّسة[1] (النعمة التي تجعلك ربانيًّا) تعلو على معجزة، تعد خارقة للطبيعة فقط بسبب علتها، بسبب النمط الذي

(١) إنجيل متى ٩ : ٥.

جاءت من خلاله quoad modum، وليس بسبب حقيقتها الجوهرية. الحياة التي تعود إلى جثة هي الحياة الطبيعية، وهي أقل بالتأكيد من حياة النعمة عند المقارنة».

ريجينالد جاريجو لاجرانج.

«هل بمقدورك المشي على الماء؟ لست أفضل من قشة. هل بمقدورك التحليق في السماء؟ لست أفضل من ذبابة. اقهر قلبك، وعندها ربما تصبح شيئًا».

الأنصاري الهروي.

لا تعتبر الحالات غير الطبيعية للجسد التي تكون مصحوبة غالبًا بوعي تلقائي بالأصل الإلهي جانبًا جوهريًّا من جوانب تلك الخبرة. يستنكف كثير من الصوفيين في الحقيقة من مثل هذه الأشياء، ولا يعتبرونها إشارات على النعمة الإلهية، لكن يعتبرونها علامة على ضعف الجسد. يقول دي كوندرين عن الارتفاع في الهواء، والغشية، وفقدان الإحساس بالحواس «هي تلقي لفاعلية الرب واتصاله المقدس بطريقة حيوانية للغاية وغير روحانية أبدًا»:

«اعتاد (القديس فرنسيس دي ساليس) أن يقول: «أوقية واحدة من النعمة المُقدَّسة تساوي أكثر من مائة مثقال من تلك النعم التي يدعوها اللاهوتيون «مجانية»، ومن بينها هبة المعجزات. من الممكن أن تستقبل مثل هذه النعم بينما لا تزال منغمسًا في خطيئة مهلكة؛ كما أنها ليست لازمة للخلاص».

جان بيير كامو.

يعتبر الصوفيون العجائب «أحجبة» تتنزل بين النفس والله. يستحث معلمو الروحانية الهندوسية مريديهم على ألا يكترثوا إلى السيدهيس أو القوى النفسانية والتي قد تأتيهم دون أن ينشدوها، إذ إنها نتاج ثانوي للتأمل أحادي البؤرة. يحذرون من أن تنمية هذه القوي، تشتت النفس عن الحقيقة وتقيم حواجز لا يمكن التغلب عليها في طريق التنوير والخلاص. يتخذ أفضل معلمي البوذية موقفًا مشابهًا، وفي واحد من نصوص بالي المقدسة هناك حكاية تسجل تعليق بوذا الجاف تمامًا على العمل الإعجازي المثير للعجب الذي قام به واحد من مريديه عندما رفع نفسه عن الأرض في الهواء. قال: «لن يفضي هذا إلى هداية غير المهتدين، ولن يفيد المهتدين». ثم عاد إلى الحديث عن الخلاص.

ينشغل أنصار المذهب العقلاني بإقناع أنفسهم والآخرين أن المعجزات لا تحدث ولا يمكن أن تحدث؛ لأنهم لا يعرفون أي شيء عن الروحانية ويعتبرون أن العالم المادي هو الأولى بالاهتمام وأن افتراضاتهم ذات دلالة أبرز. أما شراح الفلسفة الخالدة فمقتنعون أن المعجزات تحدث؛ لأن لهم خبرة بالحياة الروحية ونواتجها الثانوية، إلا أنهم يعتبرون المعجزات أمورًا قليلة الأهمية وأنها في الأساس أمور سلبية وضد الروحانية.

تحظى معجزات العلاج الروحاني هذه الأيام بأكبر إقبال وبتغذية متواصلة ثابتة. بيَّن الإنجيل في وضوح الظروف التي ينبغي استخدام العلاج الروحاني فيها وبأي قدر: «أيما أيسر، أن يقال: مغفورةٌ لك خطاياك أم أن يُقال قم وامشِ؟» إذا كان لأحدهم أن يقول «مغفورةٌ لك خطاياك» ويقوم بذلك، ففي استطاعته أن يستخدم هبة العلاج بأمان. لكن الغفران

الكامل للخطايا ممكن فقط لأولئك الذين «يُعلِّمون كمَن لهم سلطان»، بفضل كونهم قنوات للروح الإلهي وإنكارهم للذات. يستجيب الضال لهؤلاء القديسين المطهرين المتمركزين حول الرب بمزيج من الحب والخشية - يتوق إلى الاقتراب منهم إلا أن قداستهم تكرهه على أن يقول: «غادِروني، إذ إنني رجل خطاء». مثل هذه القداسة مقدسة إلى درجة غفران خطايا أولئك الذين يقتربون منها، ويصبح في إمكانهم القيام ببداية جديدة لمواجهة تبعات أفعال الماضي الخاطئة في الروح الجديدة (إذ أن التبعات تبقى بالطبع)، وهو ما يجعل في الإمكان معادلة الشر أو تحويله إلى خير إيجابي. هناك البعض ممن ليسوا مطهرين بالصورة التي لها مغزاها، لكنهم يُعلِّمون كأنهم مفوَّضي سلطان، وهو سلطان مؤسسي. يؤمن الخطاء في أن هذا السلطان بطريقة ما قناة لنعمة خارقة للطبيعة. يمكن لذلك البعض أن يهب نوعًا من الغفران أقل كمالًا. في هذه الحالة، لا يكون الاتصال بين النفس الضالة والروح الإلهية مباشرًا، إذ يتوسطه خيال الخطاء.

يمكن لأولئك المطهرين بفضل كونهم قنوات للروح وإنكارهم للذات أن يمارسوا العلاج الروحاني مع درجة عالية من الأمان؛ إذ إنهم سوف يعرفون مَن مِن المرضى جاهز لاستقبال الغفران مع معجزة الشفاء الجسدي. أما أولئك الذين ليسوا مطهرين لكن بإمكانهم غفران الخطايا بفضل انتمائهم إلى مؤسسة يُعتقد أنها قناة للنعمة، فيمكنهم كذلك ممارسة العلاج مع ثقة تامة في أنهم لن يتسببوا في أذى أكبر من الصلاح. لكن من المؤسف أن ملكة العلاج تبدو فطرية في بعض الأشخاص، كما أن البعض الآخر يستطيع اكتسابها من دون اكتساب أدنى درجات القداسة. («من الممكن أن تستقبل مثل هذه النعم بينما لا تزال منغمسًا

في خطيئة مهلكة»)، سوف يستخدم مثل هؤلاء الأشخاص ملكتهم بلا تمييز، إما للاستعراض أو لتحقيق منفعة. يحققون دائمًا شفاءات مذهلة - لكنها تفتقر إلى قوة غفران الخطايا، بل ربما تفتقر إلى الفهم المجرد للارتباطات النفسانية للأعراض وظروفها وأسبابها، تلك الأعراض التي بددوها بصورة إعجازية، يخلِّفون نفسًا فارغة ومدمرة ومديونة في مواجهة شياطين[١] سبعة آخرين -أسوأ من الأول- وهم آتون أيضًا.

* * *

(١) الشياطين السبعة: هم أمراء الجحيم الكبار السبعة، ويقابل كل أمير من هؤلاء الأمراء إحدى الخطايا السبع، ١- الشيطان يقابل الغضب ٢- لوسيفر يقابل الكبرياء ٣- مامّون يقابل الطمع ٤- بعلزبول يقابل الشراهة ٥- لوياثان يقابل الحسد ٦- بلفيجور يقابل الكسل ٧- أسموديوس يقابل الشهوة.

الفصل الرابع والعشرون

الشعيرة والرمز والسر المقدس

«أسوالا[1]: يا ياچنافالكيا[2]، بما أن كل شيء مرتبط بتقديم الأضاحي يتخلله الموت ومعرض للموت، فبأي وسيلة يمكن للمُضحِّي التغلب على الموت؟

ياچنافالكيا: بمعرفته التشابه بين المُضحِّي والنار والكلمات التي تتردد عند ممارسة الطقس الشعائري؛ إذ إن كلمة الطقس الشعائري هي بالفعل المُضحِّي، وكلمة الطقس الشعائري هي النار، والنار التي هي واحد مع البراهمان، هي المُضحي. تقود هذه المعرفة إلى التحرر. تقود هذه المعرفة الواحد إلى ما وراء الموت».

بريهاد أرانياكا أوباناشيد.

بمعنى آخر، الشعائر والأسرار المقدسة والطقوس هي أمور هامة

---

(١) أسوالا: كبيرة كهنة الملك چاناكا، أحد ملوك الهند.

(٢) چنافالكيا: أحد الحكماء، وتبدأ هذه القصة باحتفالية ضخمة لتقديم الأضاحي أقامها الملك ثم سأل عن أحكم الحكماء والأعرف بالبراهمان، تقدم چنافالكيا، وبدأ الجميع في طرح أسئلة عليه.

وثمينة؛ إذ إنها تُذَكِّر أولئك الذي يشاركون فيها بالطبيعة الحقيقية للأشياء، تُذَكِّرهم بما ينبغي أن تكون عليه علاقتهم بالعالم وأصله الإلهي وهو ما قد تكون عليه هذه العلاقة بالفعل (وذلك إذا انصاعوا للروح المتجلية والمتسامية فقط). تعد أي شعيرة أو سر مقدس أمرًا طيبًا نظريًّا وتتساوى مع أي شعيرة أخرى أو سر مقدس آخر، بشرط أن يكون دائمًا الشيء المُمَثل أحد جوانب الحقيقة الإلهية بالفعل، وبذلك تكون العلاقة بين الرمز والحقيقة مُعرَّفة بوضوح وقائمة دائمًا. وعلى نفس المنوال، تعد إحدى اللغات طيبةً نظريًّا وتتساوى مع اللغات أخرى. يمكن تدبر أمر الخبرة البشرية بالفعالية ذاتها باستخدام اللغة الصينية أو الإنجليزية أو الفرنسية. إلا أنه عند الممارسة نجد أن الصينية هي اللغة الأفضل لأولئك الذين نشأوا في الصين، والإنجليزية هي الأفضل لأولئك الذين نشأوا في إنجلترا، والفرنسية الأفضل لأولئك الذين نشأوا في فرنسا. من الأسهل كثيرًا بالطبع تعلم نظام شعائري وتفهم دلالته العقائدية عن إجادة إشكاليات لغة أجنبية. مع ذلك فما قيل بشأن اللغة صحيح بدرجة كبيرة في شأن الشعيرة الدينية. بالنسبة إلى الأشخاص الذين نشأوا على التفكير في الرب عن طريق مجموعة واحدة معينة من الرموز، من الصعب عليهم جدًّا التفكير فيه في ضوء محددات أخرى وهي في أنظارهم مجموعة من الكلمات والطقوس والصور غير المقدسة.

«حذر السيد بوذا تلميذه سبهوتي[١] قائلًا: «يا سبهوتي، إياك والظن في أن تاتاجاتا قد أمعن التفكير يومًا في عقله: ينبغي عليَّ أن أستحث

---

(١) سبهوتي: أحد تلاميذ بوذا العشرة الرئيسين.

منظومة للتعاليم من أجل توضيح الدارما. عليك ألا ترعى فكرة مثل هذه. ولماذا؟ لأن أي تلميذ يضمر فكرة مثل هذه لن يكون قد أساء فهم تعاليم تاتاجاتا فقط، بل سوف يكون قد افترى عليه كذلك. علاوة على ذلك، لا معنى لعبارة «منظومة للتعاليم»؛ إذ إن الحقيقة لا يمكن أن تُجزأ إلى قطع ومن ثم تُنظَّم في منظومة. يمكن استخدام الكلمة فقط كمجاز في خطاب».

السوترا الماسية.

لكن على الرغم من قصورها البالغ واختلافها الجذري عن الحقائق التي تدل عليها، تبقى الكلمات هي الأكثر مصداقية ودقة من بين رموزنا جميعها. عندما نرغب في تقرير دقيق عن الحقائق أو التصورات، علينا اللجوء إلى الكلمات. قد يوصل نُسك أو صورة منحوتة أو مرسومة معانيَ أكثر ونبرات إضافية في مساحة أصغر وبوضوح أكبر مما تقدر عليه الصياغة اللفظية؛ إلا أن النُسك أو الصورة المنحوتة أو المرسومة عرضة إلى توصيل تلك المعاني بصورة أكثر إبهامًا وأقل تحددًا. يُقابل الواحد كثيرًا في الأدبيات الحديثة مفهوما يذهب إلى أن كنائس العصور الوسطى كانت المعادل المعماري والنحتي والتصويري للخلاصة summa اللاهوتية، وأن العباد الذين تروق لهم الأعمال الفنية من حولها يحظون بالتنوير فيما يتعلق بأمور العقيدة. لكن من الواضح أن رجال كنيسة العصور الوسطى الأكثر جدية لم يقرُّوا هذا المنظور. يشير كولتون[1] إلى مقولات الوعاظ الذين يشتكون من أن حشود الرعايا

---

(١) جورج جوردون كولتون (١٨٥٨ - ١٩٤٧): مؤرخ بريطاني متخصص في العصور الوسطى.

تصل إلى تصورات خاطئة تمامًا عن الكاثوليكية عن طريق النظر إلى الصور في الكنائس بدلًا من الاستماع إلى المواعظ. (بالمثل طور هنود أمريكا الوسطى الكاثوليك في أيامنا هذه أشد الهرطقات عن طريق إمعان التفكير في الرموز المنحوتة والمرسومة التي ملأ الفاتحون بها كنائسهم). كانت اعتراضات القديس برنارد حول ترف العمارة والنحت والاحتفالات الكلونية[١] مدفوعة باعتبارات فكرية وكذلك اعتبارات أخلاقية تمامًا. «تلتقي العين بأشكال عديدة ومتنوعة عظيمة ومدهشة جدًّا، ما يغري الواحد بأن يطالع الرخام بدلًا من مطالعة الكتب، يمضي اليوم كله ناظرًا في النقوش واحدًا تلو الآخر بدلًا من أن يتأمل في قانون الرب». تصل النفس إلى المعرفة الاتحادية بالحقيقة في تأملٍ لا يُصوَّر؛ وبالتالي فبالنسبة إلى أولئك الذين يروق لهم القديس برنارد أو السيسترسيين[٢]، المعنيون بتحقيق الغاية الخاتمة للإنسان، كلما قلت الرموز المشتتة، كلما كان أفضل.

«يعبد أغلب الناس الأرباب؛ لأنهم يريدون إحراز النجاح فيما يضطلعون به في الدنيا. يمكن إحراز هذا النوع من النجاح المادي سريعًا جدًّا هنا على الأرض (عن طريق مثل هذه العبادة)».

البهاجافاد جيتا.

« من بين أولئك المطهرين بسبب صنائعهم الطيبة، هناك أربعة أنواع من البشر الذين يعبدونني: المنهك بالدنيا، والساعي إلى المعرفة،

(١) نسبة إلى حركة الإصلاح الكلونية، وهي حركة كانت معنية بالاعتراض على التركيز على الشؤون الدنيوية وإهمال الأمور الروحانية.

(٢) السيسترسية: حركة للرهبنة.. تُعرف كذلك باسم البرناردية نسبة إلى القديس برنارد.

والساعي إلى السعادة، وإنسان التمييز الروحي. إنسان التمييز هو الأسمى من بينهم جميعًا. هو مُتَّحِدٌ بي باستمرار. يكرس نفسه لي دائمًا؛ إذ إنني عزيز جدًّا عند ذلك الإنسان، وهو عزيز جدًّا عندي.

بالتأكيد، هؤلاء جميعًا نبلاء،

لكن رجل التمييز

أراه كما نفسي.

إذ إنه يحبني وحده؛

لأنني أنا،

الهدف الأخير والوحيد

لقلبه المكرس.

ينضجّ تمييزه

عبر حيوات طويلة عديدة؛

يجعلني ملاذه،

يعرف أن براهمان هو الكل.

كم هم نادرون العظماء أمثاله!

«يؤسس أولئك الرجال -الذين تبلد تمييزهم بالرغبات الدنيوية- هذه الشعيرة أو تلك الطائفة ويلجؤون إلى آلهة متنوعة، بحسب بواعث طبيعتهم الغريزية. لا يهم الإله الذي يختاره المُكرَّس كي يعبده، متى كان

في قلبه إيمان، جعلت إيمانه جازمًا. يعبد ذلك الإله وقد وُهِب الإيمان الذي منحته إياه، ويحصل من ذلك الذي يعبده على كل شيء يدعو به. في الواقع، أنا وحدي الوهاب.

«لكنَّ هؤلاء البشر ذوي الفهم القاصر يصلون فقط إلى ما هو عابر وفانٍ. من يعبدون الديفات سوف يذهبون إلى الديفات. أما مَن يعبدونني، فسوف يأتون إليَّ».

البهاجافاد جيتا.

إذا تكررت طقوس الأسرار المقدسة باستمرار بروح إيمانٍ وإخلاص، نتج تأثيرٌ ثابتٌ إلى حدٍّ ما في الوسط النفساني، تغتسل فيه العقول الفردية، ومنه تُبَلوَر -إذا جاز التعبير- إلى شخصيات متطورة تمامًا تقريبًا، وذلك بحسب تطور الأجسام الكاملة إلى حد ما التي يتصلون بها. (كتب عن هذا الوسط النفساني الفيلسوف المعاصر البارز دكتور تشارلي دانبار برود في مقال عن التخاطر، شارك به في فعاليات جمعية البحث النفساني، وجاء ما كتبه على النحو التالي: «علينا لذلك أن نأخذ بعين الاعتبار في جدية احتمالية أن خبرة الشخص تستهل تغييرًا ثابتًا نوعًا ما في تركيب أو عمل شيء ما، هذا الشيء ليس عقله أو مخه. ما من سبب هناك لافتراض أن هذه البنية من المحتمل أن تكون شيئًا يُستعمل معه أي من ضمائر الملكية على شاكلة «ملكي» و«ملكك» و«ملكه»، كما نفعل مع العقول والأجساد الحية... وبذلك فإن لدينا تغيرات قد حدثت في البنية نتيجة خبرات معينة سابقة تخص «م». تنشط هذه التغيرات بواسطة خبرات أو اهتمامات حالية تخص «ن»، وتصبح عوامل تتسبب في إنتاج

خبرات لاحقة تخص «ن» أو تتسبب في تعديلها»). داخل هذا الوسط النفساني أو البنية غير الشخصية للعقول الفردية شيءٌ قد نصوره على سبيل المجاز باعتباره دوامة تبقى في وجود مستقل، تمتلك موضوعيتها المستقلة وغير المباشرة، ولذلك عندما تُمارس الطقوس، يُكتشف بالفعل مَن يملكون ما يكفي من الإيمان والإخلاص شيئًا ما «بالخارج هناك»، متمايز عن الشيء الذاتي في خيالاتهم. وطالما كان هذا الكيان النفساني المنعكس يُغذَّى بإيمان مبجليه وحبهم، فسوف يمتلك، لا الموضوعية فقط، بل القدرة على إجابة صلوات الناس. وفي النهاية بالتأكيد «أنا وحدي الوهاب»، بمعنى أن هذا كله يحدث وفق القوانين الإلهية التي تحكم الكون في جوانبه النفسانية والروحية، بما لا يقل عن جوانبه المادية. مع ذلك، قد يُنظر إلى الديفات (تلك الصور غير الكاملة التي يعبد الناس تحت ظلها الأصل الإلهي، وذلك بسبب جهلهم المتعمد) باعتبارها قوى مستقلة نسبيًّا. ينطلق التعبير البدائي الذي ينص على أن الأرباب تتغذى على الأضاحي التي تُقدَّم لهم من حقيقة عميقة، وما التعبير إلا عبارة غير دقيقة وبسيطة تشير إلى تلك الحقيقة. عندما تنحسر عبادة الديفات، عندما يفقد الإيمان والإخلاص شدتهما، تمرض الديفات وتموت في النهاية. تمتلئ أوروبا بمزارات عتيقة، فقد قديسوها وعذرواتها وآثارها قواهم وموضوعيتهم غير المباشرة التي امتلكوها يومًا. هكذا كتب تشوسر[1] عن الديفا المدعو توماس بيكيت الذي كان

---

(١) جيفري تشوسر (١٣٤٣ - ١٤٠٠): أحد أبرز وأقدم الشعراء الإنجليز المعروفين، ومؤلف حكايات كانتربري.

يعطي لأي حاج إلى كانتربري -يملك الإيمان الكافي- كل النعم التي يطلبها. هذا الذي كان يومًا ربًا قادرًا، أصبح اليوم ميتًا كحجر؛ لكن لا تزال هناك كنائس معينة في الغرب، وجوامع ومعابد معينة في الشرق، لا يخفق حتى السياح غير المتدينين وغير النفسانيين في إدراك حضور «خشوعي» قوي فيها. سوف يكون من الخطأ بالتأكيد تصور أن هذا الحضور هو حضور ذلك الرب الذي هو روح وتجب عبادته في الروح؛ إنه بالأحرى حضور نفساني لأفكار ومشاعر البشر حول صورة خاصة ومحدودة من الرب، وقد لجأوا إليه «بحسب بواعث طبيعتهم الغريزية» - تنبعث الأفكار والمشاعر وتحظى بموضوعية وتسكن المكان المقدس بالطريقة نفسها التي تسكن بها أفكار ومشاعر بالشدة نفسها ومن نوع آخر مسارح أماكن كانت فيها معاناة أو جرائم. يمثل الحضور في تلك الأبنية الموقوفة لله والحضور الذي يستحثه أداء شعائر تقليدية والحضور المجبول في الأشياء المرتبطة بالأسرار المقدسة - حضورًا فعليًا، لكنه ليس حضورًا فعليًا للرب أو للأفاتار، لكن لشيء لا يزال أقل من الحقيقة الإلهية أو غير الحقيقة الإلهية، وذلك على الرغم من أنه قد يعكسها.

Dulcis Jesu memoria

dans vera cordi

sed super mel et omnia

ejus dulcis praesentia

«حلوة هي ذكرى يسوع، تُضفي على القلب سعادة حقيقية؛ لكن حضوره أحلى من العسل، ومن كل الأشياء الأخرى». يلخص هذا المقطع الشعري الافتتاحي لترنيمة القرن الثاني عشر الشهيرة في عدد قليل من الكلمات العلاقة الدائمة بين الشعيرة والحضور الفعلي وطبيعة استجابة العابد لكل منهما. الذكرى **memoria** هي شيء مليء بالحلاوة في حد ذاته، وتساهم هذه الذكرى المرعية بصورة منهجية أولًا في الاستحضار، ثم تتسبب لنفوس معينة في إدراك مباشر للحضور **praesentia**، وهو الحضور الذي يستجلب معه سعادة من نوع أسمى، مختلف تمامًا. الموضوعية المنعكسة لهذا الحضور تكون كاملة للغاية أحيانًا بحيث لا يدركها العابد المكرس فقط بل الغرباء اللامبالون كذلك. هذا الحضور هو دائمًا حضور الكيان الإلهي الذي جرى تذكره سابقًا، كان يسوع هنا، وكريشنا أو أميتابها[1] بوذا هناك.

«تكمن قيمة هذه الممارسة (ترديد اسم أميتابها بوذا) في التالي؛ طالما كان الشخص يمارس أسلوبه (الروحاني) وشخص آخر يمارس أسلوبًا مختلفًا، فإن كل منهما يعادل الآخر، ولقاؤهما مماثل تمامًا لعدم لقائهما. في حين أنه إذا مارس الشخصان الأسلوب نفسه، فإن تأملهما الواعي يميل إلى أن يصبح أعمق فأعمق، ويميلان إلى تذكر أحدهما الآخر ويميلان إلى تطوير انجذابٍ إلى أحدهما الآخر، حياة بعد حياة. علاوة على ذلك، فإن مَن ينشد اسم أميتابها بوذا، سواء في الزمن الحاضر أو في المستقبل، سوف يرى بوذا أميتابها بالتأكيد، ولن ينفصل عنه أبدًا.

---

(١) أميتابها بوذا: هو بوذا من أصل صيني.

وكما تجتاح العطور ذلك المرتبط بصانع تلك العطور، يصبح العابد معطرًا بعطف أميتابها بسبب ذلك الارتباط ويحظى بالتنوير دون اللجوء إلى أي وسيلة مفيدة أخرى».

سورانجاما سوترا.

من ثم نرى أن الإيمان الشديد والإخلاص مع المواظبة من ناحية أشخاص عديدين وبنفس أسلوب العبادة أو الممارسة الروحية، يميل إلى تحويل التصور أو الذكرى إلى شيء موضوعي الذي هو محتواها، وهو ما يخلق بطريقة ما حضورًا خشوعيًّا واقعيًّا، يجده العباد بالفعل «بالخارج هناك»، لا يقل بأي حال عما يجدونه «بالداخل هنا»، ومختلف عنه تمامًا. طالما كان ذلك هو الحال فإن ممارس الشعيرة محق في عزو فعالية لأفعاله وكلماته المقدسة والتي كانت لتوصف بالسحرية في سياق آخر. المانترا[1] تعمل، والأضاحي تقوم بشيء بالفعل، والسر المقدس يهب النعمة، من العمل الذي جرى **ex opere operato**: هذه كلها أمور -أو بالأحرى قد تكون أمورًا- تتعلق بالخبرة المباشرة، حقائق يمكن لأي حد اختار أن يتحقق من شروطها الضرورية أن يفعل ذلك تجريبيًّا لنفسه. لكن النعمة الموهوبة **ex opere operato** ليست نعمة روحية دائمًا، كما أن الأفعال والصياغات المقدسة لا تستمد قواها دائمًا من الرب بالضرورة. يمكن للعباد أن يحصلوا على النعمة والفعالية من أحدهم الآخر ومن إيمان أسلافهم وإخلاصهم، ذلك الإيمان والإخلاص المنعكس في صورة وجود نفساني مستقل، والذي يرتبط

(١) المانترا: كلمة تعني تعويذة باللغة السنسكريتية.

بأماكن وكلمات وأفعال معينة ويسكنها. جانب كبير من الدين الشعائري ليس روحانيًّا بل شعوذة، نوعٌ من أنواع السحر الأبيض النقي، حسن النية. وكما أن الفنون لا تنطوي على ضرر وكذلك العلوم، لكنها تنطوي على قدر كبير من الخير، بشرط ألا تعتبر هذه الأنشطة غايات في حد ذاتها أبدًا، بل وسائل تؤدي ببساطة إلى الغاية الخاتمة لحياتنا كلها، فكذلك لا ينطوي السحر الأبيض على أي ضرر، بل احتمالات خير واسعة، طالما كان يُنظر إليه، لا باعتباره دينًا حقيقيًّا، لكن باعتباره أحد السبل إلى الدين الحقيقي – وسيلة فعالة لتذكير الناس بوجود الله باستخدام نوعٌ معينٌ من البنى المادية النفسانية، «في معرفة مَن تنهض عليه حياتنا الأبدية»[١]. إذا اعتُبر السحر الأبيض دينًا حقيقيًّا في حد ذاته؛ وإذا نُظر إلى الوجود الفعلي الذي يستحثه باعتباره الرب نفسه، وليس انعكاسًا للأفكار والمشاعر البشرية عن الرب أو حتى عن شيء أقل من الرب؛ وإذا مورست شعائر الأسرار المقدسة وحُضِرت من أجل «الحلاوة الروحية» التي تُختبر والقوى والفوائد التي تهبها – فثمة وثنية هناك. وهذه الوثنية -في أفضل الأحوال- نبيلة جدًّا ونوع مفيد من التدين من أوجه عدة. لكن عواقب عبادة الرب باعتباره شيئًا آخر غير الروح وعبر أي سبيل باستثناء عبادته في الروح وفي الحقيقة غير محمودة أبدًا – إذ إنها تؤدي إلى خلاص جزئي فقط وتؤخر إعادة اتحاد النفس النهائي بالأصل الإلهي.

يمكننا استيضاح عدد الرجال والنساء الضخم جدًّا الذين تتملك

---

(١) كتاب الصلاة المشتركة.

منهم رغبة لا تتزعزع في الشعائر والطقوس إذا ما استعانًّا بتاريخ الأديان. جوبِه الأنبياء العبرانيون جميعهم تقريبًا بالطقوسية. «ومزقوا قلوبكم، لا ثيابكم»(١)، «إني أريد رحمة لا ذبيحة»(٢)، «بغضت، كرهت أعيادكم، ولست ألتذ باعتكافاتكم»(٣). وعلى الرغم من اعتبار أن ما كتبه الأنبياء قد أوحى به الرب، بقيت معابد القدس لمئات السنين بعد زمن بعثات الأنبياء مراكز دينية طقوسية وتنسكية وتقام بها تضحيات دموية. (من الملاحظ أن سفك الدماء، سواء دماء الواحد أو دماء الحيوانات أو دماء بشر آخرين يبدو كوسيلة فعالة شاذة لإجبار العالم «الخفي» أو النفساني على إجابة التوسلات ووهب القوى الخارقة للعادة. لو أن هذا أمر حقيقي -كما يبدو من الأدلة الأنثروبولوجية والأثرية- فسوف يوفر ذلك سببًا مقنعًا آخر لاجتناب التضحية بالحيوانات وأعمال القسوة الجسدية الوحشية بل حتى الابتهاج الافتراضي بالدم المسكوب وهو الأمر الشائع جدًّا في دوائر مسيحية معينة، إذ إن التفكير صورة من صور الفعل). وما قام به اليهود بالرغم من أنبيائهم، قام به المسيحيون بالرغم من المسيح. مسيح الإنجيل واعظ وليس موزعًا للأسرار المقدسة أو ممارسًا للطقوس؛ تحدث ضد تكرار الكلام باطلًا، ألح على الأهمية الفائقة للعبادة الفردية المنعزلة؛ لم يقل بفائدة الأضاحي أو فائدة المعابد. لكن ذلك لم يمنع المسيحية التاريخية من المضي على هواها، وهو هوى بشري تمامًا. حدث تطور مماثل تمامًا في البوذية. بالنسبة إلى

---

(١) سفر يوئيل ٢ : ١٣.

(٢) إنجيل متى ٩ : ١٣.

(٣) سفر عاموس ٥ : ٢١.

بوذا الموجود في نصوص بالي المقدسة، فإن الشعائر أحد القيود التي تمنع النفس من الاستنارة والتحرر. مع ذلك، فقد خاضت الديانة التي أسسها في المراسم وتكرار الكلام باطلًا والطقوس المقدسة.

يبدو أن هناك سببين رئيسين وراء التطورات المرصودة للديانات التاريخية. أولًا- لا يرغب غالبية الناس في الروحانية أو الخلاص، لكنهم بالأحرى يرغبون في دين يمنحهم رضاءً عاطفيًّا وإجابة للتضرع وقوى خارقة للطبيعة وخلاصًا جزئيًّا، في صورة فردوس من نوع ما بعد الموت. ثانيًا- تجد قلة من الذين يرغبون بالفعل في الروحانية والخلاص أن الوسائل الأكثر فعالية بالنسبة لهم لهاتين الغايتين تتمثل في المراسم و«تكرار الكلام باطلًا» والطقوس المقدسة. يتذكرون بصورة فعالة الأصل السرمدي لكل المخلوقات عن طريق المشاركة في هذه الأفعال والنطق بهذه الصياغات؛ يمكنهم عن طريق غمر أنفسهم في الرموز الوصول بسهولة أكبر من خلالها إلى ذلك الذي ترمز له. كل شيء أو حدث أو فكرة عبارة عن نقطة تقاطع بين المخلوق والخالق، بين تجلٍّ للرب من نوع ما وشعاع للربوبية غير المتجلية - إذا صح القول؛ لذلك فمن الممكن جعل كل شيء أو حدث أو فكرة مدخلًا، قد تعبر النفس منه خروجًا من الزمن إلى الأزل. وذلك هو السبب وراء أن الدين الشعائري الطقوسي ودين الأسرار المقدسة يمكن أن يقود إلى الخلاص. في الوقت ذاته، يحب كل مخلوق بشري القوة وتعزيز الذات، كما تعتبر المراسم المقدسة والصياغات الكلامية والطقوس السرية جميعها قنوات يمكن للقوة أن تتدفق عبرها من الكون النفساني المذهل إلى داخل كون الذوات المتجسدة. وذلك هو السبب وراء أن

الدين الشعائري الطقوسي ودين الأسرار المقدسة من الممكن أن يُبعد عن الخلاص.

هناك عيب آخر مجبول في أي نظام لطقوسية عضوية، ألا وهو أنه يمنح طائفة الكهنوت قوة من الطبيعي للغاية بالنسبة لهم أن يسيئوا استخدامها. يمتلك مَن يحترفون الكهنوت سلطة قاهرة ضخمة في مجتمع تعلم أن السبيل الحصري -أو الأساسي- إلى الخلاص عبر طقوس أسرار مقدسة معينة، وأن هذه الطقوس لا يمكن القيام بها بشكل فاعل إلا بواسطة مَن يحترفون الكهنوت فقط. يغري امتلاك مثل هذه القوة دائمًا باستخدامها من أجل تحقيق الرضى الفردي والحصول على إجلال الجميع. يستسلم أغلب البشر ممن ليسوا قديسين إلى إغراء من هذا النوع إذا ما تكرر بالصورة الكافية. وذلك هو السبب وراء أن المسيح علَّم تلاميذه الصلاة من أجل ألا يساقوا إلى الإغراء. هذا هو المبدأ الموجه لأي إصلاح اجتماعي أو يجب أن يكون هذا هو المبدأ الموجه لأي إصلاح اجتماعي - تنظيم العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بين البشر بحيث لا يتوفر لأي فرد أو مجموعة أفراد داخل المجتمع إلا أقل قدر من المغريات التي تقود إلى الجشع والكبر والقسوة واشتهاء السلطة. من الممكن للرجال والنساء بسبب طبيعتهم التي هم عليها أن يحققوا الخلاص من الشر بقدرٍ ما على الأقل عن طريق تقليل عدد الإغراءات وشدتها بقدر الإمكان في المجتمعات. وبذلك، فمن غير المتوقع أن يقاوم مثل هذه الإغراءات التي تتعرض لها طائفة الكهنوت في مجتمع يقبل بدين تطغى عليه الأسرار الطقوسية إلا أشخاص شديدو الورع. ما يحدث عندما يُساق قساوسة الدين إلى مثل هذه الإغراءات

ماثل بوضوح في تاريخ الكنيسة الرومانية. لقد أخرجت المسيحية الكاثوليكية سلسلة من القديسين العظماء؛ لأنها تلقن نسخة من نسخ الفلسفة الخالدة. إلا أن كهنتها الأقل ورعا تعرضوا لمغريات ضخمة وغير ضرورية أبدًا؛ لأنه قد طغت على الفلسفة الخالدة كمية مهولة من طقوسية الأسرار وانشغال وثني بأشياء في الزمن، استسلموا لتلك المغريات، شرعوا في الاضطهاد وبيع المناصب الكهنوتية وسياسات القوة والدبلوماسية السرية والصفقات المالية الكبرى ومعاونة الطغاة.

«أدخلني الرب بنعمته في محبة ابنه العزيز، ولذلك أشك كثيرًا فيما إذا كنت قد كسرت كسرة خبز أو شربت خمرًا –ولو خلال روتين الحياة اليومية المعتاد– دون أن أتذكر الجسد المكسور والدم المراق لسيدي العزيز ومُخلِّصي، ودون أن تصاحب ذلك مشاعر مكرسة من نوع ما».

ستيفين جريليت[١].

لقد رأينا أن الطقوسية والممارسات السرية المقدسة عطايا خالصة وذلك عند رفعها إلى صميم العبادة الدينية العضوية. لكن على المرء أن يحول حياته اليومية بكاملها إلى نوع من أنواع الطقوس المستمرة، بحيث يعتبر كل شيء في العالم من حوله رمزًا يشير إلى أصل العالم السرمدي، وعلى المرء كذلك أن يقوم بكل أفعاله كأنها طقس مقدس – وهي أمور مرغوبة تمامًا، فيما يبدو. يتفق جميع معلمي الحياة الروحية، بداية من مؤلفي الأوباناشيد حتى سقراط، وبداية من بوذا حتى القديس برنارد، على أنه من دون معرفة بالذات يستحيل أن تكون هناك معرفة

(١) ستيفين جريليت (١٧٧٢ – ١٨٥٥): مبشر فرنسي بارز من الكويكرز.

وافية بالرب، وأنه من دون استغراق في التأمل يستحيل أن يكون هناك خلاص كامل. الإنسان الذي تعلم النظر إلى الأشياء باعتبارها رموزًا، والأشخاص باعتبارهم معابدَ للروح القدس، والأفعال باعتبارها أسرارًا مقدسة، هو إنسان تعلم أن يُذَكِّر نفسه دائمًا بكينونته وبمكانه بالنسبة إلى الكون وأصله، وبالطريقة التي عليه التصرف بها حيال رفاقه وما عليه أن يفعله كي يبلغ غايته الخاتمة. كتب كينيث سوندرز في دراسته القيمة عن الإنجيل الرابع (إنجيل يوحنا) والجيتا وسوترا اللوتس: «بسبب وجود اللوغوس كقوة داخلية محركة، يصبح لكل الأشياء وجود حقيقي. هي أسرار مقدسة، ليست توهمات مثل عالم الفيدانتا الظاهراتي». أشارت تعاليم الفيدانتا بتشديد أكبر وبصورة أوضح من مؤلف الإنجيل الرابع إلى أن اللوغوس في الأشياء والحيوات والعقول الواعية وهي في اللوغوس، ويمثل التصور ذاته قاعدة أساسية في الطاوية بالطبع. لكن على الرغم من أن الأشياء جميعها توجد عند نقطة التقاء بين تجلٍّ إلهي وشعاع للربوبية غير المتجلية، لا يستتبع ذلك بأي حال معرفة الجميع بأن الأمر على هذه الصورة. على العكس من ذلك، تؤمن الغالبية العظمي من المخلوقات البشرية أن ذواتهم والأشياء من حولهم تمتلك وجودًا حقيقيًا في ذاتها، وهو وجود منفصل تمامًا عن اللوغوس. يقودهم هذا الاعتقاد إلى تعيين وجودهم من خلال أحاسيسهم ورغباتهم ومفاهيمهم الخاصة وبدوره يفصلهم هذا التعيين للذات بما هم ليسوا عليه عن الأثر الإلهي وإمكانية الخلاص. لا تعد الأشياء رموزًا في أغلب الأحيان بالنسبة إلى غالبيتنا، ولا تعد الأفعال أسرارًا طقوسية؛ وعلينا أن نُعلِّم أنفسنا بصورة واعية وإرادية تذكر ما هي عليه.

«العالم حبيس نشاطه إلا عند تأدية الأفعال باعتبارها عبادة للرب. لذلك عليك القيام بكل فعل كأنه سر مقدس (وكأنما هو ياجنا[1]، التضحية المماثلة للربوبية التي تقدم لها، من حيث جوهر اللوغوس الإلهي)، وعليك التحرر من كل ارتباط بالنتائج».

بهاجافاد جيتا.

يمكننا العثور على تعاليم شبيهة تمامًا عند الكتَّاب المسيحيين، الذين يوصون بالنظر إلى الأشخاص وحتى الأشياء باعتبارها معابد للروح القدس، وأن كل ما يُفعل أو يتسبب في المعاناة «يوهب لله» دائمًا.

من الضروري بالكاد إضافة أن عملية التحويل الواعية لكل الأفعال إلى طقوس سرية مقدسة يمكن أن تطبق فقط على الأفعال غير الشريرة في جوهرها. لسوء الحظ، لم تُنشر الجيتا في الأصل كعمل مستقل، بل كاستطراد ديني داخل شعر ملحمي؛ ولأن المهابهاراتا مثلها كمثل أغلب الملاحم معنية بصورة كبيرة بمآثر المحاربين، كانت على صلة في الأساس بأعمال الحرب، إذ جاءت نصيحة الجيتا بالعمل من دون تعلق ولأجل الرب فقط. يصاحب الحرب الآن -ويعقبها- انتشار واسع للغضب والكراهية والكبر والقسوة والخوف وذلك من بين أشياء أخرى. لكن قد يسأل البعض، هل من الممكن -بما أن طبيعة الأشياء على ما هي عليه- تحويل أفعال نواتجها الثانوية النفسانية حاجبة تمامًا للرب -مثلما هي الانفعالات الناجمة عن الحرب- إلى طقوس مقدسة؟ كان بوذا الموجود في نصوص بالي المقدسة ليجيب هذا السؤال بالنفي

(١) ياجنا: تعني حرفيًّا التضحية والإخلاص والعبادة والعطاء.

بالتأكيد. وكذلك كان ليفعل لاو تسو مؤلف كتاب داوديجنغ. وهو ما كان ليفعله أيضًا مسيح الأناجيل الإزائية. أما كريشنا الجيتا (وهو كذلك كريشنا المهابهاراتا عن طريق مصادفة أدبية) فقد أجاب بالإيجاب. إلا أنه من اللازم تذكر أن هذه الإجابة بالإيجاب محاطة بشروط مقيدة. لا يُوصى بالذبح غير المتعلق إلا للمحاربين المنتمين إلى طائفة المحاربين والذين تعد أعمال الحرب بالنسبة لهم واجبًا ووظيفة. لكن ما هو واجب أو دارما بالنسبة إلى الكشاتريا[١] محرم على البراهمية[٢]، كما أنه لا يعد جزءًا من الوظيفة الطبيعية لطبقتي التجار أو العمال ولا من واجبات الطائفتين. يقول الهندوس إن أي خلط يتعلق بالطوائف، أي تعدٍّ على وظيفة رجل آخر أو واجباته المخولة إليه يعد شرًّا أخلاقيًّا وتهديدًا للاستقرار الاجتماعي. لذلك فعمل البراهمية أن يدربوا أنفسهم كي يكونوا متبصرين، وبالتالي قد يقدرون على شرح طبيعة الكون لرفاقهم البشر وطبيعة غاية الإنسان الأخيرة والسبيل إلى التحرر. عندما يُنتزع الجند أو القائمون على شؤون الإدارة أو المرابون أو الصناع أو العمال وظائف البراهمية ويصيغون فلسفة للحياة وفق مفاهيمهم المشوهة على وجوه مختلفة عن الكون، فهو إيذان بإلقاء المجتمع في أتون الفوضى. بالمثل، تسود الفوضى عندما يغتصب البراهمية -أصحاب السلطان الروحي غير القسري- قوة الكشاتريا القسرية، أو عندما ينتزع المصرفيون وسماسرة الأوراق المالية وظيفة الحكم الخاصة بالكشاتريا، أو عندما تُفرض دارما طائفة المحاربين الخاصة بالقتال عن طريق التجنيد الإجباري

---

(١) الكشاترية: طائفة المحاربين في المجتمع الهندوسي.

(٢) البراهمية: طبقة رجال الدين العليا.

على البراهمية أو الفايشيا[1] أو الشودرا[2]. تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى المتأخرة وعصر النهضة هو تاريخ ينطوي بدرجة كبيرة على اضطرابات اجتماعية، نشأت عندما تخلت أعداد كبيرة ممن كان عليهم أن يصبحوا متبصرين عن السلطان الروحي من أجل المال والسلطة السياسية. أما التاريخ المعاصر؛ فتسجيل مريع لما يحدث عندما ينتزع القادة السياسيون أو رجال الأعمال أو البروليتاريا[3] الواعية بتباين الطبقات وظيفة البراهمية المتعلقة بصياغة فلسفة للحياة؛ وعندما يملي المرابون سياساتهم ويجادلون في أمور الحرب والسلم؛ وعندما يكون واجب طائفة المحاربين مفروضًا على الجميع على اختلاف أشكالهم، وبغض النظر عن بنيتهم الجسدية النفسانية ووظيفتهم.

* * *

(١) الفايشيا: طبقة الحرفيين والتجار.

(٢) الشودرا: طبقة العمال والخدم.

(٣) البروليتاريا: الطبقة العاملة.

الفصل الخامس والعشرون

ممارسات روحية

الشعائر والأسرار المقدسة والأعياد والطقوس - تنتمي جميعها إلى العبادة الجماعية. هي أدوات، عن طريقها يُذكَّر الأفراد داخل الحشود بالطبيعة الحقيقية للأشياء وبطبيعة علاقاتهم السليمة مع أحدهم الآخر ومع الكون ومع الرب. تعد الممارسات الروحية بالنسبة إلى التكريس الفردي بمثابة الشعائر بالنسبة إلى العبادة الجماعية. هي أدوات، يمكن أن يستعملها الفرد المتنسك عندما يدخل في خلوته، ويغلق الباب عليه، ويصلي إلى أبيه في السر. ومثلها كمثل الأدوات الأخرى جميعها، بداية من إنشاد الترانيم حتى التدريبات السويدية، وبداية من المنطق حتى محركات الاحتراق الداخلي، من الممكن استعمال الممارسات الروحية استعمالًا جيدًا أو سيئًا. يحرز بعض الذين يستعملون الممارسات الروحية تقدمًا في حياة الروح؛ بينما لا يحرز البعض ممن يستخدمون الممارسات نفسها أي تقدم. أما الاعتقاد في أن استعمالها يؤلف تنويرًا أو يضمن التنوير فهو وثنية أو معتقد خرافي. ولا يعد إهمالها تمامًا والامتناع عن اكتشاف ما إذا كانت قد تساعد في تحقيق غايتنا الخاتمة وبأي طريقة قد تساعد إلا إفراطًا في الاعتداد بالذات وظلامية متعنتة.

«اعتاد القديس فرنسيس دي ساليس أن يقول: «لا أسمع إلا عن الكمال في كل حدب وصوب، طالما كانت الأحاديث تجري؛ لكنني لا أرى إلا قلة قليلة للغاية تمارس ذلك الكمال بالفعل. لكل شخص مفهومه الخاص عن الكمال. يظن أحدهم أنه كامن في تمزيق ثيابه، ويظن آخر أنه كامن في الصوم، ويظن ثالث أنه في الصدقة، أو أنه في تكرار طقوس الأسرار المقدسة أو في التأمل أو في هبة خاصة ما يسفر التأمل عنها أو في هبات أو نعم خارقة للعادة - لكن يبدو لي أن هذا كله خاطئ لأنه كله يخلط بين الوسائل أو النتائج وبين الغاية أو السبب.

«أما بالنسبة لي فالكمال الوحيد الذي أعرفه هو حب الله من القلب، وحب الأخ كحب النفس. أما الإحسان فهو مجرد فضيلة توحدنا بشكل صحيح بالرب والإنسان. مثل هذا الاتحاد هو هدفنا النهائي وغايتنا، أما كل ما عدا ذلك فتوهمات فقط».

جان بيير كامو.

أوصى القديس فرنسيس باستعمال الممارسات الروحية باعتبارها وسيلة تُفضي إلى محبة الرب والإخوان، كما أكد على أن مثل هذه الممارسات تستحق رعاية كبيرة؛ لكنه حذر من الإفراط في التعلق العاطفي بأنماط وساعات التضرع. يعد إهمال أي نداء ملح للإحسان أو الطاعة من أجل القيام بالممارسات الروحية الخاصة بالواحد إهمالًا للغاية أو للوسائل التي على مقربة من الغاية لصالح وسائل ليست على مقربة لكنها بعيدة كثيرًا عن الغاية النهائية.

تشكل الممارسات الروحية فئة خاصة من الممارسات التنسكية،

هدفها في الأساس تجهيز الفكر والمشاعر لتلك الأشكال العليا من التضرع التي تكون النفس فيها سلبية بالضرورة في علاقتها بالحقيقة الإلهية، وهدفها الثانوي تعديل السلوك عن طريق تعريض الذات إلى النور وزيادة المعرفة بالذات والنفور منها الناتج عن ذلك.

بدأت منهجة التضرع العقلي في الشرق في تاريخ غير معروف، لكنه تاريخ مبكر جدًّا بالتأكيد. كان من المعروف أن الممارسات الروحية (المصحوبة أو المسبوقة بتدريبات بدنية محكمة، خاصة تدريبات التنفس) قد استخدمت قبل قرون من ميلاد المسيح. أما في الغرب، فقد قضى رهبان طيبة جزءًا كبيرًا من اليوم في التأمل كوسيلة للاستبصار أو المعرفة الاتحادية بالرب؛ وعلى طول التاريخ المسيحي استخدم التضرع العقلي بصورة منهجية نوعًا، وذلك من أجل استكمال التضرع الجماعي الجهري والعبادة الفردية. إلا أنه لم يكن هناك اضطلاع بمنهجة التضرع العقلي وتحويله إلى ممارسات روحية محكمة -فيما يبدو- حتى قرب نهاية العصور الوسطى، عندما عمم المصلحون داخل الكنيسة هذا النوع الجديد من الروحانية في محاولة لإعادة إحياء رهبانية مضمحلة ولإعادة تعزيز الحياة الروحية للعامة (العلمانيون غير المنتمين إلى رجال الدين)، تلك الحياة الروحية التي أربكها الشقاق العظيم وصدمها بشدة فساد الإكليروس. من بين الذين اضطلعوا بمحاولات المنهجة تلك كان رجال الإكليروس في فيندسهآيم[١] هم الأكثر تأثيرًا وفعالية، والذين كانوا على اتصال مباشر بإخوان الحياة المشتركة[٢].

---

(١) فيندسهآيم: مدينة ألمانية.

(٢) إخوان الحياة المشتركة: مجتمع ديني كاثوليكي تأسس في هولندا في القرن الرابع عشر.

أصبحت الممارسات الروحية أنيقة بصورة إيجابية خلال أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر. أظهر اليسوعيون الأوائل تحولات السلوك الخارقة التي يمكن تحقيقها، وقوة الإرادة والإخلاص اللذين من الممكن بلوغهما بواسطة أناس دُربوا على الممارسات الفكرية والتخييلية الخاصة بالقديس إغناطيوس دي لويولا، وكما كانت مكانة اليسوعيين مرتفعة في أوروبا الكاثوليكية في ذلك الوقت، كانت مكانة الممارسات الروحية مرتفعة كذلك. وعبر القرن الأول من الإصلاح المضاد تشكلت أنظمة متعددة للتضرع العقلي (كثير منها صوفية بوضوح، على خلاف الممارسات الإغناطوسية)، وقد أُعلن عنها واتُّبعت بحماس. إلا أنه بعد الخلاف المتعلق بالسكينية انهارت السمعة الجيدة للصوفية ومع الصوفية انهارت سمعة العديد من الأنظمة التي حققت يومًا رواجًا شعبيًا، والتي صممها واضعوها من أجل معاونة النفس في سبيلها نحو الاستبصار. يمكن لمن أراد معلومات أكثر تفصيلًا عن هذا الموضوع المثير والهام أن يطالع **Pourrat's Christian Spirituality, Bede Frost's The Art of Mental Prayer, Edward Leen's Progress through Mental Prayer, Aelfrida Tillyard's Spiritual Exercises**. أما هنا فيمكننا فقط عرض نماذج مميزة قليلة من مختلف التقاليد الدينية.

«فلتعرف أنك متى تعلمت فقدان نفسك، فإنك بالغ المحبوب. ما من أسرار أخرى لتتعلمها، وما هو أكثر من ذلك غير معروف لي».

الأنصاري الهروي.

عقب ذلك بستة قرون رأينا القديس فرنسيس دي ساليس يقول الشيء

نفسه بدرجة كبيرة إلى كامو صغير السن وإلى كل الذين جاؤوا إليه على أمل خيالي في أنه قد يفصح عن حيلة ذكية بسيطة إلى حد ما ولا تخطئ سبيلها من أجل تحقيق المعرفة الاتحادية بالرب. لكن ما من أسرار أخرى بخلاف فقدان نفسك في المحبوب. والمتصوفة مثلهم كمثل نظرائهم المسيحيين استفادوا بدرجة كبيرة من الممارسات الروحية، لا باعتبارها غايات في حد ذاتها بالطبع، ولا حتى باعتبارها وسائل قريبة من الغاية لكن باعتبارها وسائل قريبة من الوسائل القريبة من المعرفة الاتحادية بالرب، أي إنكار الذات وحب التبصر.

«مكثت اثنتي عشرة سنة حدَّاد نفسي، وخمس سنين كنت أجلو مرآة قلبي، وسنة أنظر فيما بينهما فإذا في وسطي زنار، فعملت في قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطعه، فكشف لي، فرأيت الخلق موتى، فكبّرت عليهم أربع تكبيرات».

أبو يزيد البسطامي[١].

«أبسط أشكال الممارسة الصوفية وأوسعها تكرارًا اسم الله، أو تكرار جملة تؤكد على وجود الله واعتماد النفس عليه.

«ولذلك عندما تعقد العزم على الاضطلاع بهذا العمل (التأمل)، وتشعر عن طريق النعمة أن الرب استدعاك، فلترفع قلبك في الرب بحب وديع ملتهب. ولتعنِ الرب الذي خلقك وقَبِل بك واستدعاك إلى منزلتك في إنعام منه، ولا تقبل بأي تصور آخر عن الرب. لكن هذا كله لا يكفي أبدًا، إلا إذا رغبت بنِيَّةٍ مجردة موجهة نحو الرب، بلا أي سبب

---

(١) أبو يزيد البسطامي (٨٠٤ - ٨٧٤): أحد أعلام التصوف الفارسيين.

آخر باستثنائه هو. وإذا رغبت في حصر وتضمين النية في كلمة واحدة، وبالتالي قد تقبض عليها بصورة أفضل، فلتأخذ كلمة من مقطع واحد، فهي أفضل من تلك المكونة من مقطعين؛ إذ إنه كلما كانت الكلمة أقصر، كلما توافقت مع عمل الروح. وهذه الكلمة هي كلمة رب أو كلمة حب. اختر أيًّا ما تريد، هذه أو الأخرى؛ أي كلمة تحبها أكثر ومن مقطع واحد. ثبِّت هذه الكلمة بقلبك، وبالتالي لا يمكنه أن يمضي صوب أي أمرٍ حادث.

سوف تكون الكلمة درعك ورمحك، سواء ركبت للسلم أو للحرب. يمكنك بهذه الكلمة هزيمة هذه الغمامة وتلك العتمة من فوقك. تطيح مستعينًا بهذه الكلمة بكل نمط تفكير تظلله غمامات الغفلة. إذا ما دفعك أي هاجس كي تسأل عما لديك، فلا تجب بأي عدد من الكلمات يزيد عن هذه الكلمة الواحدة (الرب أو الحب). وإذا ما عرض أحدهم عليك أن يفسر لك تلك الكلمة بمعارفه العظيمة، قل له إنك تريدها كاملة تمامًا كما هي، ليست مفتتة أو مفككة. وإذا استمسكت بهذا الهدف، كن في يقين أن هذا الهاجس لن يبقَ للحظة».

غمامة الجهل.

يقترح مؤلف «غمامة الجهل» في فصل آخر أن الكلمة التي ترمز إلى غايتنا الخاتمة يجب أن تكون في تبادل مع كلمة أخرى تدل على موضعنا الحالي بالنسبة إلى تلك الغاية. الكلمتان اللتان تتكرران في هذه الممارسة هما الخطيئة والرب.

«عندما لا تفتت أو تفسر هاتين الكلمتين بدافع الفضول إلى المعرفة، فإنك تنظر إلى خواص هاتين الكلمتين، كأنك تزيد من إخلاصك وتكريسك من خلال نظرتك تلك. أظن أن الأمر لا ينبغي أن يكون على تلك الصورة في هذه الحالة وهذا العمل. لكن عليك أن تقبض عليهما كاملتين تمامًا كما هما؛ ولتعنِ بالخطيئة لطخة، تعرف أنها الذات وليست أي شيء آخر أبدًا... ولأنك تعيش أوقاتك في هذه الحياة الشقية دائمًا، بالتأكيد تشعر دائمًا بهذه اللطخة النتنة الخبيثة في جانب ما، كما لو أنها وُجِدَّت بجوهر وجودك وثُبِّتت إليه، وبذلك تعني ذاتك هاتين الكلمتين بالتبادل، لو حظيت ذاتك بالرب، فمن ثم ينبغي أن تفتقر إلى الخطيئة؛ وربما قد تفتقر ذاتك إلى الخطيئة، ومن ثم ينبغي أن تحصل على الرب».

غمامة الجهل.

«أخذني شيخي من يدي، وأجلسني في إيوان، ومَدَّ يده فأخرج كتابًا وأخذ يقرأ، فتطلعت إلى معرفة هذا الكتاب، فلمح الشيخ هذه الحركة فقال لي: «يا أبا سعيد إن مائة وأربعة وعشرين ألف نبي بُعِثوا؛ ليعلموا الناس كلمةً واحدة وهي (لا إله إلا الله)، فمن سمعها بأذنه فقط، لم تلبث أن تخرج من الأذن الأخرى، أما مَن سمعها بروحه وطبعها في نفسه وتذوقها حتى نفذت إلى أعماق قلبه، وفهم معناها الروحي، فقد انكشف له كل شيء».

أبو سعيد[١].

---

(١) أبو سعيد بن أبي الخير (٩٦٧ - ١٠٤٩): من أشهر المتصوفة، من أصل فارسي.

«خذ مقطعًا شعريًّا قصيرًا من أي ترنيمة، وسوف يكون درعك وترسك ضد كل أعدائك».

كاسيان[١]، مقتبسًا من الأب إسحاق[٢].

يطلق على تكرار ذكر اسم الإله أو المانترا (شهادة تكريسية أو عقائدية قصيرة) يابام وهي ممارسة روحية مفضلة بين طوائف الهندوسية والبوذية. أقصر مانترا هي أوم – رمز منطوق تحتشد فيه فلسفة الفيدانتا بأكملها. يعزو الهندوس إلى هذه المانترا وغيرها نوعًا من القوة السحرية. ترديدها هو عمل طقوسي سري مقدس، يبث النعمة من العمل الذي جرى **ex opere operato**. ولا يزال البوذيون والمسلمون واليهود والمسيحيون يعزون بالفعل تأثيرًا مماثلًا لكلمات وصيغ مقدسة. وهي مثلها كمثل الشعائر تمامًا بالتأكيد، من حيث إنها تمتلك -فيما يبدو- قوة قادرة على استحضار وجود فعلي لموجودات منعكسة على الموضوعية النفسانية وذلك عن طريق إيمان وإخلاص أجيال من العباد، وبذلك قد تصبح الكلمات التي قُدِّست لفترة طويلة قنوات توصيل قوى أكبر من تلك التي تخص الأفراد الذين كانوا ينطقون بالكلمات في تلك اللحظة وهي قوى مختلفة عن قوى أولئك المتمتمون كذلك. وفي الوقت ذاته قد يكون لترديد « كلمة رب أو كلمة حب» بصورة مستمرة في ظروف مواتية تأثيرًا عميقًا على العقل غير الواعي، وهو ما قد يحفز تركيز الإرادة والفكر والمشاعر المنكر للذات، والذي تستحيل من دونه المعرفة الاتحادية بالرب. علاوة على ذلك، قد يحدث وينتهي الحال إلى أن تُقدَّم الحقيقة التي تدل عليها الكلمة نفسها

(١) يوحنا كاسيان (٣٦٠ - ٤٣٥): لاهوتي وراهب مسيحي روماني.

(٢) الأب إسحاق من دالماتيا (توفي ٣٨٣): راهب من أصل سوري، ومؤسس دير دالماتيا.

للنفس في صورة حدس متكامل، وذلك إذا كانت الكلمة ببساطة تتكرر «كاملة تمامًا كما هي، ليست مفتتة أو مفككة». عندما يحدث هذا، تنفتح أبواب الكلمة (وفق لغة الصوفية) وتعبر الروح من خلالها إلى الحقيقة. لكن على الرغم من أن هذا كله قد يحدث، إلا أنه لا يحتاج إلى أن يحدث بالضرورة. إذ إنه لا دواء روحي مسجل، ولا كفارة سائغة لا تخطئ، من أجل النفوس التي تعاني من الانفصال والحرمان من الرب. لا، لا يوجد علاج مضمون؛ وإذا استخدم دواء الممارسات الروحية بشكل غير سليم، قد يبدأ داءٌ جديدٌ أو قد يفاقم القديم. على سبيل المثال، التكرار الميكانيكي الصرف لاسم الإله قد يؤدي إلى نوع من الخدَّر الذاهل وهو أقل بكثير من التفكير التحليلي، بينما تسمو الرؤية التبصرية على التفكير التحليلي. ونظرًا إلى أن الكلمة المقدسة تشكل نوعًا من الحكم المسبق للخبرة التي يستحثها التكرار، يذهب الواحد إلى أن هذا الخدر أو أي حال آخر غير طبيعي، هو الوعي المباشر بالحقيقة، وهو ما سوف يسعى الواحد وراءه وينميه في وثنية، ويصاحب ذلك تحول الإرادة صوب ما يُفترض أنه الرب، قبل أن تكون قد تحولت عن الذات.

واجه أولئك الذين استفادوا من ممارسات روحية أكثر إتقانًا المخاطر المحيطة بممارسي اليابام، أولئك الذين لم يميتوا الجسد كفاية ولم يستغرقوا في التأمل ويعوا كفاية، وقد واجهوا تلك المخاطر في الأنماط ذاتها أو في أنماط مغايرة. قد يكون التركيز الشديد على صورة أو فكرة -كما يوصي العديد من المعلمين في الشرق والغرب- مفيدًا جدًّا لبعض الأشخاص في ظروف معينة، وقد يكون ضارًّا جدًّا في حالات أخرى. هو مفيد عندما يؤدي التركيز إلى هدأة العقل وصمت

الفكر والإرادة والشعور، وبذلك يمكن النطق بكلمة الرب داخل النفس. وهو ضار عندما تصبح الصورة موضع التركيز حقيقية في هلوسة وينظر إليها باعتبارها حقيقة موضوعية وتُبجل في وثنية؛ وضار كذلك عندما تؤدي ممارسة التركيز إلى حدوث نتائج جسدية نفسانية غير معتادة، والتي يؤدي اختبار الشخص لها إلى كِبر شخصي، إذ يظن أنه يحظى بنعم خاصة وباتصالات إلهية. تعد الرؤى البصرية والاستماع إلى الوحي والتنبؤ والتخاطر والقوى النفسانية الأخرى والظاهرة الجسدية الغريبة للحرارة الشديدة[1] من بين أكثر الأمور الجسدية النفسانية غير المعتادة حدوثًا. يختبر كثير من الأشخاص الذين يمارسون تدريبات التركيز هذه الحرارة أحيانًا. لقد اختبر هذه الحرارة عدد من القديسين المسيحيين، أشهرهم القديس فيليب نيري والقديسة كاترين من سيينا، وقد كانا يختبرانها باستمرار. لقد طُوِّرت مثل هذه الأساليب في الشرق ليصبح من الممكن تنظيم الوصول إلى الحرارة الناجمة عن التركيز الشديد والتحكم فيها واستعمالها من أجل القيام بأمور مفيدة، مثل الحفاظ على دفء تأملي في طقس قارس البرودة. وفي أوروبا، حيث هذه الظاهرة غير مفهومة جيدًا، اختبر كثير ممن يسعون إلى التأمل هذه الحرارة وتصوروا أنها منحة إلهية خاصة من نوع ما، أو أنها خبرة الاتحاد، ولأنهم لم يكونوا متواضعين بالشكل الكافي ولم يميتوا الجسد كفاية، فقد سقطوا في فخ الوثنية والكبر الروحي الحاجب للرب.

---

(١) ظاهرة الحرارة الشديدة، بحسب وصف مَن اختبروا هذه الظاهرة، هي حرارة تبدأ حول القلب ثم تنتشر في الجسد وربما تتدفق خارج الجسد، ويستشعرها مَن يلمس مختبر هذه الظاهرة.

يحتوي المقطع التالي المأخوذ من أحد أعظم نصوص المهايانا المقدسة نقدًا استقصائيًا لذلك النوع من الممارسات الروحية التي وصفها معلمو الهينايانا - التركيز على الأشياء الرمزية والتأمل في سرعة الزوال والاضمحلال (من أجل فطام النفس من التعلق بالأشياء الدنيوية)، والتأمل في الفضائل المختلفة التي تجب تنميتها، والتأمل في معتقدات البوذية الجوهرية. (كثير من هذه الممارسات موصوفة باستفاضة في «طريق النقاء»، وهو كتاب تُرجم كاملًا ونشرته جماعة نصوص بالي. ممارسات المهايانا موصوفة في سورانجاما سوترا والتي ترجمها دوايد جودارد، وفي كتاب عن اليوجا التبتية، حرره د. إيفانز جونز).

«يرى ممارس اليوجا أثناء ممارسته (وهي رؤية خيالية) شكل الشمس أو القمر أو شيئًا يشبه اللوتس أو العالم السفلي أو أشكالًا متنوعة مثل سماء ونار وأشياء مماثلة أخرى. تقوده هذه المظاهر إلى سبيل الفلاسفة؛ تلقي به في حال السرافاكا (المستمع أو التلميذ)، في عالم براتيكابودا (بوذا الوحيد). أما عند تنحية هذا كله جانبًا، يصبح في حالٍ خالٍ من الصور الخيالية، ومن ثم يعلن وضع الانسجام مع الهكذائية عن نفسه، ويجتمع البوذات معًا من كل حدب وصوب وبأيديهم المشعة يلمسون رأس هذا المحسن».

لانكافاتارا سوترا.

«بمعنى آخر، التركيز الشديد على أي صورة (حتى لو كانت الصورة رمزًا مقدسًا مثل اللوتس) أو أي تصور، بداية من تصور الجحيم وحتى تصور فضيلة مرغوبة ما أو تمثلها الكامل في أحد الصفات الإلهية هو دائمًا تركيز على شيء خلقه عقل الواحد. قد تندمج مهارة التركيز أحيانًا

في الأشخاص الذين أماتوا الجسد واستغرقوا في التأمل مع حال الانفتاح والسلبية المنتبهة ويصبح الاستبصار الحقيقي ممكنًا. لكن أحيانًا تؤدي حقيقة أن التأمل هو من لدن عقل ممارس التركيز إلى نوع من أنواع الاستبصار الزائف أو غير الكامل. تكشف الهكذائية أو الأصل الإلهي لكل المخلوقات عن نفسها إلى أولئك الذي تخلصوا من كل تمركز حول الأنا (أو كل تمركز حول أنا أخرى[1]) سواء فيما يتعلق بالإرادة أو الخيال أو الشعور أو الفكر.

«من ثم أقول إنه من اللازم رفض الانطواء، كما إنه من اللازم عدم القبول بالانبساطية أبدًا؛ لكن على الواحد أن يعيش باستمرار في غور الجوهر الإلهي وفي لا شيئية الأشياء؛ وإذا وجد الإنسان نفسه في بعض الأوقات منفصلًا عنهما (الجوهر الإلهي واللا شيئية الخلقية)، عليه الرجوع إليهما، لا عن طريق الانطواء، لكن عن طريق الفناء».

بينيت كانفيلد.

تدين لانكافاتارا سوترا عملية الانطواء، إذ إنه طريق ممارس اليوجا، الطريق الذي يقود إلى الوثنية في أسوأ الأحوال وإلى المعرفة الجزئية بالرب في الأعالي بالداخل في أفضل الأحوال، لا يمكن أبدًا إحراز معرفة كاملة في الكمال بالخارج بالإضافة إلى المعرفة بالداخل من خلاله. أما الفناء (يميز الأب بينيت نوعين منه، فناء الفعل وفناء غير الفعل) فهو «حال خالٍ من الصور الخيالية» في حياة الاستبصار، وهو

(١) الأنا الأخرى أو الأنا البديلة: هي شخصية أخرى، قد ينطوي عليها المرء، وهي تختلف عن تلك الشخصية الظاهرة.

حال عدم التعلق الكامل في حياة الفعل، ويمكن القبض على الأزل من خلاله داخل الزمن، ويصبح معروفًا أن السامسارا هي والنيرفانا الشيء نفسه.

«ولذلك إذا أردت أن تبقى قائمًا ولا تسقط، لا تقف عند نيتك المعقودة، بل اهزم غمامة الجهل هذه دائمًا، تلك التي تقف بينك وبين ربك، باندفاعة حادة لحب مشتاق. واعزف عن التفكير في أي شيء البتة دون الرب. ولا تمضِ نحو أي شيء حادث. إذ إن هذا هو العمل الوحيد الذي يدمر أصل وجذر الخطيئة...

«نعم، وماذا بعد؟ لا تبكِ كثيرًا أبدًا على أساك بسبب الخطيئة أو بسبب آلام المسيح، أو لأنك لا تفكر كثيرًا في مباهج الفردوس، وماذا قد يفعل الأسى لك؟ سوف يجلب لك بالتأكيد الكثير من الخير، الكثير من العون، الكثير من النفع، الكثير من النعمة. لكن عند مقارنة الأسى بهذا الحب الباطني الملتهب، فما أقل ما يفعله، أو ما قد يفعله، من دون هذا الحب. إن هذا الحب هو (طريق مريم الأفضل). من دونه لا تحرز إلا نفعًا قليلًا أو لا تحرز أي نفع على الإطلاق. لا يدمر أصل الخطيئة وجذرها فقط -كما هو الحال هنا- بل يستجلب الفضائل أيضًا. إذ إنه عندما يُدرَك حقًّا، تُدرَك الفضائل جميعها فيه على نحو كامل وتام، وتُلمس وتُستوعَب، من دون أن تكون ممتزجة بأي نية مبيتة. ولن يحظى إنسان بالكثير من الفضائل من دونه، وجميع ما سوف يحظى به سوف يكون ممزوجًا بنية مبيتة ملتوية، ولذلك فهي فضائل معيبة. وما الفضائل إلا نزوع معتدل محتوم موجه بوضوح نحو الرب لأجل الرب».

غمامة الجهل.

إذا أدت ممارسات التركيز وتكرار اسم الإله أو التأمل في صفات الرب أو في مشاهد متخيلة في حياة القديس أو الأفاتار إلى مساعدة من يستخدمها في بلوغ إنكار الذات والانفتاح و«حب الربوبية الخالصة» (بحسب تعبير أوغسطين بيكر)، فإن هذه الممارسات الروحية طيبة ومرغوبة تمامًا. أما إذا أدت إلى نتائج أخرى - فإن الشجرة تُعرف من ثمارها.

ألمح بينيت كانفيلد الراهب الكبوشي[1] الإنجليزي الذي كتب «قانون الكمال» وكان المرشد الروحي لمدام أكاري[2] والكاردينال بيرول[3] في مقالٍ له إلى المنهج الذي من خلاله قد يقود التركيز على الصورة إلى الاستبصار الخالي من الصور الخيالية، و«التأمل الباطني»، و«حب الربوبية الخالصة». تبدأ فترة التضرع العقلي بتركيز شديد على مشهد آلام المسيح؛ ومن ثم ينقض هذا التخيل للطبيعة البشرية المقدسة وينتقل إلى الربوبية التي تعز على التصوير والوصف، تلك الربوبية التي تعتبر الطبيعة البشرية تجسدًا لها. هناك ممارسة مشابهة بشكل مذهل موصوفة في باردو ثودول أو كتاب الموتى التبتي (عمل عميق وجميل بصورة فائقة للغاية، ولحسن الحظ ترجمته متوفرة مع مقدمة قيمة وملاحظات للدكتور إيفانز جونز).

«أيًا كان ربك الحافظ، تأمل هيئته لوقت أطول - كأنه ماثل، إلا أنه لا

---

(١) الرهبنة الكبوشية: حركة رهبنة كاثوليكية.

(٢) مدام أكاري (١٥٦٦ - ١٦١٨): مؤسسة الرهبنة الكرملية (رهبنة إخوة سيدة جبل الكرمل) في فرنسا.

(٣) الكاردينال بيير دي بيرول (١٥٧٥ - ١٦٢٩): لاهوتي وكاهن كاثوليكي فرنسي.

يزال غير موجود في الواقع، مجرد هيئة أتى بها ساحر... ثم اترك صورة الرب الحافظ تتلاشى من الأطراف، إلى أن تختفي تمامًا بكاملها بحيث لا يعود شيئًا ظاهرًا منها؛ وضع نفسك في حال الصفاء والخواء -ذلك الحال الذي لا تستطيع إدراكه باعتباره شيئًا ما- امكث في هذا الحال لفترة بسيطة. ثم تأمل الرب الحافظ مرة أخرى؛ تأمل من جديد النور الصافي؛ افعل ذلك بالتبادل. بعد ذلك اسمح لفكرك بالتلاشي تدريجيًّا، بادئًا من الأطراف».

كتاب الموتى التبتي.

وكتلخيص نهائي للأمر بأكمله، قد نورد هنا جملة مقتبسة من إكهرت: «مَن يقصد إلى الرب ساعيًا وراء هيئة ثابتة له، يقبض على الهيئة، بينما يُفوِّت الرب الكامن فيها». الكلمة المفتاحية في عبارته هي كلمة «ثابتة». من المسموح به أن تقصد إلى الرب ساعيًا وراء هيئة مبدئيًّا، وهي هيئة مُيِّزت في البداية باعتبارها رمزًا للحقيقة فقط، وهو رمز تجب تنحيته عاجلًا أم آجلًا لصالح ما يرمز إليه. يضلل القصد إليه سعيًا وراء هيئة ثابتة الواحد ويجعله يرتكب وثنية من نوع ما، وهي هيئة توصف بالثابتة بسبب اعتبارها صورة الحقيقة.

يتمثل العائق الرئيس في سبيل السمو ببعض أنماط التضرع العقلي في الجهل بطبيعة الأشياء (وهو الجهل الذي لم يبلغ من قبل العمق الذي بلغه اليوم في عصر التعليم الإجباري المجاني) كما يتمثل في الاستغراق في اهتمامات الذات، وفي مشاعر إيجابية وسلبية متصلة بالعواطف والرغبات، وفيما اصطلح على تسميته «وقتًا جيدًا». وعند السمو بالممارسة، تصبح تلك العوائق في سبيل هدف التضرع العقلي مشتتات.

يعاني جميع الناس تقريبًا -بمن فيهم الأكثر ورعًا- من قدر ما من المشتتات. لكن من الواضح أن الشخص الذي يحيا حياة منحرفة، متمركزة حول الذات، لا تعرف الاستغراق في التأمل سوف يصارع مشتتات أكثر وأسوأ من ذلك الذي يعيش حياة متمركزة حول هدف واحد، ولا ينسى أبدًا ماهيته وموقعه من الكون وأصله الإلهي. تستفيد فعليًّا بعض الممارسات الروحية المفيدة جدًّا من المشتتات، إذ تُحوِّل معوقات التخلي عن الذات والصمت العقلي والسلبية في العلاقة مع الرب إلى وسائل للتقدم.

لكن في البداية وكمدخل لوصف هذه الممارسات، علينا الانتباه إلى أن معلمي فن التضرع العقلي جميعهم اتفقوا على نصح تلاميذهم ألا يستخدموا جهودًا عنيفة للإرادة السطحية ضد هذه المشتتات التي تبزغ في العقل خلال فترات الاستغراق في التأمل. نص بينيت كانفيلد على سبب هذا باقتضاب في كتابه «قانون الكمال». «كلما عمل الإنسان، كلما زادت كينونته ووجوده. وكلما زادت كينونته ووجوده، كلما قل وجود الرب بداخله». يؤدي كل تعزيز للذات الشخصية المنفصلة إلى تخفيض موازٍ لإدراك ذات الحقيقة الإلهية. لكن أي استجابة عنيفة للإرادة السطحية ضد المشتتات تعزز تلقائيًّا الذات الشخصية المنفصلة، وبالتالي تقلل من فرص بلوغ المعرفة بالرب ومحبته. نُعمِّق بالكاد من ظلام جهلنا الفطري في خضم محاولاتنا العنيفة لإلغاء أحلام اليقظة الحاجبة للرب. ولأن الحال كذلك، علينا التخلي عن محاولة محاربة المشتتات، وعلينا العثور على سبل إما لتطويقها أو للاستفادة منها بطريقة ما. على سبيل المثال، إذا حققنا بالفعل درجة ما من السلبية المنتبهة في

علاقتنا بالحقيقة ثم هجمت المشتتات، فيمكننا ببساطة «التلفت في حذر» والانتباه لذلك الأبله الخبيث الشهواني الذي يقف بيننا وبين موضع «اهتمامنا البسيط». تبدو المشتتات الآن في طليعة الوعي؛ نلاحظ وجودها، ثم نحوِّل بؤرة انتباهنا رويدًا رويدًا وبنعومة، من دون أي إجهادٍ للإرادة نحو خلفية وعينا حيث الحقيقة التي نلمحها أو نتكهن بها أو نعرفها بالكاد (من خبرة ماضية أو بفعل الإيمان). يتسبب هذا التحويل للانتباه من دون بذل مجهود في كثير من الحالات في فقدان المشتتات «لهناكيتها» الاستحواذية ولاختفائها لبعض الوقت على الأقل.

«إذا هام القلب على وجهه أو شُتِتَّ، فلتعد به إلى الهدف برفق تمامًا، ولتضعه موضعه في حنو في حضرة مولاه. وإذا لم تفعل شيئًا خلال ساعتك بأكملها بخلاف إعادة قلبك ووضعه من جديد في حضرة ربه، حتى لو كان يمضي مبتعدًا في كل مرة ترجعه محله فيها، فلقد وظفت ساعتك بشكل جيد جدًّا».

القديس فرنسيس دي ساليس.

يشكل تطويق المشتتات في هذه الحالة درسًا قيمًا في الصبر والمواظبة. يصف كتاب «غمامة العارف» وسيلة أخرى أكثر مباشرة للاستفادة من القرد في قلوبنا.

«عندما تشعر أنك قد تقمعها (المشتتات) في تصرف غير حكيم، فلتتراجع مثلما يتراجع الأسير والجبان ليتجاوزا المعركة؛ إذ إنه من الحماقة أن تكافح ضدها لوقت أطول، وهكذا تُسلِّم نفسك للرب وأنت بين أيادِي أعدائك... وأظن في يقين أنك إذا أدركت هذه الوسيلة

حقًّا، فهي ليست إلا معرفة صحيحة بذاتك وشعور بها كما هي بالفعل، شيء بائس حقير أسوأ من اللاشيء، تورث معرفتها والشعور بها المذلة (التواضع). وتستحق هذه المذلة تنزل الرب عز وجل للانتقام من أعدائك؛ كي يسمو بك ويكفكف دموعك الروحية في حنان، كما يفعل الأب مع ابنه الذي يوشك أن يهلك تحت أفواه خنازير برية وعضات دببة هائجة».

غمامة الجهل.

وأخيرًا، هناك الممارسة التي تُوَظَّف كثيرًا في الهند، والتي تكمن في فحص المشتتات عند بزوغها في تجرد، وتعقبها حتى جذورها في الطبع والسلوك، في التكوين والعادات المكتسبة، وذلك عبر تذكر أفكار ومشاعر وأفعال معينة. يكشف هذا الأسلوب للنفس عن الأسباب الحقيقية لانفصالها عن الأصل الإلهي لوجودها. إذ تصل إلى إدراك أن جهلها الروحي يرجع إلى النشوز الكامن في الذات أو إلى تمردها الفاعل، كما تكتشف تحديدًا النقاط التي تتصلب عندها الذات الحاجبة كتخثرات جامدة وكثيفة. ومن ثم تنصرف إلى فعل ما تستطيعه لتخليص نفسها من هذه العوائق التي تحجب النور، تضع جانبًا التفكير فيها وتُفرِّغ نفسها وتطهرها وتصمت، وتُعَرِّض نفسها إلى ما قد يكون قائمًا هناك فيما وراءها وبداخلها.

اعتاد القديس فرنسيس الأسيزي أن يقول: «**Noverim me, noverim te**». معرفة الذات المؤدية إلى كراهية الذات والتواضع هي شرط محبة ومعرفة الرب. للممارسات الروحية التي تستفيد من المشتتات هذه الميزة العظيمة، إذ تزيد من المعرفة بالذات. يجب أن

تكون كل نفس تقترب من الرب على دراية بماهيتها وما هي عليه. أما ممارسة نوع من التضرع العقلي أو الجهري يفوق موضع الواحد الأخلاقي فهو كذب، وتتمثل تبعات مثل هذا الكذب في مفاهيم خاطئة عن الرب، وتبجيل وثني لتوهمات خاصة وغير واقعية وكبر روحي (بسبب الافتقار إلى التواضع ومعرفة الذات).

من الضروري بالكاد إضافة أن لهذه الوسيلة مخاطرها كما أن لها فوائدها -ومثلها في ذلك كمثل الوسائل الأخرى كلها. يجابه أولئك الذين يوظفون هذه الوسيلة إغراء ثابت بنسيان الغاية في خضم الذرائع الشخصية البائسة - الاستغراق في مقال ضمن سيرة ذاتية لتبيض السمعة أو التعاطف مع النفس إلى حد استبعاد الربوبية الخالصة، تلك التي يمارس أمامها «القرد الغاضب» كل حيله المدهشة التي يتذكرها الآن في تلذذ شديد.

نصل الآن إلى ما قد ندعوه ممارسات الحياة اليومية الروحية. المعضلة هنا بسيطة تمامًا - كيف يُذَكِّر المرء نفسه خلال ساعات العمل والاستجمام أن هناك جانبًا للكون أعظم مما تلتقي به عين المستغرق في العمل أو اللهو؟ لا يوجد حل وحيد لهذه المعضلة. بعض الأعمال والاستجمامات بسيطة جدًّا وغير صارمة، وهو ما يسمح بالتكرار المتواصل للاسم المقدس أو الجملة المقدسة، أو بالتفكير الذي لا ينقطع في الحقيقة الإلهية، أو بالصمت العقلي الذي لا يزعجه شيء مع السلبية المنتبهة (وهو الأفضل من بينها جميعًا). كانت انشغالات بروذر

لورنس[1] (الذي كانت «ممارسته لاستحضار الرب» مشهورة في دوائر غير مهتمة تمامًا بالتضرع العقلي أو الممارسات الروحية) من هذا النوع من المهام البسيطة جدًّا وغير الصارمة. لكن هناك مهام أخرى معقدة جدًّا ولا تقبل مثل هذا الاستغراق المستمر في التأمل. يقول إكهرت: «مقيم القداس العازم بشدة على الاستغراق في التأمل عرضة لارتكاب الأخطاء. السبيل الأمثل له أن يحاول تركيز العقل قبله وبعده، لكن عندما يقوله، عليه أن يفعل ذلك بدقة تامة». تنطبق هذه النصيحة على أي مهنة تتطلب انتباهًا كاملًا. لكن من النادر أن يتطلب أمرٌ انتباهًا كاملًا، كما أنه من العسير الحفاظ على الانتباه الكامل لفترات طويلة ممتدة دون انقطاع. توجد دائمًا فترات استرخاء بينية. ولكل واحد مطلق الحرية في ملء هذه الفترات البينية، إما بأحلام اليقظة، وإما بما هو أفضل.

من يَحْظَ بالرب في عقله -الرب الذي في كل الأشياء وحده وببساطة، فإنه يحمل الرب معه في أعماله كلها وفي الأماكن كلها، ويقوم الرب وحده بكل أعماله. لا يسعى إلى شيء سوى الرب، لا شيء يبدو طيبًا بالنسبة له سوى الرب. وكما لا يمكن لأي تعددية أن تبدد الرب، كذلك لا يمكن لشيء أن يبدد هذا الرجل أو أن يهدد وَحدته».

إكهرت.

«لا أقصد أننا قادرون على وضع أنفسنا إراديًّا على جادة الطريق المفضي إلى تبديد المؤثرات؛ حاشا لله! إذ إن هذا بمثابة تجريب لله وبحث عن المخاطر. لكن لو صاحبت هذه المشتتات عناية إلهية،

---

(1) بروذر لورنس (١٦١٤ - ١٦٩١): راهب وكاتب فرنسي.

واتُّخذت حيالها التدابير المناسبة وجُوبهت بساعات تضرع وقراءة حامية وحافظة، فسوف ينتهي الأمر نهاية طيبة. أغلب هذه الأشياء التي تصيبك بالحسرة وأنت في عزلتك أكثر نفعًا لأجل تواضعك وإنكارك لذاتك من جل ما تتمتم به وأنت في عزلتك... قد يخدع أحيانًا كتاب محفز عن التكريس أو تأمل متقد أو حديث لافت حواسك، إذ تجعلك تشعر بالرضى عن الذات والاكتفاء، فتتصور نفسك متقدمًا للغاية في الطريق إلى الكمال؛ وبذلك تمتلئ تمامًا بتصورات غير واقعية، وهو ما يجعلك تنتفخ كطبل أجوف ويزيد كبرك، وبالتالي تعود من ممارساتك الدينية أقل تسامحًا مع أي شيء قد يعترض إرادتك. أدعوك إلى التمسك بقوة بهذه القاعدة: لا تسعَ وراء شيءٍ مُشَتِّت، لكن عليك أن تصبر تمامًا على كل ما يريده الرب من دون أن تسعى إليه، سواء كان ذا طبيعة مُشَتِّتة أو معيقة. من المضلل تمامًا البحث عن الرب بعيدًا تمامًا في أمور من غير الممكن ربما الوصول إليها أبدًا، متجاهلين أنه إلى جوارنا في الأمور اليومية التي تزعجنا، طالما كنا نتحمل في تواضع وشجاعة كل ما يصدر عن العيوب العديدة في إخواننا وفينا».

فينيلون.

«فلتأخذ في اعتبارك أن حياتك عبارة عن اضمحلال مستمر، واسمُ بعقلك إلى الرب فوق كل شيء وعلى مدار الزمن، قائلًا: «أعشق يا إلهي وجودك السرمدي؛ سعيدٌ لأن وجودي زائل مع مرور الوقت، وهو ما يعني أن كل لحظة تجعلني أقترب من السكنى في سرمديتك».

جان جاك أوليبه.

«عندما تمشي وحيدًا أو في أي مكان، فلتنظر في مشيئة الرب العامة، التي يُجري بها كل أعمال رحمته وعدله في السماوات وعلى الأرض وتحت الأرض، ولتقبل ولتمجد ولتحب تلك الإرادة المهيمنة، والمقدسة كل التقديس والعادلة كل العدل والجميلة كل الجمال. بعدئذ انظر في مشيئة الرب الخاصة، التي يحب بها خاصته، ويُعمِل فيهم سبله المتنوعة بالابتلاء والسلوى. ومن ثم عليك أن تتفكر مليًّا لبعض الوقت، متأملًا كيف يحظى الطيبون بالسلوى، لكن تأمل كذلك على وجه الخصوص الابتلاءات التي تصيبهم؛ ثم قبولهم بتواضع شديد مشيئة الرب وتمجيدها وحبها. تفكر في تلك المشيئة في شخصك، في كل الأمور الطيبة أو الخبيثة التي تحدث لك والتي قد تحدث لك، فيما عدا الخطيئة؛ ومن ثم اقبل ذلك كله ومَجِّده وأحبَّه، معلنًا أنك سوف تُثَمِّن وتُقدِّر وتعشق تلك الإرادة المهيمنة وتسلِّم لما يرضي الله وتوقف عليه كل ما لديك ومن بينه أنا. ولتنتهِ إلى ثقة عظيمة في تلك المشيئة، إذ إنها سوف تقوم بكل ما هو خير لأجلنا ولأجل سعادتنا. وأضيف أنه عندما تقوم بهذا التدريب مرتين أو ثلاث مرات بهذه الطريقة، يمكنك تقصيره والتنويع عليه وتنظيمه، كما يتراءى لك على الصورة الأفضل، إذ ينبغي أن يمتلئ القلب بالرغبة والحماس».

القديس فرنسيس دي ساليس.

«فلتسكن في النور؛ إذ إنه لن يحدث وتتعثر هناك على الإطلاق، إذ تصبح كل الأشياء مكشوفة في النور. عندما تمشي بالخارج، يكون بصحبتك، في كنفك، لا حاجة بك أن تقول، هو ذا هنا، هو ذا هناك؛ هو حاضر عندما ترقد في فراشك كي يعلمك ويحكم على العقل الشارد،

الذي يشرد بعيدًا في الخارج، وفي أفكارك العليا وخيالاتك ويجعلها عيانًا. بتتبعك لأفكارك وهواجسك سرعان ما تضيع. أما بسكناك في هذا النور، يكشف لك عن هيكل الخطيئة ومفاسدك وحالاتك المتدنية، حيث أنت. قف في ذلك النور الذي يبين لك هذا كله، لا تمضِ يمينًا أو يسارًا».

جورج فوكس.

أما الاقتباس التالي فمأخوذ من ترجمة واي تاو وجودارد للنص الصيني «صحوة الإيمان» الذي كتبه أشفاغوشا[1] - وهو عمل مكتوب في الأساس بالسنسكريتية خلال القرن الأول من حقبتنا التاريخية، لكن النص الأصلي قد فُقِد. كرس أشفاغوشا قسمًا من مقاله «للوسائل الملائمة» كما يطلق عليها في الاصطلاح البوذي، والتي يمكن من خلالها تحقيق معرفة اتحادية بالهكذائية. تتضمن قائمة الوسائل التي لا غنى عنها الإحسان والتعاطف نحو كل الكائنات التي تحس والكائنات دون البشر وكذلك البشر، إفناء الذات أو الإماتة، التكريس الشخصي لتجسدات طبيعة بوذا المطلقة، الممارسات الروحية المصممة من أجل تحرير العقل من رغباته المهووسة بالانفصال والذاتية المستقلة، وبذلك يصبح قادرًا على إدراك هوية جوهره والجوهر الكوني للعقل. سوف أقتبس من بين هذه «الوسائل الملائمة» آخر اثنتين فقط - سبيل الطمأنينة وسبيل الحكمة.

«سبيل الطمأنينة: الهدف من هذا التدريب له شقان: الوصول بكل الأفكار المزعجة إلى السكون (مع العلم أن كل الأفكار التمييزية هي

---

(١) أشفاغوشا (٨٠ - ١٥٠): فيلسوف وشاعر وخطيب.

أفكار مزعجة)، تهدئة كل الأمزجة والعواطف التي تأخذ بعنان الواحد، وبذلك يصبح من الممكن التركيز على العقل من أجل التأمل والإدراك. ثانيًا، بعدما يطمئن العقل بسبب توقفه عن تفكير الاستطرادات المنطقية كله، يبدأ في ممارسة «الانعكاس» أو التأمل، لا بطريقة تمييزية تحليلية، بل بطريقة تعتمد الفطنة (راجع التفريق السكولائي بين العقل والفطنة)، وذلك عن طريق إدراك معنى أفكار وخبرات الواحد ودلالاتها. من خلال هذه الممارسة المكونة من شقين «التوقف والإدراك» سوف يتطور إيمان الواحد -الذي أُوقظ بالفعل- وتدريجيًا سوف يندمج جانبًا هذه الممارسة في أحدهما الآخر - إذ يطمئن العقل تمامًا لكنه يَنشَط جدًّا في صدد الإدراك. كان الواحد في الماضي على ثقة بملكة التمييز (التفكير التحليلي) عنده، لكن على الواحد أن يتخلص من تلك الثقة الآن وينهي أمرها تمامًا.

«على أولئك الذين يمارسون «التوقف» اللجوء إلى مكان ما هادئ، والجلوس هناك بقامة منتصبة، والسعي في اجتهاد إلى الطمأنينة وتركيز العقل. من الممكن أن يلجأ الواحد في البداية إلى مراقبة تنفسه، إلا أنه من غير الحكمة الاستمرار في هذا الفعل لفترة طويلة، وكذلك من غير الحكمة السماح للعقل بالاعتماد على مظاهر أو مشاهد أو مفاهيم معينة، تنشأ عن الحواس، مثل العناصر الأولية للأرض والماء والنار والأثير (وهي أشياء تعود معتنقو الهينايانا على التركيز فيها في إحدى مراحل تدريبهم الروحي)، وكذلك من غير الحكمة السماح للعقل بالاعتماد على أي من مدركاته أو تفصيلاته أو تمييزاته أو أمزجته أو عواطفه. يجب تنحية أي تصور بسرعة مكافئة للسرعة التي يظهر بها؛

بل يجب التخلص من مفاهيم التحكم والتنحية كذلك. ينبغي أن يصبح عقل الواحد مثل سطح المرآة، يعكس الأشياء، لكنه لا يحكم عليها أو يستبقيها. ليس للمفاهيم عن نفسها أي جوهر؛ اتركها تظهر وتموت دون أن تبالي لأمرها. المفاهيم التي تنشأ في الحواس والعقل الأرضي لن تتخذ شكلًا لنفسها، إلا إذا قبض عليها الوعي؛ أما إذا تجاهلها، فلن يكون هناك ظهور لها أو اختفاء. يسري الأمر نفسه على الأمور خارج العقل؛ من غير المسموح لها أن تجذب الانتباه وبالتالي تعيق الممارسة. من المستحيل أن يكون العقل فارغًا تمامًا، وبما أن الأفكار التي تنشأ من الحواس والعقل الأرضي تُنحَّى ويتم تجاهلها، على الواحد أن يُحلَّ محلها النشاط العقلي السليم. من ثم يبزغ السؤال: ما النشاط العقلي السليم؟ الرد هو: النشاط العقلي السليم هو إدراك العقل نفسه، إدراك جوهره الخالص غير المتمايز. عندما يركز العقل على جوهره الخالص، لا تبقى هناك أي مفاهيم عن الذات، بل لا تبقى هناك مفاهيم عن الذات التي تمارس فعل الإدراك ولا عن ظاهرة الإدراك نفسها...

«سبيل الحكمة: الغرض من هذا التدريب الوصول بالإنسان إلى اعتياد تطبيق التبصر الذي بلغه نتيجة التدريبات السابقة. عندما يستيقظ الواحد أو ينهض أو يمشي أو يفعل شيئًا أو يقف، عليه أن يركز عقله باستمرار على الفعل وقيامه به، لا على علاقة الواحد بالفعل، أو طبيعته وقيمته. على الواحد أن يفكر: هناك مشي، هناك وقوف، هناك إدراك؛ وليس أنا أمشي ، أنا أقوم بهذا، إنه شيء جيد، إنه غير مرغوب فيه، أكتسب ميزة، إنه أنا مَن يدرك كم هو رائع. من هناك تأتي الأفكار الشاردة ومشاعر الابتهاج أو الفشل أو التعاسة. بدلًا من ذلك كله، على الواحد ببساطة

أن يمارس تركيز العقل على الفعل نفسه، وفهمه باعتباره وسيلة ملائمة لبلوغ طمأنينة العقل والإدراك والتبصر والحكمة؛ وعلى الواحد اتباع الممارسة بإيمان ورغبة وابتهاج. وبعد فترة من هذه الممارسة تضعف قيود العادات القديمة وتختفي، ويظهر محلها الرضى والثقة والوعي والاطمئنان.

«ما الذي صُمِّم سبيل الحكمة من أجل تحقيقه؟ هناك ثلاث فئات من العوامل التي تعيق تقدم الواحد على طول طريق التنوير. أولًا- هناك الإغراءات التي تنشأ عن الحواس وعن الظروف الخارجية وعن العقل المُمَيِّز. ثانيًا- هناك العوامل الداخلية التي تخص العقل وأفكاره ورغباته ومزاجه. صُمِّمت الممارسات السابقة (الممارسات الأخلاقية وممارسات الإماتة) من أجل التخلص منها كلها. نجد في الفئة الثالثة من المعوقات الدوافع الغريزية والجوهرية للفرد (ولذلك فهي الأكثر إغواء وبقاء) - تلك الدوافع هي الرغبة في الحياة والاستمتاع والرغبة في رعاية شخصية الواحد والرغبة في التمدد والانتشار، وهو ما يؤدي إلى تعظيم الطمع والشهوة والغضب والافتتان والكبر والأنانية. صُمِّمت ممارسة حكمة البارامیتا (الكمال) من أجل التحكم في هذه المعوقات الجوهرية والغريزية والتخلص منها. عن طريق وسائلها يصفو العقل تدريجيًّا ويصبح أكثر وضاءةً وأكثر سلامًا. يصبح التبصر أكثر تغلغلًا ويتعمق الإيمان ويتوسع، إلى أن يندمجا في سامدي[1] الجوهر الخالص للعقل، المتعذر إدراكه. ومع استمرار الواحد في ممارسة سبيل الحكمة،

(١) السامدي: حالة استغراق تأملي.

يصبح استسلام الواحد لأفكار العزاء والجزع أقل وأقل؛ يترسخ الإيمان أكثر ويصبح أكثر انتشارًا وإفادة وإبهاجًا؛ ويختفي الخوف من الانتكاس. لكن لا تظن أن تحقيق ذلك سهلٌ أو سريعٌ؛ قد تكون هناك حاجة ضرورية للكثير من عمليات إعادة الميلاد، قد تكون هناك حاجة إلى أن تمر دهور عديدة. طالما بقيت الشكوك والكفر والافتراءات والسلوكيات الشريرة ومعوقات الكارما وضعف الإيمان والكبر والكسل والمثيرات العقلية، بل طالما طال أمد ظلالها، يستحيل بلوغ سامدي بوذا. لكن ذلك الذي بلغ إشراق السامدي العليا أو المعرفة الاتحادية سوف يكون قادرًا -مع كل البوذات- على إدراك الاتحاد الكامل للمخلوقات ذات الحس كلها بدارماكايا البوذوية. في الدارماكايا لا وجود للثنائية ولا لظلال التمايز. كل المخلوقات ذات الحس في النيرفانا بالفعل، إذا كان لها أن تدرك ذلك فقط. الجوهر الخالص للعقل هو السامدي العليا، هو أنوترا سامياك سامبودي (التنوير الكامل غير القابل للتجاوز)، هو براجنا باراميتا (الحكمة الكاملة)، هو الحكمة الكاملة العليا».

أشفاغوشا.





❋ ❋ ❋

الفصل السادس والعشرون

المواظبة والانتظام

«من يتوقف عن السير في مسار ممارساته الروحية وينقطع عن الصلاة، مثله كمثل مَن ترك طائرًا ليهرب من قبضة يده؛ لا يكاد يستطيع الإمساك به مرة أخرى».

القديس يوحنا الصليب.

Si volumus non redire, currendum est (إذا رغبنا في ألا ننقلب على أعقابنا، علينا أن نهرع).

بيلاجيوس[1].

«إذا قلت: «هذا يكفي، لقد بلغت الكمال». إذَنْ فقد ضاع كل شيء؛ إذ إن وظيفة الكمال تتمثل في جعل الواحد يعرف نقائصه».

القديس أوغسطينوس.

لدى البوذيين قول مأثور مماثل، يذهب إلى أنه إذا اعتقد أرهات[2]

(١) بيلاجيوس (٣٥٤ - ٤١٨): فيلسوف ولاهوتي، وُلِد في بريطانيا، وتُوفي في فلسطين.
(٢) أرهات: هو ذلك الشخص الذي اكتسب تبصرًا في طبيعة الوجود الحقيقية.

في أنه أرهات، فهذا دليل على أنه ليس أرهات.

«أقول لك: يستحيل أن يختبر أحدهم هذا الميلاد (إدراك الرب في النفس) من دون مجهود جبار. يستحيل أن يبلغ أحدهم هذا الميلاد لو لم يستطع سحب عقله تمامًا من الأشياء».

إكهرت.

«لو فُرِضَت عليَّ كفارة حادة، فلا أعرف شيئًا اضطلعت به كثيرًا للغاية وبرضى تام أكثر من إعداد نفسي للتضرع من خلال استعادة الذات والوعي بها. لم أستطع حمل نفسي على التضرع والصلاة، بالتأكيد هاجمني الشيطان بعنف شديد لا قدرة لي على مقاومته، أو كانت عاداتي الشريرة قوية جدًّا؛ كان الحزن الذي شعرت به وأنا أدخل الكنيسة عظيمًا جدًّا، تطلب مني الأمر كل الشجاعة التي أملكها كي أجبر نفسي على الدخول. يقولون عني إن شجاعتي ليست ضئيلة، ومن المعروف أن الرب منحني شجاعة تفوق تلك التي لامرأة؛ لكنني لم أحسن استغلالها. في النهاية استجاب لي المولى، وعندما عنَّفت نفسي، وجدت سلامًا وبهجة أكبر مما حصلت عليها عندما كانت أذهب إلى الصلاة راغبة في ذلك».

القديسة تيريزا.

«قال أبونا القديس فرنسيس دي ساليس لأحد أولاده الروحيين: «كن صبورًا مع الجميع، لكن كن صبورًا مع نفسك أكثر من صبرك مع أي أحد. أقصد، لا تقنط من نقائصك، لكن انهض دائمًا متسلحًا بشجاعة طازجة. أنا سعيد لأنك تبدأ من جديد كل يوم؛ لا توجد وسيلة لبلوغ

الحياة الروحية أفضل من البدء من جديد باستمرار، وعدم التفكير أبدًا في أننا قد فعلنا ما يكفي. كيف لنا أن نصبر على تحمل أخطاء إخواننا، إذا لم نصبر على تحمل أخطائنا نحن؟ مَن تضايقه سقطاته، لن يصححها؛ كل التصحيحات النافعة تصدر عن عقل هادئ، ينعم بالسلام».

جان بيير كامو.

«نادرة هي النفوس التي تهب نفسها لصلاة باطنية، لكنها في وقت ما أو الآخر تجد نفسها نافرة نفورًا عظيمًا مع ذلك، لديها التباسات عظيمة في العقل وجمود في الوجدان، لذلك إذا لم تحظَ النفوس المعيبة بالإرشاد والتجهيز الجيدين، سوف تكون في خطر، في حال إذا استمرت تناقضات الطبيعة الدنيئة طويلًا، قد يصيبها الغم، نعم قد تمتنع عن مباشرة الصلاة، سوف تكون عرضة للتفكير في أن التأملات لا غرض منها على الإطلاق، إذ يبدو لها أن تفكيرها في الرب وتحركها نحوه -مهما كان- هو تضييع للوقت وبلا فائدة على الإطلاق؛ وبالتالي سوف يكون من الأنفع لها توظيف وقتها في سبيل ما آخر.

«نعم، بعض النفوس يوجهها الرب عز وجل عبر سبيل واحد هو تلك الصلاة الفاترة، لا تجد في التأمل أي رضى محسوس، بل على العكس، ألم متواصل وتناقض، ومع ذلك لا تتوقف أمام كل ذلك بل تخترق كل الصعوبات في حزم وتواصل ممارساتها الباطنية نحو التقدم العظيم لروحها بأفضل طريقة تستطيعها، وذلك بفضل نعمة خاصة وشجاعة مجبولة في الروح».

أوغسطين بيكر.

الفصل السابع والعشرون

التأمل والفعل والمنفعة المجتمعية

من البديهي في الصياغات التاريخية للفلسفة الخالدة أن غاية حياة البشر هي التأمل أو المعرفة الاتحادية والمباشرة بالرب؛ وأن الفعل هو الوسيلة إلى تلك الغاية؛ وأن المجتمع جيد بالقدر الذي يجعل التأمل ممكنًا لأعضائه؛ وأن وجود ولو أقلية من المتأملين ضروري من أجل صلاح أي مجتمع. ومن نافلة القول أن الفلسفة الشائعة في عصرنا هذا تذهب إلى أن الفعل هو غاية حياة البشر؛ وأن التأمل (ولا سيما في أشكاله الدنيا للتفكير الاستطرادي المنطقي) هو الوسيلة إلى هذه الغاية؛ وأن المجتمع جيد بالقدر الذي تكون به أفعال أعضائه من أجل التقدم في التقنية والتنظيم (تقدم من المفترض أن اتصاله بالنمو الأخلاقي والثقافي أمر عارض)؛ وأنه لا تُرجى أي فائدة أبدًا من أقلية المتأملين، بل قد يتسببون في ضرر المجتمع الذي يتسامح حيالهم. من غير الضروري الإسهاب أكثر في الرؤية الكونية **Weltanschauung** الحديثة؛ إذ إنها بادية بوضوح أو ضمنيًّا في كل صفحة مخصصة للإعلانات في كل

جريدة أو مجلة. اخترت الاقتباس اللاحق من أجل توضيح النظريات الأقدم والأصدق والأقل ألفة للفلسفة الخالدة.

«العمل هو من أجل تنقية العقل، لا من أجل إدراك الحقيقة. يستجلب التمييز إدراك الحقيقة، ولن يأتي بها عشرة ملايين فعل على الإطلاق».

شانكارا.

«والآن، فإن الغاية الأخيرة لكل شيء هي تلك التي قصد إليها المؤلف الأول أو المحرك الأول لذلك الشيء؛ والمؤلف الأول والمحرك الأول هو عقل. يستتبع ذلك أن الغاية الأخيرة للكون يجب أن تكون صالح العقل؛ وصالح العقل هو الحق. لذلك يجب أن تكون الغاية الأخيرة للكون بأكمله هي الحق، ويجب أن يكون التفكير فيها الشغل الشاغل الرئيس للحكمة. ولهذا السبب فإن تجسد الحكمة الإلهية المكسو لحما أعلن أنه قد جاء إلى العالم كي يجعل الحق معروفًا... علاوة على ذلك، يُعرِّف أرسطو الفلسفة الأولى باعتبارها معرفة الحق، وهو ليس أي حق، لكنه ذلك الحق الذي هو مصدر كل حق، أي ذلك الذي يدل على المبدأ الأول لوجود كل الأشياء؛ لذلك فإن الحق الخاص به هو مبدأ كل حق، إذ إن نزعة الأشياء هي نفسها في الحق كما في الوجود».

القديس توما الأكويني.

«يمكن لشيء أن ينتمي إلى الحياة التأملية بطريقتين، إما جوهريًّا أو باعتباره عاملًا مُهيِّئًا... تنتمي الفضائل الأخلاقية للحياة التأملية؛ لأنها من العوامل المُهيِئة. إذ إن فعل التأمل -الذي تكمن فيه الحياة التأملية- يُعوِّقه كل من طيش الهوى والاضطرابات الخارجية. تكبح الفضائل الأخلاقية

طيش الهوى وتخمد الاضطرابات الناجمة عن الانشغالات الخارجية. وهكذا تنتمي الفضائل الأخلاقية إلى الحياة التأملية باعتبارها عاملًا مُهيِّئًا».

القديس توما الأكويني.

«على الرغم من أن هذه الأعمال (أعمال الرحمة) ليست إلا أعمالًا فاعلة، إلا أنها مع ذلك تساعد بصورة كبيرة جدًّا، وتجهز إنسانًا في المستهل من أجل أن يبلغ التأمل فيما بعد».

والتر هيلتون.

في البوذية كما في الفيدانتا وفي المسيحية كلها عدا صورها الأكثر حداثة، الفعل الصالح هو الوسيلة التي يتجهز بها العقل من أجل التأمل. الأفرع السبعة الأولى للمسار الثماني هي تجهيز أخلاقي فاعل من أجل المعرفة الاتحادية بالهكذائية. يمكن فقط لأولئك الذين يمارسون باستمرار الأفعال الفاضلة الأربعة التي تتضمن كل الفضائل الأخرى –وهي تحديدًا مقابلة الكراهية بالحب، والتسليم، و«اللا مبالاة المقدسة» أو انعدام الرغبة، وطاعة الدارما أو طبيعة الأشياء– أن يأملوا في تحقيق الإدراك المُحرِّر، إدراك أن السامسارا والنيرفانا شيءٌ واحدٌ وأن المبدأ الحياتي للنفس ولكل الموجودات الأخرى هو النور الجلي أو رحم بوذا.

من الطبيعي تمامًا الآن أن يطرح سؤال نفسه: مَن الذي يُدعى إلى أسمى أشكال التضرع، ألا وهو التأمل؟ الإجابة واضحة بشكل لا لبس فيه. الكل مدعوٌّ إلى التأمل؛ لأن الكل مدعوٌّ إلى تحقيق الخلاص، والذي هو المعرفة التي تُوَحِّد العارف بما يُعرف، ألا وهو الأصل الأزلي

للربوبية. من المحتمل أن ينكر الشراح الشرقيون للفلسفة الخالدة أن الكل مدعوٌّ هنا والآن في هذه الحياة على وجه الخصوص، سوف يقولون: قد يكون من المستحيل لفرد ما تحقيق ما هو أكثر من خلاص جزئي، على شاكلة بقاء الشخص في «فردوس» من نوع ما، ومنه إما يتقدم صوب تحرر كامل وإما يعود إلى تلك الظروف المادية، التي يتفق معلمو الحياة الروحية جميعهم على أنها مواتية في تفرد من أجل أداء امتحان العقل الكوني الذي يؤدي إلى التنوير. أما المسيحية التقليدية فتنكر أن في إمكان النفس الفردية التجسد أكثر من مرة، أو أن في مقدورها إحراز أي تقدم في وجود ما بعد الموت. إذا ذهبت للجحيم تبقى هناك. إذا ذهبت للمطهر، فإنها بالكاد تكفر عن أفعال الماضي الشريرة كي تصبح قادرة على الرؤية السعيدة. وإذا وصلت إلى الفردوس، فإن لديها من الرؤية السعيدة قدرًا كبيرًا؛ إذ جعلها سلوكها خلال حياتها الموجزة على الأرض قادرة عليها، وهو القدر الذي سوف تمتلكه إلى الأبد، ولا أكثر. يستتبع الإقرار بهذه المسلمات أن الكل مدعوٌّ إلى التأمل، الكل مدعوٌّ إليه وفق موضعه الخاص من هيراركية الوجود، حيث تعاونت الطبيعة والتنشئة والإرادة الحرة والنعمة على عزو هذا المكان إليه. يقول أحد اللاهوتيين البارزين المعاصرين، الأب جاريجو لاجرانج: «تستقبل النفوس جميعها دعوة عامة قصية إلى الحياة الصوفية، وإذا كانت تلك النفوس مخلصة في اجتناب، لا الذنوب المهلكة فقط بل التافهة كذلك -وهو ما ينبغي أن تكون عليه النفوس- وإذا كانت منصاعة للروح القدس -كل وفق حاله- وإذا عاشت طويلًا كفاية، فإنه سوف يأتي اليوم الذي تستقبل فيه فرصة اقتراب فعالة من الكمال السامي والحياة الروحية».

ومن ثم نجد أن الاعتبارات اللاحقة تبرر هذا المنظور - أن حياة التأمل الصوفي هي التطور الطبيعي والصحيح «للحياة الباطنية» للاستغراق في الرب والتكريس له. أول هذه الاعتبارات أن المبدأ الخاص بالحياتين هو نفسه. ثانيًا- تجد الحياة الباطنية اكتمالها في حياة التأمل الصوفي فقط. ثالثًا- غاية كل منهما هو نفسه، ألا وهو الحياة الأزلية؛ علاوة على ذلك، تجهز حياة التأمل الصوفي بصورة فورية وكاملة لتلك الغاية.

يوجد القليل من المتأملين؛ لأن القليل من النفوس متواضعة بصورة كاملة».

التأسي بالمسيح.

لا يحتفظ الرب بهذه الفرصة الجليلة (فرصة التأمل الصوفي) لأنفس معينة فقط؛ على العكس من ذلك، يريد الرب أن يقتنص الجميع تلك الفرصة. لكنه يجد القليلين ممن سمحوا له بترتيب تلك الأمور العظيمة من أجلهم. هناك الكثيرون ممن تملصوا من العمل والجهد ورفضوا قبول القحط والإماتة بدلًا من أن يُسلِّموا في صبر تام، كما كان يجب أن يفعلوا».

القديس يوحنا الصليب.

يبدو أن هذا التشديد على دعوة الجميع إلى التأمل تتعارض مع ما نعرفه عن تنوعات الطبع الفطرية ومع المعتقد الذاهب إلى وجود ثلاثة طرق رئيسة للتحرر - طريق الأعمال وطريق التكريس بالإضافة إلى طريق المعرفة. لكن التعارض يبدو بارزًا أكثر مما هو في الواقع. لو كان طريقا التكريس والأعمال يقودان إلى التحرر؛ فذلك لأنهما يقودان إلى طريق المعرفة. إذ إن الخلاص الكامل لا يأتي إلا عبر المعرفة الاتحادية.

النفس التي لا تمضي من طريقي التكريس والأعمال إلى طريق المعرفة لا تحصل على خلاص كامل؛ بل تحقق في أفضل الأحوال خلاصًا غير كامل في «الفردوس». نصل الآن إلى سؤال الطبع، نجد في الواقع أن أفرادًا معينين مجبولين على وضع يقينهم العقائدي والعملي في اتجاه واحد معين، وأفرادًا آخرين مجبولين على وضعه في اتجاه آخر مغاير. هناك مَن وُلِدوا مكرسين ومَن وُلِدوا عاملين فاعلين ومَن وُلِدوا متأملين، وليس من الصحيح أبدًا أن أولئك المتطرفين تمامًا في طباعهم وواقعين على آخر حدود طيف الصفة قادرون على استغلال طرق أخرى بخلاف ذلك الذي جُبِلوا عليه طبيعيًّا. لو توافرت الدرجة المطلوبة من الطاعة لإرشادات النور، فإن المولودين متأملين يستطيعون أن يتعلموا تنقية القلوب بالعمل وتوجيه العقول نحو تبجيل أحادي المركز؛ والمولودين مكرسين والمولودين عاملين فاعلين يستطيعون أن يتعلموا طاعة الأمر أن «كفُّوا واعلموا أني أنا الله» لا حاجة بأحد أن يكون ضحية إمكانياته الخاصة. سواء كان ما مُنحنا إياه قليلًا أم كثيرًا، من هذه الصفات أو من تلك، فقد وُهِب لنا كي نستعمله من أجل اكتساب غاية واحدة عظيمة. لدينا القدرة على اختيار ما إذا كنا لنستخدم ما مُنحنا إياه على نحو جيد أم سيء - نسلك السبيل الأسهل والأسوأ أم الأصعب والأفضل.

«يستطيع أولئك الأكثر تكيفًا مع حياة الفعل أن يعدوا أنفسهم من أجل التأمل في ممارسات حياة الفعل، أما أولئك الأكثر تكيفًا مع حياة التأمل فيستطيعون أن يأخذوا على عاتقهم أعمال حياة الفعل من أجل أن يصبحوا أجدر بالتأمل».

القديس توما الأكويني.

«يضع قوي الإيمان ضعيف الفهم ثقته بشكل عام في أناس لا يستحقون، كما يؤمن بأمور خاطئة. أما ضعيف الإيمان قوي الفهم فيميل إلى الوضاعة وهو صعب العلاج، مثله كمثل داء سببه الدواء. يؤمن مَن كان إيمانه وفهمه متساويين بالأمر الصحيح.

«يتغلب الكسل على قوي التركيز ضعيف الطاقة؛ إذ إن التركيز يسهم في طبيعة الكسل. أما قوي الطاقة ضعيف التركيز فتتغلب عليه المشتتات؛ إذ إن الطاقة تسهم في طبيعة التشتت. لذلك ينبغي أن يُجعلا متساويين؛ إذ إنه من تساوي الاثنين يأتي التأمل والوحدة...

«ينبغي أن تكون اليقظة قوية في كل منحى؛ إذ إن اليقظة تحفظ العقل بعيدًا عن المشتتات، التي قد يسقط فيها؛ إذ إن الإيمان والطاقة والفهم تسهم في طبيعة التشتت: كما تحفظ اليقظة العقل بعيدًا عن الكسل، الذي قد يسقط فيه، إذ إن التركيز يسهم في طبيعة الكسل».

بوذاغوسا[١].

ببلوغنا هذه النقطة أجد أن الأمر يستحق الإشارة إلى أن الرب بلا أي شك هو الهدف الوحيد المحتمل لأي تأمل. كان هناك العديد من المتأملين الفلسفيين والجماليين والعلميين ولا يزالون موجودين. إلا أن التركيز أحادي البؤرة على ما هو دون ذلك الأسمى قد يصبح شكلًا خطيرًا من أشكال الوثنية. كتب داروين في خطاب إلى هوكر[٢]: «لا محالة هو شر لعين أن يصبح أحدهم مستغرقًا للغاية في أي موضوع، كما أستغرق

---

(١) بوذاغوسا: فيلسوف ومترجم هندي بوذي من القرن الخامس.

(٢) سير جوزيف دالتون هوكر (١٨١٧ - ١٩١١): أحد أعظم علماء النبات والمستكشفين في القرن التاسع عشر، وأحد أقرب الأصدقاء إلى داروين.

في موضوعي». هو شر؛ لأن مثل هذا التركيز أحادي البؤرة قد يؤدي إلى ضمور كامل نوعًا ما لكل العقل فيما عدا جزء واحد. لقد سجل داروين نفسه ذلك، ففي أواخر حياته لم يعد قادرًا على الاستمتاع بالشِّعر أو الفن أو الدين ولو بقدر ضئيل. قد ينضج الإنسان على المستوى المهني تمامًا في علاقته بتخصصه الذي اختاره. وقد لا يعدو كونه رضيعًا بالكاد على المستوى الروحي، وأحيانًا على المستوى الأخلاقي كذلك في علاقته بالله وإخوانه.

قد تتعرض كذلك إمكانات العقل غير الموظفة إلى خطر الضمور في حالات التأمل أحادي البؤرة لله. كان نساك التبت وطيبة أحاديي البؤرة بالتأكيد، لكنها أحادية تتميز بالإقصاء والبتر. مع ذلك، ربما لو كانوا «أكثر انصياعًا للروح القدس» بالفعل، لكانوا وصلوا إلى فهم أن أحادية الإقصاء، هي في أفضل الأحوال تجهيز لأحادية التضمين - إدراك الرب في كماله في الموجودات الكونية، وكذلك في الأعالي الداخلية للنفس الفردانية. مثلما يعود حكيم الطاوية في النهاية إلى العالم، معتمدًا على فرديته المُروضَّة والمُهتديَّة؛ «جاء يأكل ويشرب»[١]، يرافق «العشارين والخطاة»[٢]أو نظراءهم البوذيين و«شاربي الخمر ومتلفي أجسادهم»[٣]؛ إذ إن السامسارا والنيرفانا، الزمن والأزل، الظاهري والحقيقي كلها بالضرورة واحد بالنسبة إلى المستنير استنارة كاملة. حياته بأكملها تأمل لا يغفل أحادي البؤرة مركزه الربوبية في أشياء

---

(١) إنجيل متى ١١ : ١٩.

(٢) إنجيل متى ١١ : ١٩.

(٣) سفر الأمثال ٢٣ : ٢٠.

وحيوات وعقول وأحداث عالم الصيرورة وخلالها. لا بتر هنا يصيب النفس ولا ضمور لأي من قواها أو إمكاناتها. بدلًا من ذلك، هناك تعزيز عام وتقوية للوعي وفي الوقت نفسه توسعة وتحول. لم يَشْكُ قديس يومًا من أن الانغماس في الرب «شر لعين».

«في البدء كان الكلمة[١]؛ انظر إليه، استمعت إليه مريم. والكلمة صار جسدًا[٢]؛ انظر إليه؛ خدمته مرثا».

القديس أوغسطينوس.

«يمتصنا الرب بداخله أثناء التأمل، ومن ثم نصبح ملكه تمامًا بالتأكيد؛ لكن بعد ذلك تزفرنا روح الرب إلى الخارج، من أجل ممارسة الحب والأعمال الصالحة».

رويسبرويك.

يقول الأكويني: «يجب أن يكون الفعل شيئًا يُضاف إلى حياة التضرع، لا شيئًا يُبعد عنها». أحد أسباب هذه التوصية نفعي تمامًا؛ الفعل الذي «يُبعد عن حياة التضرع» هو فعل لم يستَنِر باتصاله بالحقيقة وغير مُلهَم وغير رشيد؛ يترتب على ذلك أن يصبح أميلَ إلى عدم تحقيق فائدة بل قد يكون ضارًّا. يقول جوانغ زي: «يحصل شيوخ الحكماء على الطاو من أجل أنفسهم أولًا، ثم يحصلون عليه من أجل الآخرين». لا يمكن إخراج القذى من أعين الآخرين، طالما كانت الخشبة في أعيننا تمنعنا من رؤية الشمس الإلهية والعمل بنورها. يسأل القديس يوحنا متحدثًا

---

(١) إنجيل يوحنا ١ : ١.

(٢) إنجيل يوحنا ١ : ١٤.

عن أولئك الذين يفضلون الفعل الفوري عن اكتساب القدرة على الفعل الجيد من خلال التأمل: «ما الذي حققوه؟» ويجيب، **Poco mas que nada, y a veces nada, y aun a veces dano** (أكثر قليلًا من لا شيء، وأحيانًا لا شيء على الإطلاق، وأحيانًا ضررًا). يجب أن يُوازِن الدخل الإنفاق. هذا أمر ضروري، لا على المستوى الاقتصادي فقط، بل على المستوى الفسيولوجي والفكري والأخلاقي والروحي كذلك. لا يمكننا بذل طاقة جسدية ما لم نزود أجسادنا بالطاقة في صورة طعام. لا يمكننا أن نأمل في النطق بما يستحق، ما لم نقرأ ونهضم أفضل الأقوال داخليا. لا يمكننا التصرف بالشكل الصحيح والفعال ما لم نعتد انفتاح نفوسنا لتوجيهات الطبيعة الإلهية للأشياء. علينا سحب بضائع الأزل إلى الداخل كي نصبح قادرين على توزيع بضائع الزمن. لكن من غير الممكن الحصول على بضائع الأزل إلا عن طريق التخلي عن القليل من زمننا على الأقل من أجل انتظارها في صمت. هذا يعني أن الحياة التي يتوازن فيها الإنفاق الأخلاقي مع الدخل الروحي يجب أن تكون حياة، يتبادل فيها الفعل مع الاستكانة، الحديث مع الصمت السلبي في انتباه. **Otium sanctum quaerit caritas veritatis; negotium justum suscipit necessitas caritatis** (يسعى حب الحقيقة إلى وقت فراغ مقدس؛ تباشر الحاجة إلى الحب بالفعل الصالح). أجساد البشر والحيوانات محركات تبادلية، يعقب التوتر فيها الاسترخاء. حتى القلب الذي لا يغفل يرتاح بين الدقة والدقة. لا شيء في الطبيعة الحية ولو من بعيد يشبه اختراع الإنسان التقني الأعظم، ألا وهو العجلة التي تدور باستمرار. (لا شك أن هذه الحقيقة هي التي تفسر الملل والضجر

والخمول الذي يصيب الذين يُجبرون على تكييف حركاتهم الجسدية والعقلية مع الحركات الدائرية ذات السرعة الميكانيكية الثابتة.) يقول إكهرت: «ما يأخذه الواحد إلى الداخل عن طريق التأمل، يصبه في الخارج في صورة حب». معتنقو المذهب الإنساني حسنو النية والمنتمون إلى العضلات المسيحية[١] -الذين يتصورون أنهم يستطيعون طاعة الوصية العظمى الثانية[٢] من دون أن يأخذوا وقتًا ليفكروا كيف يمكنهم أن يحبوا الرب على النحو الأفضل من كل قلوبهم وكل نفوسهم وكل فكرهم- هم أناس متورطون في المهمة المستحيلة للصب الذي لا يتوقف من خزان لا يُزوَّد أبدًا.

«ينبغي على بنات المحبة[٣] أن يحبوا الصلاة كما يحب الجسد النفس. وتمامًا كما لا يستطيع الجسد العيش من دون نفس، كذلك النفس لا تستطيع العيش من دون صلاة. وبقدر ما تصلي البنت كما ينبغي أن تصلي، سوف تكون بخير. لن تمشي، بل سوف تهرول في سبل الرب، وسوف تُرفع إلى درجة عالية في محبة الرب».

فنسنت باول[٤].

---

(١) العضلات المسيحية: حركة فلسفية نشأت في إنجلترا في منتصف القرن التاسع عشر، وهي حركة قومية دعت إلى التقوى وتنمية الجسد والصحة والرجولة.

(٢) الوصية العظمى الأولى كما وردت على لسان يسوع في إنجيل متى ٢٢ هي: «تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك». والوصية الثانية: «تحب قريبك كنفسك».

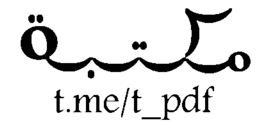
(٣) بنات المحبة: هي جمعية للحياة الرسولية للنساء داخل الكنيسة الكاثوليكية، تأسست في فرنسا عام ١٦٣٣.

(٤) فنسنت باول (١٥٨١ - ١٦٦٠): قس كاثوليكي فرنسي، ومؤسس جمعية بنات المحبة.

«لقد تمتعت المساكن والمدن والبلدان والأمم بسعادة طاغية عندما أولى فرد منفرد عنايته للخير والجمال... مثل هؤلاء البشر لا يحررون أنفسهم فقط، بل يملؤون مَن يقابلونهم بفكر حر».

فيلو.

عبَّر الغزالي عن وجهات نظر مشابهة، اعتبر الغزالي التصوف، لا ذروة مصادر معرفتنا بالنفس وإمكاناتها ونقائصها فقط، بل الملح الذي يحفظ المجتمعات الإنسانية من التفسخ. كتب: «ولقد كان في عصرهم (الفلاسفة)، بل في كل عصر، جماعة من المتأهلين، لا يُخلي اللهُ -سبحانه- العالمَ عنهم، فإنهم أوتاد الأرض». إنهم مَن يُفنون أنفسهم، ينالون كشفًا متواصلًا، وبذلك يتحولون إلى قناة وسيطة تعبر منها نفحات النعمة الإلهية إلى أولئك الذين تجعلهم طبيعتهم الضالة أجلافًا إزاء اللمسات الناعمة للروح.



* * *

الفلسفة الخالدة

من النادر أن تجتمع الجزالة الأدبية مع الفلسفة، لذا نحن أمام كتاب شديد التميز، كتاب في الفلسفة لكن مقاربته تكاد تكون شعرية.
ولِمَ لا؟! وقد كتبه ألدوس هكسلي، أحد أهم أدباء القرن العشرين وصاحب الرؤى النافذة التي تنطق بها سطور رواياته وإبداعاته وأعماله الفكرية أيضا.

ولِمَ لا؟ وموضوع الكتاب هو الفلسفة الخالدة، الأصل الواحد والمحرك الأول الذي جاء منه كل وجود، يحاول هذا الموضوع أن يصف في كثير من الأحيان خبرة، يكاد يكون من المستحيل نقلها، لذا على العبارة أن تلجأ إلى المجاز وأن تبذل قصارى جهدها كي تتزين وتتجمل وترقى وتسمو.

أراد هكسلي من هذا الكتاب أن يكون أنطولوجيا (مبحث وجود) الفلسفة الخالدة، لذا نجده يقتبس من مقولات جل التقاليد الدينية في كل زمان ومكان، صنَّف تلك المقولات تحت عناوين فصوله، من أجل أن يشرح أغلب أبعاد هذه الفلسفة الخالدة التي نجدها في قلوب المؤمنين والمتصوفة، تلك الفلسفة التي تؤمن أن كل الأديان قد نشأت من جوهر واحد وإن تعددت التجليات.

يعد هذا الكتاب صرخة في وجه المادية الحالية للعالم، تلك المادية التي شوشت على الإنسان حواسه وأورثته العذاب والضيق والألم والبؤس، تلك المادية التي وعدت بيوتوبيات لم تتحقق أبدا. هذا الكتاب هو محاولة لمساعدة الإنسان المعاصر من أجل فهم حقيقة نفسه والعالم واستعادة الروحانية واستيعاب الحقيقة وحثه على محاولة تمثلها في خبرته الشخصية.


ISBN 978-977-765-305-3

